

سلسلة إرسائل لعامة المهوى بطبعها
" ٧ "



المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي
مكة المكرمة

الحياة العامة في عصر الخلافة في الأندلس (٣١٦ هـ - ٤٢٢ هـ / ٩٢٨ م - ١٠٣٠ م)

تأليف

د . سعد عبد الله صالح البشري

١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م

سلسلة الرسائل العلمية لموسى بطبعها
" ٧ "



المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي
مكة المكرمة

الحياة العلمية في عصر الخلافة في الأندلس (٣١٦ هـ - ٤٢٢ هـ / ٩٢٨ م - ١٠٣٠ م)

تأليف

د . سعد عبد الله صالح البشري

١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م

٣) معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي ١٤١٥ هـ .

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر .

البشري ، سعد عبد الله

الحياة العلمية في عصر الخلافة في الأندلس .

٤٦٤ ص : ١٧ × ٢٤ سم (أبحاث ودراسات إسلامية)

ردمك ٨ - ٠١٤ - ٠٣ - ٩٩٦٠

ردمك ٣٧١٦ - ١٣١٩

١ - الحضارة الإسلامية - الأندلس ٢ - الأندلس - تاريخ - عصر الموحدين

أ - العنوان ب - السلسلة

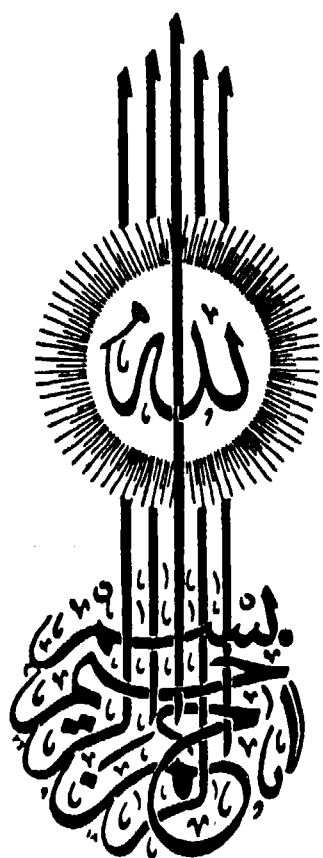
١٥ / ١٧٣٠

ديوي ٩٥٣,٧١٤

رقم الإيداع : ١٥ / ١٧٣٠

ردمك ٨ - ٠١٤ - ٠٣ - ٩٩٦٠

ردمك : ٣٧١٦ - ١٣١٩



هذا العمل هو رسالة ماجستير في « الحياة العلمية في عصر
الخلافة في الأندلس » من جامعة أم القرى بمكة المكرمة
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية . قسم : التاريخ الإسلامي .
أوصت لجنة المناقشة بطبعها ..
وبالله التوفيق

شكر وتقدير

الحمد والشكر لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، ثم لأستاذي الفاضل
سعادة الدكتور أحمد السيد درّاج الذي تفضّل بالإشراف على إعداد هذه
الرسالة وبذل الكثير من الجهد في سبيل إخراج هذا العمل العلمي المتواضع ،
فكان أمدّ الله في عمره في اشرافه أباً مشفقاً واستاذاً موجهاً فله مني عظيم
الشكر وجميل العرفان .

كما وأتقدم بالشكر الجزيل إلى سعادة الدكتور محمد سعد الرشيد الذي
كان له أطيّب الأثر في ترسيخ العزم نحو استكمال دراستي العليا ، ولا يفوتني
أن أشيدَ بجهود كلِّ من : سعادة الدكتور عليان الحازمي وسعادة الدكتور علي
الحكمي ، والقائمين على مركز البحث العلمي وفي مقدمتهم سعادة الدكتور
ناصر سعد الرشيد ، لما بذلوه ويبدّلونه من جهودٍ موفقةٍ للرقى بالدراسات
الإسلامية والبحث العلمي .

وأخيراً أشكر كلَّ من مدّ لي يد العون والمساعدة لإنجاز هذا العمل ..
فلجميع من الله الثواب العظيم والأجر الجزيل ، والله ولي التوفيق ،،،

المقدمة :

« نطاق البحث وتحليل المصادر »

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه
أجمعين .

أما بعد .

فإن تاريخنا الإسلامي المجيد حافلٌ بالكثير من وجوه الإبداع الحضارى
والتي هي أحق ما يكون بالدراسة والبحث والتي من شأنها أن تضيء الكثير من
الزوايا المظلمة في تاريخ الحضارة الإسلامية ، فقد كان للمسلمين عبر تاريخهم
نشاط مشرف في ميادين الحضارة المختلفة وانبثق عن ذلك النشاط الكبير
كيان حضارى عظيم أسهم في تقدم البشرية نحو الأفضل .

وكان للأندلسيين في هذا النشاط سهمٌ وافرٌ وجهدٌ واضحٌ لا ينكر ، حيث
شهد القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى في الأندلس ازدهارا حضاريا
شاملا في كافة وجوه النشاط الإنسانى ومنها بطبيعة الحال الميدان العلمى .

والحق أن ميدان الحياة العلمية في الأندلس لم يحظ بالدراسة والبحث
الكافيين إذ انصرف الكثير من الباحثين إلى دراسة الأحوال السياسية في فترة
ما ، أو البحث في حقبة من تاريخ جهاد المسلمين مع النصارى ، أو الكتابة عن
عصر أمير أو خليفة ، وأكثر ما كُتِبَ عن الحياة العلمية والأدبية يتمثل فيما
أخرجه الباحثون من دراسات أدبية ، كالأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط
غرناطة لأحمد هيكل ، وتاريخ الأدب الأندلسي لإحسان عباس ، ودراسات في
الأدب الأندلسي لسامي العاني ، والأدب الأندلسي وموضوعاته وفنونه لمصطفى

الشكعة وفي الأدب الأندلسي لجودت الركابي ، وأدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث لبطرس البستاني إلى غير ذلك من الكتب المؤلفة في هذا الحقل .

ورغم هذا فقد قامت هناك بعض الدراسات حول الحضارة الأندلسية والبحث في وجوها المختلفة بوجه عام ، ككتاب حضارة العرب في الأندلس ليفي بروفنسال وكتاب الحضارة الإسلامية في الأندلس لعبد الرحمن الحجي ، وكتاب الإسلام في إسبانيا للطفي عبد البديع ، وكتاب تاريخ الفكر الأندلسي لأنخل جونتالت بالنثيا ، وهو جهدٌ مشكورٌ للمؤلف حيث أن كتابه المذكور يأتي في طليعة ما صُنِّفَ عن الحركة الفكرية في الأندلس ، وذلك رغم أن المؤلف قد أغفل الكثير من جوانب النشاط العلمي في الأندلس بالإضافة إلى أن محاولته من جعل الكتاب شاملاً لجوانب الحركة الفكرية من أول تاريخ المسلمين في الأندلس إلى زوال سلطانهم هناك أدت إلى عدم استيفاء الموضوع وإعطائه حقه من الدراسة .

كما خصص أحمد أمين الجزء الثالث من موسوعته : ظهر الإسلام عن الحياة العقلية في الأندلس بصورة عامة .

وبالإضافة إلى ما تقدم فقد قُدمت رسائل علمية تبحث في تاريخ الأندلس وحضارتها وما يهنا هنا ما يتقدم بالحياة العلمية ، فكان من بينها رسالة لنيل درجة الماجستير حول الحياة العلمية في بلنسية منذ الفتح سنة ٩٢هـ إلى سنة ٤٩٠هـ إعداد : كريم عجيل حسين .

ويتضح من عنوانها أن الدراسة منصبة على مدينة بلنسية فقط وما قدمه علماءها من جهود علمية ، وهذا بلا شك خطوة جيدة ولكنها مقصورة على منطقة محدودة من الأندلس .

كما أعد محمود علي مكي رسالةً علميةً للحصول على درجة الدكتوراه حول التيارات الثقافية بين الأندلس والمشرق وأثرها في الحركة العلمية في الأندلس .

وقدّم الزميل يوسف حواله للحصول على الماجستير في التاريخ الإسلامي رسالة عن بني عباد في أشبيلية ، وقد خصص الباب الأخير من أبوابها عن التطور الحضارى في أشبيلية في القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى وقد تناول فيه الحركة العلمية النشطة آنذاك .

ويبدو مما تقدم أن ميدان الحياة العلمية في الأندلس لم يستوفِ حقّه من البحث والدراسة ، ولذلك اتجه اهتمام الباحثين إلي دراسته على النحو الذى أوضحته .

ولما كان لميول الباحث أثر في تقرير ما سوف يقوم به من دراسات علمية ، فقد كنت في دراستي للتاريخ الإسلامي أميل إلى ما يختص منه بالأندلس ذلك القطر العزيز على نفس كل مسلم يكنّ لتاريخ أُمته كل ولاء وتقدير .

وقد انصبت اهتماماتي على ما يختص بالحياة العلمية والنشاط العلمي الذى برع فيه الأندلسيون وأبدعوا في مجالاته المختلفة ، وكثيرا ما الفت نظرى الأعداد الهائلة من علماء الأندلس الذين تضمهم كتب التراجم فحفظت سيرهم وجهودهم العلمية ، ولو كان ذلك على بوجه الاقتضاب والإيجاز .

ونظراً لأنّ ميدان العلم هو الوجه المشرق للحضارة الإسلامية في الأندلس ، وبه تجلّى فضلهم وإبداعهم ، وكانوا به في موقف العطاء والبذل والمشاركة في بناء الحضارة الإنسانية ، لهذا كله فقد تعمقت الرغبة ورسخ الميل في النفس نحو البحث والدراسة في هذا الحقل الحضارى المهم والذى لم يلق من العناية والاهتمام حتى الآن ما يساوى أهميته وعظم شأنه في النشاط الحضارى للأندلس .

وبعد الاطلاع على سِير الحركة العلمية في الأندلس منذ دخول المسلمين إليها وحتى القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى ، لوحظ أن الازدهار الحقيقي للعلوم والآداب كان في عصر الخلافة يستغرق القرن الرابع الهجرى تقريباً ، ففيه بلغ الأندلسيون درجةً وافيةً من التطور الحضارى والازدهار العلمى ، وأثبتوا فيه قدراتهم العلمية المتفوقة .

وبناء على ما تقدم فقد كان عصر الخلافة هو محور الدراسة في هذا البحث والذي امتد منذ إعلان عبد الرحمن الناصر الخلافة سنة ٣١٦هـ / ٩٢٨م - وحتى سنة ٤٢٢هـ / ١٠٣٠م .

والحق أن مثل هذه الدراسات المتعلقة بالحضارة هي من أشق ما يتعرض له الباحث ، وذلك عائدُ إلى ندرة المادة العلمية المتصلة بموضوعه ، فإن موضوعاً كموضوع الحياة العلمية في عصر الخلافة يكاد يستند في معلوماته إلى كتب التراجم والطبقات ، وكما هو معلوم فإن هذه الكتب تضم المئات بل الآلاف من التراجم لعلماء الأندلس في مختلف العصور ، وهذا بلا شك يجعل الباحث أكثر دقة في تتبع سير العلماء الذين عاصروا الفترة التي ينوى دراستها ، وذلك لا يتم إلا بمعرفة تاريخ ميلاد ووفاة كل منهم وارتباطهما بذلك العصر ، كما أن كتب التراجم الأندلسية إلى جانب ما تتصف به من إيجاز في الكثير من التراجم تكاد تكون مادتها العلمية منصبة على علماء الدين وعدد من علماء اللغة وأهل الأدب مما دعى الباحث إلى التنقيب عن جهود العلماء الآخرين في فروع العلم الأخرى من رياضيات وفلك وطب وكيمياء وتاريخ وجغرافيا في كتب الطبقات المختصة بكل منهم .

وكان للمنهج الذى سار عليه أغلب المؤرخين المسلمين - من التركيز في كتاباتهم على الجانب السياسى والعسكرى - أثر في ندوة الكتابة عن وجوه النشاط الحضارى ومن بينها النشاط العلمى الذى لا نكاد نجد من بين مصادر التاريخ الأندلسى مصدراً سخياً في هذا الميدان اللهم إلا مانجده في كتب الطبقات التى ترجمت لأهل العلم في عصور معينة وليست شاملة للتاريخ الأندلسى جميعه .

ونظراً للأعداد الهائلة من العلماء الذين عاشوا في عصر الخلافة ، وكان لهم شأن في حقول المعرفة المختلفة فقد حاولت أن اختار أبرزهم وأكثرهم تأثيراً في الحركة العلمية بما قدموه من جهود موفقة في مختلف أبواب المعرفة .

وكان للإعتماد الأكبر على كتب التراجم أثر في محاولة الخروج على ظاهرة الترجمة المحدودة للعالم إلى رسم الصورة العامة للحياة العلمية بجوانبها المختلفة وهي بلا شك محاولة تحتاج إلى دراسة عميقة لنصوص التراجم وتستند في تحقيق نتائجها إلى عناصر التحليل والاستنتاج والاستنباط ، وقد حاولت ذلك قدر الاستطاعة .

وفيما يتعلق بالبحث فقد كان لطبيعة المادة العلمية وتوفرها أثر في تشكيل خطة البحث . وقد رأيت أن يُصدرَ البحث بتمهيد عن الحياة العلمية في عصر الإمارة وذلك لتتضح الرؤية عن حقيقة ماسبق عصر الخلافة من نشاط علمي ومدى قيمته كنواة طيبة لما تم بعد . وكان الحديث عن الحياة العلمية واللغة . والتاريخ والجغرافيا ، والعلوم التجريبية .

وبعد هذا التمهيد نأتي إلى موضوع الحياة العلمية في عصر الخلافة
وينقسم إلى قسمين :

القسم الأول : دراسة لأهم مظاهر النشاط العلمي في عصر الخلافة .

القسم الثاني : نشاط العلوم والآداب في عصر الخلافة .

فالقسم الأول يتفرع إلى أربعة فصول وهي مايلي :

الفصل الأول : ويتعلق باهتمام الخلفاء بالحركة العلمية ، ومدى ما
أسهموا به في دفع عجلة العلم ، والعمل على ازدهار الحركة العلمية ، وهذا
الفصل يتفرع - إلى أربع نقاط . الأولى تتصل بالخليفة عبد الرحمن الناصر
وكيف أن عهده يمثل الخطوة الأولى نحو قيام النهضة العلمية بما كان يتسم به
من رخاء واستقرار انصرف فيه الناس نحو تحصيل العلوم والآداب .

والنقطة الثانية : تتصل بالخليفة العالم (الحكم المستنصر) والذي . يعدُّ عهده
بحق العمود الفقري للازدهار العلمي في عصر الخلافة لما اتصف به الحكم
المستنصر - من حب للعلم وإكرام للعلماء وما سعى إليه من وسائل مهمة
للنهوض العلمي في بلده . أما النقطة الثالثة : فتتعلق بعصر (هشام المؤيد)
ويكون الحديث فيها عن شخصية المنصور بن أبي عامر باعتباره صاحب الأمر
حقيقة ومدى ما أسهم به في نشاط الحركة العلمية ، ثم عن ابنه المظفر عبد الملك
وحفاظه على جهود أبيه في رفع شأن العلم والعلماء .

وأما النقطة الرابعة : فعن قيام الفتنة وسقوط الخلافة وأثر ذلك على الحركة
العلمية .

أما الفصل الثاني : فعن الرحلات العلمية وأثرها في النهضة العلمية في الأندلس ويتشعب هذا الفصل إلى نقاط ثلاث ، أولها ارتحال علماء الأندلس إلى المشرق في طلب العلم ، وكيف أن الأندلسيين كانوا يحملون في أذهانهم أجل صورة عن المشرق ، وحرصهم التام على الرحيل إلى هنالك للقاء العلماء والشيوخ ، وثاني النقاط عن نتائج الرحلات العلمية للأندلسيين إلى المشرق - وماذا جناه الأندلسيون من ذلك ، وثالث النقاط : عن بروز الشخصية العلمية الأندلسية في عصر الخلافة وكيف أن الأندلسيين قبل ذلك كانوا يدورون في دائرة التقليد لإخوانهم من المشاركة ثم مالبتوا بعد فترة من الزمن وكان ذلك في عصر الخلافة أن انطلقوا يبنون لهم كياناً علمياً عن شخصيتهم العلمية المستقلة وابداعهم الحضاري .

أما الفصل الثالث : فعن الكتب والمكتبات في الأندلس ، ويتفرع إلى ثلاث نقاط :

الأولى : عناية الأندلسيين بالكتب ، وكيف أنهم تميزوا بحبهم الشديد للكتب وتصانيف العلم حتى أن الأميين منهم كانوا يجارون العلماء في اتخاذهم المكتبات داخل دورهم .

الثانية : اهتمام الأندلسيين بجمع الكتب وإنشاء المكتبات ، وفيه يتعرض البحث إلى أبرز من عُرِفَ عنه جمع الكتب وإنشاء المكتبات ، وقد بدأت - بالخليفة الحكم المستنصر باعتباره أشهر من عرف عنه ذلك .

الثالثة : حرفة الوراقة في الأندلس وأثرها في النشاط العلمي ، وقد صدرت الحديث عن ذلك بظهور صناعة الورق في الأندلس وبراعة الأندلسيين من أهل شاطبه في ذلك ، ثم تحدثت ، عن دور الوراقين في ازدهار الحركة

العلمية ، وكيف أن هذه الفئة من المسلمين قد اسهمت في نشاط العلوم والآداب ونهضة العلم بشكل كبير وملحوس .

وأما الفصل الرابع : فعن ازدهار التعليم في الأندلس ، ويتفرع إلى نقاط ثلاث :

الأولى : مراكز التعليم في الأندلس ، وكيف أن الأندلسيين كانوا يتلقون علومهم في المساجد والجوامع ، وعلى وجه التخصيص جامع قرطبة وجامع الزهراء .

الثانية : طريقة التعليم عند الأندلسيين ، ومنها يتضح ما أولاه الأندلسيون لهذه الناحية من الإهتمام .

الثالثة : عناية الخلفاء بالتعليم ، وفيها يبرز دور الحكم المستنصر في تشجيع الناس على طلب العلم وتوفير وسائله بالمجان لمن لا يستطيع تحمل نفقات الدراسة ومدى تأثير ذلك على الرعاية التي سارعت إلى العلم والمعرفة .

أما القسم الثاني من الرسالة فينقسم إلى أربعة فصول :

الفصل الأول ، وكان الحديث فيه عن العلوم الدينية والذي يتشعب بحسب ما تضمنه إلى أربع نقاط ، الأولى : [الفقه] ومدى اسهام الأندلسيين في ازدهار الدراسات الفقهية ، ونبوغ الكثير منهم في ذلك وما قدموه من انتاج علمي نفيس .

الثانية : [الحديث] ونشاط الكثير من الأندلسيين في ذلك وبروز - أعداد كبيرة منهم في دراسة الحديث وما صنّفوه في ذلك .

الثالثة : [علوم القرآن] : وازدهارها فيما يتعلق بالقراءات - والتفسير . وقد حقق الأندلسيون في القراءات نتائج علمية كبيرة حتى عرف عن الأندلسيين

أنهم أصحاب القدر المعلى في القراءات فخرج من بينهم علماء لا يزال يحتل بعضهم منزلة رفيعة بين المسلمين .

وكذلك في التفسير أظهر الأندلسيون نبوغا كبيرا فكان لهم في ذلك العلم إنتاج علمي نفيس .

الرابعة : وكان الحديث فيها عن علم الكلام وموقف الأندلسيين منه ، وقد بينت كيف أنهم بما اتصفوا به من التزام بمذهبهم المالكي كانوا أشد بغضا لأصحاب الكلام ومن يخرج على السنة المطهرة .

والفصل الثاني عن الأدب والنحو وعلوم اللغة ، ويتشعب إلى نقطتين : الأولى : عن الأدب وهو بدوره ينقسم إلى نثر وشعر . والنثر يشمل النثر الفني وهو أسلوب الرسائل الديوانية والخوانيات والوصايا .

والنثر الأدبي يقصد به الأدب التأليفي أي تأليف كتب أدب بمفهوم القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي .

وقد أشرت في ذلك إلى جهود الأندلسيين ومقدار ما أسهموا به من إنتاج علمي رائع لا يزال بعضه يشهد لهم بالقدر العلمي الكبير .

وفي الشعر نبغ الكثير من الأندلسيين ، وقد أشرت إلى أبرزهم في ذلك .

الثانية : وتتعلق بالنحو وعلوم اللغة ، وكيف أن الأندلسيين حققوا في ذلك نتائج علمية كبيرة ، فكانت لهم تصانيف قيمة لا يزال بعضها يحتل مكانة رفيعة بين كتب النحو واللغة .

وأما الفصل الثالث فعن العلوم الإنسانية . ويتفرع هذا الفصل إلى

ثلاث نقاط :

الأولى : عن التاريخ وأهميته لدى الأندلسيين وحرصهم على تخليد مآثر بلدهم ، وأبرز من ظهر في ميدان التاريخ مع الإشارة إلى نتائجه العلمي .

الثانية : عن الجغرافيا وكيف أنها قد ارتبطت لدى مؤرخي الأندلس بالتاريخ ، وأنهم كانوا يصدرّون كتاباتهم التاريخية بمقدمة جغرافية ، وقد أشرت إلى أبرزهم مع الحديث عن تصانيفهم في ذلك ، هذا بالإضافة إلى الرحلات الجغرافية وما قام به الأندلسيون في ذلك .

الثالثة : عن الفلسفة ، وفيها تحدثت عن بداية الاشتغال بها وسبب ضعف الدراسات المتعلقة بها ، ثم ماكان للرحلات العلمية إلى المشرق من تأثير في ظهور بعض المشتغلين بها ، وكيف أنه كان للخلفاء أثر في ازدهارها ثم ما أعقب ذلك من اضعاف الاشتغال بها على يد المنصور بن ابي عامر ، ومكانه ابن حزم الأندلسي في ميدان الفلسفة ومناقشة « نظرية المعرفة » .

والفصل الرابع : يتضمن الحديث عن العلوم التجريبية ، ويتشعب هذا الفصل إلى ثلاث نقاط .

الأولى : تتصل بالرياضيات والفلك ، وفيه تطرقت إلى الحديث عن بداية اشتغال الأندلسيين بهذه العلوم وأسباب ضعف الاشتغال بها في بداية الامر . ثم ما ترتب على الرحلات العلمية للأندلسيين إلى المشرق من آثار مهمة في نشاط تلك العلوم إلى جانب دور الخليفة الحكم المستنصر في ازدهارها . ثم تطرقت إلى نشاط الرياضيات والفلك في عصر الخلافة وبروز الكثير من العلماء في تلك العلوم وما قدموه من انتاج علمي نفسي . ويأتي في مقدمتهم مسلمة بن أحمد المجريطي الذي كان بنشاطه الجم مدرسة كبيرة أخرجت الكثير من

العلماء وفي مقدمتهم ابن السمع وابن الصفار وقد حفظ لنا من تصانيف الأخير مخطوط في الفلك أشار إليه الباحث وعلق على محتوياته .

النقطة الثانية : عن الطب وبداية الدراسات الطبية ودور أهل الذمة في ذلك ، وأثر التيارات الثقافية في ازدهار العلوم الطبيعية ، وقد تحدثت عن أبرز من نبغ في الطب في عصر الخلافة ويأتي في مقدمتهم الطبيب الجراح خلف بن عباس الزهراوي الذي نال بجهوده العلمية منزلة رفيعة ليس في الأندلس فقط وإنما في أوروبا أيضا ويأتي في مقدمة جهود تلك دراساته الطبية القيمة في ميدان الجراحة كذلك الطبيب عريب بن سعد ومصنفة في الطب المسمى (خلق الجنين وتدبير الحبالى والمولود) ، كما يأتي في مقدمة أطباء ذلك العصر حسان بن جلجل وانتاجه العلمي في الطب والصيدلة وغير هؤلاء من الأطباء النابغين آنذاك .

النقطة الثالثة : عن الكيمياء ، وقد أشرت في البداية إلى جهود المسلمين في ازدهار هذا العلم ودور الأندلسيين في ذلك ، ثم ينتقل الحديث إلى جهود العلامة مسلمة المجريطي ودراساته المهمة في ذلك وقد ضمن دراساته تلك كتابيه المخطوطين رتبة الحكيم وغاية الحكيم وخاصة الاول فقد حوى الكثير من المعلومات القيمة في الكيمياء . كما تحدثت عن بعض العلماء ممن نسب اليهم الاشتغال بهذا العلم كعبد الله بن محمد المعروف « بالسرى » وعبد الله ابن محمد الذهبي ، وأخيرا ذكرت أهمية العلاقة بين الكيمياء والصيدلة ومدى ماكان يوليه الأطباء للكيمياء من عناية واهتمام كالزهراوي وابن جلجل .

وأما الخاتمة . فتتضمن نتائج البحث ومدى تأثير هذه النشاط العلمي
الأندلسي في عصر الخلافة في اوريا آنذاك .

وأخيراً فإنني أتقدم بوافر الشكر إلى أستاذي الكبير سعادة د. أحمد
السيد دراج لما أسداه لي من إرشاد وتوجيه وإلى كل من مدَّ لي يد العون في
سبيل إخراج هذه الدراسة ، والتي آمل أن تسهم في بعث الاهتمام بالدراسات
التاريخية والحضارية للأندلس ، وكشف وجوه الإبداع فيها ، والله من وراء
القصد .

سعد عبد الله البشري

شوال ١٤٠٢ هـ

معرض لأهم المصادر والمراجع

لما كان موضوع البحث يقوم على وصف الحياة العلمية في عصر الخلافة في الأندلس وذلك من خلال ما قام به علماء ذلك العصر من جهود علمية فقد كان الإعتماد الأكبر في كتابة هذا البحث على كتب التراجم والطبقات ، وقبل الإشارة إلى أهم المصادر المطبوعة يجدر التنويه ببعض المخطوطات التي أفدت منها في بعض جوانب البحث .

١ - المخطوطات :

١ - « التصريف لمن عجز التأليف » للطبيب خلف بن عباس الزهراوي القرطبي من علماء عصر الخلافة ، والمخطوط يقع في أجزاء كثيرة ولكن الجزء المتعلق بالجراحة هو ما أفدت منه حيث ينسب لهذا الطبيب اللامع الكثير من الاكتشافات العلمية في ميدان الجراحة الطبية وهو أمر يشهد للأندلسيين بالنبوغ العلمي ، فكان المخطوط الطبي يتضمن الأسس العلمية الصحيحة للجراحة الطبية التي نقلها الغرب وأفاد منها .

٢ - « تاديخ علماء الأندلس » لمحمد بن حارث بن أسد الخشني القيرواني (ت ٣٦١هـ / ٩٧١م) . والمخطوط عبارة عن معجم تراجم لعلماء الأندلس حتى القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ومما يؤسف له أنه لم يصلنا كاملا ، حيث بقي منه جزء يقع في ١٨٢ ورقة مكتوبة بخط أندلسي . وقد أفدت منه في بعض جوانب البحث وخاصة فيما يتعلق بتراجم بعض العلماء كابن مسرة وموقف الناس منه ورأى الخشني في سيرته ، وكان لأهمية ذلك المخطوط أن اعتمد عليه ابن الفرضي في تأليفه لكتابه « تاريخ علماء الأندلس » .

والجدير بالذكر أن هذا المخطوط مؤثر من مؤشرات الازدهار العلمي
في حقل التاريخ والتراجم في عصر الخلافة .

٣ - « غاية الحكيم » مخطوط يتضمن الكثير من المعلومات الفلكية والرياضية
والجغرافية والكيميائية للعلامة القرطبي مسلمة بن أحمد المجريطي -
(ت ٣٩٨ هـ) . وقد أشار بعض الباحثين إلى مخطوط غاية الحكيم وأنه
لمؤلف مجهول ولكن الحق أنه من تأليف العلامة المذكور . وقد أفدت منه عند
الحديث عن الكيمياء والجغرافيا .

٤ - « رتبة الحكيم » لمسلمة بن أحمد المجريطي الألف الذكر . وهذا المخطوط
يعتبر من أعظم ما ألفه الأندلسيون في علم الكيمياء ، فقد تضمن الكثير
من المعلومات القيمة التي توضح مدى ازدهار ذلك العلم وتطوره في
الأندلس . ولهذا فقد استفدت منه عند الحديث عن الكيمياء وازدهارها
آنذاك .

ولكن ما يؤخذ على مسلمة تعمده الغموض في كلامه عن الكيمياء
وعملياتها المختلفة ، وهو منهج سار عليه الكيماويون حتى قال ابن خلدون
في المقدمة ص ٥٠٤ (وكلامه في ذلك الكتاب وكلامهم أجمع في تأليفهم
هي أُلغاز يتعذر فهمها على من يعاني اصطلاحاتهم في ذلك) .

٥ - « الفصوص » وهو من تأليف الأديب صاعد بن الحسن الربيعي (ت
٤١٠ هـ / ١٠٩١ م) وموضوع المخطوط الأدب ، فقد وفد صاعد من المشرق
إلى الأندلس في عصر المنصور بن أبي عامر الذي اراد أن يجعل منه نداً
وخلفاً للأديب المشرقي القالي الذي حظي بمنزلة عالية لدى الخليفة الحكم
المستنصر . ولهذا نرى المنصور يشجع صاعد علي البحث والتأليف فيؤلف

له كتاباً في الأدب أسماه (الفصوص) ، ونظراً للمنافسة بين أدباء ذلك العصر فقد وقف الأدباء لصاعد بالمرصاد فتتبعوا كتابه بالنقد اللاذع حتى قذف به المنصور في النهر . ورغم ذلك فقد أثابه المنصور عليه بخمسة آلاف دينار ، ولا شك أن ذلك المخطوط حافل بالكثير من ألوان الأدب من شعر ونثر إلى جانب ماضٍ من الدراسات اللغوية جرياً على سنة التأليف الأدبي وقد استفدت من مقدمة المخطوط في التعرف على سيرة الأديب صاعد وحياته العلمية باعتباره أحد أدباء عصر الخلافة ، بالإضافة إلى كَوْنِ المخطوط صورة من صور النشاط العلمي في ميدان الأدب آنذاك .

٦ - « العمل بالإسطرلاب » من تأليف أحمد بن عبدالعزيز الصفار (ت ٤٢٦هـ/ ١٠٣٤م) ، ويشير القاضي صاعد في طبقات الأمم إلى أن اسم أبيه « عبدالله » وموضوع المخطوط كما يوضح عنوانه في ميدان الفلك وكيفية العمل بتلك الآلة الفلكية المسماة بالإسطرلاب وتوضيح أجزائها ، ومهمة كل منها ، ويتضح للمطلع على تلك المخطوطة المهارة الفائقة والممارسة العملية الجيدة التي تمتع بها ابن الصفار .

ويستدل من أسلوب المخطوط انه موجه لطلاب العلم المشتغلين بالفلك ، حيث يوضح لهم المؤلف المنهج العلمي السليم في استخدام الاسطرلاب ، والمخطوط إلى جانب ذلك يضم الكثير من المعلومات الفلكية التي اخضعها ابن الصفار لحاجة المسلم الزمني والمكانيه ، حيث سعى إلى تعيين القبلة وأوقات الصلاة ، وكيف يتم ذلك ، وقد نشر هذا المخطوط بمجلة معهد

الدراسات الإسلامية بمدريد ، وبعد الإطلاع على المخطوط وما نشر تبين أن هناك اختلافا كبيرا بينهما ، فضلا عن أن ما نشر يعد ناقصا عما ورد في المخطوط . وقد افدت من ذلك المخطوط عند الحديث عن الفلك وتطوره في عصر الخلافة .

٧ - « ریحان الالباب وریعان الشباب » للمؤرخ أبي عبد الله محمد بن إبراهيم المعافري الأشبيلي الذي اكمل تأليف كتابه المذكور في شعبان ٥٥٧هـ / وموضوع المخطوط في التاريخ والأدب . ويضم معلومات قيمة عن تواريخ بعض الدول الإسلامية وسير الخلفاء ، وقد افادني فيما يختص بخلفاء بني أمية في الأندلس ، بالاضافة إلى أهمية ما حواه من نصوص مهمة عن سير بعض العلماء كالقالي وصاعد بن الحسن الربعي .

٨ - « خلق الجنين وتدبير الحبالى والمولود » للطبيب عريب بن سعد القرطبي الذي عاش في عصر الخليفة عبد الرحمن الناصر ثم ابنه الخليفة الحكم المستنصر ، وكان يتمتع بعلم واسع في الطب إلى جانب رسوخه في التاريخ . والمخطوط المشار إليه في الطب ، وقد ضمنه خبراته ومعارفه الطبية في هذا الجانب المهم من الطب وهو طب الأطفال ، وقد ألفه عريب نزولا على رغبة الخليفة الحكم المستنصر وما من شك ان ماتضمنه ذلك المخطوط من المعلومات الطبية القيمة يُعدّ دليلاً وشاهداً على تطور الطب في ذلك العصر والمستوى الرفيع الذي بلغه الأطباء آنذاك وقد افادني عند الحديث عن ميدان الطب وازدهاره في عصر الخلافة .

ب - المصادر المطبوعة :

يأتي في مقدمة هذه المصادر المطبوعة مايلي :

١ - « تاريخ علماء الأندلس » لابن الفرزي (ت ٤٠٣هـ / ١٠١٢م) ، وهذا الكتاب بما يضمه من تراجم كثيرة لعلماء الأندلس يعدُّ من أهم ما رجعت إليه في استعراض جهود العلماء في حقول المعرفة المختلفة ، ولكن الغالب فيما ضمّه الكتاب من تراجم كان منصبا على علماء الدين من فقه وحديث وتفسير الخ .. وتبرز أهمية الكتاب في معاصرة المؤلف للكثير من العلماء الذين ترجم لهم ، ولهذا فما أورده عنهم من معلومات تعدُّ أصدق وأصح ما توصل اليه الباحث لأنها قد أتت عن طريق المشاهدة والمعينة ، وقد اعتمد ابن الفرزي أيضا في تأليفه لذلك الكتاب على كثير من الكتب التي فقدت ولم تصلنا وهو بذلك قد حفظ لنا نصيبا مما ضيعه الزمن ولا شك أن هذا فيه دلالة على قيمة الكتاب وأهميته .

٢ - « جذوة المقتبس » للحميدى (٤٨٨هـ / ١٠٩٥م) وقد صنفه الحميدى وهو بالعراق ، ويتميز الكتاب بأنه أكثر تنوعا في تراجمه حيث لم يقصره على أهل الحديث والفقه بل تعداه إلى تراجم أهل الأدب والشعر موردا في ثناياه الكثير من طرائف الأخبار ونوادر الأشعار . ولهذا فإنه يلاحظ على ذلك الكتاب مسحة من الأدب فلا تكاد تخلو صفحة من صفحاته من بيت أو أبيات شعر . وتبرز شخصية الحميدى العلمية من خلال ماضيه ذلك الكتاب من المعلومات القيمة عن علماء الأندلس وخاصة إذا علمنا أنه ألفه

من حفظه . وقد استفدت من ذلك الكتاب في الكثير من تراجم العلماء في مختلف تخصصاتهم العلمية .

٣ - « بغية الملتبس » للضببي (٥٩٩هـ / ١٢٠٢م) وقد اعتمد في تأليفه لكتابه المذكور على كتاب جذوة المقتبس للحميدي فنقل عنه كثيرا و اضاف الكثير ولم يعدم الباحث الفائدة من ذلك الكتاب فان نقل الضببي عن الحميدي فيه تأكيد للمعلومات بالإضافة إلى ما نجده من تراجم أخرى لم ترد في جذوة المقتبس .

٤ - « الصلة » لابن بشكوال (ت ٥٧٨هـ / ١١٨٢م) ، وقد ألفه ابن بشكوال ليكون ذيلًا على كتاب ابن الفرضي الأنف الذكر ، ويعد كتاب الصلة من أهم كتب التراجم وأعظمها فائدة وتبرز أهمية الكتاب في أن مؤلفه كان كثيرا ما يتقصى سير البعض من العلماء فيأتي في ذلك بمعلومات قيمة توضح لنا ما كان عليه المجتمع الاندلسي من علم ومعرفة فهو يتحدث بأسهاب عن محنة أحمد بن فرح الجياني وسبب سجنه وحرص الطلبة على حضور دروسه في السجن ، كما يتحدث عن نشاط العلامة أحمد بن سعيد وتخصيصه قسماً من داره ليقوم فيه بتدريس طلبة العلم .

٥ - « الحلة السيرة » لابن الابار (٥٩٥هـ - ٦٥٩هـ / ١١٩٨م - ١٢٦٠م) وتبرز أهمية ذلك الكتاب فيما يتعلق بميدان الأدب والشعر وذوى النباهة منها من الخاصة والعامة ، والكتاب يفيدنا بالكثير مما اتصف به بعض الخلفاء والأمراء من بنى أمية من التحلي بالأدب ومهارتهم في الشعر ، ولهذا افادني عند الحديث عن الأدب والشعر .

٦- « التكملة » لابن الأبار ، ولعل أهمية ذلك الكتاب تتضح لنا إذا علمنا أن مؤلفه قد قضى في تأليفه نحواً من عشرين سنة . وفي الكتاب نصوص علمية مهمة تتعلق بعلماء الرياضيات والفلك والطب ، وهي معلومات لا نجدها في كتب التراجم السابقة . ولهذا فقد كان اعتماد الباحث عليه كبيراً في ذلك .

٧- « المقتبس » لابن حيان (٣٧٧هـ - ٤٦٩هـ / ٩٨٧م - ١٠٧٦م) وكان اعتماد الباحث على ما عثر عليه من أجزاء ، فالجزء المتعلق بتاريخ الأندلس من سنة ٢٣٣هـ إلى ٢٦٧هـ والذي حققه محمود علي مكي أمدنا بمعلومات قيمة عن الحياة العلمية في عصر الإمارة .

كما أن الباحث أفاد من الجزء الذي حققه عبدالرحمن الحجى والذي تضمن تاريخ خمس سنوات من عصر الخليفة الحكم ، أى من سنة (٣٦٠هـ - ٣٦٤هـ / ٩٧٠م - ٩٧٤م) ، وتبرز أهمية هذا الجزء في أن ابن حيان نقل الكثير عن سبقه من المؤرخين كآل الرازى ومحمد بن يوسف الوراق وهو بهذا قد حفظ لنا نصوصاً مهمة مما فقد من كتب أولئك المؤرخين .

وقد أفاد منه الباحث في الكثير من جوانب البحث كالحديث عن الأدباء والشعراء في عصر الحكم ، وكذلك فيما ورد عن تربية هاشم المؤيد وتلقيه العلم على الكثير من العلماء إلى غير ذلك .

وأفاد الباحث أيضاً من الجزء الخاص بعصر الخليفة عبد الرحمن الناصر والذي يبدأ من سنة ٣٠٠هـ إلى ٣٣٠هـ ويضم (٣٧٠ صفحة) . وقد نشر هذا الجزء ب. تالميتا وف. كورنيطي و.م. صبح بالمعهد

الأسباني العربي للثقافة بمدير يد سنة ١٩٧٩م . وقد حوى هذا الجزء معلومات مهمة عن فتنة ابن مسرة وموقف السلطة في عهد الخليفة - عبد الرحمن الناصر منها ، وما لقيه أتباع ابن مسرة من تنكيل وكذلك ضم معلومات عن شعراء بلاط الخليفة الناصر ، وهذا كله قد أفاد الباحث في استكمال الكتابة عن بعض جوانب البحث .

ورغم ما تقدم فإن الباحث يلحظ في المقتبس وغيره من كتب التاريخ الإهتمام العميق بالأحوال السياسية والعسكرية والفتن والثورات التي قامت آنذاك في حين أن الجانب الحضاري وما يتضمنه من علوم وآداب وشئون الفكر لا تحظى باهتمام كبير اللهم إلا إشارات متفرقة .

٨ - « المعجب في تلخيص أخبار المغرب » للمراكشي (ت ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م)
وقد أفاد منه الباحث فيما يتعلق بسيرة الحاجب المنصور بن أبي عامر وشخصيته العلمية إلى جانب ما ذكره عن الفقيه القرطبي ابن حزم وسعة علمه ومنزلته الكبيرة بين علماء عصره وقدرته الواسعة على التأليف في أبواب المعرفة المختلفة .

٩ - « المغرب في حلي المغرب » لابن سعيد (ت ٦٨٥هـ) وقد أفاد الباحث منه فيما يختص ببعض التراجم كحديثه عن الحافظ ابن عبد البر النمري والفيلسوف المشرقي أبو وهب عبدالرحمن العباسي وغيرهما من العلماء ممن لهم أهمية في كتابة البحث واستيفاء جوانبه المختلفة .

١٠ - « البيان المغرب » لابن عذارى (ت القرن السابع الهجري) . وعلى الرغم مما غلب على الكتاب من السرد التاريخي للأحداث السياسية والعسكرية إلا أنه حوى معلومات في غاية الأهمية عن الناحية العلمية كحديثه عن اهتمام

الحكم المستنصر بشئون التعليم وعنايته بإنشاء المدارس لأبناء الفقراء
والمحتاجين وتيسيره العلم لهم مجانا .

١١ - « نفع الطيب » للمقرئ التلمساني (ت ١٠٤١ هـ) ، وهذا الكتاب يعدُّ في
مقدمة المصادر التي أمدت الباحث بالتكثير من المعلومات المهمة المتعلقة
بالحياة العلمية ، فمؤلف الكتاب اعتمد في تأليفه على كتب من سبقه من
المؤرخين ، وقد ضاع الكثير من تلك الكتب ، فكتابة بمثابة سجل حفظ
الكثير مما ضاع ، بالإضافة إلى أن الكتاب بحجمه الكبير يعدُّ موسوعة
تاريخية في تاريخ الأندلس وحضارتها .

ونظرا لتنوع النشاط العلمي وتعدد حقول المعرفة من شريعة وأدب
وتاريخ وطب وفلسفة لجأ الباحث إلى كتب الطبقات والتي يختص كل منها
بفئة من العلماء كالأطباء أو الأدباء . ومن تلك الكتب :

١٢ - « طبقات الأطباء والحكماء » لابن جليل الطبيب الأندلسي وقد ألفه سنة
٣٧٧ هـ .

ويعتبر كتابه من أهم الكتب المتعلقة بتراجم الأطباء ، وتزداد أهميته فيما
يتعلق بالنهضة الطبية في الأندلس وتراجم أطبائه ، والكتاب نفسه يعدُّ
شاهداً على رقي الحركة العلمية في ميدان الطب فمؤلفه من علماء عصر
الخلافة بل أبرزهم في الطب .

١٣ - « طبقات الأمم » لصاعد بن أحمد الطليطي (ت ٤٦٣ هـ) . وهذا الكتاب
أهم مصدر اعتمدت عليه في دراسة النشاط العلمي في ميدان العلوم
التطبيقية كالطب والفلك والرياضيات والكيمياء . وقد ألف صاعد كتابه

للتعريف بجهود الأمم المختلفة في دراسة تلك العلوم حتى إذا تعرض لأهل بلده من الأندلسيين كشف لنا عن الكثير من الجهود الموفقة لهم في ذلك وما قدموه من نتائج علمية قيمة . ولهذا كان اعتماد الباحث عليه كبيرا . هذا بالإضافة إلى أن القرب الزمني لتأليف الكتاب من عصر الخلافة يعمق صدق ما أورده المؤلف عن علماء الخلافة للرؤية القريب من أحداث ذلك العصر وسير علمائه .

- ١٤ - « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » لابن أبي اصيبعة (٦٠٠ هـ - ٦٦٨ هـ) . وقد أفاد منه الباحث كثيرا فيما يختص بأطباء الأندلس وخاصة فيما أورده عن سيرة الطبيب الأندلسي ابن جلجل وترجمة كتاب ديسقوريدس . فالكتاب رغم ماضيه من تراجم علماء الطب في العالم الإسلامي بصفة عامة إلا أن الباحث اعتمد عليه في حديثه عن الطب والأطباء في الأندلس . والجدير بالذكر أن ابن أبي اصيبعة قد اعتمد في كتاباته عن الأندلس على كتابي ابن جلجل وصاعد بن احمد الأنفي الذكر .
- ١٥ - « طبقات النحويين واللغويين » لأبي بكر الزبيدي (ت ٣٧٩ هـ / ٩٨٩ م) . وقد أفاد منه الباحث فيما يتعلق بالحديث عن النحو واللغة ودور الأندلسيين في ازدهار تلك العلوم .

وتبدو أهمية ذلك الكتاب فيما أورده الزبيدي عن نحويي الأندلس ممن عاشوا في عصره . وتعد معلوماته عنهم في غاية الأهمية لكتابته سيرهم العلمية بمنهج علمي سليم وينظره فاحصه أنبتت عن علمه الواسع بالنحو واللغة ومدى ما أسهم به معاصروه في تطورها .

١٦ - « الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة » لابن بسام الشنتريني (ت ٥٤٢ هـ) ويأتي ذلك الكتاب في طليعة الكتب التي أفاد منها الباحث في ميدان - الأدب والشعر ، فقد قصد المؤلف من تأليفه لكتابه المذكور الإشادة بمحاسن أهل بلده في ذلك فترجم لمشاهير الأدباء والشعراء وأورد الكثير من نماذج إنتاجهم الأدبي . وقد اعتمد الباحث عليه في ترجمة بعض أدباء وشعراء عصر الخلافة .

١٧ - « غاية النهاية في طبقات القراء » لابن الجزرى (ت ٨٣٣ هـ) ، وقد ألفه في تراجم النابهين من علماء القراءات في العالم الإسلامي ، ويتضمن الكثير من تراجم علماء الأندلس ولذلك أفاد منه الباحث فيما يتعلق بالقراءات .

هذه هي أهم المصادر التي رجع إليها الباحث . ولكن هناك الكثير من المصادر التي اعتمد عليها في كتابه البحث والتي أسهمت بقدر كبير في إنجازه وإخراجه بالصورة التي هو عليها الآن ويجدها المقارئ مثبتة في قائمة المصادر والمراجع الملحقه في آخر البحث .

ج - وبالإضافة إلى المصادر فقد اعتمد الباحث على الكثير من المراجع العربية والأجنبية ومن أهمها :

كتاب « الإسلام في إسبانيا » للطفي عبد البديع ، والكتاب رغم صغر حجمه إلا أنه ضم الكثير من المعلومات القيمة عن العلوم والآداب في الأندلس . ومن كتب الحضارة الإسلامية كتاب « تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك » لقدري طوقان ، وكتاب « الإسلام والحضارة العربية » لكرد علي ،

وكتاب « تاريخ الفكر العربي إلى ابن خلدون » لعمر فروخ ، وكتاب « ظهر الإسلام » لأحمد أمين وخاصة الجزء المتعلق بالحياة العقلية عند أهل الأندلس ، فقد سرد المؤلف جهود الأندلسيين في وجوه المعرفة المختلفة وإن كان ذلك على وجه الاقتضاب .

وكانت الفائدة جلية من كتاب « تاريخ الفكر الأندلسي » لأنخل بالنثيا ، ترجمة حسين مؤنس الذي تتبع حركة النشاط العلمى بصفة عامة ، وكذلك من كتاب « حضارة العرب » لغوستاف لابون الذى ضمَّ الكثير من المعلومات المهمة عن حضارة العرب في الأندلس .

كما أفاد الباحث من كتاب « حضارة العرب في الأندلس » لليفي بروفنسال ومن كتاب « شمس العرب تسطع على الغرب » للكاتبة الألمانية زيغريد هونكه ، الذى تجد به إشارات مهمة إلى ما بذله الأندلسيون في رقى الحضارة الإنسانية وخاصة فيما يتعلق بالطب .

وفي ميدان العلوم التطبيقية أفاد الباحث من كتاب « تراث الإسلام » لارنولد وآخرين وهذا الكتاب يتضمن الكثير من المعلومات التى تؤكد عمق التأثير العلمى للمسلمين في أوروبا .

ومن المراجع الأوروبية التى اعتمد عليها الباحث في كتابة هذا البحث يأتى في مقدمتها كتابان ، وهما :

1- Titus Burckhardt: Moorish Culture in Spain.

Printed in West Germany 1972.

2- Anwar. G. Chejne: Muslim Spain. Its History and Culture. The University of Minnesota Press, Minneapolis, 1973.

هذا بالإضافة إلى بعض المقالات المنشورة في عدد من المجالات العلمية
ويأتي في مقدمتها :

– مقال . حسين مؤنس « الجغرافية والجغرافيون في الأندلس » ، مجلة معهد
الدراسات الإسلامية في مدريد ، العدد الثالث ج ٧ و ٨ ١٩٥٥ م .

– ومقال . عبد الجليل الراشد « التقدم الفكري عند أهل الأندلس حتى عصر
المرابطين ، مجلة المؤرخين العربى ، العدد الثالث عشر .

– ومقال . خوليان ريبييرا « المكتبات وهواة الكتب في اسبانيا » ترجمة جمال
محرز ، مجلة معهد المخطوطات ، م ٥ ، ج ١ . ذي القعدة ١٣٧٨ هـ .

– ومقال . ي . أ . شاهين « أثر العرب في الطب » ، وهي محاضرة أُلقيت
بجامعة اسكس ١٩٧١ م .

هذا وسيجد القارئ في قائمة المصادر والمراجع الملحقه بالبحث
حصرا تاما بكل ما رجعت إليه من مصادر ومراجع وبحوث .

تمهيد

الحياة العلمية في عصر الإمارة

- العلوم الدينية :

بدايتها - انتشار المذهب المالكي في الأندلس وأبرز علمائه آنذاك
وإنتاجهم العلمي .

- الأدب والنحو وعلوم اللغة :

بداية الاشتغال بها وبروز العديد من العلماء فيها كعباس بن ناصح
ويحيى الغزال في الشعر ، والقلقاط وفرج بن سلام في اللغة والنحو .

- العلوم الإنسانية :

بدايتها ، أبرز المؤرخين عبد الملك بن حبيب ، ومن الجغرافيين محمد
الرازي . وفي الفلسفة عناية الأمير عبد الرحمن الأوسط بها . وظهر ابن
مسرة .

- العلوم الطبيعية :

تأخر الاشتغال بتلك الدراسات ، أبرز من ظهر من الفلكيين : مسلم بن
أحمد - يحيى بن السمينة ابن فرثاس - في الطب : - يونس الحوانى - حمدين
بن إبان - يحيى بن إسحاق .

لم يشهد عصر الولاة في الأندلس نشاطا علميا كبيرا كما حدث فيما تلاه من عصور .

وقد جانب الأستاذ آنخل بالنثيا الصواب عند ما علل قضية انصراف الناس عن الأدب وشئون الفكر في عصر الولاة بأن المسلمين الفاتحين كانوا محاربين فقط ، وأن هذا الأمر وحده كان كافيا لانصرافهم عن الميدان العلمي في نظره . (١)

ويكفينا الرد على هذا الرأي أن نوضح أن المسلمين الذين فتحوا الأندلس ، ومن هاجر إليها بعد الفتح ، كان بين صفوفهم الكثير من العلماء والفقهاء أمثال : حنش بن عبد الله الصنعاني ، ومحمد بن أوس بن ثابت الأنصاري ، وعبد الرحمن ابن عبد الله الغافقي ، وموسى بن نصير (٢) .

بل إن التاريخ حفظ لنا خبر دخول أحد صحابة رسول الله ﷺ الأندلس ، وهو المنذر الإفريقي . (٣)

وما من شك أنه كان لهؤلاء التابعين وغيرهم من الفقهاء المجاهدين دور كبير في تفقيه الناس ، والعمل على ارشادهم إلى تعاليم الإسلام وبالتالي في قيام حلقات العلم والدرس ، وبناء على هذا فإن الرعييل الأول من الفقهاء

(١) تاريخ الفكر الأندلس ، ترجمة حسين مؤنس ، ص ١ .

(٢) الحميدى : جذوة المقتبس ، ص ٦ .

(٣) ذكر المقرئ في كتابه (نفع الطيب ، ج ٣ ، ص ٥ ، ٦) كلام العلماء عن هذا الصحابي وإن الأبار والحجاري وابن بشكوال وابن عبد البر قد عدوه في تراجمهم من صحابة رسول الله ﷺ ، ثم يشير إلى أن البخاري في تاريخه الكبير يورى له الحديث التالي : (أبو المنذر صاحب رسول الله ﷺ ، وكان قد حدث بأفريقية عن رسول الله ﷺ قال : « من قال رضيت بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ، فأتانا الزعيم لأخذن بيده فادخله الجنة » كذا ذكره البخاري بالكنية .

المجاهدين في الجيش الفاتح كانوا نواة طيبة للنشاط العلمي في الأندلس ، وبخاصة في حقل العلوم الدينية ، ومن هذا يتضح أن الجيش الفاتح لم يكن محاربا فقط بل كان هاديا ومرشدا للناس بمن كان يضمه من طوائف العلماء وأهل المعرفة .

وقد استمر عصر الولاة الذي بُدِيََ بولاية عبد العزيز بن موسى ٩٥ هـ / ٧١٣م حتى ولاية يوسف بن عبد الرحمن الفهري الذي هُزِمَ أمام الأمير عبدالرحمن بن معاوية بن هشام الملقب بالداخل ١٣٨ هـ / ٧٥٥ م .

وكان الأمير عبدالرحمن قد هرب من بطش العباسيين الذين قضوا على أبائه في المشرق . وتمكن من أن ينصب نفسه أمير على الأندلس بعد أن استعان باليمنيين الذين لم يرضوا بسلوك واليهم يوسف المتعصب لجماعته من المضرية ، بالإضافة إلى مساندة موالى الأمويين لعبدالرحمن الذي استطاع أن ينزل بخصمه يوسف هزيمة منكرة شنت شمله وفرقت أتباعه ، وتم لعبدالرحمن دخول قرطبة في عيد الأضحى من نفس السنة (١) ليبدأ بتوليته حكم الأندلس عصرا جديدا وهو (عصر الإمارة) .

ومن الطبيعي بعد أن استقرت الأوضاع في الأندلس أن ينصرف الناس إلى البناء الحضاري وتحصيل العلوم والآداب . وكانت العلوم الدينية آنذاك هي قطب الرchy في النشاط العلمي ، ومدار البحث والدرس ؛ لارتباطها الشديد بالعقيدة التي يعتنقها الفاتحون ، والتي من أجلها تحملوا مشاق الفتح ونَصَبَ الجهاد في سبيل الله .

(١) الحميدى : المصدر السابق ، ص ٨ - الضبي : بغية الملتمس ، ص ١٢ - المراكشي : المعجب ، ص ٢٩ .

العلوم الدينية :

في بداية الحديث عن العلوم الدينية يجدر بنا أن نتطرق إلى موضوع دخول المذهب المالكي للأندلس فقد كان المذهب الأوزاعي هو المذهب السائد في الأندلس قبل دخول المذهب المالكي ، وينسب إدخاله إلى الأندلس إلى الفقيه الشامي صمصمه بن سلام (ت ١٩٢ هـ / ٨٠٧ م) وهو أحد أصحاب الإمام الأوزاعي (١) وقد دخل صمصمة الأندلس في عهد عبدالرحمن الداخل حيث تولى منصب الفتيا في عهده . وشطرا من عهد ابنه هشام ، كما درس على يده الكثير من طلاب العلم ، وأخذ عنه العلماء أمثال : عبدالملك بن حبيب وعثمان بن ايوب . (٢)

وكان لمذهب الأوزاعي أتباعه في الأندلس والذين كان لهم الفضل في انتشاره هناك ، فكان هو السائد في الأندلس والمعول عليه في الفتاوى الشرعية والقضاء ، إلا أنه نتيجة للرحلات العلمية التي قام بها علماء الأندلس إلى المشرق فقد وجدت بعض المذاهب طريقها إلى الأندلس ، وخاصة المذهب المالكي الذي لقي قبولا وتأييدا هناك ، ثم أصبح المذهب السائد في الأندلس ، وينسب ادخال هذا المذهب إلى العلامة الأندلسي زياد بن عبدالرحمن اللخمي (ت ١٩٩ هـ / ٨٠٤ م) وقد ولد هذا الفقيه بقرطبة وأخذ علومه الأولى فيها . ثم شد رحاله إلى المشرق بقصد الحج وبعد أدائه شعائر الحج اتجه إلى مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم باعتبارها المنبع الأصيل للثقافة الإسلامية ،

(١) هو الإمام أبو عمر عبدالرحمن بن عمرو بن محمد ، والأوزاعي نسبة إلى الأوزاع بطن من حمير ، ولد ببعلبك (٨٨ هـ / ٧٠٦ م) وبرع في الحديث والفقه ، وأصبح إماماً جليلاً له مذهب مستقل إلا أنه انكمش أمام المذاهب الأخرى وقد توفي سنة ١٥٧ هـ / ٧٧٣ م بلبان (ابن زيد الموصلي : محاسن المساعي ، ص ٥٧ - ٥٩ - ابن قتيبة : المعارف ، ص ٢١٧ .

(٢) لبن الغرضي : تاريخ علماء الأندلس ، ج ١ ، ص ٢٠٣ - الحميدى : الجذوة ، ص ٢٤٤

فلقي هناك مالكا إمام دار الهجرة (١). وروى عنه الموطأ ، وأخذ عنه الكثير من العلم في ميدان الفقه ، ثم عاد إلى وطنه لينشر مذهب أستاذه مالك ويعلمه لطلابه . (٢)

على أنه يروى أن غازي بن قيس (ت ١٩٩ هـ / ٨٠٤ م) هو أول من أدخل موطأ مالك إلى الأندلس ، فقد كان مؤدباً ومعلماً بقرطبة وتسنى له الإرتحال إلى المشرق حيث أخذ الموطأ عن مالك بن أنس والقراءات عن نافع بن أبي نعيم وقد وصف غازي بقوة الحفظ ونباهة الذاكرة . (٣)

وقد يبدو هنا بعض التناقض ولكن من خلال التدقيق في دراسة سيرة كل من الفقيهين يتضح أن زيادا كان أكثر نشاطاً وأسرع سبقاً في نشر مذهب مالك ، وأن غازياً كان أكثر حفظاً واستيعاباً للموطأ إلى جانب اهتمامه وعنايته بالقراءات ، ويؤكد هذا ما ذكره الحميدى في ترجمته لهما من أن غازياً كان أكثر حفظاً ، وزياداً أسبق بتعريف الناس بمذهب مالك ، وكانوا قبلة علي مذهب الاوزاعي . (٤)

ويأتي الفقيه يحيى بن يحيى الليثي (١٥٢ - ٢٣٤ هـ / ٦٧٩ - ٨٤٨ م) في مقدمة علماء المالكية الذين بثوا المذهب المالكي في الأندلس وعملوا على نشره في ميداني الفتيا والقضاء وقد رحل يحيى إلى المشرق وسمع من مالك

(١) هو الإمام مالك بن أنس بن أبي عامر من حمير صاحب المذهب الذي اختص به وكان لنزاهته ودينه لايتملق الحكام بل كان يقول الحق ولا يرضى الباطل ، فخالف العباسيين في بيعتهم فنكلوا به ، ووصف بالفقه والعلم الواسع وأنه فقيه الحجاز وسيدها في العلم وقد توفي (١٧٩ هـ / ٧٩٥ م) (ابن النديم : الفهرست ، ص ٢٨٠ - ابن قتيبة المعارف ، ص ٢١٨ - ابن نباتة : سرح العيون ، ص ١٤٧ - ١٤٨) .

(٢) الخشني : تاريخ علماء الأندلس (مخطوط) ورقة ١٥٨ .

(٣) ابن الجزري : غاية النهاية في طبقات القراء ، ج ٢ ، ص ٢ .

(٤) جذوة المقتبس ، ص ٢١٨ - ٢١٩ .

وغيره من العلماء ، وكان مالك يسميه عاقل الأندلس ، وبعد أن تزود بالعلم والمعرفة عاد إلى وطنه ليتبوأ مكانه رفيعة لدى الأمير هشام ومن بعده ابنه الحكم وحفيده عبدالرحمن الأوسط ، وكان ليحيى بذلك قول مسموع في تعيين فقهاء المالكية في مناصب الدولة ووظائف القضاء ، فحمل الناس على الاهتمام بالمذهب المالكي ونشره في البلاد . (١)

وقد أشار إلى ذلك ابن حزم بقوله : (. . . مذهبان انتشر في بدء أمرهما بالرياسة والسلطان . مذهب أبي حنيفة فإنه لما ولي قضاء أبو يوسف كانت القضاء من قبله ، فكان لا يولي قضاء البلاد من أقصى المشرق إلى أقصى أعمال إفريقية إلا أصحابه المنتمين إلى مذهبه . ومذهب مالك بن أنس عندنا ، فإن يحيى بن يحيى كان مكينا عند السلطان مقبول القول في القضاء فكان لا يلي قاض في أقطارنا إلا بمشورته واختياره ، ولا يشير إلا بأصحابه ومن كان على مذهبه ، والناس سراع إلى الدنيا والرياسة . فاقبلوا على ما يرجون بلوغ أغراضهم به) (٢)

وكان لسعة علم يحيى وفضله يستشار لدى الأمراء إلا أنه لم يتول منصباً من المناصب لزمهده ، وتكشفه ، وعدّه الكثير من المؤرخين فقيه الأندلس والمقدم بين علمائها ، وروايته الموطأ عن مالك تعدّ أشهر الروايات . (٣)

(١) الحميدى : نفس المصدر ، ص ٢٨٢ - ٢٨٣ .

(٢) الحميدى : الجذوة ، ص ٢٨٣ - ٢٨٤ - الضبي : البغية ص ٥١١ - ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٦ ، ص ١٤٤ .

(٣) محمد مخلوف : شجرة النور الزكية ، ص ٦٣ .

— نتيجة لشهرة روايته تلك فقد حفظت وبقيت متداولة بين العلماء حتى عصرنا الحاضر ولا تزال هناك الكثير من نسخ الموطأ برواية يحيى المذكور .

والجديد بالذكر أنه كان إلى جانب دور هؤلاء العلماء في نشر المذهب المالكي كان هناك دور بارز للأمير هشام بن عبد الرحمن (١٧٢ - ١٨٠ هـ / ٧٨٨ - ٧٩٦ م) الذي وصف بحسن السيرة ونقاء السيرة ونقاء السريرة . وأنه كان مكرماً للعلماء باراً بهم ، ولما وصلت أنباء عدله وكرم خلقه إلى سمع الإمام مالك بن أنس سرّاً بذلك وأثنى عليه قائلا « وددت ان الله زَيَّنَ موسماً به » (١)

وكان هذا سبباً في ميل هشام إلى المذهب المالكي والعمل على نشره في وطنه وبثه بين رعيته . (٢)

ويشير ابن خلدون إلى سبب اتباع الأندلسيين لمذهب مالك بأن رحلاتهم كانت في الغالب للحجاز وأنه منتهى سفرهم ، والمدينة يومئذ هي مركز العلم هنالك ومنها خرج إلى العراق ، فاقتصروا على الأخذ عن علماء المدينة وعلى رأسهم مالك ، وأنهم مالوا إلى الحجاز لتطابق الحالة في البداوة وأنهم لم يعانون حضارة أهل العراق فاقتصروا لمناسبة البداوة على أهل الحجاز . (٣)

وما ذكره ابن خلدون له نصيب من الصحة إلا أن جانباً مما ذكره يحتاج إلى إيضاح ومناقشة وهو قوله : « وأنهم مالوا إلى الحجاز لتطابق الحالة في البداوة ولم يعانون حضارة أهل العراق فاقتصروا لمناسبة البداوة على أهل الحجاز » وهو بهذا الوصف قد بالغ في إلحاقه سمة البداوة بأهل الحجاز . وتصويرهم بالتخلف عن غيرهم ، وأنهم قاصرون عن رتبة الحضارة التي بلغها

(١) أخبار مجموعة (مجهول المؤلف) ، ص ١٢٠ .

— أشار ابن نباتة في سرح العيون ص ١٤٨ . إلى أن الأمير الذي أثنى عليه مالك هو عبد الرحمن بن معاوية لاهشام ، والصواب ما أشرنا إليه في المتن وذلك لتطابق الروايات التاريخية القائلة بذلك كالكتاب السابق وكتاب المقرئ — نفخ الطيب ، ج ٣ ، ص ٢٣٠ .

(٢) المقرئ : نفخ الطيب ، ج ٣ ، ص ٢٣٠ .

(٣) المقدمة : ص ٤٤٩ .

أهل العراق ، وكيف أن الاندلسيين الموصوفين في نظره بما وصف أهل الحجاز قد مالوا لهم لتشابه - المعاناة والرؤية المشتركة الناجمة عن القصور الحضارى ، وتخلفهم عن غيرهم من الناس .

وهذا ولا شك مجانبة للصواب ، فالحجاز آنذاك بما ضمه من مواطن الهداية كمكة المكرمة التى شَعَّ منها نور الإيمان ، والمدينة المنورة قاعدة الإسلام ، ومنبع العلم والمعرفة ، لهما الفضل الجلي ، واليد الطولى على حضارة الإسلام . ومنها خرج رواد الحضارة الإسلامية الذين رسموا لأهل العراق حضارتهم ، وهو أمر اعترف به ابن خلدون حيث قال : « والمدينة يومئذ هي مركز العلم هنالك ومنها خرج إلى العراق » فلماذا يوسم أهل المدينة بالبداءة ؟

وهي في الفترة التي تم فيها تأثير المذهب المالكي في الأندلس - أي حوالي النصف الثاني من القرن الثاني الهجرى / الثامن الميلادي - كانت المدينة تزدهر بنشاطها العلمي وما أسدته للعالم الإسلامي من علم ومعرفة على أيدي علماء أجلاء يأتي في مقدمتهم العلامة مالك بن أنس الذى وصف بما رواه أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل في طلب العلم فلا يجدون عالماً أعلم من عالم المدينة » قال الحميدي قال سفيان أظنه مالك بن أنس وكذلك رواه إبراهيم بن المنذر الحزامي عن سفيان بن عيينة ، قال وكان سفيان يقول : أراه مالكا ، (١)

وكتب التراجم تشهد برحيل الكثير من علماء خراسان وفارس والعراق والشام إلى المدينة . وأخذهم عن علمائها وفقهائها (٢) ، فمن أين أتت تلك

(١) ابن عبد البر : الانتقال ، ص ١٩ - ابن كثير : البداية والنهاية ج ٦ ، ص ٢٥١ .

(٢) لمعرفة ما كانت عليه المدينة من مكانة علمية ، وما أسدته للحضارة الإسلامية من جهود مثمرة انظر الخطيب البغدادي / : الرحلة في طلب الحديث ، ص ٨٨ - ٩٣ ١٤٤ . وكذلك عمر كحالة : مقدمات ومباحث في حضارة العرب والإسلام ، ص ١٣٦ - ١٣٧ - ١٣٨ .

الصورة البدائية التي رسمها ابن خلدون لأهل الحجاز ؟ وأين كانت تلك الحضارة التي بهرت أنظار الأندلسيين ففرضت عليهم التراجع أمامها . والنكوص عن الاحتكاك بها ، وأى مدينة رفيعة في ذلك الزمن يتهيبها أولئك العلماء ويحجمون عن الاقتراب منها ؟ فيمّموا وهم متعثرون في بداوتهم نحو إخوانهم الحجازيين الذين يعانون مثلهم وجه التخلف والبداهة . وهو ما صورّه ابن خلدون وبالع فيّه .

وعليه فإن صفة البداهة ، والفرق الحضارى المزعوم بين أهل الحجاز وأهل العراق غير حاصل ، وليس سببا في تأثر الأندلسيين بالمذهب المالكي ، فالرحلات العلمية التي قام بها الأندلسيون إلى المشرق واتجاههم إلى المدينة ، كان من واقع ما تمتعت به المدينة دار الهجرة من مكانه علمية ، وما ضمته من التابعين الذين كانوا ألصق ببيئة رسول الله ﷺ وأخذهم عن صحابته الكرام وقد يكون للعداء السياسي بين العباسيين والأمويين أثر في انصراف الناس عن أخذ العلم عن أهل العراق ولا سيما في الفترة الأولى من عصر الأمانة الأموية التي تميزت بحدة العداء بين الطرفين ، وإن كان من المعروف أن الخلاف السياسي بين الدول الإسلامية لا ينسحب على أفراد الرعية في كل شعب من شعوب تلك الدول . إلا أنه قد يكون له تأثير على نفسيات الناس ، ومن ثم على ضروب سلوكهم المختلفة في تعاملهم مع بعضهم البعض .

وكان من نتائج انتشار ذلك المذهب وكونه المذهب الوحيد الذى سار عليه الأندلسيون بوجه عام أن زالت أسباب الخلاف التى تنشأ عادة بين المذاهب المختلفة^(١) بالإضافة إلى أنه كفل لهم الوحدة المذهبية والاستقلال المذهبي - الذى قصده الحكام الأمويين بعد أن استقلوا سياسيا عن خصومهم العباسيين^(٢)

(١) انظر في ذلك آدم ميتز : الحضارة الإسلامية ، ج ١ ، ص ٣٩٥ .

(٢) زكريا هاشم : فضل الحضارة الإسلامية ، ص ٥٦١ - ٥٦٢ .

واستمسك الأندلسيون بمذهب مالك وخلصوا له ، وقاوموا ماعداه ، حتى وصف أهل قرطبة بأنهم أشد الناس محافظة عليه ، وأنهم لا يولون عاملا أو حاكما لا يقضي به (١) .

بل إنهم كانوا كثيرا ما يشيدون به في محافلهم العلمية . وينشدون في الحفاظ عليه الكثير من الأشعار (٢) . ويببوا من هنا عظم استنكارهم على الخارجين على مذهب مالك (فإن ظهروا على حنفي أو شافعي نفوه وإن عثروا على معتزلي أو شيعي أو نحوهما ربما قتلوه) (٣) .

ورغم هذا فقد كان هنالك علماء يتبعون في فقههم مذاهب أخرى . كمذهب الشافعي أو المذهب الظاهري ، فقد ذكر الحميدى أن الفقيه قاسم بن محمد (ت ٢٧٧ هـ / ٨٩٠ م) كان شافعيًا (٤) .

كما أن الفقيه عبدالله بن محمد بن قاسم (ت ٢٧٢ هـ / ٨٨٥ م) كان يتبع في فقهه المذاهب الظاهري فقد درس على يد منشيء المذهب الظاهري أبي داود سليمان الأصفهاني في المشرق ، ثم عاد لينشره في الأندلس إلا أنه لم يحالفه التوفيق في ذلك (٥) .

وهناك العديد من العلماء الذين اتبعوا مذاهب أخرى ولكنهم لم يلقوا قبولا لدى أهل الأندلس .

وكان لتشدد الأندلسيين في اتباع مذهبهم أثر في معاملتهم لمن خالفهم فقد ناصبوا العداء لبقي بن مخلد (٢٠١ هـ - ٢٧٦ هـ / ٨١٦ - ٨٨٩ م) الذي ارتحل إلى المشرق ليأخذ عن علمائه وفقهائه ، ثم يعود حاملا معه ألوانا

(١) المقرئ : النفع ، ج ٣ ، ص ٢١٦ .

(٢) انظر : السلفي أخبار وتراجم أندلسية ص ٣٧ - ٣٨ ، ص ٧٠ - ٧١ .

(٣) المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص ٢٣٦ .

(٤) الجنوة : ص ٣٢٩ .

(٥) أنخل بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ، ص ٤٣٩ .

مختلفة من كتب العلم ، ككتاب الفقه للشافعي وكان لخروج بقي على مذهب مالك وما عرف عنه أثر في تصدى الكثير من الفقهاء له فوصموه بالتهم لدى الأمير محمد (٢٣٨ - ٢٧٣ / ٨٥٢ م - ٨٨٦ م) وكان هذا الأمير موصوفاً بالعلم واکرام أهله فحقق في أمر هذه الدعوى وما قام به خصوم بقي فتبين له مجانبتهم للحق وما اقترفوه من إثم وبراءة بقي مما يزعمون فأعلى مكانته ورفع منزلته وأمره بنشر علمه بين الناس (١) .

وكان بقي المذكور يعدُّ من أعلام الفقهاء والمحدثين في عصر الإمارة . وكان لرحلاته العلمية إلى المشرق أثر كبير في توسيع دائرة علمه وثقافته وعلو مقامه العلمي بين علماء عصره (٢) .

ومن أهم ثمار رحلته تلك ما عاد به إلى الأندلس من كتب العلم والمعرفة ، والتي كان لها بلا شك أثر كبير في دفع الأندلسيين نحو دراسة وبحث مسائل العلم المختلفة ، فمما جلبه بقي من الكتب المشرقية مصنف ابن أبي شيبة (٣) وكتاب الفقه للشافعي ، وتاريخ خليفة بن خياط (٤) ، وكتابه في الطبقات ، وسيرة عمر بن عبد العزيز للدورقي (٥) .

(١) ابن حيان : المقتبس ، ج ٢ ، تحقيق محمود علي مكي ، ص ٢٦٣ - ٢٦٤ .

(٢) ابن حيان : المصدر السابق ، ج ، ص ٢٦٤ .

(٣) هو أبو بكر عبدالله بن محمد من المحدثين المصنفين (ت ٢٣٥ هـ / ٨٤٩ م) له كتب كثيرة منها كتاب السنن في الفقه وكتاب التفسير وكتاب المسند في الحديث (ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣٢٠) .

(٤) هو خليفة بن خياط بن خليفة الشيباني العصفري محدث نسابه اخبارى صنف (التاريخ) في عشرة اجزاء طبع منه جزء واحد وله كتاب الطبقات طبع جزء واحد . ووصف خليفة بالنزاهة في خلقه وسعة العلم ، (الزركلي : الاعلام ، ج ٢ ، ص ٢١٢) .

(٥) هو أحمد بن ابراهيم بن كثير العبدلي له مؤلفات كثيرة في الحديث (ت ٢٤٦ هـ / ٨٦٠ م) - ابن حيان : المقتبس ، تحقيق محمود مكي ، ح رقم ٢٤٢ .

وبرز في عصر الإمارة فقهاء كثيرون غير ما تقدم ، كالفقيه عبد الملك بن حبيب (ت ٢٣٩ هـ / ٨٥٣ م) وكانت له رحلة إلى المشرق حيث لقي مالكا عالم المدينة وأخذ عنه وعن أصحابه ، وتزود بالكثير من العلم على أيديهم ثم عاد إلى الأندلس وأسهم في نشاط الحركة الفقهية فألف كتابا في الفقه سماه (الواضحة في الحديث والمسائل على أبواب الفقه) (١) .

ويظهر أن لهذا المنصف منزلة قيمة بين فقهاء الأندلس ، حتى قال فيه ابن حزم (والمالكيون لا تمنع بينهم في فضلها واستحسانهم إياها) (٢) .

ولم يكن عبد الملك مقتصرًا في علمه على الفقه وعلوم الدين ، بل كان أدبيا ومؤرخا وفلكيا . ولكن الفقه غلب عليه ، وفي هذا يقول ابن حيان « قرأت بخط عباده الشاعر قال :

كان يحيى بن يحيى وأصحابه الفقهاء يحمدون عبد الملك بن حبيب ،
لتنقده عليهم بعلوم لم يكونوا يعلمونها ، ولا يشرعون فيها إذ كان مع تقدمه في
الفقه والحديث واللغة مفتنا في العلوم القديمة (٣) .

ونظرا للإقبال المتزايد من الأندلسيين علي دراسة المذهب المالكي . فقد نجم عن ذلك أن توفر البعض من العلماء على شرح ودراسة ذلك المذهب وتناولوا كتب مالك بالبحث والشروح المستفيضة .

فمن نسب إليه ذلك من الفقهاء عيسى بن دينار (ت ٢١٢ هـ / ٨٢٧ م)
- الذي سار على نهج إخوانه الأندلسيين في الرحيل إلى المشرق ليأخذ عن
علمائه ، ثم مالبت أن عاد ليتولى منصب الفتيا وكان لسعة علمه وغزارة معارفه
أن وصف بأنه أفقه من يحيى بن يحيى عالم الأندلس الأنف الذكر ، وقد أثنى

(١) الحميدي : الجذوة ، ص ٢٨٢ .

(٢) المقرئ : النفع ، ج ٣ ، ص ١٧١ .

(٣) المقتبس : تحقيق محمود مكي ، ص ٤٨ .

عليه غير واحد من العلماء فقال أحدهم (كان عيسى بن دينار عالماً متقناً مفتقاً وهو الذي علم المسائل أهل مصرنا وفتقها) وقال فيه آخر : فقيه الاندلس عيسى بن دينار، وعالمها عبد الملك بن حبيب ، وعاقلها يحيى بن يحيى (١) .

وكان لهذا الفقيه جهد بارز في ميدان البحث والتأليف العلمي فآلف كتاباً قيماً أسماه « الهداية » وصف بالدقة وشموله للمعاني الفقهية على المذهب المالكي (٢) .

وتتابع العلماء في تناول الموطأ بالشرح والايضاح ، وكان للفقيه يحيى بن إبراهيم بن مزين (٣) (ت ٢٦٠ هـ / ٨٧٣ م) جهد مشكور في شرح موطأ مالك وتوضيح مسأله (٤) .

وإلى جانب ما ذكرنا فقد شارك الفقيه مالك بن على القطني في هذا الميدان حيث صنف كتاباً في الفقه عالج فيه الكثير من مسائل الفقه على المذهب المالكي ، ووصف كتابه بالدقة والقيمة العلمية الكبيرة (٥) .

الحديث والتفسير

من دلائل التفوق العلمي لعلماء المسلمين الأوائل تنوع معارفهم ، وتشعب مهاراتهم العلمية في أكثر من علم ، فبقي بن مخلد السابق الذكر يمثل هذه الصفة بما كان يتمتع به من براعة في العديد من العلوم ، فهو ماهر في الحديث والفقه والتفسير ، وألف في كل هذه العلوم تقريباً .

(١) ابن الغرضي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٣١ - أحمد أمين : ظهر الإسلام ، ج ٣ ، ص ٥٠ .

(٢) المقرئ : النفع ، ج ٣ ، ص ١٦٧ - أحمد أمين : المرجع السابق ج ٣ ، ص ٥٠ - محمد مخلوف : المرجع السابق ، ص ٦٤ .

(٣) جانب الأستاذ لطفي عبد البديع الصواب عندما أشار إلى شارح الموطأ هو إبراهيم بن مزين ولكن الصحيح ما هو مشار إليه بالمتن كما أورده المؤرخون ونصت عليه كتب التراجم .

(٤) الضبي : بغية المتلمس ، ص ٤٩٧ - المقرئ : النفع ، ج ٤ ، ص ١٦٧ - ١٦٨ .

(٥) المقرئ : النفع ، ج ٣ ، ص ١٦٨ .

وفيما يتعلق بالحديث يعتبر من أبرز العلماء الذين اهتموا بدراسة الحديث وعلومه المختلفة فقد كان يمثل مدرسة عظيمة ذات أثر واضح في الرقي العلمي في الأندلس ، وبجهود بقي العلمية (صارت الاندلس دار حديث ، ومعدن سنة ، وإنما كان الغالب على أهلها من قبل ذلك رأي مالك واصحابه ، والتفقه في المسائل المدونية ، فكانوا ينصبون لأهل الحديث ولا يرضونهم) (١) . ولا شك ان بقاءً قد أثرى بذلك ميدان الحديث ، ولفت أنظار الاندلسيين إلى حقل الحديث وعلومه بعد أن غلب عليهم فقه مالك ، وكان تأثير بقي واضحاً ، وعمله جلياً حتى قال فيه ابن الفرضي « وبقي بن مخلد ملأ الاندلس حديثاً ورواية » (٢)

وبناء على ذلك فإن بقاءً هو رائد الحركة العلمية في ميدان الحديث ودراساته المختلفة التي أثمرت وأينعت ، وكانت قاعدة صلبة لدراسات علمية قيمة تمت فيما تلى ذلك من عصور ، ومما أُلّفه في الحديث مصنف رتبته على أسماء الصحابة وروى فيه ألف وثلاثمائة منهم ورتب أحاديث كل منهم على أسماء الفقه وأبواب الأحكام ، فهو مصنف ومسند حتى قال فيه ابن حزم ((ولا أعلم هذه الرتبة لأحد قبله مع ثقته وضبطه واتقانه واحتفاله في الحديث وجودة شيوخه فإنه روى عن مائتي رجل وأربعة وثمانين رجلاً ليس فيهم عشرة ضعفاء وسائرهم أعلام مشاهير)) (٣) .

ووصفه ابن الفرضي بأنه ليس له نظير وأنه لم يصنف مثله قطعا (٤) . وكان المحدث محمد بن وضاح (١٩٠ - ٢٨٧ هـ / ٨٠٥ م - ٩٠٠ م) ندأ قويا

(١) ابن حيان : المصدر السابق ، ص ٢٦٤ .

(٢) تاريخ علماء الاندلس : ج ١ ، ص ٩٢ .

(٣) الحميدى : الجذوة ، ص ١٧٧ .

(٤) تاريخ علماء الاندلس : ج ١ ، ص ٩٢ .

لبقي من مخلص في ميدان الحديث ودراساته المختلفة ، واستطاع أن ينشر علومه في هذا الميدان . وبمحمد بن وضاح وبيقي صارت الأندلس ميدانا نشاط في مجال الحديث واسناده^(١) .

ولم يقتصر النشاط العلمي على هذين العالمين بل كان هناك الكثير من المحدثين الذين قدموا جهودا موفقه في حقل الدراسات العلمية المتعلقة بالحديث وعلومه . ومن هؤلاء قاسم بن ثابت بن حزم (٢٥٥ - ٣٠٢ هـ / ٨٦٨ م - ٩١٤ م) الذي صنف كتابا في شرح الحديث أسماه « الدلائل » بلغ فيه درجة رفيعة من الاتقان إلا أن المنية حالت دون أن يتمه فاكمله أبوه من بعده^(٢) .

أما فيما يتعلق بالتفسير . فينسب الفضل الكبير في ازدهاره ورتقي دراسته إلى العلامة بقي السالف الذكر ، حيث ألفت مصنفات قيمة في تفسير القرآن الكريم والذي لقي قبولا منقطع النظير في الأوساط العلمية ، وطبقت شهرته الافاق حتى ذكر الحميدي أن صديقه ابن حزم أشاد به فقال : « هو الكتاب الذي أقطع قطعا لا استثنى فيه أنه لم يؤلف في الإسلام مثله ، ولا تفسير محمد بن جرير الطبري ولا غيره^(٣) » .

وعليه فإن ميدان الدراسات الدينية في عصر الإمارة لقي نشاطا أحسنا بفضل ما بلغه علماء الأندلس آنذاك من علم ومعرفة ، وكان علماء الأندلس في بداية الأمر يستندون في اكتساب معارفهم على أهل المشرق الذين سبقوهم إلى طريق تلك العلوم . إلا أنهم لم يقفوا عند هذا الحد ، بل أضافوا الكثير من عندهم وجهود بقي بن مخلص شاهد على ذلك .

(١) ابن الغرسي : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٢) ابن الغرسي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٦٠ - ٣٦١ .

— من دلائل النشاط العلمي في ميدان الحديث في عصر الإمارة ما ألفه معارك بن مروان بن عبد الملك من أهل القرن الثالث الهجري فقد ألف معجماً لأئمة المحدثين وأسماء الأئمة من المصنفين - (انظر انخل بالنثيا : تاريخ الفكر الاندلسي ، ص ٤٠١) .

(٣) الجذوة ، ص ١٧٧ - الضبي : البغية ، ص ٢٤٥ - ٢٤٦ .

الأدب والنحو وعلوم اللغة :

يحتل الأدب واللغة والنحو المرتبة الثانية بعد العلوم الدينية من حيث اشتغال الأندلسيين بالعلوم في بداية الحركة العلمية التي بلغت ذروتها في عصر الخلافة .

ومما يدهش الدارس للحركة الأدبية في الأندلس أن الكثير من علماء الأندلس في كافة حقول العلم يتصفون في سيرهم العلمية بلون من ألوان الأدب ، كالبلاغة أو قول الشعر .

ويأتي الفقيه عبد الملك بن حبيب في مقدمة هؤلاء العلماء ، فإنه إلى جانب كونه فقيها محدثا ، كان أديبا بارعا كما أن بقي بن مخلد اتصف بهذه الصفة . وكذلك الفقيه أيوب بن سليمان (ت ٣٠٢ هـ / ٩١٤ م) كان إلى براعته في الفقه ومهارته في الفتيا ، ضليعا في النحو والشعر والعروض منسوبا إلى البلاغة^(١).

ولنبداً في الكلام عن هذا المجال بالشعر الذي ظهرت بوادر تألقه باعتباره وجها من وجوه الأدب منذ عصر الإمارة ، ففي بداية عصر الإمارة نجد الأمير عبد الرحمن الداخل من ذوي البراعة في قول الشعر ، وله أشعار جيدة تدل على ملكة راسخة في الشعر والأدب^(٢) .

وقد أتصف الأندلسيون بقول الشعر وغلب على الكثير منهم حتى كادوا أن يكونوا جميعهم شعراء ، وأصبح الشعر ظاهرة عامة للشعب الأندلسي ساعدتها ظروف البيئة السياسية ، والاجتماعية ، والطبيعية حتي أصبح على فم كل إنسان . فهو في نظر العامل والفلاح الأندلسي أنشودة تنسية همومه^(٣)

(١) ابن الفريسي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٦ .

(٢) للوقوف على نماذج من شعره انظر : اخبار مجموعة ، ص ١١٧ - ١١٨ ، ونفع الطيب ، ج ٣ ، ص ٣٨ - ٤٢ - ٥٤ .

(٣) سامي الغاني : دراسات في الأدب الأندلسي ، ص ١١٠ .

وهم بهذا (أشعر الناس فيما كثره الله تعالى في بلادهم ، وجعله نصب أعينهم من الأشجار والأنهار والأطيار لا ينازعهم أحد في هذا الشأن) (١)

ومن شعراء عصر الإمارة . يحيى بن حكم الغزال (١٥٦ - ٢٥٠ هـ / ٧٧٢ - ٨٦٤ م) وقد وصف بالبلاغة في قول الشعر، والنباهة في انتقاء صوره ، وتفننه في ضروبه المختلفة . ولما اتصف به من بلاغة وخلق نبيل وشخصية قوية أرسل في عدة سفارات إلى القسطنطينية وإلى ملك النورمان (٢) وذلك من قبل الأمير عبد الرحمن الأوسط ، وفي إحدى سفاراته تلك وقد اصطحبه صديقه يحيى بن حبيب . وكانا قد ركبا البحر وشاهدا أمواجه المتلاطمه وعائنا الخطر منه - يقول :

قال لي يحيى وصرنا	بين موج كالجبال
وتولتنا عصوف	من جنوب وشمال
شقت القلعين وانبتت	عُرَى تلك الجبال الخ (٣)

(١) المقرئ : النفع ، ج ٣ ، ص ١٥٥ .

(٢) انتدب يحيى الغزالي أول الأمر في سفارة إلى الإمبراطور تيوفيلوس إمبراطور القسطنطينية ردا على سفارته التي بعثها إلى الأمير عبد الرحمن بن الحكم سنة ٢٢٥ هـ / سنة ٢٢٥ هـ / ٨٤٠ م . وقد اصطحب يحيى في سفارته تلك صديقه يحيى بن حبيب . وحقق الغزال نجاحا كبيرا في رحلته السياسية التي استهدف منها توثيق عرى الصداقة بين الدولتين .

وعندما غزا النورمان ولايات الأندلس الجنوبية الغربية بعث ملكهم واسمه هوريك إلى الأمير عبد الرحمن بن الحكم في طلب الصلح فاجابه الأمير إلى ذلك وبعث إليه بوفد يرأسه الغزال واصطحبه في رحلته طريقه يحيى بن حبيب وقد عانيا من رحلتهما البحرية الكثير من المشقة والأخطار . ووصف الغزال تلك الأحوال في البحر في شعره وهو ما اشرنا إلى بعضه في المتن . ونظرا لما تمتع به الغزال من لباقة وذكاء وادب رفيع فقد حاز على إعجاب الملك والمملكة وكانت رحلته موفقه وناجحة (انظر : محمد عبد الله عنان : تراجم اسلامية ، ص ١٦١ - ١٦٢ - ١٦٣) .

(٣) الحميدي : الجنوة ، ص ٣٧٤ - ٣٧٥ .

وليحيى أشعار كثيرة في مواضيع مختلفة ، وقد طال به العمر حتى بلغ أربعاً وتسعين سنة . وقد جمع شعره أحد العلماء وهو حبيب بن أحمد ، وكان الغزال بعمره المديد قد عاصر عهد الأمير عبد الرحمن بن معاوية ثم ابنه هشام فالحكم فعبد الرحمن الأوسط وتوفي في إمارة الأمير محمد (١) .

ويقف الشاعر عباس بن ناصح الثقفي في مقدمة شعراء تلك الفترة ، وقد اهتم به والده فعلمه منذ صغره ورباه على المعرفة والأدب ، ولما بلغ مبلغ الرجال رحل إلى المشرق فتردد في طلب لغة العرب ، والتقى بكبار الأدباء والشعراء هناك أمثال الاصمعي ثم مال إلى أن عاد إلى وطنه ليتألق ذكره بين الأدباء وأهل الشعر ثم رحل إلى المشرق ليلقى الشاعر المشرقي الحسن بن هاني الحكمي فأقاد منه الكثير وغنم من مجالسته والتقرب إليه . وكان عباس بن ناصح يتعاطى معه قول الشعر حتى قيل إن ابن هاني شهد له بالفضل عليه (٢) .

واتصف شعر عباس بالجزالة ، وأنه كان يسلك في أشعاره مسالك العرب القديمة وقد أنجب ابن يدعى عبد الوهاب كان كأبيه شاعراً بارعاً بل إن هذا كان له ابناً برع في الشعر ومهر في فنونه . ومن العجيب أنهم تولوا القضاء جميعاً وبرعوا في الشعر جميعاً أيضاً (٣) .

وهذا بلا شك يعطينا دلالة على ماتمنع به الكثير من علماء الأندلس من قول الشعر والمهارة فيه ويؤكد ماذهب إليه الباحث من أن الكثير من الأندلسيين بمختلف اتجاهاتهم العلمية يكونوا يخلون من أدب أو شعر وأنها سمة غلبت على علماء الأندلس .

(١) الحميدي : نفس المصدر والصفحة - أحمد أمين : المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ١٠٦ - ١٠٧ .

(٢) ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، ج ١ ، ص ٢٩٦ .

(٣) ابن الفرضي : نفس المصدر والجزء ، ص ٢٩٧ .

ويبرز في عصر الإمارة من الشعراء أيضاً عباس بن فرناس الذي وصف
بالأدب وقول الشعر ، وكان في عصر الأمير عبد الرحمن وابنه الأمير محمد ،
ولعباس أشعار رائعة وقصائد بديعة دبجها في مدح الأمراء . ويشير ابن حيان
إليه بقوله : (كان عباس بن فرناس يصنع للأمير محمد قطعاً من رقيق الأشعار
تنظم بمدحه ، وتصوغ قياته فيها الألحان فتغني به ، فيجزل عليها صلته) (١)
وظهر الشاعر مؤمن بن سعيد (ت ٢٦٧هـ / ٨٨٠م) منافساً قوياً لعباس
بن فرناس حتى عُدَّ من فحول الشعراء آنذاك . وكان موالياً للأمير مسلمة بن
محمد بن عبد الرحمن ضد خصمه الشاعر محمد بن عبد العزيز العتيبي الذي
كان مختصاً بأخوه الأمير السابق (٢) .

هذا بالنسبة للشعر ويلاحظ أن الأندلسيين لم يكونوا أقل شأنًا من غيرهم
في التفنن في أبواب الأدب . بل إنه يتضح من سير هؤلاء الشعراء تفوق
بعضهم على بعض شعراء المشرق فعباس بن ناصح قد فضله الحسن بن هاني
على نفسه كما أنه سيأتي معنا عند الحديث عن الأدب في عصر الخلافة كلام
الشاعر المشرقي المتنبّي عن الأندلس وأديبها أحمد بن عبد ربه وكيف أن الأول
اثني عليه . وهذا فيه دلالة على ما أشار إليه الباحث من تفوق الأندلسيين وأنهم
لا يقلون كفاءة عن أندادهم من المشرق .

أما ما يتعلق بميدان النحو وعلوم اللغة . فإن عباس بن ناصح قد نال من
رحلاته إلى المشرق علماً كثيراً ، ومعارف جمه في اللغة وعلومها ، فقد كان من
أهل التقدم في ذلك (٣) وسبقت الإشارة إلى ترده في رحلاته هناك على أحياء
العرب في طلب لغتهم مما أورثه عمقا في معرفة اللغة العربية وعلومها ، وأنه

(١) المقتبس : تحقيق محمود مكي ، ص ٢٨٤ - ٢٨٥ .

— للوقوف على نماذج من شعره انظر : نفس المصدر ، ص ٣٠٦ ، ص ٣٥٧ - ٣٥٨ .

(٢) ابن حيان : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢١١ .

(٣) ابن الفرضي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٩٧ .

لقي الكثير من علماء البصرة والكوفة فتزود منهم بالكثير من المعارف (١) .

وممن برع في اللغة والنحو محمد بن يحيى المعروف بالقلفاط (ت ٣٠٢ هـ / ٩١٤ م) وكان إلى مهارته في ذلك بارعا في الشعر (٢) .

ولم يكن أحد يماثل صديقه - الحكيم محمد بن أسماعيل في سعة علمه باللغة غيره . ولهذا عدَّ القلفاط من أبرز النحويين . وكان لسعة علمه أثر في انصراف الناس إليه يقتبسون من علمه ويكتسبون من معارفه في ذلك (٣) .

وإلى جانب من ذكرنا فقد كان للفقير عبد الملك بن جبيب دوراً بارزاً في رقي الدراسات اللغوية . فقد وصف بالعلم في اللغة والإعراب ، وأنه صنّف كتاباً في ذلك أسماه : (إعراب القرآن) (٤)

أما في ميدان الأدب بمفهومه الشامل . فقد برز أدباء اسهموا في نشاط الدراسات الأدبية . ويأتي في مقدمة هؤلاء الأدباء فرج بن سلام القرطبي . الذي كان مهتماً بالأخبار والأشعار وألوان الأدب المختلفة ، وكان له أثر في تعريف الأندلسيين على كتب الأدب المشرقية ، حيث أدخل كتب الجاحظ عمرو بن بحر مثل البيان والتبيين وغيرها إلى الأندلس وكان فرج قد درس على يد العلامة المشرقي المذكور وأخذ عنه العلم (٥) وهو بذلك قد فتح لإخوانه من الأندلسيين باب البحث والدراسة في الأدب وفنونه المختلفة ولا شك أن مثل هذه الكتب كان لها تأثير في النشاط الأدبي لدى الأندلسيين .

(١) ابن الفوضى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٩٦ .

(٢) الحميدى : الجنوة ، ص ٩٨ .

(٣) احسان عباس : تاريخ الأدب الاندلسي ، ص ١٧٩ .

(٤) ابن حيان : المصدر السابق ، تحقيق مكي ، ص ٤٨ .

(٥) ابن الفرضي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٥٠ .

كما أسهم الأديب عثمان بن سعيد الكنانى (ت ٣٢٠هـ / ٩٣٢م) في حركة الدراسات الأدبية بما قدمه من جهود علمية كتصنيفه كتابا في شعراء الأندلس ، إلى جانب تفننه في الأدب والبراعة فيه وحرصه على جمع الكتب في هذا الميدان (١) .

وممن عاش طرفا من عمره في عصر الإمارة الأديب الذائع الصيت أحمد بن محمد المعروف بابن عبد ربه (٢٤٦ - ٣٢٨هـ / ٨٦٠م - ٩٣٦م) والذي اشتهر بكتابة القيم « العقد » والذي سوف نتحدث عنه بالتفصيل عند كلامنا عن الأدب في عصر الخلافة .

وبناء على ماتقدم فإن ميدان الأدب والنحو واللغة قد شهد آنذاك نشاطا حسنا ، أثبت فيه الأندلسيون قدرتهم الفائقة على طرق ميادين العلم المختلفة في مدة وجيزة ، فظهر فيهم علماء بارعون أسهموا في صنع الكيان العلمي الأندلسي . ولم يبقوا عالة على المشرق وثقافته ، فإن تلقيهم علومهم على أيدي المشاركة لم يمنعهم من الانطلاق نحو ميادين البحث والتأليف فبرزت لديهم مؤلفات وتصانيف قيمة تشهد بما وصلوا إليه من علم ومعرفة في ميدان الأدب .

العلوم الإنسانية :

وفيما يتعلق بهذه العلوم ، فقد تأخر الاشتغال بها عما سواها من العلوم الأخرى ولكن مع ذلك فقد برز البعض في الاشتغال بها فأسهموا في دفع الحركة العلمية بما جادت به مواهبهم ومعارفهم .

وفي هذا الميدان يتصدر التاريخ والجغرافيا تلك العلوم ، وقد اتجه الأندلسيون إلى هذه الناحية ، رغبة في تخليد مآثر وطنهم والحفاظ على تراثه . والجدير بالذكر أن التاريخ عند المسلمين قد نشأ في أحضان الحديث ، فنتيجة لحرص العلماء على صحة الأحاديث ومعرفة صحيحها من سقيمها ،

(١) ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، ج ١ ، ص ٢٠٢ .

فقد دفعهم هذا إلى الاهتمام بتراجم الرواة ومعرفة سيرهم وهذا بلا شك قادهم إلى ميدان التاريخ والتراجم ، ومن هنا نلمس ارتباط التاريخ بالحديث عند المسلمين .

وفي عصر الإمارة نرى الفقيه عبد الملك بن حبيب على علم ومعرفة بالتاريخ ، حيث عمد إلى تصنيف كتاب في التاريخ . وهذا الكتاب يتناول تاريخ العالم من ابتداء خلق الدنيا وذكر ما خلق الله فيها ثم تاريخ آدم عليه السلام ومن بعده من الأنبياء والرسل حتى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ثم الخلفاء حتى يصل إلى فتح الأندلس فيفيض في ذكر شأنها وما فيها من الكنوز ذاكراً لأساطير مختلفة عن الجان وأحوالهم . وقد أكمل هذا الكتاب بعد عبد الملك تلميذه ابن أبي الرقاع . ومما يذكر أن عبد الملك استعان في تأليف كتابه هذا ببعض شيوخه المصريين^(١) .

وممن أُلّف في التاريخ والجغرافيا المؤرخ محمد بن موسى الرازي الذي قدم قرطبة سنة ٢٤٩هـ / ٨٦٣م وكان تاجراً في أول أمره ثم حصلت له حظوة لدى الأمير محمد ، وكان يندبه في مهمات صعبة كالاصلاح بين الثائرين والفصل في الخصومات الجارية بينهم ، ولمحمد بن موسى جهود موفقه في التاريخ والجغرافيا .

وقد أشار سفير مولاي إسماعيل إلى كارلوس الثاني ملك إسبانيا وذلك في كتابه « رحلة الوزير » إلى كتاب اسمه الرايات لمحمد بن موسى الرازي ، وأورد كلاماً على لسان أحد علماء القرن الخامس الهجري من أنه وجد نسخة

(١) أنخل بالنتيا : تاريخ الفكر الأندلسي ، ص ١٩٥ - أحمد أمين : ظهر الإسلام ، ج ٣ ، ص ٢٧٤ - ٢٧٥ ، وأشار أحمد أمين في كتابه المذكور ص ٢٧٥ إلى هذا الكتاب بقوله (وقد عثر على هذا الكتاب ولا يزال موجوداً في مكتبة أكسفورد في إنجلترا ويقول من أطلع عليه أنه ليس له قيمة تاريخية كبيرة) .

من هذا الكتاب في خزانة الرازي بن المعتمد ويذكر فيها رايات المسلمين
الداخلين الأندلس^(١) .

ومحمد بن موسى الرازي المذكور أب لأسرة أنجبت علماء نوابغ في
التاريخ والجغرافيا وسوف نتحدث عنهم عند تعرضنا لميدان التاريخ في عصر
الخلافة .

وفيما يتصل بالفلسفة فلم يكن لها انذاك سوق نافقة لدى الأندلسيين
الذين كانوا أبعد الناس عن الاشتغال بها . وإذا عدنا إلى الوراء قليلا وتذكرنا
موقفهم من الخارجين على المذهب المالكي لاتضح لنا مدى نقمتهم الشديدة على
الخارجين على السنة من ذوي الآراء الكلامية والفلسفة .

ورغم ما تقدم فإنه ينسب إلى الأمير عبد الرحمن الأوسط ادخال الفلسفة
إلى الأندلس وذلك لما اتصف به من حب لها وشغف بكتبتها . فقد كان يبيت
رجالها في الأقطار وخاصة المشرق للبحث عن كتب الفلسفة وتصانيف الفكر
اليوناني والهندي والفارسي^(٢) .

وقد أشار السيوطي والمقرئ إلى اهتمام الأمير عبد الرحمن الأوسط
بكتب الفلسفة وشبهه في ولعه بهذا العلم بالمؤمن العباسي^(٣) .

ومما يذكر عن الأمير عبد الرحمن الأوسط أنه أغدق الصلات على أهل
العلم وقربهم إليه ، وأدنى مجالسهم ، وأنه كان يعقد مجالس العلم بين

(١) حسين مؤنس : الجغرافية والجغرافيون في الأندلس ، مجلة معهد الدراسات الإسلامية
بمدريد . العدد الثالث ، ج ٧ ، ٨ ، ص ٢٢٤ - خير الدين الزركلي : الأعلام ، ج ٧ ، ص ١٧٧ .

(٢) ليفي بروفنسال : حضارة العرب في الأندلس ، ص ٦٣ .

(٣) تاريخ الخلفاء ، ص ٥٦٦ - النفح ، ج ١ ، ص ٣٤٧ .

يديه ، ونظرا لاجاباه بالفلسفة فقد ترجم ما وصلت اليه يده من كتب الفلسفة اليونانية(١) .

ولما كان هناك ارتباط بين الفلسفة وعلم الكلام من حيث اعتماد العقل في الجدل والمناظرة . فقد وجد آنذاك علماء اقتحموا ميدان الكلام ، ومنهم يحيى بن يحيى المعروف بابن السمين المتوفي سنة ٣١٥هـ / ٩٢٧م والذي رحل إلى المشرق وتعرّف على مدارس المتكلمين ومال إلى مذاهبهم واطلع على تصانيفهم ونتيجة لهذا فقد كانت له آراء في هذا الميدان تخالف كلام أهل السنة(٢)

وقد عاش في عصر الإمارة الفليسوف محمد بن عبد الله بن مسرة كما أدرك عصر الخلافة فقد توفي سنة ٣١٩هـ / ٩٣١م . وسوف نتحدث عن حركته الفلسفية في ميدان الفلسفة في عصر الخلافة .

وبناء على ماتقدم يتضح أن هذه العلوم لم تكن خلوا من النشاط العلمي وإن كان هذا النشاط لم يبلغ ذروته إلا في عصر الخلافة ، ويمكن القول أن جهود الأندلسيين في هذه الدراسات كانت نواة لصرح علمي شامخ شهده عصر الخلافة فجهود الرازي في التاريخ والجغرافيا دفعت أبنائه من بعده إلى مواصلة السير في هذه الدراسات ، فكانوا من أبرز علماء التاريخ والجغرافيا في عصر الخلافة ، كما أن ابن مسره الذي عاش جزءاً من حياته في عصر الخلافة قد استمد ثقافته من حياته الأولى في العصر السابق .

وهكذا يتبين أن عصر الإمارة كان فترة خصبة نبتت فيها القدرات العلمية وترعرعت لتعطي ثمارها فيما بعد يانعة طيبة .

(١) إبراهيم الشريقي : التاريخ الإسلامي ، ص ١٦٧ - السيد عبد العزيز سالم : قرطبة في العصر الإسلامي : مجلة المؤرخ العربي ، العدد الثالث عشر ص ٢٢ وما بعدها .

(٢) ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، ح ٢ ، ص ١٨٨ .

العلوم الطبيعية :

الحق يقال أن هذه العلوم لم تشهد اقبالا كبيرا في عصر الإمارة ، فقد ظهرت بوادر الاشتغال بها في منتصف القرن الثالث الهجرى في أواخر عصر الإمارة وذلك في عهد الأمير الخامس من أمراء بني أمية وهو محمد بن عبد الرحمن فقد (تحرك أفراد من الناس إلى طلب العلوم ، ولم يزالوا يظهرون ظهورا غير شائع إلى قريب وسط المائة الرابعة) (١) .

وكان علم الفلك وما يلحق به من التنجيم يجد له مكانة في نفوس بعض الحكام فيحدثنا المقرئ أن الأمير هشام بن عبد الرحمن أرسل في طلب أحد المنجمين ويدعى الضبي من أهل الجزيرة الخضراء وكان في بداية توليه هشام الإمارة ، وقد عرف الضبي بالبراعة في الفلك وأنه (كان في علم النجوم والمعرفة بالحركات العلوية بطليموس زمانه حذقا وإصابة) (٢) ولما حضر لدى الأمير طلب منه النظر في أمره من خلال مهارته في التنجيم ودراسة ظواهره فأخبره بأنه سوف يحكم لفترة يستقر بها حكمه ، ويستقيم أمره إلا أنه سوف يدوم ثمانية أعوام فقط ، فتأثر الأمير بهذا الخبر وقال : لو أن هذه المدة كانت في سجدة لكانت قليلة ثم مال إلى الزهد والصلاح (٣) .

ورغم موقفنا من التنجيم وأن الشريعة الإسلامية دعت إلى نبذه ، ووصفت أهله بالكذب والإدعاء ، إلا أن هذه الحادثة تعطينا دلالة على ماكان للمشتغلين به من مكانة لدى الأمراء وفي قصور الحكام .

(١) صلعد : طبقات الأمم ، ص ٨٦ .

(٢) نفح الطيب ، ج ١ ، ص ٣٣٥ .

(٣) نفس المصدر والجزء والصفحة .

ومن المشتغلين بالفلك أبو عبيدة مسلم بن أحمد بن أبي عبيده المعروف « بصاحب القبلة » . وقد عرف بهذا لأنه كان يسرب (١) في صلاته كثيرا ، وكان مهتما بعلم الفلك راصدا لحركات الكواكب وتأثيرها على الأرض وما ينتج عن ذلك . وقد وقف منه الأديب أحمد بن عبد ربه موقفا معاديا لخروجه على الشرع بما ادعاه من آراء فلكية حول الأرض واختلاف الفصول بين الشمال والجنوب ، فيقول من قصيدة له :

أبا عبيدة ما السؤال عن خبر	تحكيه إلا سواء والذي سأل
أبيت إلا شذوذاً عن جماعتنا	ولم تصب رأى من أرجى ولا اعتزلا
كذلك القبلة الأولى مبدلة	وقد أبيت فما تبغي بها بدلا
زعمت بهرام أوبيذخت يرزقنا	لا ، بل عطارد أو برجيس أو زحلا
وقلت : إن جميع الخلق في فلك	بهم محيط ، وفيهم يقسم الأجلا
والأرض كُرِّيَّة حَفَّ السماء بها	فوقاً وتحتاً وصارت نقطة مثلاً
صيف الجنوب شتاء للشمال بها	قد صار بينهما هذا وذا دولا (٢)

ويتبين من خلال هذه الأبيات بعض الآراء العلمية التي كان يؤمن بها أبو عبيدة ، ومنها حقائق علمية معروفة ككروية الأرض ، واختلاف الفصول باختلاف الموقع الجغرافي للأرض . وهذا آراء صحيحة ليس فيها ما يبرر هجوم ابن عبد ربه على ذلك الفلكي وخاصة إذا علمنا أن العلماء أثنوا عليه ووصفوه بالصدق والأمانة (٣) .

(١) يقول عنه ابن الفرضي في كتابه تاريخ علماء الأندلس ، ج ٢ ، ص ١٢٦ ، (سمي بصاحب القبلة ، لأنه كان مولعا بالتشريق في قبلته ، مفتونا بذلك فكان يقال له صاحب القبلة) .

(٢) صاعد : المصدر السابق ، ص ٨٦ - ٨٧ - احسان عباس : المرجع السابق ، ص ١٢١ ، قدرى طوفان : تراث العرب العلمي ، ص ٢٦٣ .

(٣) انظر ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، ج ٢ ، ص ١٢٦ - ١٢٧ .

وكان ليحيى بن يحيى المعروف بالسمنية معرفة واسعة بالفلك والرياضيات إلى ما تميز به من ميل نحو الاعتزال وأهل الكلام (١) .

كما عُرفَ عن الأمير محمد بن عبد الرحمن نبأته في الرياضيات وخاصة في ميدان الحساب . وكان لذكائه في ذلك أن قام على محاسبة أهل خدمته ، وتعقب أمورهم المالية بنفسه ، ودلهم على مواضع الخطأ والزلل في أعمالهم من خلال معرفته وتفوقه في الحساب (٢) .

وأخيرا لا يفوتنا أن نشير إلى العلامة الفلكي الرياضي عباس بن فرناس الذي مرَّ معنا في ميدان الشعر سابقا - فقد كان بارعا في الفلك ذكيا نبيا - في معالجة فنونه المختلفة إلى جانب مهارته في الهندسة وعمق معرفته بمسائلها ، وقد دفعه ذلك إلى صنع آلة لمعرفة الوقت وأسمائها [المنقانة] وقد أحكم صنعها ونقش عليها أبياتاً منها :

ألا إنني للدين خير أداة إذا غاب عنكم وقت كل صلاة (٣)

وله أعمال غير ذلك تشهد بنبوغه في الهندسة والفلك وقد نسب إليه من ذلك اختراع صناعة الكريستال (البلور) ، كما صنع في منزله هيئة السماء . يخيل للناظر فيها النجوم والرعود ، وتصور احتمال الطيران ، واحتال في ذلك فطار مسافة بعيدة إلا أنه لم يحسن الاحتياال في هبوطه فتأذى في مؤخره ولم يدر أن - الطائر إنما يقع على زمكه ولم يعمل له ذنبا (٤) .

وفيما يتصل بعلم الطب ، فقد كانت الحاجة اليه شديدة بطبيعة الحال فقد كان الحكام يحرصون أشد الحرص على أن يتوفر في قصورهم أعداد من

(١) صاعد : طبقات الأمم ، ص ٨٧ - قدرى طوقان : المرجع السابق ، ص ٢٦٠ .

(٢) أخبار مجموعة (مؤلف مجهول) ، ص ١٤١ - ١٤٢ .

(٣) ابن حيان : المقتبس ، تحقيق محمود مكي ، ص ٢٨٢ - ٢٨٣ .

(٤) لطفى عبد البديع : الإسلام في إسبانيا ، ص ٥٦ - ٥٧ - MuslimSpain - its History and:

١٦٣ cul ture, P.

الأطباء يقومون على علاجهم ووصف ما يحتاجون إليه من الأدوية والأغذية المناسبة لصحة أبدانهم ، لهذا نرى أن المشتغلين بالطب آنذاك كان موطن نشاطهم مقصورا على قصور الحكام والأعيان تقريبا .

ووصف صاعد الطليطي بداية اشتغال الأندلسيين بالطب بأنه لم يكن بالأندلس من استوعبها ولا لحق بالمتقدمين فيها . وإنما كان غاية أكثرهم دراسة بعض فروع وشيئا من وجوه الطب والتداوي ليتسنى لهم بذلك اللحاق بخدمة الحكام رغبة في الجاه والمنزلة وأنهم كانوا يعملون في دراستهم للطب على كتاب للنصارى يدعي الإبريشم^(١) .

والحق أن هؤلاء الأطباء بمنهجهم هذا قد تخلوا عن دراسة الطب دراسة العلم والمعرفة إلى دراسته من أجل المصلحة والمنفعة المادية ، وهذا بلا شك كفيل بأن يخذ من تعمقهم في دراسة الطب دراسة صحيحة ليكون علمهم قاصرا على بعض أساليب التداوي التي يرونها ضرورية في علاج من يقومون علي خدمتهم من الأمراء والحكام ووصف الأغذية المفيدة لهم . ولهذا نلمس أنه لم يظهر آنذاك طبيب بارع حاذق في الطب عارف به معرفة واسعة بخلاف عصر الخلافة الذي أنجب أطباء كان لهم شهرة عالمية بفضل ما بلغوه من علم واسع بالطب ومناحيه المختلفة .

ومن أطباء تلك الفترة يونس بن أحمد الحراني الذي تبوأ مكانة عالية لدى الأمير عبد الرحمن الأوسط ، ومما جرى لذلك الطبيب في قصر الإمارة أن نصر الخصي أقدم على محاولة قتل الأمير عبد الرحمن ، عندما رفض أن يستجيب لحظيته طروب في توليه ابنها عبد الله ولاية العهد بدلا من محمد ، وكان لرفض الأمير أثره في اغصاب طروب وخادمها نصر ، ففكر الأخير فيما لو تولى الأمير محمد بعد أبيه كيف يغفل عن موقفه هذا؟ وانتهى إلى الذهاب

(١) طبقات الأمم ، ص ١٠٣ - ١٠٤ .

إلى الطبيب الحراني الذي اغراه بمنصب كبير على رغبته في عمل شراب يحوى سماً ليتمكن من ادراك هدفه بقتل الأمير عبد الرحمن . وكان من عادة الأميران يصيبه فتور فيشرب دواءً يسكن ألمه على أثره وفي مثل تلك الحالة شكى الأمير علقته فسارع نصر إلى الحيراني ، وطلب منه السم ، لكن الطبيب أخبر جارية الأمير قبل أن ينفذ نصر خطته . وعندما أحضر الدواء تظاهر الأمير بعدم رغبته في ذلك . وطلب من نصر أن يشربه بدلاً منه فظهر التردد ولكن الأمير أكرهه على شربه فشربه ثم - انطلق إلى داره يسأل عن الطبيب ويستخبره عن دواء يمنع مفعول السم فأشار عليه بلبن الماعز ولكن السم كان أسرع مفعولاً فمات نصر قبل حصول ذلك (١) .

ومن خلال هذه القصة نلمس ما كان عليه الأطباء آنذاك ، وما كانوا يتمتعون به من مكانة داخل قصور الأمراء ، وأن مهمتهم كانت خطيرة ، تتعلق بحياة الأمراء وسلامتهم ولهذا فقد كانت الأمانة أولى الصفات التي يراها الحكام في أطبائهم .

ويتصل بالطب حقل الصيدلة وتركيب الأدوية ، وبرز في هذا الميدان حمدين ابن إبان وكان في عصر الأمير محمد بن عبد الرحمن وقد وصف هذا الطبيب بالمهارة في تركيب الأدوية وحسن العلاج . وعلى منواله الطبيب النصراني جواد (٢٠٧ هـ - ٢٧٢ هـ / ٨٢٢م - ٨٨٥م) الذي برع في تركيب الأدوية وضع العقاقير والوصفات الطبية النباتية . وكان الطبيب النصراني خالد بن يزيد بن رومان ماهراً في تركيب الأدوية ، جيد العلاج يستند في علاجه إلى التجارب الطبية وكانت تربطه بالطبيب المصري النصراني نسطاس

(١) ابن حيان : المصدر السابق ، ص ١٤ - ١٥ .

بن جريج علاقة صداقة وود وكانت بينهما مراسلات علمية حيث أرسل الأخير إلى خالد رسالة طبية في البول وحالته تبعا لحالة المريض (١) .

ويلحق بهؤلاء الأطباء الطبيب النصراني يحيى بن اسحاق وكان طبيبا لدى الأمير عبد الرحمن الناصر قبل اعلانه الخلافة ، كما أن أباه اسحاق كان طبيبا لدى الأمير عبد الله ، وكان لتضلع يحيى في الطب أن ألف كتابا في خمسة أسفار سلك في تأليفه مسلك الأوائل وسماه الابريشم (٢) .

والجدير بالذكر أن القفطي أشار إلي أن يونس الحراني السالف الذكر كان في بداية دخوله الأندلس قد أدخل معه دواء من الشراب كانت السقية منه بخمسين دينارا وذلك لعلاج الأوجاع الباطنية وما يتعلق بذلك مما كان سببا في تهاونت الناس عليه فعلت حاله واثرى ثراء كبيرا . وقد اجتمع عشرة من الأطباء فاشترؤا شيئا من هذا الدواء وفحص كل منهم جزءا منه فوقفوا على اهميته ونفاسته وسألوا الحراني عن تركيبه واعداده فاعلمهم بسر ذلك مما كان له أثر في انتشار ذلك الدواء وتفشي طريقة تركيبه واعداده بين أطباء ذلك العصر (٣) .

وهذا بلاشك يعطينا دلالة على التأثير المشرقي في الأندلس . وكيف أن الأندلسيين كانوا كثيري الاهتمام بكل ما يصلهم من تأثيرات علمية فيد رسوها ويضيفوا اليها ولم يلبثوا حتى ابتكروا أساليب جديدة للعلاج اسهموا بها في نمو الدراسات الطبية وبذلك كانوا أهل عطاء وبذل في ميدان الحضارة الإنسانية .

(١) ابن جليل : طبقات الأطباء ، ص ٩٦ - بالنثيا : المرجع السابق ، ص ٤٦١ - ٤٦٢ .

(٢) ابن جليل : المصدر السابق ، ص ١٠٠ - ١٠١ - صلعد : المصدر السابق ، ص ١٠٤ - ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ص ٤٨٨ .

(٣) أخبار العلماء بأخبار الحكماء : حرف الياء ، ص ٢٥٨ . وانظر عمر فروخ : عبقرية العرب في العلم والفلسفة ، ص ١٢٥ .

ويبدو لنا بعد هذا العرض الموجز للنشاط العلمي في عصر الإمارة أن الآثار العلمية التي وصلت إلينا* عن الأندلس في هذه الفترة قليلة ، وهذا يعود إلى عاملين :

أولهما :

ضياع تلك الآثار بالفتن وبالزمن .

وثانيهما :

أن الأندلسيين كانوا كثيرون الإعجاب بالمشاركة يأخذون عنهم علومهم ومعارفهم وأن الإنتاج العلمي للأندلسيين لم تتضح آثاره إلا بعد القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي . (١)

هذا بالإضافة إلى الأندلسيين كانوا في عصر الإمارة أكثر اهتماما واشتغالا بعلوم الدين التي ترتبط بعقيدتهم . فكان الفقه والحديث واللغة والنحو والشعر يغلب على نشاطهم العلمي ثم مالبتوا أن انطلقوا في ميادين العلم الأخرى في العصر التالي .

(١) عمر فروخ : تاريخ الفكر العربي ، ص ٥٧٦ .

القسم الأول

دراسة لأهم مظاهر النشاط
العلمي في عصر الخلافة

القسم الأول

الفصل الأول

اهتمام الخلفاء بالحركة العلمية

- عبد الرحمن الناصر
- الحكم المستنصر
- هشام المؤيد (والمنصور بن أبي عامر وولده عبد الملك)
- أثر قيام الفتنة وسقوط الخلافة على الحركة العلمية .

الخليفة عبدالرحمن الناصر (٣١٦ - ٣٥٠ هـ / ٩٢٨ - ٩٦١ م)

كان للخلفاء أثر في ازدهار الحركة العلمية في الأندلس . كما أن عصر الخلافة الأموية في الأندلس يمثل الانطلاقة الواسعة في ميادين الحضارة والبناء الفكري .

ولاشك أنه كان للاستقرار السياسي والاجتماعي والاقتصادي أثر واضح في انصراف الرعاية نحو ميادين النشاط الحضاري بمختلف وجوهه . وقد تسنى للخليفة عبد الرحمن الناصر الذي اعتلى سدة الأمر سنة ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م أن يقر الأحوال ، ويقضي على الفتن ، فقد تولى السلطة في البلاد في وقت كانت فيه في غاية من الفوضى والخروج على نظام الأمن والاستقرار حتى وصفها أحد المؤرخين بقوله :

(جمرة تحتدم ، ونار تضطرم شقاقا ونفاقاً ، فأحمد نيرانها ، وسكن زلزالها)(١)

وبعد أن قويت قبضته على البلاد وتم له الأمر ، ودانت له الأندلس تلقب بأمير المؤمنين سنة ٣١٦ هـ / ٩٢٨ م . وذلك بعد أن رأى ضعف العباسيين بالشرق . وتغلب الأتراك عليهم . وبعد أن رأى خصومه الفاطميين قد تلقبوا بألقاب الخلافة وتسموا بالخلفاء (وظهر من اتساع ملكه ، وقوة سلطانه وإقبال دولته ، وخمود نار الفتنة على اضطرامها بكل جهة ، وانقياد العصاة لطاعته ماتعجز عن تصويره الأوهام . وتكل في تحبيره الأقلام)(٢)

وكان لنشأة عبد الرحمن الناصر أثر كبير في سيرته وفي موقفه من النشاط العلمي في الأندلس فما كاد يبلغ أشده حتى ظهرت نجابته ، وأبدى بالرغم من صغره نباهة وتفوقا في العلوم والمعارف فقد درس القرآن والحديث

(١) ابن عذاري : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ج ٢ ، ص ١٥٨ .

(٢) ابن الأبار : الحلة السيرة ، ج ١ ، ص ١٩٧ - ١٩٨ - ١٩٩ .

وهو طفل لم يجاوز العاشرة ، ويرع في اللغة والشعر إلى جانب فنون الحرب والفروسية(١) .

ومن العلماء الذين تلقى على أيديهم العلم الفقيه المحدث قاسم بن اصبغ البيانى (٢٤٤ - ٣٤٠هـ / ٨٥٨م - ٩٥١م) فقد سمع منه العلم ، وأخذ عنه الفقه والحديث وعلوم الدين بوجه عام ، وذلك قبل توليه الخلافة(٢) .

وإذا كنا محقين في أن ألع فترة علمية شهدتها الأندلس كانت في عصر ابنه الحكم المستنصر الذي لا تخلو ترجمته في أي كتاب من الثناء والإشادة بفضل العظم على الحركة العلمية ، فإنه من الحق أيضا أن ننسب جانبا كبيرا من ذلك الفضل إلى أبيه الذى أرسى قواعد الحضارة ، ومهد للنبوغ الفكري ، والتقدم العلمى في بلده ، فلم يتسلم الحكم المستنصر الحكم في الأندلس إلا بعد أن بذر أبوه بدور العلم والمعرفة ، وغرس شجرة الفكر التي اينعت ثمارها في عصر ابنه الحكم المستنصر .

وفضلا عما اتصف به عبد الرحمن الناصر من حزم وقوة وحنكة سياسية . فقد كان (يرتاح للشعر . وينبسط إلى أهله . ويراجع من خاطبة به من خاصته)(٣) وفي هذا إشارة إلى ما كان يتمتع به من ملكة أدبية حملته على الاهتمام بالشعر والتقرب إلى زوياه من الشعراء وأهل الأدب ، ومما دفعه إلى الاهتمام بالأدب والشعر ما كان يتصف به هو من إجادة للشعر ، هذا وتحفل بعض كتب التاريخ والأدب بنماذج من شعره(٤) .

(١) محمد عنان : تراجم اسلامية ، ص ١٦٧ .

(٢) ابن الغرضي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٦٤ - ٣٦٥ .

(٣) ابن الأبار : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٩٩ - ٢٠٠ .

(٤) انظر في هذا الصدد ابن الأبار : المصدر السابق ج ١ ، ص ١٩٩ - الازدي : بدائع البدائه ص ١٩٥ - ١٩٦ - المقرئ : نفع الطيب ، ج ١ ، ص ٣٧٩ - ٣٨٠ ، كما وينسب اليه اجادته للنثر وبراعته فيه انظر ابن سعيد : المغرب في حلي المغرب ، ج ١ ، ص ١٨٤ - ١٨٥ - ١٨٦ .

ولعل من دلائل اهتمامه بالأدب وعنايته بالشعر أن امر بانتساخ شعر أبي تمام الطائي - حبيب بن أوس الطائي - وجمع لذلك طائفة من أدباء الأندلس لتحقيق رغبته تلك^(١).

وكان بلاط عبد الرحمن الناصر يحفل بالكثير من العلماء والأدباء ، فقد ضم قصره العلامة الأديب أحمد بن عبد ربه . وكذلك أديب المشرق أبا علي القالي الذي وفد في عهده وتبوأ مكانة سامية بين علماء بلاط الخلافة في قرطبه ، كما أنه كان بين فقهاء عصره منذر بن سعيد البلوطي ، وقاسم بن اصبيغ البياضي ، ومن الأطباء خلف بن عباس الزهراوي أعظم جراح في الإسلام إلى غير ذلك من أهل العلم والمعرفة الذين تيسر لهم الإنصراف إلى العلم في مناخ مناسب كفّل لهم سبل العطاء والإنتاج العلمي ، وقد كان عبد الرحمن الناصر مكرما لهم حريصا على وضعهم فيما يناسبهم من المنازل ، كما أجتهد في تخير قضاته من أولي العلم والمعرفة^(٢) .

وكان لاهتمام عبد الرحمن الناصر بالعلم ، وشغفه بالكتب ، أن اشتهر ذلك عنه حتى بلغ ملوك عصره - فأحب أحدهم وهو الامبراطور البيزنطي ارمانوس أن يرسل له هدية علمية تحوز على رضاه ومودته ، فبعث إليه (٣٣٧هـ / ٩٤٨م) بكتابين من تصنيف الأوائل . أحدهما في الطب وهو كتاب ديسقوريدس في النبات مصورا وباللغة الاغريقية والثاني في التاريخ وهو كتاب هروشيئش باللاتينية^(٣) .

وكان لعنايته بالعلم والمعرفة ان اندفع إلى جمع الكتب والعمل علي حيازتها ، وينسب إليه تأسيسه نواة المكتبة الكبرى التي ازدهرت في عهد ابنه

(١) الزبيدي : طبقات النحويين ، ص ٣٠٦ - ٣٠٧ .

(٢) الاشبيلي : ربحان الالبان وريحان الشباب (مخطوط) ورقة ١١٣٩ .

(٣) ابن أبي اصبغة : عيون الأنباء ، ص ٤٩٣ - ٤٩٤ - أحسان عباس : المرجع السابق ، ص ٦

الحكم المستنصر، فقد أسس مكتبة قيمة في قصره وخرن بها الكتب النفسية والتأليف النادرة في وجوه العلم المختلفة ومنها هدية ارمانوس^(١) .

وبناء عليه فإن عصر الخليفة عبد الرحمن الناصر كان بداية مجيدة لعصر عظيم ازدهرت فيه العلوم والآداب ، وانصرف العلماء فيه إلى تحصيل العلم وتصنيف الكتب في شتى حقول المعرفة . ولا ريب في ذلك فإن الكثير من كتب العلم التي ألفت في عهده لتدل على ما اتسم به من مناخ خصب نمت فيه القدرات العلمية فأعطت ثمارا يانعة في ميدان الفكر وأصبحت حاضرة الخلافة قرطبة داراً للعلم ومركزاً ثقافياً زاهراً استقطب العلماء من أقاصي البلاد ، وجذب الطلاب من نواحي الأندلس المختلفة بل ومن خارجها في صورة تؤكد عظمة ذلك العصر ومدى ماحقته الأندلسيون من نشاط علمي كبير .

وكانت وفاة الخليفة عبد الرحمن الناصر (عام ٣٥٠هـ / ٩٦١م)^(٢) بعد أن قضى في الحكم ما يقارب نصف قرن ، وفي الخلافة أربعة وثلاثين عاما تقريبا . حفلت بجلال الأعمال وروائع الأنشطة في الميادين السياحية والاقتصادية والعسكرية والعلمية .

(١) ماهر حمادة : المكتبات في الإسلام ، ص ١٢٢ - أنخل بالنتيا : تاريخ الفكر الأندلسي ، ١٠ .

— الامبراطور ارمانوس ١ هو قسطنطين السابع ، تولى الحكم من سنتي ٩١٢ إلى ٩٥٩م وكان في بداية توليه الحكم صغيرا . فقام بالوصاية عليه عمه ، ثم انفرد بالحكم سنة ٩٤٥م . — وعرف عنه ميله إلى العلم والأدب وعنايته بالكتب ، (سعيد عبد الفتاح عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ٤٠٨ - ٤٠٩ .

(٢) جانب أبو عبد الله الأشبيلي الصواب في كتابة المخطوط ربحان الألباب ورقة ١٣٩ . عندما ذكر أن الخليفة عبد الرحمن الناصر توفي عام ٣٤٥هـ . ولكن الحقيقة أن وفاته كما أكدت المصادر التاريخية كان عام ٣٥٠هـ / ٩٦١م . انظر في ذلك ابن الغرضي : تاريخ علماء الأندلس ، ج ١ ، ص ٧ .

والحميدى : جذوة المقتبس ، ص ١٣ ، والضبي : بغية الملتبس ، ص ١٧ .

الحكم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ / ٩٦١ - ٩٧٦ م) :

يعد هذا الخليفة بدون مبالغة أعظم خلفاء الأندلس علماً وأدباً ، فقد كان له عناية واهتمام بالغين بكل ماله صلة بالعلم والمعرفة وأكسبه ذلك علماً واسعاً ، وأدراكاً سليماً لقضايا العلم حتى أصبحت آراؤه في ميدان العلم حجة لدى العلماء^(١) .

وكان لحبه للعلم وشغفه بالألوان المعرفة أن كان سباقاً إلى ميدانها فأسهم في ازدهار الحركة العلمية في عصره اسهاماً بارزاً ، ولا نبالغ اذا اعتبرناه بجهوده العلمية رائداً للنهضة العلمية في عصر الخلافة .

وكان لنشأة هذا الخليفة أثر كبير في تشكيل سلوكه تجاه الحركة الفكرية فقد درس على الكثير من العلماء ، منهم الأديب محمد بن إسماعيل القرطبي (ت ٣٣١ هـ / ٩٤٢ م) الذي تلقى على يديه بعض العلوم كالآدب والنحو والحساب وأفاد منه دراسة العلوم بطريقة تحليلية عميقة . إذ وصف هذا الأديب بعمق التفكير ودقة التعبير في اشتغاله بالعلم^(٢) .

ودرس علوم الدين من حديث وتفسير وفقه على يد العلامة قاسم بن أصبغ الذي رحل إلى المشرق حيث جلب معه مصنفات وعلوماً كثيرة فأفاد منها الحكم ودرس على يديه هو وإخوته أيضاً^(٣) .

وممن استفاد منه الحكم واقتبس من علمه ، اللغوي علي بن معاذ بن سمعان الرعياني وكان من أهل الآدب واللغة إلى جانب مهارته في التاريخ والانساب وقد استقدمه الحكم إلى قصره حيث أخذ عنه الكثير من المعارف^(٤) .

(١) ابن الأبار : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٠٠ - ٢٠١ .

(٢) الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ٢ ، ص ٢١٠ .

(٣) ابن الفرضي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٦٥ - ٣٦٦ .

(٤) المراكشي : الذيل والتكملة ، السفر الخامس ، القسم الأول ، ص ٤١٠ .

بالإضافة إلى ذلك فقد سمع من علماء آخرين كأحمد بن دحيم ، ومحمد بن عبد السلام الخشني ، وزكريا بن خطاب وأجاز له ثابت بن قاسم بعد أن بلغ الحكم درجة من الحفظ والمعرفة (١) .

كل هؤلاء العلماء وغيرهم كان لهم تأثير في تكوين شخصية الحكم الثقافية فقد أفاد منهم إفادة عميقة في ميادين العلوم الدينية والأدبية والتاريخ والأنساب .

شخصية الحكم العلمية :

لقد نتج عن إقبال الحكم على دراسة العلوم والآداب ، ومجالسته للعلماء أن أثر ذلك في شخصيته تأثيرا واضحا . فظهرت عليه علائم النبوغ الفكري ، ودلائل التفوق العلمي في دراساته العلمية المختلفة . مما كون لديه نظرا صائبا وعميقا لمسائل العلم . وكان في حياته شديد المطالعة لكتبه . دائم النظر فيها يتبع في قراءتها النظرة التحليلية والفكر الثاقب (فيأتي من ذلك بغرائب لا تكاد توجد إلا عنده لكثرة مطالعته ، وعنايته بهذا الفن ، وكان موثوقا به مأمونا عليه صار كل ماكتبه حجة عند شيوخ الأندلسيين وأئمتهم ، فينقلونه من خطه ويحاضرون به) (٢)

وقد أشاد به المؤرخون ووصفوه بالإطلاع الغزير والنظرة العميقة الفاحصة لما يقرأه من كتب العلم (٣) .

(١) المقرئ : نفع الطيب ، ج ١ ، ص ٣٩٥ .

(٢) ابن الأبار : الحلة السيرة ، ج ١ ص ٢٠٢ .

(٣) انظر في ذلك كل من : ابن الخطيب : أعمال الأعلام . ص ٤١ - المقرئ : النفع ، ج ١ ص ٣٩٥ - ستائلي لين بول : قصة العرب في إسبانيا ترجمة علي الجارم ، ص ١٤٢ - أنيس الفصولي : الدولة الأموية في قرطبة ، ص ١٢٢ - روم لاندو : الإسلام والعرب . ترجمة منير بعلبكي ، ص ١٧٧ - زكريا هاشم : فضل الحضارة الإسلامية ، ص ٢٧٠ - أنخل بالنثيا : المرجع السابق ، ص ١٠ - زيفريد هونكه : شمس العرب تسطع على الغرب . ص ٥٠١ - مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسي ، ص ١٠٣ - أمير علي : مختصر تاريخ العرب ، ص ٤٢٣ .

ومن الأمثلة على أن أقوال الحكم كانت حجة لدى العلماء ما أشار إليه الحميدي عند ترجمته للأديب ابن عبد ربه حيث بعد إirاده تلك الترجمة (هذا آخر ما رأيت بخط الحكم المستنصر وخطه حجة عند أهل العلم عندنا لأنه كان عالماً ثبّاتاً) . (١)

وعليه فإنه لسعة اطلاعه وغزارة علمه وثقافته فقد تولد لديه نظرات صائبة واء قيمة في فروع العلم وفنونه المختلفة ، وكان يعلق على كتبه بل ويصحح ما اخطأ فيه غيره من العلماء فلم يكن همه جمع الكتب وحشدها في خزائن قصره ، بل كان يطلع عليها ويناقش ما يرد فيها ببصيرة نافذة ورأي حكيم ، يعنيه في ذلك ثقافته وتكوينه العلمي وفي هذا يقول ابن الأبار (وقلما تجد له كتابا كان في خزانته إلا وله فيه قراءة ونظر من أي فن كان من فنون العلم : يقرؤه ويكتب فيه بخطه إما في أوله أو آخره أو في تضاعيفه نسب المؤلف ومولده ووفاته والتعريف به ويذكر انساب الرواه له) (٢) .

وهكذا يبدو واضحاً القدر العلمي العظيم في شخصية الحكم . وكيف كان لحياته الحافلة بالعلم وحبه للكتاب أثر كبير في علو مكانته العلمية ورسوخه في فنون العلم .

ومما روى له من كتابات وتعليق علي الكتب التي طالعها ما ذكره القاضي صاعد في ترجمته للمؤرخ اليمنى الحسين بن أحمد الهمداني مانصه : (ووجدت بخط أمير الأندلس الحكم المستنصر بالله عبد الرحمن الناصر لدين الله - أن أبا محمد الهمداني توفي بسجن صنعاء في سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة) (٣)

(١) جذوة المقتبس ، ص ١٠١ .

(٢) الحلة السرياء ، ج ١ - ص ٢٠٢ .

(٣) طبقات الامم . ص ٧٩ - ٨٠ .

ولا ريب بعد ما ذكرنا أن الحكم المستنصر قد قدم إلى الحركة العلمية دفعة من النشاط فكان من نتائج علمه الواسع ومعرفته العميقة بالتاريخ أن صنف كتابا في أنساب الطالبين والعلويين القادمين إلى المغرب^(١) ، وقد استعان في تأليف ذلك الكتاب بما كان يتلقفه من أفواه العلويين الذين يفدون عليه سواء في ولايته للعهد أو بعد توليه الحكم . فقد عرف عنه حبه للعلماء وشغفه بعلم الأنساب ، ورغبته في معرفة أنساب الناس وتبيينها لمن خفي عليه ذلك ، يدل عليه ما ذكره ابن الأبار من اهتمامه بأنساب المؤلفين ومن يروي لهم . وإلى جانب ذلك فقد كان للحكم اهتمام بالأدب وكان يقرض الشعر ونسبت إليه أشعار كثيرة^(٢) .

وكان لغلبة النشاط العلمى في عهد الحكم المستنصر أثر في زهاب بعض الكتاب كستانلي لين بول إلى القول بأن انصراف الحكم إلى العلم واهتمامه بالكتب وعنايته بها قد أدى عدم تطلعه إلى الغزو والجهاد من جهة وإلى اغفاله تربية ابنه هشام الذى لو اهتم به لما حدث من تغلب الغير على السلطة من جهة أخرى^(٣) .

وسوف نتناول هناك التهمة الأولى ونؤجل الأخرى إلى حديثنا عن هشام المؤيد ، فالحق يقال أننا لو أمعنا النظر في سيرة الحكم المستنصر لأدركنا مجانبية الأستاذ المذكور للصواب في نقده الموجه للحكم الذى لم يكن ليغفل عن تبعاته الجسام ، ويتوانى عن قتال أعدائه وجهادهم وحسم وجوه الفتنة والاضطراب فقد أمدنا التاريخ بما يثبت أن الحكم كان إلى جانب كونه عالما

(١) المقدري : النفح ، ج ٣ ، ص ٦٠ - البغدادي : هدية العارفين ، ج ١ ، ص ٣٣٣ .

(٢) انظر في هذا الصدد : ابن الأبار : الحلة ، ج ١ ، ص ٣٠٣ - المقرئ : النفح ، ج ١ ، ص ٣٩٥ .

(٣) قصة العرب في إسبانيا ، ترجمة على الجارم ، ص ١٤١ - ١٤٢ .

كان مجاهدا أيضا ورجل سياسة فيقول الحميدى : (وكان الحكم المستنصر مواصلا لغزو الروم ، ومن خالفه من المحاريين)(١) .

كما أن ابن الخطيب وصفه بالهمة العالية في الجهاد وإن ملوك عصره هادنوه وسالموه لقوته وبأسه(٢) .

ولا ننسى أن عصر الحكم كان يعتبر عصر سلام نسبي من ممالك النصرارى . وذلك بعد جهود أبيه عبد الرحمن الناصر وعقده معاهدات الصلح مع ممالك النصرارى ، وإذا قيس عهد الحكم بعهد أبيه عبد الرحمن من حيث جهاده للملوك النصرارى وبعهد المنصور بن أبي عامر فإن عهد الحكم يعتبر عهد سلام نسبي . ورغم هذا فإن الحكم كان يعد نفسه للجهاد مثلما يعدها لقراءة كتب العلم والاشتغال بالمعرفة .

اهتمام الحكم المستنصر بالنشاط العلمي ووسائله في ذلك :

اتبع الحكم في دفع عجلة العلم في بلاده وسائل عديدة ، وقد نجح في غايته هذه فمن أهم تلك الوسائل الناجحة مايلي :

أولاً : العناية بالعلوم وتشجيع العلماء على البحث والتأليف :

فقد سعى إلى تقريب أولي العلم والمعرفة واکرامهم وتهيئة المناخ الملائم الذى يستطيع فيه أولئك العلماء الانصراف إلى العلم والبحث العلمي في حقول المعرفة المختلفة . وبالتالي تيسير السبل أمام الانتاج الفكرى حسب تخصص كل منهم ، وفي هذا يقول الاشبيلي (وفي أيامه كثر العلماء وأدلو بما عندهم وألفت التواليف وصنفت التصانيف)(٣)

(١) جذوة المقتبس ، ص ١٦ ، وانظر المراكشي : المعجب ، ص ٤٥ - والمقري : النفج ، ج ١ ، ص ٣٨٨ - ٣٩٣ .

(٢) الإحاطة في أخبار غرناطة ، ج ١ ، ص ٤٧٨ .

(٣) ریحان الالباب (مخطوط) ورقة ١٣٩ ١ .

ومن العلماء البارزين في عهده في ميدان العلوم الدينية يحيى بن عبدالله ابن يحيى الليثي ومحمد بن قاسم الثغري ، وابن الفخار ، وأبو محمد عبدالله ابن شريعة اللخمي ، ويعيش بن سعيد الوراق ، وأحمد بن محمد بن مفرح - وغيرهم .

وفي ميدان الأدب واللغة برز أبو علي القالي ، والحسن بن الوليد ، وأحمد بن فرج الجياني ، وعبدالله بن مغيث (ابن الصفار) ، ومحمد بن الحسن الزبيدي ، وابن القوطية .

وفي الطب ، ظهر عريب بن سعد ، وسليمان بن حسان المعروف (بابن جلجل) ، وأحمد بن يونس الحراني ، وخلف بن عباس الزهراوي الذي يعد انبغ أطباء الجراحة في الإسلام .

وفي الرياضيات والفلك ، ظهر مسلمة بن أحمد المجريطي ، وابن السمع ، وابن الصفار ، وابن زيد الاسقف القرطبي وغيرهم كثير .

كل هؤلاء العلماء اسهموا في ازدهار العلوم والآداب بما أضافوه من ضروب الإنتاج العلمي القيم . وهو ما سوف نأتي على ذكره فيما بعد .

ثانياً:

من الوسائل التي اتبعتها الحكم في النهوض بالمستوى العلمي العناية بالكتب والاهتمام بجمعها وحيازتها من كل مكان ، ذلك أن الحكم رأى أنه لن يتم نشاط علمي في بلاده ولن يستطيع ربط المشتغلين بالعلم في وطنه إلا بتوفير وسائل الثقافة والعلم لهم . فكان حرصه على الكتب ناتجا عن اهتمامه العلمي ورغبته في تيسير الامكانيات العلمية لشعبه ، وقد بلغ من حبه للكتب وشغفه

بها أنه لم يسمع في الإسلام بخليفة بلغ مبلغه في اقتناء الكتب والدواوين وإيثارها والتهمم بها^(١) .

ونتيجة لهذا الإهتمام البالغ بالكتب باعتبارها أوعية العلم ومصادره فقد كان للحكم المستنصر وسائل اتبعها في جمع الكتب وحيازتها ، وسوف نتحدث عن ذلك بالتفصيل عند حديثنا عن اهتمام الأندلسيين بالكتب .

ثالثاً :

عناية الحكم المستنصر بالعلم ، فقد كان لحرصه علي توفير المناخ العلمي المناسب لرعيته ، عظيم العناية بشئون التعليم وتوفيره لأفراد الرعية وسنقصل القول عن ذلك في موضعه .

(١) ابن الأبار - الحلة السيرة ، ج ١ ، ص ٢٠١ .

هشام المؤيد بن الحكم والمنصور بن أبي عامر وابناء عبدالملك وعبد الرحمن :

من الحق أن نقول أن هشام المؤيد بن الحكم لم يكن له من الأمر شيء ، ذلك ان المنصور محمد بن أبي عامر المعافري استطاع أن يتدرج في مناصب الدولة اثناء عهد الحكم المستنصر ، وقد تضافرت عدة عوامل علي برونه وتألق نجمه ، منها ما اتصف به من عقل راجح وأدب وعلم إلى جانب حنكته السياسة في انتهاز الفرص واغتنامها بالإضافة إلى ما تمتع به من جراءة واقدام حتي استطاع أن يتسبم مناصب رفيعة في الدولة إلى أن بلغ به الأمر تولي وكالة املاك زوجة الخليفة الحكم (السیده صبح) التي رأت في محمد بن أبي عامر معالم الذكاء وقوة الشخصية فركنت إلى رأيه وتصرفاته ، فلما توفي الخليفة الحكم المستنصر ضمن لها بتصرفه السليم استقرار الأمر لابنها هشام ، وكان يستمد نفوذه من مكانه السيدة صبح باعتبارها أم هشام المؤيد . فاستمال إليه الجيش ، وقرب إليه أعيان الدولة ، وما زال يضرب منافسيه بعضهم ببعض حتى استقر له الأمر فحجب هشام المؤيد وتولى السلطة الفعلية في البلاد (١) .

وبناء على ماتقدم فان حديثنا سيكون عن شخصية المنصور بن ابي عامر ومدى ما اسهم به في تطور الحركة العلمية انطلاقا من كونه صاحب الأمر والشأن في الدولة بعد أن أسدل على الخليفة هشام ستاراً من العزلة ، وحجر عليه ، مما أبعدته عن النظر في مهمات الأمور التي تناط بأصحاب الأمر عادة (٢) .

(١) المراكشي : المعجب ، ص ٤٨ - ٤٩ .

(٢) عزى ستانلي لين بول ضعف شخصية هشام المؤيد وعدم قدرته على الاضطلاع بمهمات الدولة إلى انهماك أبيه الحكم المستنصر في العلم وانشغاله بالكتب . والحق أن الحكم المستنصر لم يكن غافلا عن تربية ابنه هشام فقد حرص على تنشئته نشأة سليمة بأن عيّن لتربيته وتعليمه كبار العلماء ومنهم العلامة أحمد بن محمد القسطلي الذي ذكر عنه ابن حيان في المقتبس ، ج ٣ ص ٧٦ - ٧٧ أن الخليفة الحكم خصص له قسما في دار الملك =

أما عن المنصور بن أبي عامر فقد نشأ نشأة علمية ، حيث كان تلميذا نبيا تجلت فيه ملامح الذكاء ، والفطنة منذ أن كان صغيراً ، وأصله من الجزيرة الخضراء (١) شريف المنبت ، كريم الأصل ، ولما كانت قرطبة تمثل النهضة الحضارية والعلمية بوجه خاص فقد شدَّ رحاله إليها ، فطلب العلم والأدب وسمع الحديث ، ومهر في ذلك (٢) . وأظهر المنصور نبوغا في دروسه ، وما تلقاه من علوم ، وكان من أساتذته الذين تلقى العلم عليهم الأديب أبو علي القالي ، حيث أخذ عنه الأدب واللغة ، ودرس على ابن القوطية النحو كما درس الحديث على العلامة أبي بكر بن معاوية القرشي (٣) .

وكان لتكوينه العلمي ونشأته الثقافية أثر كبير في سلوكه وموقفه من الحركة العلمية ، والجدير بالذكر أن الحركة الأدبية بلغت في عهده منزلة رفيعة ، حيث كان يوليها رعايته واهتمامه ، ولم يكن تشجيعه للشعراء والأدباء مجرد استيفاء لمظهر من مظاهر السيادة ، واستكمال لوجوه الإبهة مما يفعله ذوو السلطان والحكم عادة بل كان ذلك لتذوقه الأدب والشعر (٤) .

= لتعليم ابنه هشام وإن الحكم حضر إحدى جلساته العلمية فأعجب باقبال ابنه هشام على العلم ويشير ابن حيان أيضا في نفس الجزء إلى تلقي هشام التعليم على يد العلامة يحيى بن عبد الله الليثي . كما يذكر أنخل بالنثيا في كتابه تاريخ الفكر الأندلسي ، ص ٦٤ أن هشاما تلقى تعليمه في الحساب والعربية على محمد بن الحسم الزبيدي . ولهذا فلم يكن الحكم غافلا عن تربية ابنه هشام . وأما عن انتقال السلطة إلى غيره فقد أتت كنتيجة حتمية لصغر سنة والذى قدره - الحميدي في كتابه جذوة المقتبس - بعشرة أعوام وأشهر .

(١) الجزيرة الخضراء وسطى مدن الساحل الجنوبي وأقرب مدن الاندلس مجازا إلى العدوة وهي أول ما فتح من الاندلس (الحميري : الروض المطار ، ص ٧٤) .

(٢) الحميدي : الجذوة ، ص ٧٨ - ابن الاثير : الكامل ج ٨ ، ص ٦٧٨ .

(٣) ابن عذاري : البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٢٥٧ .

(٤) علي أدهم : المنصور بن أبي عامر ، ص ١٥٦ - ١٥٧ .

اهتمام المنصور بن أبي عامر بالحركة العلمية :

لئن وُسِّمَ التاريخُ المنصور بسمه المستبد بالحكم ، فإن التاريخ ايضا لا ينسى له حسناته ومآثره السامية . ولئن قلنا إن الأدب والشعر لم يبلغ ذروة نشاطه الا في عهده لما بالغنا في ذلك ، فقد احتشد في بلاطه نوابغ العلماء وجهابذة الأدب ، وكان يوليهم رعايته ويغدق عليهم ضروب الكرم والعطاء . فمن ادباء بلاطه المذكورين صاعد بن الحسن الربيعي ، وكان متضلعا في الأدب واللغة والشعر وقد احتل مكانة سامية بين أدباء قرطبة ، كما أن الأديب حسان بن ابي عبده كان له باع طويل في الأدب والشعر . ويمثله الأديب زيادة الله بن علي ، وفي الشعر ضم بلاط المنصور شاعرين يعتبران من أنبغ ما أخرجته الأندلس من الشعراء ، وهما يوسف بن هارون الرمادي وأحمد بن دراج القسطلي ، وإلى جانب هؤلاء برز أدباء وعلماء كثيرون سنتعرض للحديث عنهم فيما يخص كل منهم .

وفي حقل العلوم الدينية لمع اسم الفقيه أبو مروان المعيطي ، وأبو عمر أحمد بن عبد الملك ، وابن الفرضي وابن حزم الفقيه المشهور . كل هؤلاء العلماء أثروا ميدان العلم بما أضافوه من إنتاج علمي يساعدهم في ذلك ما هياؤه لهم المنصور من عون وكرم .

ولم يكن سخاء المنصور ورعايته للعلماء تقف عند حد فقد ذكر أن المنصور اغتم لموت الفقيه القاضي محمد بن زرب (٣١٩ - ٣٨١هـ / ٩٣١ - ٩٩١م) فكتب لورثته كتاب رعاية وتكريم ، واستدعى ابنه محمد وهو طفل ومنحه ما لا جزيلا . وفي هذا يقول النباهي : (وليس ذلك من أفعال المنصور ببذع فقد كان في حسن معاملته للناس والوفاء بمنزلة لايقول بوصفها كتاب ، حتى يقال انه لا يأتي الزمان بمثله في فضله ، ولا ظفرت الايدي بشكله)(١) .

(١) تاريخ قضاة الأندلس ، ص ٨٠ .

ومن دلائل الاهتمام العلمي لدى المنصور شغفه العميق بمجالس العلم ، حتى بلغ من عنايته بهذا الشأن أن كان له في كل أسبوع مجلس يجتمع فيه اقطاب الفكر من العلماء والأدباء ويأخذون في التناظر فيما بينهم ، والكلام في شتى مسائل العلم والأدب بين يديه ، ولم يكن يشغله عن حضور تلك المجالس والندوات العلمية إلاّ الجهاد (١) .

ونظر لتقريبه للشعراء فقد أدخل نظاما جديدا في تصنيف شعراء بلاطه وسوف نفصل الحديث عن هذا النظام عند حديثنا عن الشعر .

ومن المؤسف بعد ما ذكرنا أن يتحامل البعض من الكتاب على المنصور وأن يتهموا عصره بأنه يتسم بالاضمحلال الفكري والتخلف الحضاري عما سبقه من العهود .

فقد جانب الاستاذ بالانثيا الصواب عندما وصفه بقوله (وكان من نتائج استبداده أن تعثرت الحضارة الأندلسية في سيرها علي أيامه) ، وقوله (وإذا استثنينا بضعة فقهاء مالكيين من طبقة ابن الحذاء (محمد بن يحيى بن احمد) وبضعة مؤرخين من طراز ابن الفرضي الذي كان أول من وضع معاجم الرجال بالأندلس فإن عصر المنصور لا يمتاز بأي شخصية من الطراز الأول في ميدان العلوم والفنون) (٢) وقد وافقه احمد هيكل في هذا الرأي (٣) .

والحق ان بالانثيا بما صوره من صورة قاتمة لعهد المنصور يتضح انه ابعد مايكون عن الصواب ، ذلك أن المنصور بما ذكرنا عنه من اهتمام بالحركة

(١) الحميدي : الجذوه ، ص ٧٨ - المراكشي : المعجب ، ص ٦٠ - احسان عباس : المرجع السابق ، ص ٧٥ وانظر في هذا الصدد الحميدي نفس المصدر ص ٢٤٢ - ٢٤٣ - المقرئ : النفع ، ج ٣ ، ص ٧٧ - ٧٨ - ٧٩ - ٨٠ - ٨١ .

(٢) تاريخ الفكر الاندلسي ص ١٢ - ١٣ .

(٣) الادب الاندلسي ، ص ٢٧٤ .

العلمية ، وحرصه على انطلاقتها انما يمثل استمراراً للروح النشطة للنهضة العلمية في عهد الخليفة الحكم المستنصر ، ولعل موقف المنصور من كتب الفلسفة والتنجيم واحراقها أدى إلى تعكير سيرته ، وموقفه من العلوم المشار إليها في نظر البعض من العلماء الذين لم يمعنوا النظر في أعماله ، بل اكتفوا بموقفه السابق كشاهد على عدائه للعلم وتثبيطه لسير الحركة العلمية ، صحيح انه أحرق وغير الكثير من كتب الفلسفة والفلك ، ولكنه من جانب آخر بذل الكثير من الجهد في سبيل العلم والمعرفة .

والجدير بالذكر ان إحراق المنصور لتلك الكتب لم يكن بدافع الكراهية لتلك العلوم . ولكنه رأى من مصلحته السياسية وهو السياسي المحنك أن يعمل على استرضاء الفقهاء الذين كانوا ينظرون للفلسفة والتنجيم نظرة تتسم بالكراهية والملقت الشديد فأراد بحركته تلك كسب ود الفقهاء والقضاء على كل ما من شأنه الخروج عليه وتعكير صفو الجو السياسي ضده . وليس هذا معناه ان المنصور بن أبي عامر كان يؤيد الخوض في مسائل الفلسفة والتنجيم التي تقدر في تعاليم الدين وقضايا الشريعة بل كان المنصور صحيح العقيدة سليم النية فيما يتعلق بالدين يدل على ذلك ما أورده ابن عذارى عنه فيقول: (كان المنصور متسماً بصحة باطنه واعترافه بذنبه وخوفه من ربه وكثرة جهاده ، وإذا ذكر بالله ذكر وإذا خوف من عقابه اذبحر)^(١) .

وعليه فإن إقدام المنصور على إحراق الكتب لم يكن بدافع الرغبة في محو تلك العلوم بل كان ذلك وسيلة لقطع الطريق على من يريد أن يتهمه بفساد عقيدته وضعف إيمانه ، وعلى الرغم من حدوث ذلك فان تلك الحركة لم تؤد إلى ذلك الجفاف الفكري الذي صور به بعض الكتاب . بل كان تيار الثقافة في قوته وتدفعه مثلما كان في عهد الخليفة الحكم المستنصر ، ولا ادل على ذلك من بروز

(١) البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٢٨٩ .

علماء نابغين في وجوه الفكر المختلفة في عهده ، وقد أشرنا إلى بعضهم سابقاً وبالإضافة إلى ذلك تألق اسم الفقيه المؤرخ ابن عبد البر النمري الذي لا يكاد أن يغفله أي دارس للحركة العلمية في القرنين الرابع والخامس الهجريين في الأندلس .

كما برز في ميدان العلوم الطبيعية علماء كبار ففي الطب يتألق اسم الطبيب حسان بن جلجل الذي صنف كتابه في طبقات الأطباء والحكماء في عهد المنصور عام ٣٧٢هـ . وفي الرياضيات والفلك برز العلامة مسلمة بن أحمد المجريطي وتلاميذه النوابغ أمثال ابن السمع وغيرهم ، وفي ميدان التاريخ ظهر ألمع مؤرخ أنجبته الأندلس وهو أبو مروان حيان بن خلف (المولود سنة ٣٧٧ هـ / ٩٨٧ م) ولسنا بصدد احصاء لمن ظهر من نوابغ الفكر في عصر المنصور . ولكن يهمنا الآن ان نوضح ان عصره كان خصبا معطاء في ميدان العلم .

وقد أشار احمد هيكل إلى أن قوة الدفع الثقافي في عصر الحجابة كان في مستوي قوة الدفع في الخلافة ، الا أنه لا يلبث أن يشير إلى أن سيرالحركة الثقافية كان بطيئا ثم يعود فيعترف بفضل المنصور علي الحياة العلمية فيقول : (وربما كان من عوامل استمرار الثقافة الأندلسية في تلك الفترة علي شيء من السير أن المنصور بن أبي عامر كان على صلة قديمة بالثقافة قد ارتبط بها منذ نشأته وانه كان على صحبة قوية للعلماء قد أخذ نفسه بها منذ ولايته)^(١) .

وعليه فان المنصور وان نجح في الاستبداد بالسلطة دون الخليفة هشام المؤيد بالإضافة إلى موقفه من كتب الفلسفة فاننا رغم ذلك لا نملك إلا أن نعجب

(١) الأدب الأندلسي ، ص ٢٧٤ .

به سواء في ميدان السلم بما يشمل من خضارة ومدنية أو في ميدان الحرب كمجاهد في سبيل الله^(١) .

عهد المظفر عبد الملك بن المنصور :

وبعد وفاة المنصور تولى ابنه المظفر عبد الملك الحجابة ، وكانت السلطة المطلقة بيده كأبيه . وكان ذلك عام (٣٩٢هـ / ١٠٠١م) ، وسار المظفر على خطا أبيه في الجهاد ، وكان عصره خيرا وسلاما على الرعية حتى وصفت أيامه بأنها كانت أعياداً وأن الأندلس بلغت فيها نهاية الجمال والكمال^(٢) .

غير أن المظفر لم يكن كأبيه في الإهتمام بالعلم والأدب ، ورغم ذلك فإنه كان باراً بالعلماء والأدباء فقد (تمسك بمن كان استخلصه زبوه من طبقات أهل المعرفة من خطيب وشاعر ونديم وشطرنجى ومعدل وتاريخي وغيرهم . حفظا لصنائع والده ، وقياماً برسومه فقرّرهم على مراتبهم ، ولم ينقصهم سوى الفوز

(١) من المؤسف ان يخلع بعض الكتاب على المنصور صفات لا تليق به كزعيم اسلامي مجاهد فقد جانب احمد هيكल الصواب عندما وصف سيرته في الجهاد بأنها أدت إلى وفرة الغنائم مما ساعد على انتشار اللهو والإقبال على الملذات ، وان المنصور نفسه قد انهمك في هذه الملذات وما تمسكه بالدين وخروجه للجهاد الا مجاملة للفقهاء ، ويكفينا الرد علي هذا الاتهام ان نستشهد برأي المؤرخ ابن عذارى في كتابه البيان المغرب ج ٢ ، ص ٢٨٩ حيث يقول (كان المنصور متسماً بصحة باطنه ، واعترافه بذنبه وخوف من ربه وكثرة جهاده وإذا ذكر بالله وإذا خوف من عقابه / زنجبر) كما يذكر الحميدي في جنوة المقتبس ص ٧٩ (انه غزاهما يزيد علي خمسين غزوة وكان في انصرافه عن الجهاد يجمع غبار ثيابه حتي اذا دنت وفاته اشار بان ينثر علي كفته) ويصفه ابن الاثير في كتبه الكلل ، ط الثالثة ، ج ٧ ، ص ٢١٨ بقوله (كان حسن الاعتقاد والسيره عادلاً كانت ايامه أعياداً لنصاريتها وأمن الناس فيها رحمة الله) وبعد هذا كله فهل في سلوكه مجاملة للفقهاء . وفي ضوء هذه الأقوال لمؤرخين قدامى يتلأشى موجهه أحمد هيكل للمنصور من اتهامات خلقية .

(٢) ابن الابار : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٧٠ .

بخصوصيته ، وكانت ترفع إليه بطائق أهل الشعر ويصلهم على تساهلهم في مديحه لا مانع من نظره فيها) (١) .

وفي هذا دليل على ما خلفه المنصور بعد موته من اهتمام بالعلماء والادباء . وقد تمثل ذلك في التواجد الكبير لأهل المعرفة بمختلف خبراتهم في بلاط عبد الملك بن المنصور الذي برهن على كونه خير حافظ لقيادة المسيرة العلمية بعد والده .

وبعد حكم دام سبع سنوات توفي عبد الملك المظفر ليتولى أخوه عبد الرحمن منصب الحجابة غير أن عبد الرحمن أساء التصرف بتقربة للخليفة هشام وبأجباره على أن يعهد له بولاية العهد وقد أدى ذلك إلى زوال نفوذه والقضاء على سلطته ، وكان أسرعهم سخطا وكراهية له الامويون والقرشيون . وقد استغل هؤلاء غيبة عبد الرحمن بن المنصور في غزوة فقتلوا صاحب الشرطة وخلعوا الخليفة هشام المؤيد الذي رضى لأمر عبد الرحمن في توليته العهد ، وما لبث أن قتل الأخير بعد أن انفض عنه أعوانه عند عودته إلى قرطبة ليتولى الأمر محمد بن هشام الملقب بالمهدي (٢) .

قيام الفتنة وسقوط الخلافة واثار ذلك علي الحركة العلمية :

نظرا لموقف البربر من مساندة العامريين فانهم لم يجدوا لهم مكانا لدى الخليفة الجديد مما دفعهم إلى اختيار من تطمئن إليه قلوبهم ، فأرادوا تقديم هشام بن سليمان بن الناصر إلا أن خصومهم عاجلوهم وقبضوا على هشام وأمر المهدي بقتله مما دفع البربر إلى مبايعة سليمان بن الحكم بالخلافة ولقبوه بالمستعين وقد دخل في معارك مع المهدي وتم له دخول قرطبة مما أضطر المهدي إلى الاستعانة بالاذفونش ولكن المستعين هزمهم وحاصر قرطبة مما دفع المهدي إلى احضار هشام المؤيد وباع له بقصد أن يسكن الأوضاع ، ولكن

(١) ابن بسام: الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة : القسم الرابع ، ج ١ ، ص ٦٠ - ابن الخطيب :

أعمال الاعلام ، تحقيق ليقى بروفنسال ، ص ٨٤ .

(٢) المقرئ : نفع الطيب ، ج ١ ، ص ٢٢٤ - ٢٢٥ - ٢٢٦ .

المستعين والبربر استمروا محاصرين لقرطبة وقتل المهدي خلال ذلك ونصب الناس هشاما ، واستطاع المستعين أن يدخل قرطبة عام ٤٠٣/١٠٢١م) وما لبثت الأندلس أن دخلت في مرحلة قاتمة من الفوضى والصراع السياسي (١) .

ورغم أن المستعين أظهر بسلوكه هذا لونا من المغامرة والمخاطرة بنفسه في سبيل الخلافة . إلا أنه وصف بالأدب وقول الشعر حتى قال فيه ابن بسام : (كان سليمان ممن مدّت له في الأدب غاية كفى دونها أهل الأدب . ورفعت له في الشعر راية مشى تحتها كثير من الشعراء والكتاب (٢) .

ومن المؤلم ونحن نتحدث عن الحياة العلمية أن نذكر ما اصاب ذخائر الكتب التي خلفها الخليفة الحكم المستنصر ، حيث اضطر الحجاب واضح إلي اخراجها وبيعها اثناء حصار المستعين والبربر لقرطبة . (٤٠٣هـ / ١١١٢م) (٣)

وقد وصف صاعد طريقة بيع تلك الكتب بانها بيعت بأوكس ثمن وأتفه قيمة ، وأنها انتشرت في أنحاء الأندلس (٤) .

ولا شك أنه كان لتلك الطريقة في تفرق كتب العلم وجهها ايجابيا ، فقد بثت تلك التصانيف والكتب في الأندلس ، مما ادى إلى اتساع نطاق الحركة العلمية والاقبال الشامل على كتب العلم والاستفادة منها فكانت المشاركة الفعلية على نطاق واسع ، وكان تفرق تلك الكتب بمثابة اشعاع أضواء أنحاء الأندلس بعد أن كان مركزا في قرطبة ، مما حمل الناس في مدنهم المختلفة على الاهتمام بالعلوم والأدب .

(١) الحميدي : الجذوه ، ص ١٨ - ١٩ - المراكشي : المعجب ، ص ٦٥ - ٦٦ - ٦٧ .

(٢) الذخيرة ، القسم الأول ، ج ١ ، ص ٣٢ - ٣٣ . وانظر ايضا المقرئ : النفح ، ج ١ ، ص ٤٣١ -

٤٣١ . والكتبي : فوات الوفيات : ج ١ ، ص ٣٥٦ .

(٣) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ج ٤ ، ص ١٤٦ .

- جانب القلقشندي الصواب عندما ذكر ان انقراض محتويات مكتبة الحكم المستنصر يعزى إلى

استيلاء ملوك الطوائف على الأندلس ، والصحيح ما هو مشار إليه في المتن (صبح الاعشى

ج ١ ، ص ٤٦٧) .

(٤) طبقات الامم ، ص ٨٩ .

ولا يفوتنا ان نشير إلى البربر حين دخولهم قرطبة قد نهبوا ما تبقى من تلك الكتب التي بقيت بعد حركة البيع ، وهكذا فقد كانت نهاية مكتبة الحكم المستنصر التي ضمت مايقارب أربعمئة ألف مجلد - كما يقال - نهاية مؤله لورثته ومحبي العلم أما بالنسبة لأهل الاندلس فقد كانت نعمة لهم ، حيث تسنى لهم تملك الكثير من نفائس الكتب ، ودرر التصانيف وخاصة اذا ما علمنا أن الأندلسيين اشتهروا بحب الكتب وجمعها فكان ذلك سبيلا إلى تحقيق آمالهم وأمانهم .

وكان من آثار الفتنة ونتائجها ، مقتل بعض العلماء ممن كان لهم سهم واقر في النشاط العلمي ، وفي مقدمة هؤلاء العلماء المؤرخ والمحدث ابن الفرضي صاحب كتاب تاريخ علماء الاندلس ، والفقيه محمد بن سعيد السري صاحب كتاب روضات الاخبار في الفقه وغيره من الكتب ، وصديقه محمد بن قاسم الاموي وقد اورد خبرهما ابن بشكوال في كتابه الصلة (١) .

ورغم هذه الأحداث المؤله فان للفتنة أيضا وجهها ايجابيا بالنظر إلى موقف العلماء وحالهم مع الفتنة فقد خرج الكثير من علماء قرطبة وأدبائها إلى المدن الأخرى . فكانوا بمثابة مصابيح أضاعت المدن التي رحلوا اليها واستقروا فيها ، مما كان سببا في نشر المعرفة والنهوض العلمي ، فقد كان تشتت العلماء وتفرقهم في مدن الاندلس عاملا من العوامل التي أدت إلى الازدهار العلمي في عصر ملوك الطوائف في مدن أندلسية كإشبيلية وغرناطة ، وطليطة ، ودانية ، وغيرها .

وينتهي عصر الخلافة بزوال نفوذ آخر خليفة وهو هشام المؤيد (٢) الذي خلع لتكون نهايته خاتمة لذلك العصر وبداية لعصر آخر له سماته السياسية التي تختلف عما سبقه . ورغم تلك الاحداث المؤله التي عصفت بالكيان السياسي للدولة الاموية منذ نهاية عهد عبد الملك المظفر إلا أن الحركة العلمية لم تتوقف بل ظلت تشق طريقها وتؤتي اكلها .

(١) ج ٢ . ص ٤٨٩ - ٤٩٠ .

(٢) انظر في تفصيل تلك الاحداث بعد مقتل المستعين إلى نهاية عصر الخلافة .

الحميدي : الجذرة ، ص ٢٢ - ٢٣ ، والمقري ج ١ ، ص ٤٢٩ - ٤٣٨ .

الفصل الثاني

الرحلات العلمية وأثرها في النهضة العلمية
في الأندلس

- ١ - ارتحال علماء الأندلس إلى المشرق في طلب العلم
- ٢ - نتائج الرحلات العلمية للأندلسيين إلى المشرق .
- ٣ - بروز الشخصية العلمية الأندلسية في عصر الخلافة

مما يفتخر به المسلمون من سلطات التطور الحضاري والتفوق العلمي ما اعتاد عليه علماءهم من اتخاذ الرحلات والأسفار بين مراكز العلم في العالم الإسلامي عادة حميدة وسنة كريمة للتزود بالعلوم واكتساب المعرفة ، وقد تولد عن ذلك نشاط علمي باهر في الدولة الإسلامية .

والجدير بالذكر انه كان لموقف الإسلام من العلم والحث على طلبه اثر في اهتمام المسلمين بالرحلات العلمية . فقد حث الإسلام على العلم والسعي في طلبه وتحصيله . حتى روى عن رسول الله ﷺ انه قال :

(من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة) وقال عليه الصلاة والسلام : (لأن تغدو فتتعلم باباً من العلم خير من أن تصلي مائة ركعة) وفي حديث آخر (اطلبوا العلم ولو بالصين)(١) .

وانطلاقاً من هذا الحرص على اكتساب المعارف والتزود بالعلم وتحمل ضروب المشقات وألوان التعب في سبيل ذلك . لم يدخر المسلمون في تاريخهم الطويل أية وسيلة من الوسائل التي تعينهم على بلوغ ذلك الهدف السامي مما كان له أثر كبير في نجاح المسلمين في بناء حضارتهم التي عاشت في كنفها الأمة الإسلامية والبشرية جمعاء .

من هذه الوسائل كانت الرحلات العلمية والتي اعتبرها علماء المسلمين ضرورة يجب أن يسلكها طالب العلم في حياته العلمية ، وهكذا يتبين (أن الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعلم)(٢) .

وكان علماء الإسلام يرتحلون في طلب العلم بين مراكز العلم في الدولة الإسلامية من حدود الصين شرقاً إلى الأندلس غرباً ، وكانت بغداد ، ومكة المكرمة ، والمدينة المنورة ، والقاهرة ، والقيروان ، وقرطبة وغيرها أكثر مدن الإسلام اشتغالا بالعلم . وكانت مقصد العلماء ، وقبلة طلاب العلم .

(١) الغزالي : أحياء علوم الدين ، ج ١ ، ص ٨ - ٩ والحديث الأول أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة . والثاني أخرجه ابن عبد البر من حديث أبي ذر ، والثالث أخرجه ابن عدى والبيهقي في المدخل والشعب من حديث انس وقال البيهقي : متنه مشهوراً سائده ضعيفه .

(نفس المصدر والجزء ص ٨ ، ج رقم ١ ، ٣ ، و ص ٩ ج رقم ١) .

(٢) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٥٤١ .

١ - ارتحال علماء الاندلس إلى المشرق في طلب العلم :

كان بين الاندلس والمشرق تيار علمي زاخر يتمثل في أفواج العلماء
الذاهبة والآية بين القطرين حتى شبهت بحركة سير النمل في الذهاب
والإياب^(١).

وكان علماء الاندلس أكثر الناس رحلة إلى المشرق يتلقون على علمائه
العلم ويأخذون عن شيوخه الوان المعرفة ثم يعودون إلى بلادهم ينشرون ما
اكتسبوه ، واصبح هذا ديدنهم حتى لو اننا تصفحنا كتب التراجم لوقفنا علي
مدى عنايتهم بذلك . فلا تخلو سيرة أي منهم من الارتحال في طلب العلم حتى
عرف ذلك عنهم ووصفهم المقدسي بقوله : (يحبون العلم وأهله ، ويكثر
التجارات والتغرب)^(٢).

وكان العالم الإسلامي آنذاك وحدة ثقافية له كيان فكري واحد لا يختلف ،
فالعقيدة الإسلامية صبغت كل نشاط بصبغة واحدة ، فلا اختلاف بينهم مهما
بعدت المسافات ، ومهما قامت من حواجز سياسية نتيجة ظهور كيانات متعددة
فيه في مختلف العصور كالعباسيين في المشرق ، والفاطميين في مصر ،
والأمويين في الاندلس ، وما دام الأمر كذلك فلا غرابة أن يتجه الأندلسيون إلى
المشرق الذي سبقهم في مجال الحضارة بميادينها المختلفة ومنها ميدان العلم ،
فقد كان الكثيرون من علماء الاندلس يرون في الرحلة إلى المشرق وأخذهم عن
شيوخه تشريفا وفخرا بين علماء بلادهم^(٣) . وعلى العكس من ذلك كان عكوف
العالم على الإقامة في وطنه والاكتفاء بتلقي العلم على سيوخ بلده فقط فيه
إشارة إلى قصوره عن ادراك ما ناله الآخرون ، وفاز به المرتحلون في طلب

(١) أحمد امين : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢٥ - سامي العاني : دراسات في الأدب الاندلسي ،
ص ٩٨ - جبرائيل جبور : ابن عبد ربه وعقده ، ص ٤٣ .

(٢) أحسن التقاسيم ، ص ٢٣٦ .

(٣) إحسان عباس : المرجع السابق ، ص ٢٨ - ٢٩ .

العلم ، الذين اتاحت لهم الفرصة في لقاء العلماء في كل قطر اسلامي ، والاخذ عنهم مشافهه .

ومما يدل على عناية الاندلسيين بهذه الظاهرة أن الكثير من أصحاب التراجم يعنون بذكر البلدان التي ارتحل إليها من يترجمون لهم من العلماء فاذا لم تكن لاحدهم رحلة وصفوه بالانقباض والاعتزال عن لقاء الناس ، فيذكر الخشني في ترجمته لأحد العلماء وهو عبد الرحمن بن ابراهيم الزيادي الوشقي (١) بقوله عنه : (وكان ملتزما للانقباض عن أهل زمانه لم تكن له رحلة) (٢) .

بل إن العالم منهم إذا لم تكن له رحلة كان يعاب لديهم ، كأنه بذلك قد لحقه نقص كبير في شخصيته العملية (٣) .

ولا يعني هذا القول أن من لم تكن له رحلة لم يكن عالما ، أو صاحب معرفة بالعلم الذي اختص به ، بل نقصد انه لم يتوفر له ما توفر لغيره من العلماء الذين كابدوا الصعاب وتحملوا المشاق في سبيل التزود بالعلم ، وتوسيع دائرة معارفهم بتنوع مصادر ثقافتهم ودراستهم (فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها) (٤) .

وكان الحج إلى مكة يمثل هدفا دينيا باداء هذا الركن الإسلامي من جهة ويطلب العلم بعد ذلك من جهة أخرى ، فكان علماء الأندلس يؤدون الحج ثم يتجهون إلى المدينة ، للقاء شيوخها وعلمائها ممن أخذ عن الصحابة وتابعيهم فيأخذون عنهم العلم وغالبا ما يكون الحديث والفقه والتفسير والقراءات .

(١) الوشقي نسبة إلى مدينة وشقة بينها وبين سرقسطة خمسون ميلا . وتقع شرقي مدينة تطليه (الحميري : الروض المعطار ، ص ١٩٤ - ١٩٥) .

(٢) تاريخ علماء الأندلس (مخطوط) ورقة ٥٦ ب .

(٣) أحمد أمين : المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٢٤ .

(٤) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٥٤١ .

وكان من نتائج استقرار الأحوال السياسية في الأندلس أنانطلق الناس نحو البناء الحضاري ، وأخذوا يتلمسون الوسائل في ذلك . وعلى رأس هذه الوسائل العلم الذي أصبح القاعدة الأساسية في نشاطهم الحضارى . ويمثل عصر الامارة بداية الانطلاق نحو المعرفة ، وكان انطلاقهم هذا يتمثل في أجمل صورة في رحلاتهم العلمية إلى مراكز العلم في المشرق . فبعد أن استتبّت الأحوال على يد الأمير عبد الرحمن الداخل . وبعد أن زالت مخاوف العباسيين من الأمويين في الأندلس ، ولم يعد هناك ما يبرر عزلة الأندلسيين عن المشرق . فكان الانفتاح على المشرق في عهد هشام بن عبد الرحمن الداخل .

ورحل الأندلسيون في بداية نشاطهم العلمي في طلب العلوم الدينية إلى المدينة بصفة عامة باعتبارها مركز العلم ، والمنبع الأصيل لهذه العلوم ، ولما اتسعت دائرة الاشتغال بالعلوم الأخرى كالرياضيات والفلك والفلسفة والطب وغيرها اتجه المعتنون إلى بغداد مركز هذه العلوم ومحور نشاطها آنذاك .

ولم يدع الكثير من أولئك العلماء الفرصة في الاستفادة من مراكز العلم التي تقع في طريقهم إلى المشرق ، فكان انطلاقهم من الأندلس إلى المغرب ليتجهوا نحو القيروان التي كانت من مراكز العلم المهمة آنذاك . ثم منها إلى مصر حيث مدينة الاسكندرية التي كانت بدورها ذات نشاط علمي كبير وإلى جانبها مدينة الفسطاط ثم القاهرة بعد بنائها والتي لم تكن أقل شأناً من غيرها من مراكز العلم في الدولة الإسلامية . ومن مصر تتشعب افواج العلماء الأندلسيين لتكون في اتجاهين : إلى الحجاز لمن يطلب العلوم الدينية ، وإلى العراق لمن يرغب في دراسة العلوم الأخرى والتي سبق أهل العراق إلى الاشتغال بها .

وكانت بغداد آنذاك تمثل بوتقة انصهرت فيها تيارات علمية مختلفة من نتاج حضارات أخرى لليونان والهنود والفرس بالإضافة إلى ما اضافه علماء

المسلمين من انتاج فكري قيم خاص بهم ، ولهذا ففضل المشرق على الأندلس لاينكر ، وقد ترتب علي ذلك نتائج علمية مهمة اسهمت في بناء الكيان العلمي الأندلسي ، ولكن البعض رأي في هذا الإسهام صورة تخالف حقيقة الحال .

ب - نتائج الرحلات العلمية للأندلسيين إلى المشرق :

لما كان الأندلسيون قد نهجوا طريق الرحلات العلمية فإنه من الطبيعي أن يكون لتلك الرحلات نتائج مهمة وآثار كبيرة ، فبعد تلقيهم العلم على شيوخ وعلماء المشرق كانوا يشدون رحالهم إلى وطنهم ليبثوا ماتوصلوا إليه من علم ومعرفة .

ويختلف كل فرد منهم عن الآخر في الفترة الزمنية التي يقضيها في اغترابه العلمي عن وطنه ، فهي تتباين بحسب قدرة وطاقة كل منهم علي مواصلة الارتحال بين مراكز العلم المنتشرة في العالم الإسلامي بمختلف أقطاره كالعراق ومصر والحجاز واليمن وغيرها .

وكان الكثيرون يعودون بعد رحلة طويلة وغريبة مديدة وهم أكثر علما وأوسع معرفة فيفقدون وطنهم ويسهمون في بناء كيانه العلمي ، وممن يشار إليه بالبنان في هذا الميدان الفقيه إبراهيم بن هارون المصمودي الذي ذكر عنه أنه أقام أربعين سنة في قرطبة لطلب العلم ، وكان هذا الفقيه من أهل أشبونة^(١) .

كما أن العلامة الوليد بن بكر بن مخلد المتوفي (٣٩٣هـ) ضرب المثل في تحمل أعباء السفر في سبيل العلم ، فقد رحل إلى مصر والشام والعراق والحجاز وخراسان وما وراء النهر فسمع عن الكثير من العلماء والشيوخ^(٢) .

(١) ابن الفرضي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٧ - ١٨ - (وأشبونة عاصمة البرتغال الآن)
(٢) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٤ ، ص ٢٠٦ - الذهبي : تذكرة الحفاظ ، ج ٣ ، ص ١٠٨٠ - ١٠٨١ ، وللوقوف على ماكان يتحملة العلماء المسلمون من مشاق ونصب في = سبيل العلم ، انظر : ابن الخطيب : الرحلة في طلب الحديث وكذلك عبد الفتاح أبو غده : صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل .

وأثمرت الرحلات العلمية للأندلسيين ، فعاد الكثير منهم بعلم واسع ، ومعارف غزيرة ، هذا ابالإضافة إلى حملهم ألوان التصانيف ، وضروب التأليف النفسية لأهل المشرق في مختلف حقول المعرفة . وفي مقدمة هؤلاء العلماء الفقيه بقي بن مخلد المتوفي سنة ٢٧٦هـ الذي عاد إلى الأندلس بكتبٍ عديدة في ألوان مختلفة من العلم كالفقه ، والتاريخ والتراجم والتي كان لها بلا شك تأثير عظيم في مد الحركة العلمية الأندلسية بفيض مما فتحته تلك المصنفات من آفاق واسعة للبحث العلمي للأندلسيين فاقبلوا على دراسة تلك الكتب والنظر فيها ، والإفادة من المناهج العلمية في البحث والتأليف والتي سبقهم إليها المشاركة .

ولعل من أبرز ما نتج عن الرحلات العلمية في عصر الامارة ما تحقق على أيدي العلماء الأندلسيين الراحلين إلى المشرق من تأثير قوي في ميدان العلوم الدينية وخاصة في الفقه فقد استطاع العلامة زياد بن عبد الرحمن اللخمي (ت ١٩٢هـ / ٨٠٧م) ومن بعده الفقيه يحيى بن يحيى الليثي نشر المذهب المالكي في الأندلس . فالأول بذر البذرة الأولى للمذهب والآخر عني بها وأسهم في نموها حتى ساد المذهب المالكي في الأندلس .

وتتابع علماء الأندلس على هذا المنوال في نقل العلوم والمعارف إلى وطنهم فبالإضافة إلى ما سبق فقد رحل الأديب قاسم بن ثابت (٢٥٥ - ٣٠٢هـ / ٨٦٨ - ٩١٤م) إلى المشرق في طلب العلم . فكان من نتائج رحلته ان جلب معه كتاب العين للخليل بن أحمد^(١) وهو كتاب في اللغة وعلومها كان له تأثير كبير فاقبلوا على تصفحه والإفادة منه .

(٢) ابن الفوضي : تاريخ علماء الأندلس ، ج ١ ، ص ٣٦٠ .

وكان الشاعر الأديب عباس بن ناصح الثقفي - المعدود من شعراء عصر الإمارة يمثل برحلاته العلمية أوضح التأثير الثقافي للمشرق في الأندلس ، فلقاءه للأصمعي والحسن بن هانئ وتردده على أحياء العرب هناك انعكس على ثقافته التي أسهمت بدورها في نشاط الحركة العلمية الأندلسية .

ولا يفوتني أن أشير إلى أن عباساً المذكور لعب دوراً مهماً في نقل التراث الفكري المشرقي إلى الأندلس . فقد كان الأمير عبد الرحمن الأوسط مهتماً بجمع الكتب وكان لثقته في عباس ومدى ما كان يتمتع به من علم واسع ومعرفة بالوان المعرفة أن أوكل إليه مهمة جمع الكتب العلمية النفسية واستنساخها من المشرق ، وقد قام عباس بهذا الدور على الوجه الكامل (١) .

وفي عصر الإمارة أدخل العالم الأندلسي فرج بن سلام إلى الأندلس بعض كتب الأديب المشرقي عمر بن بحر المعروف بالجاحظ والذي التقى به في العراق وأخذ عنه العلم (٢) .

وهذا بلا شك فيه إشارة مهمة إلى مدى التأثير العلمي للمشرق في الأندلس في عصر الإمارة الذي كان يمثل مرحلة الإقتباس والنقل والتي ما لبثت أن خفت حدتها بعد فترة من الزمن لتأخذ الأندلس طريقها نحو استقلال الشخصية العلمية والمشاركة في بناء الحضارة الإسلامية .

ومما لا شك فيه أن عصر الخلافة يمثل وجهاً جديداً في البناء الحضاري للأندلس ، فقد أخذت حركة نقل التراث الفكري المشرقي التي كانت على أشدها في عصر الإمارة تخف وتهدأ .

ففي عصر الخلافة بدأ الأندلسيون يتوجهون نحو الاعتماد على أنفسهم في بناء كياناتهم العلمية ، وبذلك أصبحوا في موقف العطاء والبذل العلمي ، ولا

(١) ماهر حماده : المكتبات في الإسلام ، ص ١٢٢ (نقلاً عن ابن سعيد : المغرب في حلي المغرب ، ج ١ ، ص ٤٥ - ٣٧٤) .

(٢) ابن الفرغاني : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٥٠ .

يعني هذا انهم قطعوا علاقتهم بالمشرق بل ظلوا على اتصال به وبعلمائه ولكن في صورة أقل مما حدث قبل هذا العصر . ومن هنا نجد أن ظاهرة انتقال الكتب كانت تتم مابين الشرق إلى الغرب على الأغلب ، حيث أن المشرق - في عصوره الأولى على الأقل - كان متقدما على الأندلس في ميدان النشاط الفكري والتأليف (١) .

وفي عصر الخلافة دخلت بعض الكتب المشرقية إلى الأندلس ، فقد عاد أبو الحكم عمرو بن عبد الرحمن الكرمانى (ت ٤٥٨هـ / ١٠٦٥م) إلى الأندلس حاملا معه رسائل الصفا وكان أول من أدخلها (٢) .

وكان العلامة مسلمة بن سعيد يرحل إلى المشرق في طلب كتب العلم وجمعها ثم يعود إلى الأندلس حاملا ألوان التصانيف في مختلف فروع العلم (٣) وسوف نفصل الحديث عنه فيما يختص بالكتب عند الأندلسيين .

ويتضح من خلال سير من تقدم من العلماء ان التأثير الفعال للرحلات العلمية للأندلسيين كان في عصر الإمارة . ولكن لما كان لذلك التأثير من القوة والدفع ما نتج عنه ازدهار النشاط العلمي ، ورفي الحركة العلمية بعد ذلك - أي في عصر الخلافة - فقد رؤى وجوب الإشارة إلى أولئك العلماء . ونظرا لخشية التكرار فسوف نؤجل الحديث عن أهم الشخصيات العلمية المرتحلة إلى المشرق إلى حين التعرض لكل منهم فيما يختص به من علم .

وكانت تحدث موجات رحيل معاكسة فيرحل علماء المشرق إلى الأندلس لينشروا علومهم هناك . وليبلغوا بذلك الجاه والمنزلة عند السلطان ، ويأتي في مقدمتهم من ذوي الشهرة العلمية الأديب اللغوي أبو على القالي الذي حظي

(١) ماهو حماده : المرجع السابق ، ص ١٩١ .

(٢) صاعد : لبلقات الأمم ، ص ٩٤ - ٩٥ - ابن ابي اصبيعه : عيون الأنباء ، ص ٤٨٤ - ٤٨٥ .

(٣) ابن بشكوال : الصلة ، ج ١ ، ص ٢٢٥ .

بمنزلة كريمة لدى الخليفة عبدالرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر ، وتبعه أيضا في عصر المنصور العلامة صاعد بن الحسن الذي دخل الاندلس (٣٨٠هـ/٩٩٠م) وقد أسهم العالمان في نشاط الدراسات الأدبية واللغوية في الأندلس وخاصة أبو علي القالي (١) .

وقد عقد المقرئ بابا ضمنه أبرز علماء المشرق الوافدين إلى الأندلس فقال (اعلم ان الداخلين للاندلس من المشرق قوم كثيرون لا تحصر الاعيان منهم فضلا عن غيرهم ومنهم من اتخذها وطنا ، وصيرها سكنا إلى أن وافته منيته . ومنهم من عاد إلى المشرق بعد ان قضيت بالاندلس منيته) (٢) .

وهذا بلاشك يوضح ما كانت عليه الأندلس آنذاك من نشاط علمي جذب العلماء من خارج الأندلس للمشاركة في نهوض الحركة العلمية . كما أنه يدل على ما كان يتمتع به حكام الأندلس من حب للعلم ، وتشجيع للعلماء ، وما رحيل أبي علي القالي ، وصاعد بن الحسن إلى الاندلس إلا دليلا على ذلك .

ومن كبار العلماء الوافدين على الأندلس ، المحدث عبدالرحيم بن أحمد التميمي البخاري (٣٨٢هـ - ٤٧١هـ) الذي عده العلماء طبقة ابن حزم وابن عبد البر النمري . ووصفه المقرئ بقوله : (الذي اعتقده أنه لم يدخل الأندلس من أهل المشرق أحفظ منه للحديث ، وهو ثقة عدل ليس له مجازفة والحق أبلج) (٣)

والحق أن دخول هذا العلامة الاندلس فيه دليل على ما بلغته من مستوى علمي باهر إذ أن هذا المحدث رغم ما وصف به من حفظ للأحاديث وتضلع في علم الحديث إلا أنه سمع من شيوخ الاندلس (٤) وكفى بذلك شهادة على الازدهار العلمي للاندلسيين آنذاك وكيف أنهم أصبحوا في موقف العطاء العلمي .

(١) سوف نتعرض إلى مكانتها العلمية عند الحديث عن الأدب واللغة .

(٢) نفح الطيب ، ج ٣ ، ص ٥ .

(٣) نفس المصدر والجزء ، ص ٦٣ - ٦٤ .

(٤) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٦٣ .

وممن وفد على الأندلس من العلماء ثابت بن محمد الجرجاني الذي وصفه ابن الخطيب بالكامل وذلك لسعة علمه ، وعمق معرفته بالأدب واللغة بالإضافة إلى ما تمتع به من فروسية وشجاعة (١) .

وكان على منواله الأديب أبو وهب عبد الرحمن العباسي (ت ٣٤٤هـ/ ٩٥٥م) الذي وصف بتنوع معارفه وتفننه في العلوم والآداب . وأنه كان ينهج طريقة الفلاسفة في التفكير والكلام (٢) .

بروز الشخصية العلمية الأندلسية في عصر الخلافة

وكما قلت من قبل كان للرحلات العلمية التي قام بها الأندلسيون إلى المشرق لتحصيل العلوم والآداب أثر كبير في وسم نشاطهم العلمي بسمة مشرقية . وكانت هذه السمة أكثر وضوحا فيما قبل عصر الخلافة ، ولعل ذلك عائد إلى ما فرضه التقدم الحضاري للمشرق من سيادة فكرية على بقية الأقطار الإسلامية الأخرى ممن لم تصل في مستوى حضارته ورقية العلمي آنذاك .

وكان المشرق إبان ذلك الوقت يمثل في نظر الاندلسيين مصدر الحضارة ومنبع العلم مما فرض عليهم الاتجاه في رحلاتهم العلمية إلى مراكز العلم في المشرق ليقتبسوا ألوان الثقافة عن علمائه وفقهائه (٣) .

ولا أدل على اعجاب الاندلسيين بالمشرق ، وما كانوا يبدون نحوه من آيات الأجلال والأكبار من أبيات شعرية قالها الفقيه الأندلسي المشهور ابن حزم حيث ضمنها اعجابه بالمشرق وحنينه إلى لقاء علمائه فيقول من ضمن تلك

(١) الإحاطة في أخبار غرناطة ، ج ١ ، ص ٤٥٤ .

(٢) ابن سعيد : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٨ - ٥٩ .

(٣) أحمد حسن الزيات : تاريخ الأدب العربي ، ص ٣١٣ - عبد الكريم التراتي : مأساة انهيار الوجود العربي في الأندلس ، ص ٦٦٥ .

الأبيات :

أنا الشمس في جو العلوم منيرة ولكن عيبي أن مطلعني الغرب
ولو أنني من جانب الشرق طالع لجد على ماضع من ذكرني النهب
ولي نحو أكناف العراق صبابة ولا غروان يستوحش الكف الصب
فان ينزل الرحمن رحلي بينهم فحينئذ يبدو التأسف والكرب^(١)

فابن حزم رغم قدراته العلمية العميقة ، وما كان يتمتع به من علم واسع
في الكثير من العلوم والمعارف ، كان لا يزال يتطلع إلى المشرق ، ويرنو بناظريه
إلى أكناف العراق ، حيث نوابغ العلماء ، وجهها بذة الفكر الإسلامي .

وأهم ميادين العلم ، التي اصطبغت بسمة التقليد والمحاكاة عند
الاندلسيين هي الدراسات الأدبية ولكن رغم ذلك فإن : (من الخطأ الكبير ألا
يخيلنا عند دراسة الأدب الاندلسي إلا هذا الاستقلال في الشخصية الاندلسية
لأننا ندرس ادبا يستند إلى حضارة مشتركة في الشرق والغرب ، فلو لم يكن
التقليد مقصوداً لكان التشابه أيضاً محتوماً)^(٢) .

وعليه فإن الدراسات العلمية والوان الثقافة في أقطار العالم الإسلامي
مشرقه وغربه تخضع في مجموعها لسمة التشابه ، وذلك لارتكازها على لغة
وثقافة إسلامية واحدة وهذا بلا شك يؤدي بالضرورة إلى ما وصفناه ، فمن
العسير إذن أن يطالب الأندلسيون بالتواصل إلى نتائج علمية لم يصل إليها
المشاركة مادام الأمر على هذه الحال .

أما بالنسبة للعلوم الدينية من فقه وحديث وتفسير وقرآيات ، فمن عوامل
وجود الشبه والتقارب بين الدراسات الأندلسية والمشرقية هو اتحاد المصدر وهو

(١) الحميدي : الجذوه ، ص ٣١٠ .

(٢) احسان عباس : المرجع السابق ، ص ٣٩ - ٤٠ .

القرآن الكريم والسنة الشريفة ، والذان انبثقت عنهما علوم الدين المذكوره فمن الطبيعي وقد اتحد المصدران أن تتحد النتيجة أو تتقارب (٢) .

أما بقية العلوم الأخرى فقد كانت بعيدة نسبياً عن دائرة التقليد وبالتالي خلت الكثير من جوانب دراساتها من سمة التشابه .

ويشير عبد الكريم القواطي إلى قضية التأثير العلمي للمشرق في الأندلس وهو في ذلك يبدي اقتناعه بأن صورة الحركة العلمية في الأندلس انعكاس للثقافة المشرقية فيقول - بعد عرض مسهب لذلك الموضوع - (وهذا ما يجعلنا نعتقد أن دراسة الحياة الفكرية في الشرق تغني إلى أبعد الحدود عن دراستها في الأندلس العربية) (٢) .

ولا شك أن في هذا القول مجافاة للصواب وتجنياً سافراً على التراث الثقافي الأندلسي ووصفه بالصورة التقليدية وأنه مجرد انعكاس لصورة الثقافة المشرقية في مرآة التقليد والمحاكاة .

ووجه الحق أن الأندلسيين قد حققوا - خاصة في عصر الخلافة وما تلاه من عصور حضارة علمية تشهد لهم بطول الباع والنبوغ الفكري حتى قال ابن حزم في هذا الصدد - بعد أن ذكر براعة أهلها في العلم والمعرفة - (وبلدنا هذا على بعده من ينبوع العلم ، ونأيه عن محلة العلماء فقد ذكرنا من تأليف أهله ما أن طلب مثلها بفارس والأهواز وديار مصر وديار ربيعة واليمن والشام أعوز وجود ذلك على قرب المسافة في هذه البلاد من العراق التي هي دار هجرة الفهم وذويه ومراد المعارف وأربابها) (٣) .

(١) احمد امين : ظهر الإسلام ، ج ٣ ، ص ٢٧ - ٢٨ .

(٢) مأساة انهيار الوجود العربي في الأندلس ، ص ٦٧٧ .

(٣) المقرئ : النفع ، ج ٣ ، ص ١٧٧ .

فأين وجه الحق بين هذين القولين . إن الحق بلا شك يبدو واضح السمات جليا ظاهرا في قول ابن حزم الذى هو أعرف وأخبر بما كان عليه بلده وما ضمه من علماء بارعين أسهموا في نشاط الحركة العلمية وقدموا للعلم عطاء سخيا يتمثل في انتاجهم العلمي النفيس والذي لا يزال أهل المشرق يكونون له أعظم تقدير وتكريم إلى وقتنا الحاضر (١) .

وإذا كان من الانصاف أن تشير إلى فضل ما قدمه المشرق للاندلس في الميدان العلمي فإن من الحق أيضا أن نشير إلى أن الأندلسيين بعد ذلك وخاصة في عصر الخلافة نفذوا من دائرة التقليد إلى محيط الابداع العلمى مع بروز الشخصية العلمية في ميدان الفكر. ففي القرن الرابع الهجرى بدأت الحركة العلمية الاندلسية تتخذ قالباً جديداً وشكلاً مغايراً لما سبق فضلاً عن سعيها إلى اثبات ذاتها ، واستقلالها الشخصي عن المشرق فاهتمت منذ ذلك الحين بحاضرها واد ركها ما يشبه الشعور القومي ، وكان للحكم المستنصر أثر بارز في بناء الكيان العلمي للاندلس ، والعمل على استقلال الشخصية العلمية للاندلس ورفع شأنها وذلك بما هيأه من مسائل علمية لتحقيق ذلك الهدف ، فاذا بالمكتبة الاندلسية تزخر بعيون التصانيف والمؤلفات وهكذا وجدت الاندلس رجالها وتاريخها وفكرها فتحدثت عنه وخلدت (٢) .

وبعد هذا كله فمن غير الانصاف أن ننفي عن الأندلسيين سمة الإبداع وبالتالي نصفهم بالتبعية الثقافية للمشرق وضمحلل شخصيتهم العلمية في موجة التقليد والمسيرة لغيرهم .

(١) انظر فيما بعد القسم الثاني لتلمس الإنتاج العلمي الرائع للأندلسيين في مختلف ألوان المعرفة .

(٢) احسان عباس : تاريخ الأدب الاندلسي ، ص ٧٩ .

وعليه فإن النهضة العلمية في الأندلس آنذاك بلغت الذروة ، وأصبحت في درجة لا تقل عن نظيرتها في المشرق بدليل الأعداد الهائلة لعلماء الأندلس في شتى حقول المعرفة وما انتجوه من نفائس الكتب في ذلك ، والتي اتضحت معها الشخصية العلمية للأندلس التي استقلت إلى حد كبير (١) .

وتبعاً لذلك فإن هناك دلائل ومؤشرات انبثقت عن شعورهم بحتمية الاستقلال الفكري ، وإثبات قدرتهم على صنع حضارتهم وصبغها بالسمة الأندلسية . وتتجلى لنا نزعة الأندلسيين إلى الاستقلال وتطلعهم إلى إثبات قدراتهم الشخصية في المعترك العلمي بما يروي عن الحكم المستنصر الذي كان يفاخر بعلماء بلده ويعتز بقدراتهم العلمية أمام منافسيهم من أهل المشرق ، فيقول في أحد علماء الأندلس « إذا فخرنا أهل المشرق بيحيى بن معين فأخربناهم بخالد بن سعيد » (٢) .

ويحيى المذكور (١٥٨ - ٢٣٢ م / : ٧٧٤ - ٨٤٧ م) أحد حفاظ الحديث وعلمائه الكبار من أهل المشرق . ووصفه الذهبي بسيد الحفاظ وكان ذا بصر بالجرح والتعديل (٣) وقد كان هذا العلامة يمثل بعلمه الواسع وثقافته الرفيعة مثالا بارزا على التألق العلمي للمشاركة . ولما كان خالد بن سعيد متضلعا في الحديث ومعرفة علومه كان هذا دافعا للخليفة المستنصر للاعتراف بمكانته وتبوغه الواضح وكونه فخرا للأندلس كما أن يحيى فخر أهل المشرق في الحديث .

ومما روي في ذلك أن الأديب المشرقي صاعد بن الحسن دخل على الحاجب المنصور بن أبي عامر ، وكان صاعد يرتدي ثياباً جديدة ، فمشى جانب البركة لازدحام الحاضرين في الصحن ، فزلقت رجله فسقط ، فضحك

(١) أحمد هيكال : الأدب الأندلسي ، ص ١٩٠ .

(٢) ابن العماد : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ج ٣ ، ص ١١ .

(٣) الزركلي : الاعلام ، ج ٨ ، ص ١٧٢ - ١٧٣ .

المنصور والحاضرون وأشار باخراجه من الماء فأخرج وقد أضر به البرد فأمر له بكسوة وأشار عليه بأن يصف حالته وسقوطه في الماء شعرا ، فقال صاعد بيتا من الشعر استبرده المنصور ، وكان في الحاضرين أبو مروان الجيزي أحد أدباء الأندلس فأنشد شعرا على لسان صاعد يصف سقوطه في الماء وأبدع أبو مروان في ذلك مما أدخل السرور على المنصور فقال :

« لله درك : قسناك بأهل العراق ففضلتهم فيمن نقيسك بعد » (١) .

وتؤكد هذه الحادثة ما سبق قوله من تطلع الأندلسيين إلى قمة التنافس ، وصدارة الموكب العلمي آنذاك .

وعندما وفد أبو علي القالي على الأندلس سنة ٣٣٨هـ / ٩٤٩م ، أمر الخليفة عبد الرحمن الناصر أن يرافقه وفد من العلماء ، ويصحبه إلى أن يصل إلى بلاط الخلافة ، وفي طريقهم إلى قرطبة ، كانوا يتجاذبون الحديث في الأدب حتي قال أبو علي القالي بيتا من الشعر ، إلا أحد الأدباء من الوفود ويدعى ابن رفاعه الألبيري عارض أبا علي في كلمة وردت في ذلك البيت . ولكن الأخير تمسك برأيه حولها ، مما أسخط ابن رفاعه ، فانصرف عن صحبه الوفد قائلا : « مع هذا يوفد على أمير المؤمنين وتتجشم الرحلة لتعظيمه وهو لا يقيم وزن بيت مشهور بين الناس لا تغلط الصبيان فيه ؟ والله لا تبعته خطوة » وفارق الوفد ، ولما وصل خبر ذلك إلى الحكم المستنصر وكان للعهد قال : « الحمد لله الذي جعل في بادية من بوادينا من يخطيء وافد أهل العراق الينا » (٢) .

ولا شك أن هذه القصة تضيف قوة إلى ما أوردناه من ظواهر الاعتزاز بالشخصية الأندلسية ، وتوضح مدى ثققتهم بمستواهم الفكري أمام الثقافات

(١) الأزدی : بدائع البدائہ ، ص ٣٥٥ - ٣٥٦ - المقرئ : النفج ، ج ٢ ، ص ٩٥ .

(٢) المقرئ : النفج ، ج ٢ ، ص ٧٠ - ٧١ .

الأخرى الواردة عليهم بل أنهم أصبحوا على قدم المساواة مع أندادهم من أهل المشرق حضارة وعلماً ، حتى روي المقرئ أن ابن سعيد - المؤرخ الأندلسي - قال أنشدني والدي للحافظ أبي الطاهر السفلي قال وكفى به شاهداً ويقول مفتخراً :

بلاد اذربيجان في الشرق عندنا كأندلس بالغرب في العلم والأدب
فما أن تكاد الدهر تلقى مميّزاً من أهليهما الا وقد جد في الطلب^(١)
وعندما وفد أبو علي القالي على الأندلس ، وتحدث عن نظريته إلى أهالي الأقاليم التي مربها في طريقة إلى الأندلس ، ودرجاتهم في العلم ، فلما وصل إلى القيروان وخرج منها لاحظ أنه كلما بعدت ديارهم عن القيروان كلما كان ذلك ادعى إلى قلة فهمهم وقصر علمهم ، حتى كأن قريبهم أو بعدهم من المدينة المذكورة - مقياساً على نباهتهم أو قصور أفهامهم ، وحتى قال أبو علي : إن نقص أهل الأندلس عن مقادير من رأيت في أفهامهم بقدر نقاص هؤلاء عمن قبلهم . فسأحتاج إلى ترجمان بهذه الأوطان^(٢) .

ولكن هل صدق ظن أبي علي فاحتاج إلى ترجمان في مخاطبة أهل الأندلس ، والتحدث معهم ؟ وهل كان الأندلسيون على بعدهم عن مراكز العلم في المشرق في مستوى علمي ضئيل ، ورداءة في الأفهام ، تؤكد ظن القالي ، وترسخ في ذهنه ما دار في حسبانته ؟

إن الأمر كان بخلاف ذلك . فقد ظهرت شمس الحقيقة للقالي عندما حل بين الأندلسيين فقد هاله ما رأى من تمكنهم في ضروب العلم والأدب ورسوخ أقدامهم في ذلك يقول ابن بسام بعد إيراد الخبر السابق (فبلغني أنه كان يصل كلامه هذا بالتعجب من أهل هذا الأفق في ذكائهم . ويتغنى عنهم عند

(١) المقرئ : نفس المصدر والجزء ، ص ٢٢٤ .

(٢) ابن بسام : الدخيرة ، القسم الأول ، ج ١ ، ص ٤ .

المباحثة والمناقشة ويقول لهم : « إن علمي علم رواية ، وليس بعلم دراية ، فخذوا عني ما نقلت ، فلم آل لكم ان صححت » .

هذا مع اقرار الجميع له يومئذ بسعة العلم وكثرة الروايات والأخذ عن الثقات (١) .

ولا شك أن هذا اقرار من القالي ببراعة الأندلسيين واتساع معارفهم . وعلو مستواهم العلمي . وفي ذلك إشارة أيضا إلى بروز الشخصية العلمية للأندلسيين وثبات لقدراتهم في الميدان الفكري وانهم ليسوا بأقل من غيرهم علما ومعرفة .

وإلى جانب شهادة القالي بفضل الأندلسيين في الميدان العلمي فقد أورد المقرئ في معرض افتخار أبي الوليد إسماعيل بن محمد الشقندي بفضائل الأندلس ، وبراعة أهلها في العلم والأدب ، وذلك رداً على أحد علماء المغرب وهو ابن المعلم الطنجي الذي فضل المغرب على الأندلس وأنها أوسع علماً وأزهر حضارة ، فكتب الشقندي رسالة في تفضيل الأندلس علي غيرها في ميدان العلم ، وفي ختام الرسالة قال : . مخاطباً لابن المعلم – (وأنا أحكي لك حكاية جرت لي في مجلس الفقيه الرئيس أبي بكر بن زهر ، وذلك أبي كنت يوماً بين يديه ، فدخل علينا رجل عجمي من فضلاء خراسان ، وكان ابن زهر يكرمه فقلت له : ما تقول في علماء الأندلس وكتائبهم وشعرائهم ؟ فقال : كبرتُ فلم أفهم قصده . واستبردت ما أتى به ، وفهم مني أبو بكر ابن زهر أنني نظرتُه نظر المستبرد المنكر. فقال لي : أقرأت شعر المتنبي ؟ قلت نعم . وحفظت جميعه. قال فعلى نفسك اذن فلتنكر وخاطرك بقلّة الفهم فلتتهم . فذكرني بقول المتنبي :

كَبُرْتُ حَوْلَ دِيَارِهِمْ لَمَّا بَدَتْ
منها الشَّمْسُ وليس فيها المشرق

(١) نفس المصدر والجزء والصفحة .

فاعتذرت للخراساني ، وقلت : قد والله كبرت في عيني بقدر ما صغرت نفسي عندي . حين لم أفهم مقصداً (١) .

ولكن قد يقول أحدهم إن شهادة أبي علي القالي والعالم الخراساني السابق الذكر إنما أنت من قبيل المجاملة لأن الاثنين كانا في ضيافة الاندلسيين فمن غير الطبيعي أن يأتيا بغير ذلك ؟ ولكن نقول : إذا صح هذا وهو أمر بعيد ، فإن المتنبي وهو الذي يعد من أشهر شعراء الإسلام - إن لم يكن أشهرهم - قد شهد لابن عبد ربه الشاعر الأندلسي عندما سمع من أحد علماء الأندلس في مصر ، فقد أحسن ابن عبد ربه في شعره مما أطرب المتنبي وصفق بيديه وقال : « يا ابن عبد ربه لقد تأتيتك العراق حياً » (٢) .

ثم لا ننسى أن الحسن ابن هاني المعروف « بأبي نواس » وهو من نوابغ الشعراء في العراق قد شهد للشاعر الأندلسي عباس بن ناصح بالمتقدم عليه في ميدان الشعر وقد اشرنا إلى ذلك عند الحديث عن الشعر في عصر الإمارة فإذا كان الامر كذلك فقد وضح الحق وتكشفت المزايم التي ألحقها البعض من الكتاب حول الحركة العلمية في الأندلس ، وانها تقليد وصورة مشوهة لثقافة المشرق .

وقد ألف ابن حزم رسالة في فضل الأندلس وجهود علمائها في ميدان الإنتاج العلمي وختم رسالته بعقد مقارنة بين نوابغ العلماء الاندلسيين في حقول المعرفة المختلفة وبين أندادهم من المشارقة ، وتعتبر هذه الرسالة من أعظم شواهد التفوق العلمي للاندلسيين منذ بداية عصر الإمارة إلى عصر

(١) النفع ، ج ٢ ، ص ٢٢٢ .

(٢) ياقوت : معجم الادباء ، ج ٢ ، ص ٢٢٢ - ٢٢٣ - المقرئ : النفع ، ج ٣ ، ص ٥٦٥ .

المؤلف نفسه ، وهي بلاشك تعطينا دليلا حاسما على نضوج الشخصية العلمية للاندلسيين وتفوقهم^(١) .

ومن الغريب بعد ما تقدم أن يصف أحد المؤرخين والجغرافيين ممن عاصر هذه النهضة العلمية من علماء المشرق وهوابن حوقل الذي دخل الأندلس في عصر عبد الرحمن الناصر - أن يصف أهل الأندلس بقوله : « ومن أعجب أحوال هذه الجزيرة (الأندلس) بقاؤها على من هي في يده مع صغر أحلام أهلها . وضعه نفوسهم ونقص عقولهم .. »^(٢) .

ويكفي الرد على هذه المزاعم ما قاله الجغرافي المشرقي والذي عاصر ابن حوقل وهو محمد بن أحمد المقدسي لنعرف الفرق الشاسع والتباين الواضح بين ما زعمه الأول وادعاه وما قاله الثاني للحقيقة وانتصارا للحق ، يقول المقدسي : (وقد دلت الدلائل واتفقت الآراء على أنه مصر جليل رفق طيب وإن ثم عدلا ونظراً وسياسة وطيبة ونعما ظاهرة ودينا غزاة أبدا في جهاد ونفير مع علم كثير وسلطان خطير وخصائص وتجارات وفوائد)^(٣) .

ويبدو أن سبب تحامل ابن حوقل على الاندلسيين هو تشييعه للفاطميين وولائهم لهم وهو أمر أشار إليه أثناء كلامه عن الأندلس ، فيقول (ومن أعجب أحوال هذه الجزيرة بقاؤها على من هي في يده مع صغر أحلام أهلها وضعه نفوسهم ونقص عقولهم ، وبعدهم عن البأس والشجاعة والفروسية والبسالة

(١) نظرا لاهمية هذه الرسالة ودلالاتها الواضحة على التقدم العلمي للاندلسيين في عصر الخلافة وما قبله ، فقد رُئي وضعها في ختام الرسالة كملحق من الملاحق .

(٢) صورة الأرض ، ص ١٠٤ .

(٣) أحسن التقاسيم ، ص ٢٣٣ . (١) المقرئ : النفع ، ج ١ ، ص ٤٦٢ - ٤٦٣ .

ولقاء الرجال ومراس الأندلس والابطال وعلم موالينا عليهم السلام بمحلها في نفسها ومقدار جبايتها ومواقع نعمها ولذاتها(١) .

وبهذا يتضح لنا تحامله على الأندلسيين وتحيزه لمواليه من الفاطميين ، ولا يستعبد أيضا أن يكون قد دخل الأندلس كعين للفاطميين لمعرفة أحوال الأندلس والاطلاع على مظاهر قوتها وضعفها .

وختاماً يتبين بوضوح ما نجم عن الرحلات العلمية من آثار ونتائج علمية كبيرة للأندلسيين حيث كانوا في بدء اشتغالهم بالعلوم ينقلون عن المشاركة علومهم ومعارفهم ، ويمرور الوقت أخذ نشاطهم العلمي يتخذ اتجاهها مغايراً لاتجاهه الأول حيث رأوا من واقع الانتماء لوطنهم أن تكون لهم شخصية علمية مستقلة يثبتون من خلالها أنهم أقدر على صنع حضارتهم وبناء كياناتهم العلمي بأنفسهم ، فكان عصر الخلافة دورة مضيئة في جبين التاريخ الأندلسي تشهد لأهله بنبوغهم العلمي وبقدرتهم على اثبات ذاتهم في ميدان الحضارة الإسلامية .

(١) صورة الأرض ، ص ١٠٤ - ١٠٥ .

الفصل الثالث

الكتب والمكتبات في الأندلس

أ - عناية الأندلسيين بالكتب

ب - اهتمام الأندلسيين بجمع الكتب واقتنائها ، وإنشاء المكتبات .

مكتبة الخليفة الحكم المستنصر - مكتبة المنصور بن أبي عامر - مكتبة الوزير أبي المطرف عبد الرحمن بن فطيس - مكتبة محمد بن يحيى الغافقي القرطبي .

ج - حرفة الوراقة في الأندلس وأثرها في النشاط العلمي .

١ - عناية الأندلسيين بالكتب :

لما كان الكتاب يمثل بما يحويه من ثمرات الفكر الإنساني وسيلة مهمة من وسائل العلم والمعرفة في أى عصر من العصور ، وفي أى مجتمع من المجتمعات لذا فمن الطبيعي أن نقف على مقدار الأهمية العظمى التي تعطى للكتاب في الحياة العلمية لدى أي أمة من الأمم .

ولما كانت الأندلس قد دخلت ميدان الحياة العلمية فقد أعطت الكتاب المنزلة اللائقة به في خضم النشاط العلمي الذي عايشته وبلغت به درجة رفيعة بين الأقطار الإسلامية .

وفي عصر الخلافة كانت الحاجة ماسة إلى الكتب والتأليف العلمية ، وذلك نتيجة لازدهار الحركة العلمية والاقبال الشديد على المعرفة ، وكانت قرطبة تحتل الصدارة في النشاط والازدهار العلمي ، فكان أهلها أكثر الأندلسيين عناية واهتماما بالكتب حتى قال أحد علماء الأندلس يصف هذه الظاهرة العلمية عند أهل قرطبة : (وأهلها أشد الناس اعتناء بخزائن الكتب . صار ذلك عندهم من آلات التعيين والرياسة حتى ان الرئيس منهم الذى لا تكون عنده معرفة يحتفل في أن تكون في بيته خزانة كتب وينتخب فيها ليس إلا لأن يقال : فلان عنده خزانة كتب ، والكتاب الفلاني ليس هو عند احد غيره والكتاب الذى هو بخط فلان قد حصله وظفريه) (١) .

وقد حظي الكثير من علماء الأندلس بمكانة اجتماعية رفيعة بين أفراد المجتمع ، فبعلوهم احتلوا المنزلة السامية بين السلطان والرعية على حد سواء ، لهذا فقد تطلع البعض ممن لم يتمكن من التعلم واكتساب المعرفة إلى التشبه بأولئك العلماء ومسايرتهم في بعض مظاهر سلوكهم كالاهتمام بالكتب والعناية

(١) المقرئ : النفج ، ج ١ ، ص ٤٦٢ - ٤٦٣ .

بها . فأقبلوا يزينون منازلهم بخزائن الكتب لينالوا من وراء ذلك مكانة وجاها بين الناس ، وليقال انهم من ذوى المعرفة ، وعلى الاقل من محبي العلم .

ولم يكن الاهتمام بالكتب وقفا على مدينة قرطبة ، بل تعدها إلى المدن الأندلسية الأخرى والتي نعمت هي بدورها بالتطور العلمي والازدهار الثقافي وفي مقدمة تلك المدن اشبيلية ، وطليطة ، ومرسية ، وغرناطة ، ويذكر أنه كان في المدينة الأخيرة سبعون مكتبة عامه غير المكتبات الخاصة (١) .

ومن دلائل عناية الاندلسيين بالكتب - حتى بين من لم تكن لهم سابقة في العلم والمعرفة - ما رواه أحد العلماء القرطبيين ويدعى الحضرمي بقوله (أقمت مرة بقرطبة ولازمت سوق كتبها مدة أترقب فيها وقوع كتاب كان لي بطلبه اعتناء إلي أن وقع وهو بخط جيد وتفسير (٢) مليح ففرحت به اشد الفرح فجعلت أزيد في ثمنه . فيرجع إلى المنادي بالزيادة علي . إلي أن بلغ فوق حده . فقلت له : يا هذا . أرني من يزيد في هذا الكتاب حتى بلغه إلى ما لا يساوى . قال : فأراني شخصا عليه لباس رياسه ، فدنوت منه وقلت له : اعز الله سيدنا الفقيه . إن كان لك غرض في هذا الكتاب تركته لك فقد بلغت الزيادة بيننا فوق حده . قال : فقال لي : لست بفقيه ولا أدري ما فيه ، ولكني أقمت خزانة كتب ، واحتفلت فيها لا تجمل بها بين أعيان البلد ، وبقي فيها موضع يتسع هذا الكتاب . فلما رأيته حسن الخط جيد التجليد استحسنته ولم أبال بما أزيد فيه ، والحمد لله على ما انعم به من الرزق فهو كثير . قال الحضرمي فأخرجني وحملني على أن قلت له : نعم لا يكون الرزق كثيرا إلا عند مثلك يعطي الجوز من لاعنده أسنان ، وأنا الذى أعلم ما في هذا الكتاب ، وأطلب الانتفاع به يكون الرزق عندي قليلا وتحول قلة ما بيدى بيني وبينه (٣) .

(١) عمر كحاله : مقدمات ومباحث في حضارة العرب والإسلام ، ص ٢٤٤ .

(٢) التفسير : التجليد .

(٣) المقرئ : النفح ، ج ١ ، ص ٤٦٣ .

ونلمس في هذا النص عدة فوائد منها ما كان للكتب من أهمية عظيمة وأنه كانت لها سوق خاصة يتم فيها بيعها وشراؤها بالإضافة إلى ذلك المستوى الفني الرفيع الذي صاحب هذه الحركة العلمية من الاهتمام بالخط وتجليد الكتب كما أن في النص دليل واضح على ما كان للكتب من منزلة سامية في قلوب الاندلسيين العالم منهم والأمي .

ونتيجة لهذا الازدهار العلمي السائد في الأندلس أن كانت هناك منافسات علمية بين المدن الاندلسية المختلفة ، وأيها أكثر علما ومعرفة ، حتى قامت مناظرات في التفضيل بين تلك المدن . ومن جملة ما حدث من تلك المناظرات ما تم بين يدي ملك المغرب المنصور يعقوب^(١) حيث دارت بين العالمين ابن رشد وابن زهر مناظرة وكان كل منها يسعى إلى تفضيل مدينته على مدينة الآخر فأخذ ابن زهر في تفصيل وتقديم اشبيلية – مسقط رأسه – على مدينة قرطبة ، فانبرى له ابن رشد قائلا : ما أدري ما تقول غير أنه اذا مات عالم باشبيلية فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتي تباع فيها وان مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حملت إلى اشبيلية^(٢) .

وعلى الرغم من أن هذه المناظرة التي حدثت بين هذين العالمين كانت في عصر الموحدين – أي في القرنين السادس والسابع الهجريين – إلا أنها تدل على أن قرطبة احتفظت بمكانتها العلمية بعد انقضاء قرنين على ما وصلت إليه من ازدهار في عصر الخلافة .

(١) احد سلاطين الموحدين بل يعد من اشهرهم ، واسمه يعقوب بن عبد الرحمن بن عبد الحق بن محيو بن بكر من قبيلة زناته يكنى بأبي يوسف ويلقب بالمنصور ، وكان له فضل كبير في الحاق الهزيمة بالنصارى في الأندلس سنة ٦٧٢هـ وتوفي سنة ٦٨٥هـ .

(ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ٤ ، ص ٣٥٨ – ٣٥٩ – ٣٦١) .

(٢) المقرئ : النسخ ، ج ١ ، ص ١٥٥ – ليفي بروفنسال : حضارة العرب في الأندلس ، ص ٦٥ .

والحق أن ما أشار إليه ابن رشد في وصفه لأهل اشبيلية فيه مبالغة إذ أنه عرف عن أهلها المنافسة الشديدة لأهل قرطبة في ميدان العلم حتى أنه نسب إليها أعداد كبيرة من العلماء وبخاصة في عصر ملوك بني عباد في القرن الخامس الهجري .

ولعل من دلائل نهضة اشبيلية وتألقها العلمي انه كان بها سوق خاص بالكتب يتردد إليه أهل الأدب والعلم بحثاً عن نفائس الكتب ونوادرها بالإضافة إلي انه كان لعناية أهلها بالكتب واشتغال الكثير منهم بتجارتها أن كان بها شارع يسمى شارع الوراقين(١) .

وبهذا يتضح أن العناية بالكتب واقتنائها لم يكن وقفاً على قرطبة بل تعداها إلي المدن الأخرى . كما أن الاهتمام بالكتب لم يكن موضع عناية المسلمين في الأندلس فقط بل شاركهم في ذلك المسيحيون من أهل البلاد ، فقد كتب مطران قرطبة الغارو في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي (ان جميع المسيحيين المميزين بالذكاء كانوا يعرفون لغة العرب وأدبهم ، ويقرأون ويطالعون كتب العرب بولع ، ويجمعون مكتبات كبيرة من تلك الكتب بنفقات باهظة)(٢) .

اهتمام الاندلسيين بجمع الكتب واقتنائها ، وبإنشاء المكتبات : نتيجة للازدهار العلمي الذي نعمت به الأندلس آنذاك ، وما استتبع ذلك من الاهتمام بالكتب والحرص على جمعها ، ان ظهرت في ذلك العصر ظاهرة العناية بالكتب وتفشت بين الكثير من أفراد المجتمع الأندلسي ، ويأتي في مقدمة من اعتنى بجمع الكتب الخليفة الحكم المستنصر الذي كان يستهدف من وراء ذلك

(١) خوليان ربيرا : المكتبات وهواة الكتب في اسبانيا الإسلامية ، ترجمة جمال محمد محرز ،

مجلة معهد المخطوطات العربية م ٥ ، ج ١ ، ص ٧٨ ، مايو ١٩٥٩ م .

(٢) روبرت بريفالت : أثر الثقافة الإسلامية في تكوين الانسانية ، ص ١٤٥ .

توفير وسائل النهضة العلمية في وطنه فعمد إلى جمع الكتب وحرص على اقتناء نفائس المصنفات ونوادير التأليف الإسلامية منها وغير الإسلامية وبلغ من حبه للكتب وسعيه في جمعها انه (لم يُسمع في الإسلام بخليفة بلغ مبلغه في اقتناء الكتب والدواوين وإيثارها والتهمم بها)(١) .

والجدير بالذكر ان الخليفة المستنصر نهج عدة وسائل في سبيل جمع الكتب من شتى البقاع ، فكان له وراقون منتشرون في أقطار العالم الإسلامي يسعون لاقتناء نفائس الكتب ونوادرها . ومن بين أولئك الوراقين طائفة لازمت مدينة بغداد للاطلاع على كل جديد في العلوم الأدب ، وكان أحدهم ويدعى محمد بن طرخان يقوم بهذه المهمة على الوجه المطلوب تحقيقا لرغبة مولاه الحكم المستنصر(٢) .

وهكذا نلمس مدى ماكان يوليه الخليفة الحكم لهذا الجانب العلمي من عناية كبيرة واهتمام بالغ ، وقد وصف ليفي بروفنسال هذه الظاهرة العلمية بقوله : (إن شبكة حقيقية لحساب العاهل الاسباني من الباحثين والسماصرة والنساخين قد انتشرت واخذت تتابع تحرياتها عن التأليف في طول العالم الإسلامي وعرضه)(٣) .

ومما يؤكد عناية الخليفة الحكم بالكتب وما يخرجها العلماء من انتاجهم العلمي حرصه على الاطلاع على ما يؤلفه بعضهم قبل أن يخرجوه للناس ، فقد

(١) ابن الأبار : الحلة السيرة . ج ١ ، ص ٢٠١ .

(٢) ابن الأبار : نفس المصدر والجزء ، ص ٢٠٢ - ابن خلدون : العبر ، ج ٤ ، ص ٤٤٦ - المقرئ : النفع ، ج ١ ، ص ٢٨٦ - عبد الرحمن الحجي : التاريخ الاندلس ، ص ٢٩٩ - عمر كحاله : مقدمات ومباحث ص ٢٤٣ - أنيس النصولي : المرجع السابق ، ص ١٢١ - حنا الفاخوري : تاريخ الأدب العربي ، ص ٩٧٢ - آدم متز : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٣٢٢ - مصطفى الشكعة : الأدب الاندلسي : ص ١٠٢ .

(٣) حضارة العرب في الاندلس ، ص ٦٣ - ٦٤ .

بعث إلى أبي الفرج الأصفهاني بمال جزيل ليبعث إليه بنسخة من كتابه
(الأغاني) فارسلها إليه قبل ان تراها الأعين في العراق (١) .

ونتيجة لهذا الحرص الشديد على اقتناء كتب العلم ان دخلت الاندلس
اعداد هائلة من الكتب في شتى حقول المعرفة فألى جانب الكتب الإسلامية
كانت هناك كتب من تراث الاوائل ككتاب الحساب الهندي المعروف عند العرب
« بالسندهند » الذي صاحب دخوله الاندلس دخول الارقام الهندية التي ما لبثت
أن انتقلت إلى اوربا (٢) .

ومن الكتب القديمة التي دخلت الاندلس كتابا هورشيش وديسقوريدس ،
الأول في التاريخ والثاني في النباتات الطبية وكان الامبراطور ارمانوس السابع
قد اهداهما للخليفة عبد الرحمن الناصر .

ويبدو أن اهتمام الخليفة الحكم المستنصر بالكتب لم يعرف حدودا ولا
قيودا ، بل كان شغفه بها عاما ينسحب على كل ألوان المعرفة . فقد استجلب
من بغداد ومصر والشام وغيرها من ديار المشرق عيون التأليف النفسية ،
والمصنفات الغربية الإسلامية وغير الإسلامية (وجمع منها في بقية ايام أبيه ثم
في مدة ملكة من بعده ما كاد يضاهي ما جمعته ملوك بني العباس في الازمان
الطويلة ، وتهيأ له ذلك لفرط محبته للعلم وبعد همته في اكتساب الفضائل
وسمو نفسه إلى التشبه بأهل الحكمة من الملوك ، فكثرت تحرك الناس في زمانه
قراءة كتب الاوائل وتعلم مذاهبهم) (٣) .

(١) المراكشي : المعجب ، ص ٦١ - ٦٢ - ابن خلدون : العبر ، ج ٤ ، ص ١٤٦ - المقري : النفع ،
ج ١ ، ص ٢٨٦ .

(٢) عبد الجليل الراشد : التقدم الفكري عند أهل الاندلس ، مجلة المؤرخ العربي العدد الثالث
عشر ، ص ١٣٥ .

(٣) صاعد : طبقات الأمم ، ٨٨ .

ولعل في هذا النص دليل على مدى التأثير الكبير الذى نجم عن دخول ألوان التصانيف والكتب العلمية إلى الأندلس وكيف أنها أثرت في مفاهيم الناس وأفكارهم فبسبب اهتمام الحكم المستنصر بكتب الأوائل ان كثرت في عصره هذه الكتب واطلع عليها الناس وعرفوا ما فيها فكان لذلك أثر في انصراف الكثير منهم إلى دراسة علوم الأوائل كالفلسفة والرياضيات والفلك وغيرها مما نجم عنه ظهور تيارات علمية مختلفة في هذه العلوم المشار إليها . وهذا بلا شك احدى النتائج المهمة التي انبثقت عن ظاهرة الإقبال على الكتب العلمية واقتنائها لدى الأندلسيين .

وكان لشغف الحكم المستنصر باقتناء الكتب أنه كان يبت في مختلف أقطار العالم الإسلامي إلى جانب الوراقين من تجار الكتب نساخين مهرة ينسخون له ما لم يستطيع وراقوه شراعه من الكتب لنفاستها وحرص أصحابها عليها ، فكان له أعداد كبيرة من الناسخين ينسخون له الكتب في القاهرة وبغداد ودمشق والاسكندرية وغيرها من مراكز العلم^(١) .

(١) أنخل بالنثيا : المرجع السابق ، ص ١٠ .

مكتبة الخليفة الحكم المستنصر :

نتيجة لتلك الجهود الجبارة في ميدان العناية بالكتب والاهتمام بجمعها .
أن تقاطرت علي قرطبه أعداد هائلة منها ، وأصبح لدى الخليفة الحكم مجموعة
عظيمة من المصنفات ولو تصورنا الحالة التي كانت ترد فيها الكتب إلى
الأندلس ، وكيف أن اعوان الحكم المستنصر المنتشرين في الاقطار قد سعوا
في جلب ما يرضي ميول الحكم ، وان قرطبة كانت تستقبل بين أونة وأخرى
افواجا من الكتب التي يبعثها الوراقون من مختلف الاصقاع لادركنا ضخامة
ما ضمته من تصانيف العلم ، (حتى غصت بها بيوته ، وضاعت عنها
خزائنه)(١) .

وازاء هذا الوضع فقد رسم الحكم المستنصر خطة لانشاء مكتبة عامره
تكون نفعاله ولطلاب العلم أيضا ، ولا يفهم من هذا أنه لم يرث عن أبيه عبد
الرحمن الناصر شيئا من الكتب فقدورث عنه ثروة طيبة من الكتب كانت نواة
وأساساً لمكتبة عظيمة نماها الحكم ورعاها وامدها بذخائر نفيسة من التأليف
العلمية حتى أصبحت في - صورة فريدة لم يجمع مثلها أي خليفة في الإسلام
وبلغ من ضخامة محتويات تلك المكتبة أن اشتهر أمرها في الاوساط العلمية في
العالم الإسلامي ، وأصبحت مثلاً بارزاً على الازدهار العلمي والنشاط الفكري
حتى غدت تلك المكتبة من أعظم خزائن الكتب في الإسلام وتقف موقف النديم
خزانة الخلفاء العباسيين ببغداد وخزانة الفاطميين بالقاهرة(٢) .

ويذكر ابن حزم محتويات مكتبة الخليفة الحكم المستنصر فيقول
(واخبرني « قليد » الفتى - وكان على خزانة العلوم بقصر بني مروان بالأندلس -

(١) ابن الأبار : الحلة السيرة ، ج ١ ، ص ٢٠١ .

(٢) القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ١ ، ص ٤٦٦ - ٤٦٧ .

أن عدد الفهارس التي كانت (فيها) تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسه في كل فهرسة خمسون ورقة ليس فيها الا ذكر أسماء الدواوين فقط (١) .

ونستشف من هذا النص أموراً كثيرة لعل أولها ضخامة ما حوته تلك المكتبة فاذا كان ما وصف في هذه الفهارس إلا الدواوين فقط فما بالنا بمصنفات العلم وكتب المعرفة الأخرى التي ولا شك ستكون أعظم وأكثر عددا . بالإضافة إلى ذلك نلمس مما ذكره ابن حزم مستوى ما كانت عليه تلك المكتبة من تنظيم فالمكتبة كانت مرتبة حسب المواضيع اي أن كل موضع له فهرسه الخاصة به ، وهذا يشبه ما يسمى الآن - بالفهرسة الموضوعية أو الفهرسة حسب الموضوعات (٢) .

واذا كان الأمر كذلك فقد يتسأل البعض كم كانت تحوى هذه المكتبة من نفائس الكتب ؟

يذكر المقرئ عند حديثه عن مكتبة الخليفة الحكم المستنصر (أنه جمع من الكتب ما لا يحصى ولا يوصف كثرة ونفاسة حتى قيل أنها كانت اربعمئة ألف مجلد ، وانهم لما نقلوها اقاموا ستة أشهر في نقلها) (٣) .

وقد أشار إلى هذا العدد الهائل من الكتب الكثير من الكتاب المحدثين ممن كتبوا عن ذلك الخليفة وتعرضوا لسيرته العلمية (٤) . بل إن زيغريد هونكه

(١) جبهة انساب العرب ، ص ١٠٠ - ابن خلدون : العبر ، ج ٤ ، ص ١٤٦ - المقرئ : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ٢٨٧ .

(٢) ماهر حماده : المرجع السابق ، ص ١٥٥ .

(٣) نفح الطيب ، ج ١ ، ص ٣٩٥ .

(٤) عبد الرحمن الحجى : المرجع السابق ، ص ٣١٧ - السيد عبد العزيز سالم : قرطبه حاضرة الخلافة ، ج ٢ ، ص ١٦٢ - مصطفى الشكعة : المرجع السابق ، ص ١١٣ - محمد عبد العزيز : المرأة العربية في الأندلس ، مجلة المؤرخ العربي ، العدد الثالث عشر ، ص ١٠٦ -

Thomas :

Irving :

Falcon of Spain, P192 - Titus Burckardt: Moorish Culture inspain, p37 .

تشير إلى أن تلك المكتبة ضمت نصف مليون من الكتب القيمة^(١) وأخيرا يأتي أحد الكتاب الغربيين وهو وليم درابر فيشير في كتابه المنازعة بين العلم والدين إلى مكتبة خلفاء بني أمية بقرطبة وأنها اشتملت على ستمائة ألف مجلد ، وأن فهرس أسماء تلك الكتب يتألف من أربعة وأربعين مجلد^(٢) .

ولكن أليس من حق الباحث أن يقف قليلا قبل أن يسلم بهذا العدد الهائل من الكتب والذي تبدو فيه سمة المبالغة ؟ حقا إن الحكم اقتنى في مكتبته المذكورة أعداداً كبيرة من الكتب . ولكن الباحث في التاريخ الإسلامي يستشف أن بعض المؤرخين المسلمين قد اعتادوا الإسراف والمبالغة فيما يخص المقادير الكمية والأرقام العديدة للأشياء ، كأعداد الجيوش أو البنائين أو الثروات وغير ذلك ممن يرون في كثرته وضخامة عدده رفعه وتمجيد لذوي الشأن من السلاطين والحكام .

ولا يستبعد أن إطلاق هذا الرقم الكبير على محتويات مكتبة الحكم المستنصر قد أتى من قليل إضفاء سمات الازدهار العلمي على عصر الحكم المستنصر الذي هو في غنى عن ذلك بما أسداه للحياة العلمية من جهود مخصصة ومثمرة لم يسبقه إلى ذلك أي حاكم في الأندلس من قبل ومن بعد وهذا ما شهد به التاريخ .^(٣)

كما أن مصادر التاريخ الأندلسي الأولى لم تذكر أياً من الأرقام المذكورة فلم يشر إليها ابن الفرضي أو الحميدي أو الضبي أو ابن بشكوال أو ابن الأبار .

(١) شمس العرب تسطع على الغرب ، ص ٣٥٣ .

(٢) عمر كحاله : مقدمات ومباحث ، ص ٢٤٣ - ٢٤٤ .

(٣) من المؤسف أن لم يبق كتاب واحد من ذخائر تلك المكتبة التي جمعها الحكم المستنصر ، بيد أن ليفي بروفنسال أشار إلى أنه عثر على مجلد منها في فاس وهو يحمل تاريخ ٣٥٩هـ وفيه دلالة على أنه نسخ لأمر الخليفة الحكم .

(انظر حضارة العرب في الأندلس ، ص ٦٥) .

ثم أن تدقيقنا في النص الذي أورده المقرئ يعطينا شيئاً من الشك وعدم التثبت من صحة الخبر ، فإيراده في النص قليل « حتى قليل » فيه إشارة إلى خلو النص من اليقين والتثبت .

مكتبة المنصور بن أبي عامر :

أتى بعد الخليفة الحكم المستنصر ابنه هشام المؤيد الذي كان معتزلاً لشئون الدولة لتسلط المنصور بن أبي عامر على الأمر وتولييه زمام الأمور ، لذلك فالمنصور بن أبي عامر هو الأحق بالحديث . فقد كان للمنصور مكتبة كبيرة اختص بها ولده من بعده ، وكان يقوم على النظر فيها والإشراف على محتوياتها العلامة الوراق محمد بن عبد الرحمن بن معمر اللغوي القرطبي (ت ٤٢٣/١٠٣١م) وكان لمهارته في الخط وشئون الوراقة أثر في معرفته الجديدة بشئون الكتب وصيانتها وإصلاح ما قد يكون في خطوطها من أخطاء ، فكان يقوم على فحصها ويقابل بين نسخها . هذا بالإضافة إلى براعته في التاريخ فقد ألف مصنفاً في تاريخ العامرين (١) .

وفي هذا دلالة على ما كان للمنصور من جهد بارز في النشاط العلمي في عصره وأنه كان يتمتع بروح علمية واهتمام بكتب العلم ، وفيه أيضاً رد على من وصف عصره بالانحطاط في الميدان العلمي .

مكتبة الوزير أبي المطرف عبد الرحمن بن فطيس :

وبرز إلى جانب ما ذكر من المعتنين بالكتب علماء أجلاء عرفوا بالعناية بالكتب والاهتمام بجمعها حتى اشتهر ذلك عنهم ويأتي في مقدمة هؤلاء العلامة الوزير أبو المطرف عبد الرحمن بن فطيس وكان في عهد المنصور بن أبي عامر (٣٤٨ - ٤٠٢ هـ / ٩٥٩ - ١١١ م) وقد عرف عنه الشغف الشديد بكتب العلم

(١) ابن الأبار : التكملة ، ج ١ ، ص ٣٨٤ - خوليان ريبيرا : المكتبات وهواة الكتب في إسبانيا ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، ٥٥ ، ج ١ ، ص ٧٤ .

والسعي في اقتنائها فاجتمع له بذلك خزانة ضخمة من غرر التصانيف وبلغ من عنايته بذلك أنه كان اذا سمع بكتاب عند أحدهم كان يبعث في شرائه ويبالغ في ثمنه فاذا لم يبيعه صاحبه والا انتسخه ورده عليه (١) .

ونتيجة لهذا الاهتمام البالغ فقد اجتمع لدى العلامة المذكور أعداد هائلة من الكتب في شتى ألوان المعرفة وبلغ من غزارتها ان أهل قرطبة اجتمعوا لبيعها مدة عام كامل وكانت هذه السنة سنة الفتنة ، وما ترتب عليها من الاضطراب والفوضى ، ورغم ذلك فقد اجتمع فيها من الثمن أربعون ألف دينار قاسميه (٢) .

وقد وصف ابن فرحون سيرة ابن فطيس ومبلغ عنايته بالكتب بقوله (جمع من الكتب في أنواع العلم ما لم يجمعه أحد من أهل عصره بالأندلس) (٣) .

والحق أن ذلك العالم كان يمثل الوجه المشرق للنشاط العلمي في عصر المنصور فقد أثبت من خلال سلوكه عمق اخلاصه للعلم ، وحبه الشديد للكتب والتصانيف وخاصة إذا علمنا أنه استفاد من تلك الثروة العلمية ، فقد خصص له في داره مجلسا حرص على أن يتوفر فيه المناخ المناسب للبحث والاطلاع ، فكان هذا المجلس (عجيب الصنعة ، حسن الآلة ، ملبس كله بالخضرة ، جدرانه وأبوابه وسقفه وفرشه وستوره ونمارقه ، وكل ذلك متشاكل الصفات وقد ملأه

(١) ابن بشكوال : الصلة ، ج ١ ، ص ٣١٠ - ابن فرحون : الديباج المذهب ، ج ١ ، ص ٤٧٨ - آدم ميتز : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٣٢٦ .

(٢) ابن بشكوال : الصلة ، ج ١ ، ص ٣١٠ .

- الدينار القاسمي نسبة إلى الامام القاسم المأمون والذي حكم قرطبة من سنة ٤٠٨هـ إلى سنة ٤١٢هـ (المقرئ : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ٤٣١) .

انظر ايضا Lavoix : Catalogue Des

Monnaies Musulmanes " Espagne Et Afrique "

(٣) الديباج المذهب ، ج ١ ، ص ٤٧٨ .

بدفاتر العلم ودواوين الكتب التي ينظر فيها ويخرج منها وبهذا المجلس كان أنسه وخلوته رحمه الله(١) .

ولا شك أن في هذا النص دلالة على ما ذكرناه عنه فقد كان يأنس في خلوته إلى كتب العلم فأفاده ذلك كثيرا حتى وصف بأنه (كان من جهابذة المحدثين وكبار العلماء والمسندين ، حافظا للحديث وعلمه ، منسوبا إلى فهمه واتقانه ..)(٢)

كما اتصف ابن فطيس بالحرص الشديد والعناية البالغة بكتبه وحفظها وصونها من العبث والضياع ، فلا يفرط فيها ولا يتساهل في اخراجها حتى انه لم يعر كتاباً من كتبه ابداً ، وإذا ما ألح عليه أحدهم في كتاب من كتبه اعطاه للناسخ لينسخ منه نسخة فيعطيه أياها وإلا استبقاها عنده إذا لم يأخذها ذلك الشخص(٣) .

وقد سلك هذه الطريقة الكثير من العلماء حرصا منهم على كتبهم إذ اعتبروها من نفائس ما يملكون من أشياء ، وكانوا يجدون فسحة في ارضاء من يطلب منهم كتابا من كتبهم بنسخه واعطائه نسخة منه وفي هذا يقول أحد العلماء وهو محمد بن الفرج الانصارى (ت ٤٥٠هـ / ١٠٥٨م) .

يامستعير كتابي إنه علق بمهجتي وكذلك الكتب بالمهج
فأنت في سعة إن كنت تنسخه وأنت من حبسه في أعظم الحرج(٤)
مكتبة محمد بن يحيى الغافقي :

وممن اشتهر بجمع الكتب والعناية بها الأديب محمد بن يحيى الغافقي

(١) النباهي : تاريخ قضاة الاندلس ، ص ٨٧ - ٨٩ .

(٢) ابن بشكوال : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣١٠ .

(٣) ابن بشكوال : الصلة ، ج ١ ، ص ٣١١ .

(٤) ابن بشكوال : نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٥٣٩ .

القرطبي ويعرف بابن الموصل (ت ٤٣٣هـ / ١٠٤١م) وقد وصف بحبه البالغ للكتب ومعرفته التامة بغرائبها ونفائسها ، فكان عارفا بخطوطها حتي كان الجميع يحتكم إليه في أفضلية الخطوط وأيها احسن ، وبلغ من اهتمامه بالكتب أن أثرها على كل لذة حتى اجتمع لديه من الكتب ما لم يجتمع عند أحد بعد الحكم المستنصر (١) .

وكان لمعرفة الغافقي بالكتب ودرايته الواسعة بألوان التصانيف أن ضمت خزانته نسخا بديعة من الكتب بخطوط مؤلفيها فكان لديه اصلاح المنطق بخط ابي علي القالي ، والغريب المصنف أصل أبي علي ، ونوادر ابن الاعرابي بخط أبي موسى الحامض ، وتاريخ ابي جعفر الطبري بصلة الفرغاني بخط ابن ملول الدمشقي وقد بيعت هذه التصانيف بعد موته وكان لنفاستها أثر بالغ في ارتفاع أثمانها حتى قومت الورقة في بعض الكتب بربع مثقال (٢) .

وما من ريب أن في ذلك إشارة واضحة إلى مدى ما اتصف به الأندلسيون من اهتمام وعناية بالكتب واستعداد الكثير منهم ببذل الغالي من الأثمان في سبيل المعرفة بشراء كتبها . وفيه دلالة أيضا على الرقي العلمي الذي كان يعيشه المجتمع الأندلسي في ذلك العصر .

(١) ابن الأبار : التكملة ، ج ١ ، ص ٣٨٧ - خوليان ريبيرا : المكتبات وهواة الكتب في اسبانيا ،

معهد المخطوطات العربية ، م ٥ ، ج ١ ، ص ٧٥ .

(٢) ابن الأبار : نفس المصدر والجزء والصفحة .

- المئقال : هو الدينار ويزن ٢٥ ، ٤ فريعه يساوي تقريبا ٠٦ ، ١ جرام . أشار المقدسي في كتابه

احسن التقاسيم ، ص ٢٤٠ . إلى العملات والموازين التي يستعملها أهل الأندلس ثم ذكر

ضمن حديثه المئقال وأن الدينار لديهم يزل عنه بحبه . كما يشير ابن خلدون إلى أن وزن

المئقال من الذهب اثنتان وسبعون حبه من الشعير . وبناء عليه فربيع المئقال يساوي ما وزنه

من الذهب الخالص ثمانية عشر حبه من الشعير .

(انظر المقدمة ، ص ٢٦٣) .

ومما يؤسف له أن الكثير من العلماء المشتغلين بالعلم والمعتنين بالكتب لا يلبث أحدهم أن يموت حتى تتفرق كتبه وتجد طريقها إلى سوق الكتب لبيعها . وهذا بلا شك عائد إلى ما يتصف به ورثة العالم من صفات العلم أو عدمها ، وإن حادثة تفرق كتب الخليفة الحكم المستنصر وابن فطيس والغافقي لدليل واضح على هذه - الظاهرة المؤله إذ قلما نجد الخلف أمينا على ما تركه السلف من تراث علمي عزيز على النفس .

وكان البعض من المعتنين بالكتب يشتغل بالنسخ كالعلامة أحمد بن عباس بن أبي زكريا الذي برع في نسخ الكتب وكان ذا خط بديع مشتهراً بجمع الكتب وتخزين نفائسها (مغاليا فيها ، نفاعا من خصه بها لا يستخرج منها شيئا ، لفرط بخله بها . الا لسبيلها حتى لقد اثرى كثير من الوراقين والتجار معه فيها وجمع منها ما لم يكن عند ملك) (١) .

ونلاحظ في النص إشارة مهمة إلى الوراقين في الحركة العلمية ، وأنهم أسهموا بقدر كبير في ازدهارها . وإن الكثير منهم كان يؤدي عمله في خدمة ذوي الثراء من العلماء كالعلامة المذكورة مقابل ما كانوا يلقون على ذلك من مكافآت سخية مما جعل حرفة الوراقة آنذاك من أهم الحرف في المجتمع الإسلامي بالإضافة إلى ما اتصفت به من رفعة وسمو لكونها في خدمة العلم والمعرفة .

والى جانب ما ذكر فقد عرف عن هشام بن عبد الرحمن (ت ٤٢٣هـ / ١٠٣١م) جودة النسخ والإهتمام بالكتب وحيازته للكثير منها (٢) كما أن الفقيه محمد بن يوسف بن الفرضي (ت ٤٠٣ / ١٠١٢م) ، كان جماعا للكتب حتى اقتنى منها عددا كبيرا لم يقتنيه أحد من أهل قرطبه (٣) .

(١) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ١ ، ص ٢٥٩ - ٢٦٠ .

(٢) ابن بشكوال : الصلة ، ج ٢ ، ص ٦٥٠ .

(٣) ابن بشكوال : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٢٥٣ - أنحل بالثيا : تاريخ الفكر الاندلسي ، ص ٢٧١ .

ومن الطريف أنه كان لأحد العلماء وهو أحمد بن محمد الأموي الطليطي المعروف بابن ميمون (٣٥٣ - ٤٠٠ هـ - ١٠٠٩ م) مكتبة عامرة مليئة بالكتب وألوان التصانيف . وحدث أن شب حريق هائل في أسواق طليطلة وامتدت النيران إلى دار ابن ميمون فالتهمته إلا الزاوية التي بها الكتب ، وكان في ذلك الوقت مشغولا بالجهاد ، فعجب الناس من ذلك وظلوا يختلفون إلى الدار المحترقة في دهشة وتعجب ، ونظرا لما تمتع به ذلك العلامة من إجادة للنسخ فقد كان الكثير من كتبه بخط يده (١) .

وقد كان للمرأة الأندلسية جهد وافر في هذا الميدان العلمي الهام ، حيث كان لإحدها وهي عائشة بنت أحمد (ت ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م) مكتبة عامرة بالكتب ، مع إتصافها باجادة النسخ وحسن الخط (٢) .

كما اشتغل الكثير من العلماء بمهمة البحث عن الكتب في مختلف الاقطار وادخالها الاندلس ، فهذا أحدهم وهو مسلمة بن سعيد (ت ٤٠٦ هـ / ١٠١٥ م) قد أب من إحدى سفراته إلى الأندلس بثمانية عشر حملا مشدودة من الكتب ، وقد عرف عنه كثرة التجوال في أطراف بلاد المشرق لجمع كتب العلم واقتناء نفائسها فكلما اجتمع له مقدار صالح نهض به إلى مصر ثم ينطلق منها إلى الأندلس . ومن الطبيعي أنه لم يتم له ذلك إلا بمال جزيل أعانه على شراء الكتب والبحث عن نفائسها (٣) .

وبناء على ما تقدم فإن ظاهرة اقبال الاندلسيين على كتب العلم وحرص الكثير منهم على اقتنائها لهي دليل ساطع على ما اتصف به المجتمع الأندلسي في عصر الخلافة من رقي علمي وازدهار حضاري رفيع .

(١) ابن بشكوال : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٢ .

(٢) ابن بشكوال : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٦٩٢ .

(٣) ابن بشكوال : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٢٥ - خوليان

ربيعي — را : المكتبات وهواة الكتب في اسبانيا الإسلامية ، مجلة معهد المخطوطات

العربية ، م ٥ ، ج ١ ، ص ٦٧ .

والحق أن الاندلسيين بما عرف عنهم من ميل شديد لاقتناء الكتب وتكوينهم المكتبات إنما يمثلون وجهاً مشرقاً في حياتهم العلمية في صورة قلما نجدها في أي قطر من الاقطار الإسلامية ، ولا أدل على ذلك من سعي الكثير من الاميين إلى دخول حلبة التنافس مع المهتمين من العلماء بذلك ولعل قصة الحضرمي فيها ما يؤكد ذلك .

ج - حرفة الوراقة في الأندلس وأثرها في النشاط العلمي

أولاً : ظهور صناعة الورق في الأندلس :

جدير بالذكر قبل الحديث عن إسهام فئة الوراقين في ازدهار الحركة العلمية ان نشير إلى أحد فضائل الحضارة الإسلامية الأندلسية على أوروبا ، وهي : صناعة الورق ، فقد اشتهرت الأندلس وخاصة مدينة شاطبة بصناعة الورق الفاخر الذي كان لنفاسته صدى عظيم في العالم الإسلامي آنذاك . وكان بالمدينة المذكورة مصانع كبيرة للورق في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي . ثم انتقلت صناعته إلى مدينة طليطة منذ القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلاد^(١) .

وكان لبراعة أهل شاطبة في صناعة الورق وتفوقهم في ذلك ، أن كانوا يصدرونه إلى كافة أرجاء الأندلس ، وإلى ذلك يشير ياقوت بقوله (وهي مدينة كبيرة قديمة ، قد خرج منها خلق من الفضلاء ، ويعمل الكاغد الجيد فيها ، ويحمل منها إلى سائر بلاد الأندلس)^(٢) .

(١) عبد الرحمن بدوي : دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي ، ص ٣٨ - ماهر حماده : المرجع

السابق ، ص ٧٤ - محمد كرد علي : الإسلام والحضارة العربية ، ج ١ ، ص ٢٦٠ .

(٢) معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٣٠٩ .

بل إنه ذكران الاندلسيين كانوا يصدرونه إلى المشرق وهو ما أشار إليه الإدريسي (١) .

وهذا بلا شك يعطينا دلالة واضحة على أن صناعة الورق كانت موجودة في الاندلس في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي بخلاف من قال بغير ذلك من الكتاب (٢) .

ويدل على ذلك أيضا ما ذكر من أنه قد عثر في مكتبه الأسكوريال على مخطوطة مكتوبة في سنة ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م على ورق مصنوع من القطن ، وتدل على أن العرب أول من أحل الورق محل الرق (*). (٣)

(١) عبد الرحمن بدوي : المرجع السابق ، ص ٣٨ - روبرت بريفالت : المرجع السابق ، ص ١٧٣ - أ . سيديو : تاريخ العرب العام ص ٤٢٥ .
(٢) يذكر جلال مظهر في كتابه حضارة الإسلام ، ص ٣٨٥ أن صناعة الورق دخلت الاندلس في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ، والحق ما أشير إليه اعلاه لتظافر المعلومات التاريخية التي تنص على أن الورق وجد في الاندلس في القرن الرابع الهجري .

(x) الرق هو : جلد الغزال .

(٣) غوستاف لوبون : حضارة العرب ، ص ٤٨٢ .

ثانيا : دور الوراقين في ازدهار الحركة العلمية :

كان من نتائج صناعة الورق في العالم الإسلامي ، وانتشار استعماله أن ظهر في المجتمع الإسلامي طائفة من المشتغلين بشئون الكتاب من نسخ وتجليد وتجاره^(١) ، وهؤلاء هم (الوراقون) الذين كان لهم يد بيضاء على الحضارة الإسلامية ، وقد عرف عن وراقي الأندلس أنهم أمهر الوراقين وأحذقهم في هذا الميدان ووصفت خطوطهم بأنها مدوره^(٢) .

وفي عصر الامارة كانت دكاكين الوراقين قليلة إلا أن حرفة نسخ الكتب وتجليدها كانت مزدهرة من قبل ، وخاصة فيما يتعلق بتجهيز النسخ الجذابة للقرآن الكريم^(٣) .

وقد قام بالعمل في هذا الميدان الحضاري في عصر الخلافة الكثير من الاشخاص الذين رأوا في هذه المهنة أشرف عمل يقربهم إلى الثواب الطيب والذكر الحميد ، وعلى سبيل المثال قام يوسف بن محمد الهمداني (ت ٢٨٣هـ / ٩٩٣م) بنسخ تفسير وتاريخ الطبري وتميز الهمداني بروعة خطه وجماله^(٤) .

ونظر للخدمات الجليلة التي يقدمها الوراقون للعلم ، فقد كان الكثير من العلماء المشتغلين بالتأليف والبحث العلمي يوظفون لديهم طائفة منهم ليقوموا بنسخ ما يهمهم من التصانيف ، فالخليفة الحكم المستنصر لعنايته الكبيرة بشئون العلم والمعرفة جند طائفة من الوراقي للعمل في قصره الذي ضم مكتبته الكبيرة فخصص للوراقين جناحا كبيرا في ذلك القصر ليقوموا بأداء عملهم

(١) اضاف عمر كحاله إلى هذه المهمات التي يؤديها الوراقون مهمة رابعة وهي بيع الورق وسائر أدوات الكتابة كالأقلام والحبر (مقدمات ومباحث ، ص ٢١٥)

(٢) المقدسي : المصدر السابق ، ص ٣٩ .

(٣) Thomas Irving : Falcon of Spain, P.160 .

(٤) ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، ج ٢ ، ص ٢٠٦ .

فيه^(١) . ولا شك أنه كان لاولئك الوراقين دور في ترتيب وتنظيم مكتبة الحكم المستنصر ، وذلك لسعة ثقافتهم وعمق معرفتهم بشئون الكتب وما يتعلق بها .

ومن أبرز أولئك الوراقين عباس بن عمرو بن هارون الكناني (٢٩٥ - ٣٧٩هـ / ٩٠٧ - ٩٨٩م) وكان من أهل صقلية ، وقدم الأندلس بعد عروجه على القيروان ، فدخل الأندلس ٣٢٦هـ / ٩٤٧م وكان الحكم المستنصر آنذاك لا يزال وليا للعهد ، ولكنه كان قد عرف بحبه للعلم وكرامه للعلماء فاتصل به ذلك الوراق وأنزله الحكم المستنصر منزلة كريمة وعيَّنه في جملة الوراقين وأمهه بكل ما يلزم لمهنته من الورق والمداد وغيرها من أدوات الوراق^(٢) .

وإلى جانب عباس اشتغل بالوراق لدى الحكم المستنصر ظفر البغدادي ، وكان لبراعته في فن الوراق أن عُده من رؤساء وكبار الوراقين^(٣) .

ونلمس من إطلاق لفظ « الرئيس » أنه كان هناك نظام يسود مهنة الوراق ، فكان لكل مجموعة من الوراقين رئيس يشرف عليهم في مهمة النسخ والتثبت من صحة ما يقومون به ويصحح ما قد يقع منهم من أخطاء .

وممن عمل لدى الحكم المستنصر من الوراقين يوسف البلوطي الذي اشتهر بجودة خطة وقدرته التامة في ميدان النسخ^(٤) .

ولا ريب أن مثل هذا النشاط العلمي الحافل بوجوهه المختلفة كاف لاعطاء الدليل الواضح على مدى ما حققه الحكم المستنصر للحركة العلمية من جهود ، وعلى ما حققه الاندلسيون في ميدان العلم . وما أبدع ما وصف به دوزي مجال

(١) ابن خلدون : العبر ، ج ٤ ، ص ١٤٦ - المقري : النفع : ، ج ١ ، ص ٣٨٦ - اعتماد القصيري :

فن التجليد عند المسلمين ، ص ٣٠ .

(٢) ابن الفوضي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٩٩ .

(٣) ابن الأبار : التكملة ، ج ١ ، ص ٣٤٧ .

(٤) ابن الأبار : نفس المصدر والجزء والصفحة .

النشاط العلمي في قصر الحكم المستنصر حيث قال : (كان قصره حافلا بالكتب واهلها حتى بدأ وكأنه مصنع لا يرى فيه إلا نساخون ومجلدون ومزخرفون يحلون الكتب بالمنمنمات (*) والرسوم الجميلة) (١) .

وكان العلامة ابن فطيس - الأنف الذكر - لعنايته بالكتب واشتغاله بالعلم أن عيّن لديه ستة من الوراقين يكونون في خدمته لنسخ ما يريد من الكتب وقد قرر لهم مقابل جهودهم تلك رواتب مجزية (٢) .

وكان لابي علي القالي وراقون يعنونه على أداء عمله العلمي في البحث والتأليف ، فأحدهم وهو محمد بن الحسين الفهري لازم أبا علي القالي واستفاد من علومه ومعارفه وتولى مع نساخ آخر نسخ ما لم يهذه أبو علي من كتابه البارع وتهذيبه من أصوله التي بخطه وخطهما مما كتبها بن يديه (٣) .

والجدير بالذكر ان الوراقين قد نالوا من وراء عملهم هذا منزلة رفيعة في المجتمع كما أنهم بلغوا درجة طيبة من الثراء ، وقد سبق القول عن العلامة احمد بن عباس (٤) أنه كان لاهتمامه بالكتب أن استعان بالكثير من الوراقين في جلب نفائس الكتب ونسخ الكثير منها وأنهم بذلك قد نالوا ثراء وجاها .

وكانت عملية النسخ من مهمات الوراقين وقد نالت ازدهارا كبيرا في المجتمع الأندلسي ولا عجب اذا قلنا ان النساء لعبن دورا مهما في هذا الميدان ، فقد مارس النسخ طائفة كبيرة منهن مع اتصافهم بالبراعة وجودة الخط ، وكان لذلك أثره في بلوغ بعضهن منزلة عالية لدى الخلفاء حيث كان للخليفة عبدالرحمن الناصر كاتبة تدعى (مزنة) وصفت بالمهارة في الكتابه

(١) انخل بالنثيا : المرجع السابق ، ص ١٠ .

(*) هي الرسوم التوضيحية كالنباتات وأعضاء الجسم .

(٢) ابن بشكوال : الصلة ، ج ١ ، ص ٣١٠ - ٣١١ .

(٣) ابن الابار : التكملة ، ج ١ ، ص ٣٧١ .

(٤) انظر قبل سيرة هذا العالم .

وحسن الخط ، كما كان للخليفة الحكم المستنصر كاتبه تدعي (لبنى) عرفت بالبراعة في الكتابة وسعة الادب حتى قال في وصفها ابن بشكوال (لم يكن في قصرهم - أى الخلفاء - انبل منها وكانت عروضية ، خطاطة جدا) (ت ٢٧٤هـ / ٩٨٤م) (١)

وممن يرعن من النساء في الخط عائشة بنت أحمد القرطبي (ت ٤٠٠هـ / ١٠٠٩م) فقد كانت حسنة الخط تكتب المصاحف والدفاتر وتجمع الكتب وتعني بالعلم (٢) .

وعرفت الأدبية صفية بنت عبد الله الربى بالبراعة في الكتابة وجودة الخط ، وقد حدث أن عاتبتها احدى النساء على خطها فقالت :

وعائبة خطي فقلت لها اقصري فسوف اريك الدر في نظم أسطري

وناديت كفي كي تجود بخطها وقربت أقلامي ورقى ومحبري

فخطت بأبيات ثلاث نظمته ليبدو لها خطي ، وقات لها : انظري (٣)

فخطت بأبيات ثلاث نظمتها ليبدو لها خطى وقلت لها انظري

وكان في قرطبة وأرباضها المختلفة طائفة كبيرة من النساء البارعات في

الخط وكن ينسخن المصاحف بخط بديع (٤) .

وبناء عليه فقد اتضح ماكان عليه المجتمع الأندلسي من نشاط كبير في ميدان الحركة العلمية ولم يكن هذا النشاط مقصوراً على الرجال فحسب بل امتد أيضا إلى النساء اللاتي شاركن في بناء الكيان العلمي للأندلس ليس فقط في ميدان النسخ بل وفي ازدهار العلوم والأدب .

(١) الصلاة ، ج ٢ ، ص ٦٩٢ .

(٢) ابن بشكوال : الصلاة ، ج ٢ ، ص ٦٩٢ .

(٣) الحميدي : الجذوة ، ص ٤١٢ .

(٤) ليفي برونفيسال : حضارة العرب في الأندلس ، ص ٦٤ .

ولأهمية النسخ في النشاط العلمي باعتباره وسيلة من وسائل حفظ العلوم وصيانتها من الضياع ونشرها بين الناس ، نود أن نشير إلى الكيفية التي كانت تتم بها عملية النسخ ، فقد كانت هناك طريقتان للنسخ أولهما أن ينسخ الناسخ من المخطوط مباشرة بنفسه ، وبعد اتمامه لعملية النسخ يعرضه على غيره لمراجعته والتأكد من خلوه من الأخطاء وثانيهما أن يملي شخص على عدد من الناسخ مايراد نسخه للحصول على عدة نسخ منه ، وبعد الفراغ من عملية النسخ تجرى المقابلة بين النسخ لمعرفة ما قد يكون في بعضها من أخطاء وتصحيحها (١) .

ومما يلحق بحرفه الوراق التجليد وزخرفة الكتاب ، وهو ما يزيد الكتاب قيمة وجمالاً في الباطن والظاهر ، كما يرفع شأنه عند هواة اقتناء الكتب . فكان الوراقون يحرصون بالإضافة إلى جودة النسخ ، أن يكون الكتاب على جانب من جمال الشكل وجودة التجليد ليكون في مظهره الأنيق ملائماً لقيمته العلمية .

وقد رأينا من قبل كيف عثر العلامة الحضرمي - الذي خرج في طلب كتاب له - على نسخة منه لدى أحد الوراقين في سوق الكتب فسر به لحسن خطه وجودة تجليده (٢) .

ولئن اشتهرت شاطبه بصناعة الورق وإسهامها في دفع عجلة الحركة العلمية بما قدمته من الورق الممتاز ، فإن مدينة مالقة كانت تشتهر كمركز لصناعة الجلود الممتازة والتجليد الفاخر (٣) ، ولعل من أسباب رقي فن التجليد

(١) ماهر حماده : المرجع السابق ، ص ١٧٥ - ١٧٦ .

(٢) انظر قصته في بداية الحديث عن عناية الاندلسيين بالكتب .

(٣) ماهر حماده : المرجع السابق ، ص ١٨٣ .

اهتمام الخلفاء باستقدام أمهر المجلدين من أهل الأندلس بالإضافة إلى استقدام البارعين منهم من صقلية وبغداد (١) .

وأخيراً فإن الكتاب الاسلامي آنذاك حظي باهتمام وعناية بالغين ، وإن دُلَّ ذلك على شيء فإنما يدل على ما تمتع به الأندلسيون من نشاط وافر وقدرات كبيرة في ميدان الحركة العلمية ، ويأتي الوراقون منهم في الصف الثاني من حيث الإسهام في النشاط العلمي ، فقد كانوا عاملاً من عوامل ازدهار الحضارة الإسلامية بما أسهموا به من نشر الكتاب الإسلامي بين أقطار المسلمين .

ونختتم الحديث عن هذا الموضوع باعتراف جميل لأحد الكتاب الغربيين حيث يقول : (بينما كانت سائر بلدان أوروبا تتمرغ في القذر والحطة ، نعمت اسبانيا بمدن نظيفة منظمة ذات شوارع معبدة ومضاءة . وكان في ميسور قرطبة وحدها أن تعتز بنصف مليون من السكان ، وسبعمئة مسجد ، وثلاثمئة حمام عمومي ، وسبعين مكتبة عامة ، وعدد كبير من دكاكين الوراقين) (٢) .

(١) اعتماد القصيري : فن التجليد عند المسلمين ، ص ٣٠ .

(٢) روم لاندو : الإسلام والعرب ترجمه منير بعلبكي ، ص ١٧٧ .

الفصل الرابع

ازدهار التعليم في الأندلس :

- أ - مراكز التعليم لدى الأندلسيين .
- ب - طريقة التعليم عند الأندلسيين .
- ج - عناية الخلفاء بالتعليم .

من مظاهر النشاط العلمي في عصر الخلافة نهضة التعليم وإقبال أفراد المجتمع الأندلسي على العلم والاهتمام بالمعرفة .

ومن الطبيعي - وعصر الخلافة يمثل الانطلاقة العلمية والنشاط الحضاري في كافة ميادين - أن نرى ميدان التعليم بمراكزه العلمية قد نال من النهضة والرقي نصيبا وافرا بل كان له القدر المعلن في ذلك التطور العلمي الذي شدته الأندلس آنذاك .

أ - مراكز التعليم لدى الأندلسيين :

كان المسجد عند المسلمين يمثل المركز العلمي الذي يتلقون فيه العلوم والمعارف على أيدي العلماء . ولم تكن لهم مدارس خاصة بالتعليم والتدريس إلا فيما ظهر في المشرق بعد فترة طويلة . لذلك كان اعتمادهم في حياتهم العلمية على المسجد وهو ما سلكه الأندلسيون . فقد كانوا (يقرؤون جميع العلوم في المساجد بأجره) (١) .

ولما كانت قرطبة تمثل قطب الرchy في النشاط العلمي باعتبارها حاضرة الخلافة ودار الملك فقد حظي جامعها الشهير بمكانة علمية لاتداني . فكان دوره عظيما في نشاط الحركة العلمية في عصر الخلافة وما تلاه من عصور حيث ضم بين أوراقه حلقات العلم والدرس .

وكان طلاب العلم يدرسون في جامع قرطبة المذكور علوم الدين والأدب والتاريخ والجغرافيا والطب والفلك والرياضيات وغيرها من العلوم (٢) .

(١) المقرئ : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ٢٢٠ .

(٢) يذكر عبد الحليم منتصر في كتابه تاريخ العلم ص ٥٤ - ٥٥ أنه إلى جانب تدريس العلوم الدينية في المسجد كانت تدرس العلوم الأخرى من أدب ولغة ومنطق وطب وفلك وإن السيوطي ذكر أن دروسا مختلفة رتبت في الجامع الطولوني وإن عبد اللطيف البغدادي أشار أيضا إلى أن درسا في الطب كان يلقي في الأزهر في منتصف النهار من كل يوم ولا شك أن ذلك كان صورة عامة للتعليم عند المسلمين .

ويتسامح الكثير من الكتاب المعاصرين في إطلاق صفة الجامعة على ذلك الجامع فيذكر توماس ارفنج Thomas irving أن الخليفة الحكم المستنصر قدم الكثير من الجهود الموفقة في سبيل تطوير ورقي جامعة قرطبة(١) .

كما أن جبرائيل جبور يذكر نقلا عن نيكلسون Nicholson أن قرطبه كانت آنذاك من أهم الأوساط العلمية وكان في جامعها – أو ان شئت فقل في جامعتها – العالم أبو بكر القرشي يحاضر في الحديث .. والأديب الكبير أبو علي القالي يبحث مع الطلاب في أدب العرب ، وابن القوطية يلقي دروسه في النحو(٢) .

بالإضافة إلى ذلك يشير عبدالكريم التواتي إلى جامع قرطبه ويضفي عليه من الصفات الجامعية ما يجعله قريبا من الوصف الحديث للجامعات فيقول (وتتميما للعمل العلمي أمدَّ الحكم جامعة قرطبة بكل ما تتطلبه من امكانيات بشرية ومالية وعيّن لها اخاه المنذر عميدا . ثم أخذ هو بنفسه يقضي جل أوقاته بين ابهائها وأروقته يطالع ويقرأ)(٣)

ويتفق روم لاندو مع من ذكرناه من حيث وصفه بهذه الصفة ، وأن تلك الجامعة التي أسسها الخليفة عبد الرحمن الناصر – في زمن سابق على انشاء كل من الجامع الازهر والمدرسة النظامية – كانت مركزا للمعرفة للمسلمين والنصارى الوافدين من المشرق واوروبا(٤) .

ومما يؤكد هذا الطابع الجامعي لجامع قرطبة أن المصادر التي تناولت تاريخ الأندلس وتراجم علمائه تشير إليه وإلى جامع مدينة الزهراء التي بناها

(١) FALCON OF SPAIN, P 192

(٢) ابن عبد ربه رعهده ، ص ٤٤ .

(٣) مأساة انهيار الوجود العربي في الاندلس ، ص ٦٦٠ – ٦٦١ .

(٤) الإسلام والعرب ، ص ١٧٨ .

عبد الرحمن الناصر باعتباره المركز العلمي الذي يجتمع فيه العلماء ، ويفد إليه طلاب العلم لاكتساب المعرفة .

فقد كان الأديب اللغوي أبو علي القالي يعقد مجالسه العلمية في جامع الزهراء فتتقاطر أفواج الطلبة عليه للأخذ عنه وذلك في كل يوم خميس ، وكان يكتب عنه أكثر من أربعمئة من طلاب العلم في وقت إملائه الأمالي (١) . بل إن بعض حلقات العلم كانت تضم أعداداً هائلة من التلاميذ فيشير الحميدي إلى أن الأديب عبد الملك بن زيادة الله السعدي التميمي (ت بعد ٤٥٠هـ) كان يجتمع إليه في مجلس الإملاء بجامع قرطبة خلق كثير ، وأنه لما رأى كثرتهم أنشد :

إني إذا احتوشتني ألف محبرة يكتبن حدّثني طورا وأخبرني
نادت بعقرتي الأقلام معلنة هذي المفاخر لا قعبان من لبن

ولا ريب أن فيما تقدم دلالة على أن الجامع كان آنذاك مقر العلم والتعليم الذي يؤدي رسالته في تعليم الناس وفتح المعرفة لهم والرقى بحياتهم الدينية والدنيوية (٢) .

واتصف جامع قرطبة في عصر الخلافة بالنشاط العلمي الكبير فقد كان بمثابة مصدر إشعاع أضواء للأندلسيين ولغيرهم الكثير من دروب المعرفة التي قادتهم إلى درجة رفيعة من الحضارة فكان الطلاب يتوافدون إليه من شتى أنحاء البلاد بل من جميع أنحاء العالم الإسلامي والمسيحي على حد سواء في جو اتسم بالتسامح والود من جانب المسلمين (٣) .

(١) الاشبيلي : ریحان الألباب (مخطوط) ورقة ١١٣٩ .

(٢) جذوة المقتبس ، ص ٢٨٤ - ٢٨٥ .

(٣) زكريا هاشم : المرجع السابق ، ص ٣١٣ .

ولم يكن جامع قرطبة وجامع الزهراء (٤) هما الجامعين الوحيديين في اداء
- هذه الرسالة العلمية بل إن مدن الأندلس الأخرى كانت تضم في جوامعها
حلقات العلم وندوات الدرس . وأشهر تلك المدن أشبيلية ، وطليطلة ، وشاطبة ،
ومرسية وغرناطة من المدن التي شاركت في حركة البناء الحضارى والتطور
العلمي بما قدمته من نشاط كبير تمثل فيما أخرجته تلك المدن من علماء أجلاء
كان لهم انتاج علمي في حقول المعرفة المختلفة وسوف نتعرض فيما بعد
لأبرزهم في حقول المعرفة والعلم .

ورغم ماتقدم حول انحصار التعليم والتدريس بالمساجد والجامع إلا أن
هناك إشارات مهمة تذكرها كتب التاريخ والتراجم الأندلسية تفيد أنه كانت
تعقد بعض حلقات العلم والدرس في مواضع أخرى غير الجامع . فقد كان
الكثير من العلماء على جانب كبير من الثراء وسعة العيش مما دفع بعضهم إلى
المشاركة في نشاط حركة التعليم وذلك بتخصيص مجالس علمية في دورهم
ومن هؤلاء العلامة الطليطلي أحمد بن سعيد بن كوثر (ت ٤٠٣هـ / ١٠١٢م)
الذى كان يقصده تلاميذه وهم يربون على الأربعين في وقت الشتاء فينزلهم في
مجلس قد فرش ببسط الصوف مبطنات والحيطان باللبود ووسائد الصوف ،
ولتوفير الدفء للمجلس كان هنالك كانون على قامة الانسان مملوء فحمًا

(٤) جامع قرطبة انشاه المسلمون بعد ان شاطروا أهل البلاد المفتوحة كنيستهم في قرطبة ولما ضاق
المسجد وسعته الأمير عبد الرحمن الداخل وضم شطر الكنيسة وذلك سنة ١٩٦هـ / ٧٨٥م بعد أن
أرضى النصارى ثم أخذ الأمراء ومن بعدهم الخلفاء في توسيعه ، ويلاحظ فيه المؤثرات الشامية
المقتبسة من المسجد الأموى بدمشق .

(المقرئ : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ٥٦٠ وما بعدها وأحمد مختار العبادي : في تاريخ المغرب
والأندلس ، ص ١١٢) . أما عن الزهراء وجامعها ، فهي مدينة بناها الخليفة عبد الرحمن الناصر على
بعد ثمانية كيلو مترات شمال غرب قرطبة وكان قد بناها سنة ٣٢٥هـ تحت إشراف ابنه الحكم
المستنصر ولم يتم بناؤها نهائيا إلا بعد أربعين سنة في عهد الخليفة الحكم وقد اشتهرت بجامعها
البديع . انظر (المقرئ : النفح ، ج ١ ، ص ٥٦٠ وما بعدها وكذلك أحمد العبادي المرجع السابق ،
ص ٢٢٠ وما بعدها .

يتوسط المجلس فيأخذ دفتيه كل من المجلس فاذا انتهى التدريس قدم لهم الموائد عليها ثرائد بلحوم الخرفان بالزيت العذب . او ثرائد اللبن بالسمن أو الزبد (١) .

ويتضح مما تقدم مدى عمق الإخلاص للعلم والمعرفة والتفاني في نشرهما ولو كلف ذلك الإنسان راحته وما له كما أن في ذلك إشارة إلى حرص الأستاذ وتلاميذه على انعقاد حلقة الدرس رغم ظروف البرد القارس في فصل الشتاء .

والى جانب ما ذكر فقد كانت بعض حلقات العلم تنعقد في السجون ولا مبالغة في ذلك فكثير من العلماء كانت تعترضهم في حياتهم بعض الظروف القاسية التي تقودهم إلى السجن فيظلون حبيسي جدرانها مما يدفع تلاميذهم إلى مكابدة المشاق من أجل لقائهم والأخذ عنهم . ومن هؤلاء العلماء الأديب احمد بن مفرج الجياني (ت ٣٦٦هـ / ٩٧٦م) الذي كان تلاميذه يلتقون به في السجن فيأخذون عنه الأدب واللغة ، وكان الخليفة الحكم المستنصر قد سجنه لكلام بلغه عنه (٢) .

ولعل في ذلك صورة واضحة من صور الإخلاص للمعرفة وصورة من صور الوفاء من التلاميذ لأساتذتهم ، فهؤلاء التلاميذ لم يتوانوا في سبيل لقاء شيخهم حتى ولو كان في أقصى المواضع وفي أجواء السجن كما أن في ذلك إشارة مهمة إلى ما كان يتمتع به ذلك الأديب من مكانة علمية موقوة .

وقد عرف عن بعض العلماء الاشتغال بالتجارة والبيع والشراء ولكن ذلك لم يمنعهم من أداء واجبهم العلمي والقيام بالتعليم والتدريس للتلاميذ وخاصة

(١) ابن بشكوال : الصلة ، ج ١ ، ص ٣٦ - ٣٧ .

(٢) ابن بشكوال : نفس المصدر والجزء ، ص ٥ - ٦ .

المبتدئين منهم . فقد كان العلامة المقرئ ابراهيم بن مبشر البكري (ت ٣٩٥هـ / ١٠٠٤م) (يقرىء في دكانه قرب المسجد الجامع بقرطبة . وينقط المصاحف ويعلم المبتدئين) (١) .

ومن دلائل التفوق العلمي وازدهار التعليم في المجتمع الاندلسي ما عرف عن بعض حلقات العلم التي كانت تعقدها بعض النساء ممن وصلن إلى درجة رفيعة من العلم والأدب ، فقد كانت الأدبية مريم بنت يعقوب الفصولي تعلم النساء وتعطينهن دروسا في الأدب مع احتشام وعفه . وكانت مقيمة بأشبيلية وطال عمرها حتى بلغت سبعين سنة (٢) .

وبناء عليه فإن هذه الظواهر العلمية تعطينا دلالة واضحة على ما بلغه الاندلسيون في مضمار التعليم والتدريس . كما أن فيما تقدم إشارة مهمة إلى أن الجامع لم يكن هو المركز الوحيد للعلم والمعرفة رغم كونه المركز الرئيسي لتلقي العلوم والمعارف - بل كانت هناك مواضع أخرى يرتادها العلم .

والجدير بالذكر أن الخليفة الحكم المستنصر لعب دورا هاما في رفع المستوى التعليمي في بلاده فقد كانت له جهود مثمرة في هذا الميدان . وقبل أن نعرض لتلك الجهود يحسن أن نتحدث عن طريقة التعليم عند الأندلسيين .

(٣) ابن بشكوال : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٨٨ .

(٢) الحميدي : الجذوة ، ٤١٢ - ابن بشكوال : الصلة ، ج ١ ، ص ٦٩٤ .

ب - طريقة التعليم عند الأندلسيين :

كان الأندلسيون يحرصون على أن يكون القرآن الكريم هو الأساس المتين في تعليم أولادهم ، ولم يكونوا يقتصرون على ذلك بل كانوا يضمنون إليه تعلم اللغة العربية ورواية الشعر وتعليم الخط ، وقد أفادهم هذا المنهج في ترسيخ المعارف المتنوعة لديهم . وكان لإقبالهم على اللغة العربية والشعر والأدب في صغرهم أثر في رسوخ ملكاتهم في هذه العلوم فيما بعد (١) .

ويذكر ابن خلدون أن العلامة أبا بكر بن العربي (٢) قد رسم منهجا جديدا في طريقة التعليم وهو أن يقدم تعليم العربية والشعر على سائر العلوم ، وذلك لأن الشعر ديوان العرب ، وفي تقديمه تعليم العربية ضرورة لتقويم اللغة عند الطفل ثم ينقل منه إلى الحساب ليلم بما لا يصح أن يجهله منه . يلي ذلك دراسة القرآن الكريم كما نصح بأن ينظر في أصول الدين ثم أصول الفقه فالجدل ثم الحديث وعلومه . وينتقد ابن العربي المنهج الذي يفتتح بتعليم القرآن للصبي لعدم معرفته وفهمه لمسائله وقضاياها . كما أنه نهى أن يجمع في التعليم بين علمين الا أن يكون المتعلم على نصيب كبير من النباهة والقدرة على الاستيعاب (٣) .

ويتضح من ذلك مدى ما أولاه الأندلسيون لهذا الميدان من عناية واهتمام وكيف أنهم نظموا عملية التعليم لدى الأطفال ، حرصا منهم على أن ينشأ

(١) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٥٣٨ - ٥٣٩ - سامي العاني : دراسات في الأدب الاندلسي ، ص ٩٦ .

(٢) هو محمد بن عبد الله المعافري (٤٦٨هـ - ٥٤٣هـ / ١٠٧٥م - ١١٤٨م) من أهل اشبيلية وكان من حفاظ الحديث وكبار العلماء رحل إلى المشرق وأفاد من علمائه وكانت له مكانة رفيعة بين علماء الاندلس (ابن بشكوال : الصلة ، ج ٢ ، ٥٩٠) .

(٣) المقدمة ، ص ٥٣٩ .

أولادهم نشأة علمية سليمة . والحق أن المنهج الذي رسمه ابن العربي أقرب إلى المنهج التعليمي الصحيح .

كما أن العنصر التربوي السليم متوفر فيه . فقد بدأ بما يقوم لغة الطفل ويكسبه البلاغة بقراءة الشعر ثم يدرس الحساب ويلم بمسائله حتى إذا أدرك ذلك يكون متهيئاً لحفظ القرآن وفهمه لما يتمتع به من ثروة لغوية .

وكان للاهتمام العظيم بالتعليم وأدائه أن انصرف بعض العلماء إلى رسم المناهج التربوية التي يجب أن تتوفر في عملية التعليم فقد صنف العلامة أحمد ابن عفيف بن عبد الله الأموي (٣٤٨ - ٣٢٠ / ٩٥٩ - ١٠٢٩ م) كتاباً في « آداب المعلمين » ويقع في خمسة أجزاء (١) .

ويذكر المقرئ أن الأندلسيين كانوا يدفعون أجرة في سبيل تعلم العلوم وأنهم يقبلون على العلم والمعرفة اخلاصاً لهما وليس طلباً لجاه أو ثراء . وأن العالم فيهم يكون بارعاً لأنه طلب العلم برغبته وبياعته في نفسه يحمله على الانفاق من أجل العلم (٢) .

ويبدو أن الأجرة التي كان يدفعها الراغبون في العلم لم تكن تتمثل فقط في دفع مبلغ من المال للعالم أو الشيخ وإنما كانت تتمثل أيضاً في تقديم هدايا عينية له أو إكرامه في ابتياع حاجة له . وفي هذا يقول المقرئ (والعالم عندهم معظم في الخاصة والعامة يشار إليه ، ويحال عليه ، وينبه قدره وذكره عند الناس ويكرم في جوار أو ابتياع حاجة وما أشبه ذلك) (٣) .

(١) ابن بشكوال : الصلة . ج ١ ، ص ٣٨ ، - ٣٩ .

(٢) النفح ، ج ١ ، ص ٢٢٠ - ٢٢١ .

(٣) نفس المصدر والجزء والصفة .

جـ - عناية الخلفاء بالتعليم :

سعى الخلفاء إلى تأمين وسائل التعليم لأفراد شعبهم الأندلسي . وكان عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر عهداً زاهراً شهد المجتمع الأندلسي فيه نهضة واسعة في ميدان العلم .

وما من شك أن الخليفة عبد الرحمن الناصر أسهم بجهد بارز في ذلك النشاط العلمي ، وإن كانت المصادر التاريخية يندر أن تشير إلى اسهامه في تطوير الحقل التعليمي . بعكس الحال بالنسبة لابنه الخليفة الحكم المستنصر .

ورغم هذا فإن هناك إشارات أوردها الدارسون المحدثون تشير إلى جهد الخليفة عبد الرحمن الناصر في هذا الصدد وأنه كان في عصره في قرطبه ٨٠ مدرسة عليا (١) .

والحق أن الخليفة الحكم المستنصر هو احق بالتنبؤ والإشارة إلى دوره في هذا الميدان بما قدمه واسداه للحركة العلمية . وقد سبقت الإشارة إلى دوره في النهضة العلمية ويهمنا ونحن نتحدث عن ازدهار التعليم في الاندلس في عصر الخلافة أن نعرف بجهوده في هذا الصدد .

يأتي في مقدمة جهود الخليفة الحكم المستنصر اسهامه في رفع شأن التعليم في بلاده وتوفيره وتيسيره لرعيته حيث أمر بإنشاء سبعة وعشرين مكتبا يلحق ثلاثة منها بالمسجد الجامع بقرطبه ، والباقي فرقه على أرباض قرطبه وعيّن العلماء والفقهاء للقيام بالتدريس للطفال في تلك المكاتب وأجرى عليهم المرتبات وأغدق عليهم الصلات وبالغ في تعليم أطفال المسلمين (٢) .

(١) زيغريد هونكه : شمس العرب تسطع على الغرب ، ص ٤٩٩ .

(٢) ابن عذاري : البيان المغرب ، جـ ٢ ، ص ٢٤٠ - ٢٤١ - احسان عباس : تاريخ الادب الأندلسي ، ص ٧١ - هـ - ج واز : معالم تاريخ الانسانية . ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد . جـ ٣ ، ص ٨٣٠ - لو ثروب ستودارد : حاضره العالم الإسلامي ترجمة عجاج نويهض ، =

وكان لهذه الخطوة الكريمة من الحكم المستنصر اثر كبير في اوساط المجتمع الأندلسي فلهجت الألسن بشكره والاشادة بفضلله على العلم وابتائه حتى قال أحد شعراء بلاطه وهو ابن شخيص .

وساحة المسجد الاعلى مكللة مكاتباً لليتامى من نواحيها
لو مكنت سور القرآن من كلم نادتك ياخير تاليها وراعيها(١)
ولم يقتصر الخليفة الحكم على ما تقدم بل كان يسعى إلى الأفضل في سبيل الرقي بالمستوى العلمي لرعيته ، فيذكر ابن عذارى أنه في سنة ٣٦٤هـ / ٩٧٤) أي قبل وفاته بستتين - حبس حوانيت السراجين بقرطبة على المعلمين لأولاد الضعفاء(٢) .

وفيما ذكره ابن عذارى إشارة إلى انه كانت تعقد بعض حلقات العلم والدرس ليلاً وفي ذلك دليل على مدى عناية الأندلسيين بالعلم وصبرهم على المشقات في سبيل تحصيله .

وعلى هذا يكون الخليفة الحكم المستنصر قد أنتاح الفرصة لجميع أفراد المجتمع في الاستفادة مما هيأه لهم من سبل لاكتساب المعرفة وتلقي العلم . فلم يعد العلم قاصراً على ذوي القدرة من الناس بل أصبحت فرص التعليم متاحة لكل شخص يريد ذلك(٣) .

ولكن هل استفاد أفراد الرعية من هذه الإمكانيات التي وفرها لهم

الخليفة الحكم المستنصر ؟

= ج ١ ، ص ١٣٩ - محمد كرد علي : الإسلام والحضارة العربية ، ج ١ ، ص ٢٦٢ - سيد امير علي : مختصر تاريخ العرب ، ص ٤٢٤ - زكريا هاشم : المرجع السابق ، ص ٣١٣ - انيس النصولي : المرجع السابق ، ص ١٢٢ .

(١) ابن عذارى : البيات المغرب ، ج ٢ ، ص ٢٤١ .

(٢) نفس المصدر والجزء ، ص ٢٤٩ .

(٣) ANWAR CHEJNE: MUSLIM SPAIN, P. ١٦٤ , (٣)

والحق أن الأندلسيين كانوا يتمتعون بميل ورغبة شديدة نحو العلم والمعرفة . وقد سبقت الإشارة إلى تكلفتهم أجرة التعليم من أجل العلم وحده . فكيف إذا توفرت الامكانيات والوسائل لهم . من الطبيعي حتما أن يكون ذلك حافزا شديدا لهم في التسابق إلى ميادين العلم والمعرفة وتحصيل العلوم والآداب .

ولم يكن الحاجب المنصور بن أبي عامر أقل ممن سبقه بل عرف عنه أنه من رواد الحركة الفكرية وأنه كان لنشأته العلمية أثر كبير في تشجيعه العلم واکرامه العلماء فكان محبا لمجالسهم حريصا على صحبتهم في حله وترحاله (١) .

ويشير عبدالكريم التواتي إلى أن المنصور سار على نهج الخليفة الحكم من حيث الاهتمام بالتعليم وتوفيره للرعية وأنه كان يحضر أحيانا حلقات الدروس ويستفسر الطلاب عن مشاكلهم ويحثهم على اكتساب المعرفة ويمنح المتفوقين منهم المكافآت السخية (٢) .

ويبدو الفرق شاسعا بين حال المجتمع الأندلسي ونظيره الاوربي آنذاك مما يجعلنا نشعر بالاجلال والتقدير لذلك الشعب الذي لم يرتض ذل الجهل وسطوة - الأمية فكان الشعب الأندلسي في ذلك العصر يمثل شعلة متوهجة بنور المعرفة ، وكان مما يسر النفس الا ترى طفلا أو طفلة بلغ الثامنة عشر ولم يتزود بالعلم الكافي على الأقل لتأهيله للقراءة والكتابة (٣) .

(١) محمد عبد الله عنان : دولة الإسلام في الأندلس ، ج ٢ ، ص ٧٠٣ .

(٢) مأساة انهيار الوجود العربي في الأندلس ، ص ٦٦٣ .

(٣) جلال مظهر : علوم المسلمين ، ص ٨١ - سامي العاني : المرجع السابق ص ٩٥ .

وفي الوقت الذي لم يكن في أوروبا غير قلة بسيطة من الرهبان ممن يعرف القراءة والكتابة كان كل فرد في الأندلس تقريبا يقرأ ويكتب ويلم ولو بقدر من ألوان المعرفة^(١) .

وقد أدرك الغربيون مدى ما كان يتمتع به جيرانهم من العرب الأندلسيين من حضارة زاهرة وتطور علمي باهر ، فلم يخفوا اعجابهم بذلك ومن بينهم زيغريد هونكه التي تحدثت عن قرطبة في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ووصفتها بأنها سيدة التمدن بل وأكبر أوروبا كلها مما حوته من مظاهر الحضارة الفكرية والعمرانية حيث كان بها ١١٣.٠٠٠ منزل ، و ٦٠٠ مسجد ، و ٣٠٠ حمام ، ٨٠ مدرسة عليا ، و ٢٠ مكتبة فيها عشرات الآلاف من الكتب^(٢) .

وبهذا يتضح لنا حقيقة الازدهار العلمي الذي ساد أرجاء الأندلس في عصر الخلافة والذي كان دافعا قويا لیتجه الأوروبيون نحو مصادر الإشعاع الفكري في قرطبة وغيرها من مدن الأندلس لينهلوا منها ألوان المعرفة والثقافة ، وهو امر اعترف به الكثير من الكتاب الغربيين .

(١) روم لاننو : المرجع السابق ، ص ١٧٨ ماهر حماده : المكتبات في الإسلام ، ص ٩٩ - محمد عثمان : المرأة العربية في الأندلس ، مجلة المؤرخ العربي ، العدد الثالث عشر ، ص ١٠٦ .

(٢) شمس العرب تسطع على الغرب ، ص ٤٩٩ .

— لم تسعفنا المصادر التاريخية الأندلسية في التحقق مما اشارت إليه الكاتبة الألمانية زيغريد هونكه عن عدد المدارس والمكتبات في قرطبة في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي . وربما يكون لدى الكاتبة من المصادر الأوروبية ما اعتمدت عليه في استخلاص هذا الاحصاء عن المدارس والمكتبات في قرطبة في تلك الفترة .

القسم الثاني
نشاط الحلوم والآداب
في عصر الخلافة

الفصل الأول

المعلوم الدينية

أ - الفقه

ب - الحديث

ج - علوم القرآن (القراءات - التفسير)

د - علم الكلام وموقف الأندلسيين منه .

أ - الفقه

محمد بن يحيى بن لبابة ، يحيى بن عبد الله بن يحيى الليثي ،
محمد بن القاسم الثغوي ، محمد بن الحارث الخشني ، عبد الله بن
إبراهيم الأصيلي ، عبد الرحمن القنازعي ، هروان بن علي الأسدي ،
محمد بن عمرو (ابن الغزار) ، عبد الله بن محمد بن عيسى (ابن
الأسلمي) ، ابن عبد البر النمري ، علي بن أحمد (ابن حزم) .

نالت العلوم الدينية عناية عظيمة من الأندلسيين ، وألوهما اهتماما كبيرا
، وقد سبق القول في التمهيد إلى بداية نشاط الدراسات الدينية في الأندلس .
وكيف أن أحد الصحابة وكثير من التابعين كان لهم دور بارز في نشوء تلك
الدراسات وأنهم بذلك أول من يعزى إليه الفضل في نشاط الحركة العلمية
الدينية في الأندلس .

والحق أن الفقه احتل لدى الأندلسيين مكانة عالية ، ومنزلة سامية ، وكان
عالم الفقه يحظى منهم بكل تقدير وإجلال ، فكانت سمة الفقيه عندهم عظيمة
جليلة ، وقد يخلعون هذه الصفة على النحوي أو اللغوي ، فيقال له فقيه ، لأن
هذه الصفة لديهم أرفع السمات ، ولأجل هذا فالفقيه معظم لدى الخاصة
والعامة (١) .

وتبعاً لهذا فقد نال الفقهاء كل تقدير وإجلال من الخلفاء والأمراء ، وكان
هؤلاء يدنون منزلتهم ، ويستشيرونهم فيما يعرض لهم من أمور ، فالخليفة
الحكم المستنصر أراد أن يقطع شجرة العنب من الأندلس في محاولة للقضاء
على شرب الخمر فاستشار الفقهاء في ذلك فذكروا له أنها قد تصنع من غيرها

(١) المقرئ : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ٢٢١ - ذكرها هاشم : المرجع السابق ص ٥٥٥ .

فكف عن ذلك (١) وفي ذلك إشارة إلى مكانة هؤلاء العلماء وإلى ما كانوا يتمتعون به من احترام وتعظيم لحقهم سواء من الخلفاء الذين أنزلوهم منزلاً كريماً لديهم ، أو من العامة الذين كانوا يكونون لهم كل ولاء وتقدير .

وما من شك أن هذه المنزلة العالية للفقهاء قد أتاحت لهم أن يلعبوا دوراً كبيراً في تشكيل بعض الأحداث ، ومنها على سبيل المثال حادثة الرض التي وقعت في عهد الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل ١٩٨هـ والتي لعب الفقهاء دوراً في وقوعها ، وانظر كتاب ابن الأثير الكامل ، ج ٥ ، ص ١٧٢ وتاريخ الأندلس حافل بالكثير من المواقف التي تشهد بما كان للفقهاء من تأثير قوي في الدولة والمجتمع .

وقد تسنى للكثير من الفقهاء أن يتوصلوا إلى مناصب رفيعة في الدولة كميدان الفتيا والحسبة والشرطة (٢) وغيرها من الميادين الهامة .

وفي عصر الخلافة ازدهرت الدراسات الفقهية ، وذلك بفضل طائفة من الفقهاء النابغين الذين أسهموا بقدر عظيم في نهوض ذلك العلم والرقى بدراساته ومن الطبيعي أن يسير هؤلاء الفقهاء على المذهب المالكي تبعاً لما سار عليه فقهاء المالكية من قبل .

وفي مقدمة فقهاء عصر الخلافة يبرز الفقيه محمد بن يحيى بن عمر بن لبابة (ت. ٣٣٠هـ / ٩٤١م) الذي كان من أعظم الفقهاء علماً وأوسعهم دراية بمسائل الفقه ووجوهه المختلفة ، وكان لذلك يعتمد

(١) المرقى : نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٢١٤ .

(٢) للإطلاع على من تولى القضاء من فقهاء عصر الخلافة وغيره ، انظر الخشني قضاة قرطبة وكذلك النباهي : تاريخ قضاة الأندلس ، وأما من تولى منصب الفتيا والحسبة والشرطة فكتب التراجم الأندلسية . كتاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي . وجذوة المقتبس للحميدى فتحتوي الكثير من الأمثلة على ذلك .

عليه في الفتيا ، كما ولاه الخليفة عبد الرحمن الناصر قضاء البيرة (١) .
ولابن لبابه نشاط في ميدان التأليف ، فقد صنف كتابا قيما في الفقه على
المذهب المالكي وهو كتاب « المنتخب » وكان لهذا الكتاب شأن كبير بين فقهاء
الأندلس حتى قال فيه ابن حزم (ما رأيت لمالكي كتابا أنبل منه في جمع روايات
المذهب وتأليفها وشرح مستغلقها . وتفريح وجوها) (٢)

وانصرف الكثير من طلاب العلم إلى دراسة الفقه ومعرفة مسائله .
فكانت الجوامع المنتشرة في الأندلس تحفل بحلقات العلم والمناظرات العلمية
في هذا الميدان العلمي .

ومن أشهر المجالس العلمية في جامع قرطبة مجلس الفقيه يحيى بن
عبد الله ابن يحيى الليثي (ت ٣٦٧ هـ / ٩٧٧م) فقد كان يعقد مجالسه العلمية
في جامع قرطبة أيام الجمع ، ويلقي هناك دروسه الفقهية على طلاب العلم
الذين يزدحم بهم مجلسه لإشتهار ذلك الفقه بعلو المكانة العلمية والمعرفة
الواسعة بالفقه (٣) .

ونظرا لمنزلة هذا الفقيه العلمية فقد حرص الخليفة الحكم المستنصر على
ان يتلقى ابنه هشام المؤيد العلم على ذلك الفقيه فسمع منه هشام دروسا
مختلفة في الفقه (٤) .

ونبغ الفقيه عبد الله بن محمد بن القاسم الثغري (٥) (ت ٣٨٣ هـ / ٩٩٣م)
في الفقه ، وارتحل إلى المشرق حيث أخذ عن الكثير من العلماء ثم عاد إلى

(١) الخشني : تاريخ علماء الأندلس (مخطوط) ورقة ١١٠١ .

— البيرة . من كور الاندلس الجليلة القدر نزلها جند دمشق من العرب ، وبينها وبين غرناطة ستة أميال
(الحميري : الروض المعطار ، ص ٢٩) .

(٢) الحميدي : الجنوة ، ص ٩٨ — الضبي : بغية الملتبس ، ص ١٤٤ — المقرئ : النفح ، ج ٣ ، ص ١٧١ .

(٣) ابن الفرسي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٩١ .

(٤) ابن الفرسي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٩١ .

(٥) الثغري : نسبة إلى الثغر ، وهو الموضع القريب من العدو (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٨١) .

الأندلس ليوليه الخليفة الحكم المستنصر القضاء على بلده ، وكان لتضلعه في الفقه وسعة علمه أن شبهه أصحابه بسفيان الثوري (١) .

وكان للخلفاء وفي مقدمتهم الحكم المستنصر أثر في دفع مجلة العلوم وتشجيع العلماء على البحث والدرس ، فالفقيه محمد بن الحارث بن أسد الخشني (ت ٣٦١هـ / ٩٧١م) ألف للحكم كتباً كثيرة حتى قال عنه ابن الفرضي : (بلغني أنه ألف له مائة ديوان . وقد جمع له في رجال الأندلس كتاباً قد كتبنا منه في هذا الكتاب ما نسبناه إليه (يعني كتابه تاريخ علماء الأندلس) (٢) .

ولم يكن الخشني هو العلامة الوحيد الذي يحظى بتأييد الخليفة الحكم المستنصر ، فالإلى جانبه كان الفقيه أبو بكر محمد بن أحمد بن يحيى (ت ٣٨٠هـ / ٩٩٠م) يلقي كل تكريم وتبجيل من ذلك الخليفة الذي أظهر اهتماماً كبيراً بالدراسات الفقهية ، فقد ألف له أبو بكر كتباً كثيرة في ذلك ومن بينها كتاباً في فقه التابعين ، ولمعرفته الواسعة بالفقه وأحكام الشريعة فقد ولاه الخليفة القضاء (٣) .

(١) ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، ج ١ ، ص ٢٤٤ - ٢٤٥ - ٢٤٦ - ياقوت : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٨١ - سفيان الثوري : هو أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري الكوفي (٩٧هـ - ١٦١هـ / ٧١٥م - ٧٧٧م) كان راسخاً في علم الحديث ، وعد من أبرز فقهاء المحدثين وقد أراد الخليفة العباسي أن يوليه القضاء فهرب وتخفى حتى مات بالبصرة (ابن قتيبة : المعارف ص ٢١٧ - ٢١٨ - ابن النديم : الفهرست ص ٣١٤) .

(٢) تاريخ علماء الأندلس ، ج ٢ ، ص ١١٣ - الحميدي : الجنّة ، ص ٧١ - الضبي : البغية ، ص ٧١ - ابن فرحون : الديباج المذهب ج ٢ ، ص ٢١٢ - ٢١٣ .

(٣) الصفدي : الوافي ، ج ٢ ، ص ٥١ .

كما أن الفقيه محمد بن عبد الله بن سيد (ت ٣٦٢هـ / ٩٧٣م) نال منزلة سامية لدى الخليفة الحكم ، وبتشجيع منه بوب له ذلك الفقيه (المستخرجة) في الفقه المالكي (١) والمستخرجة : كتاب فقهي يعرف بالعتبية نسبة إلى الفقيه العتبي - تلميذ عبد الملك بن حبيب (٢) . الذي تقدم الحديث عنه في التمهيد .

وكان لازدهار حركة الدراسات الفقهية في الأندلس وما تبع ذلك من اختلاف العلماء وتباين الآراء في تفسير مسائل الفقه وقضاياها أثر في اتجاه البعض من الفقهاء نحو الاشتغال بدراسة مسائل الاختلاف ومحاولة حصر وجوهها المختلفة والخروج بما يكون أقرب للصواب ، فقد صنف الفقيه محمد بن حارث الخشن (كان حيا في حدود ٣٣٠هـ) كتابا في (الاتفاق والاختلاف لمالك بن أنس وأصحابه) (٣) .

كما صنف أبو محمد عبد الله بن إبراهيم الاصيلي (ت ٣٩٢هـ / ١٠٠١م) كتابا فيما اختلف فيه الفقهاء وأسماء (الدلائل في اختلاف العلماء) وقد لقي ذلك الكتاب قبولا حسنا بين علماء عصره (٤) .

واتجه الكثير من الفقهاء في دراساتهم الفقهية نحو شرح وتوضيح قواعد مذهبهم المالكي والعمل على تفسير المسائل الفقهية على ضوء من آراء وأقوال الامام مالك بن أنس رحمه الله بل إن الموطأ وهو الكتاب الفقهي الذي يعتبر حجر الاساس لمذهبهم الذي يسيرون عليه قد لقي منهم عناية فائقة ، واهتماما بالغا ، حيث تناولوه بالشرح والإيضاح منذ دخول مذهب مالك إلى الأندلس .

(١) ابن الفرضي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٧٣ .

(٢) المقرئ : النفع ، ج ٢ ، ص ١٧١ .

(٣) الحميدي : الجذرة ، ص ٥٣ - الضبي : البغية ، ص ٧١ .

(٤) ابن فرحون : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٣٣ - الذهبي : تذكرة الحفاظ ، ج ٣ ، ص ١٠٢٤ - ابن قنفذ : الوفيات ، ص ٢٢٣ .

وفي عصر الخلافة ظهرت العديد من الشروحات لموطأ مالك ، فممن أسهم في هذا الميدان محمد بن عبد الله بن محمد المري (٣٢٤ هـ - ٣٩٨ هـ / ٩٣٥ م - ١٠٠٧ م) الذي كان له جهد بارز في ازدهار الدراسات الفقهية يتمثل في شرح كتاب الموطأ وغير ذلك من كتب الفقه بالإضافة إلى تأليفه كتابا في اختصار المدونة (١) .

كما أن الفقيه عبد الرحمن بن مروان القنازعي (٣٤١ هـ - ٤١٣ هـ / ٩٥٢ م - ١٠٢٢ م) كان له قدم راسخ في هذا الميدان ، حيث توفر على دراسة الفقه وشرح مسأله ، فتناول الموطأ بالشرح والتفسير ، وألف في ذلك كتابا قيما ضمنه ما نقله يحيى بن يحيى في موطأه ويحيى بن بكير في موطأه (٢) .

وسار على هذا المنوال الفقيه مروان بن علي الأسدي القطان القرطبي ، حيث ألف كتابا في شرح موطأ مالك ، وكان لهذا الكتاب وقع طيب بين الفقهاء فأخذوه عن القطان ، ومنهم الفقيه أبو عمر بن الحذاء الذي أخذ عنه ذلك الكتاب سنة ٤٠٥ هـ .

ثم ما لبث أن أرسل في طلب الكتاب مرة أخرى وكان بطليطة والقطان ببونه (٣) - فأرسل إليه الكتاب وقد اضاف إليه شروحا وزيادات كثيرة (٤) .

(١) ابن الخطيب : الاحاطة في تاريخ غرناطة ، ج ٢ ، ص ١٧٣ .

والمدونة ، مجموعة من المسائل الفقهية في فروع المالكية أخذها عبد السلام بن سعيد التنوخي (١٦٠ هـ - ٢٤٠ : ٧٧٧ - ٨٥٤ م) المعروف بسحنون - من أهل القيروان عن عبد الرحمن بن القاسم عن الإمام مالك بن أنس . وأصبحت هذه المدونة التي نونها سحنون عن ابن القاسم من أشهر كتب الفقه على المذهب المالكي (ابن خلدون : المقدمة ، ص ٤٥٠ - الزركلي : الاعلام ، ج ٤ ، ص ٥ .

(٢) ابن بشكوال : الصلاة ، ج ٢ ، ص ٣٢٣ - ٣٢٤ .

(٣) بونه : ميناء جزائري يقع بالقرب من الحدود التونسية .

(٤) أحمد عطية الله : القاموس الإسلامي ج ١ ، ص ٣٩٧ .

(٤) ابن بشكوال : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٦١٦ .

وهكذا نلمس ما كان عليه فقهاء عصر الخلافة من اهتمام وعناية بالغين بالموطأ ونلمس أيضاً مدى ما كانوا يحملونه في نفوسهم من تقدير واجلال لهذا الكتاب باعتباره السجل الحافظ لآراء وأقوال إمامهم مالك بن أنس إمام دار الهجرة الذي اقتنعوا بعلمه وفقهه الواسع وما لبثوا أن تحمسوا لمذهبه ثم أخذوا في نشره والعمل على ارساء قواعده بما قدموه من شروح وإيضاحات كثيرة على كتاب الموطأ .

وإذا كان الحكم المستنصر قد حاز الفضل العظيم في تشجيع الحركة العلمية فإن من الانصاف أن نشير إلى ما أسهم به الحاجب المنصور بن أبي عامر في هذا الميدان ، فقد كان له دور كبير في دفع عجلة العلوم الدينية فبأمر منه صنف الفقيهان أحمد بن عبد الملك المعروف بابن المكوي الاشبيلي وصاحبه أبو مروان المعيطي كتاباً اسمياه « الاستيعاب » ضمناه أقاويل مالك بن أنس رحمه الله فجمعاً آراءه وأقواله في مصنف كبير لقي من العلماء والدارسين كل ثناء وتقدير ، حيث كان بمثابة موسوعة فقهية لآراء مالك وأقواله في الفقه وكان بذلك مرجعاً لكل طالب علم وباحث في مسائل الفقه على المذهب المالكي (١) .

وكان ابن بشكوال قد ذكر أن تأليف هذا الكتاب تم بأمر الخليفة الحكم المستنصر ولكن الحقيقة بخلاف ذلك ، فالحميدي وهو أقرب زمنياً في تاريخ ذلك الأمر إلى جانب تأكيد الضبي لما أورده الحميدي ، يعطينا دليلاً على أن تأليف الكتاب ثم بأمر المنصور وليس كما قال ابن بشكوال الذي عاش في فترة بعيدة عن عصور الخلافة (٢) .

(١) الحميدي : الجذوة ص ١٣٢ - ١٣٣ - ابن فرحون : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٧٦ - الصلبي : المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ١٤٤ .

(٢) عاش ابن بشكوال في القرن السادس الهجري ، وكانت وفاته سنة ٥٧٨ هـ / ١١٨٢ م

وجاء تأليف ذلك الكتاب تأكيد لما بلغه الأندلسيون من رقي علمي حيث كانوا في ذلك العصر أكثر منافسة لأندادهم من المشاركة في ميدان البحث والتأليف ، فلا يكاد أهل المشرق يتوصلون إلى سابقة في ميدان البحث حتى ينبؤ أهل الأندلس لهم بالتوصل لمثل تلك السابقة العلمية أو أفضل منها ، فكما أن القاضي أبا بكر محمد بن أحمد الحداد الشافعي البصري قد جمع اقوال الشافعي في كتابه الباهر^(١) فقد رأى المنصور ألا يكون الأندلس قاصرا عما توصل إليه المشاركة في ميدان البحث والتأليف .

وبرز في ميدان الفقه آنذاك محمد بن عمر بن يوسف المعروف بابن الفخار (ت ٤١٩ هـ / ١٠٢٨ م) وكان من أهل قرطبة وأحد الحفاظ المشار اليهم بالبنان وقد رحل إلى المشرق فحج وأقام بالمدينة^(٢) ورحلته العلمية هذه كانت وساما عظيما وللأندلسيين ، فقد خبرنا أن الأندلسيين كانوا يرتحلون في طلب العلم إلى المشرق ، ولكن الأمر اختلف هذه المرة مع ابن الفخار فبعد اقامته بالمدينة لفت أنظار الناس اليه بعلمه الواسع ومعرفته العميقة بالفقه فتقاطروا عليه يأخذون عنه ويستفتونه فيما يعرض لهم من القضايا الفقهية (وكان يفخر بذلك على أصحابه ويقول لقد شوورت بمدينة رسول الله صلى دار مالك بن أنس ومكان شوره^(٣))

وهكذا يتضح لنا الدرجة الرفيعة التي بلغها علماء الأندلس في ذلك العصر، وكيف أنهم أثبتوا قدرتهم الكبيرة على الوصول إلى ما بلغه أندادهم من المشاركة .

(١) المقرئ : النفع ، ج ٣ ، ص ١٣٢ .

(٢) ابن بشكوال : الصلة ، ج ٢ ، ص ٥١٠ - ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٤ ، ص ٢٦٨ -

المقرئ : النفع ، ج ٢ ، ص ٦٠ - ٦١ .

(٣) ابن بشكوال : الصلة ، ج ٢ ، ص ٥١٠ .

وكان من نتائج التطور الحضارى وظهور عامل الترف في المجتمع الاندلسي أن عكف بعض الاشخاص على ممارسة ضروب من السلوك تنافي تعاليم الشريعة مما دعا بعض الفقهاء إلى دراسة هذه الظواهر والعمل على وضع الحلول لها معتمدين في ذلك على مصادر الشريعة وما توصلوا إليه من اجتهادات فقهية ، فالفقيه عبد الله بن محمد بن عيسى المعروف (بابن الأسلمي ت. ٤٢٠هـ / ١٠٢٩م) اسهم في هذا الميدان بتصنيفه كتباً مختلفة ، مثل كتاب « تفقيه الطالبين والارشاد إلى اصابة الصواب في الأشربة) وكتاباً آخر صغير الحجم سماه (تنبيه المريدين المخدوعين بشبه الفاتنين على الانبذ المسكره من أي الاشجار والحبوب كانت من كتاب الله وسنة رسوله وأقوال جماهير الفقهاء والمحدثين في أمصار المسلمين) وألف أيضاً كتاباً في قوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا شهادة بينكم) الآية إلى آخر الآيات الثلاث(١) . وكان لهذه الكتب مكانة عالية بين الفقهاء فتلقوها بقبول حسن حتى ذكر ابن الأبار أنه أطلع على كتابيه الآخرين مما يؤكد مكانتها العلمية وخاصة أن مؤلف تلك الكتب اتصف بالعلم الواسع وحسن السيرة(٢) .

وفي أواخر عصر الخلافة برز في الساحة العلمية فقيهان كان لهما دور عظيم في إثراء الحركة الفقهية بما أخرجاه من دراسات مهمة ، كما ذاع صيتهما ليس في الأندلس فقط بل في العالم الإسلامي كله . الأول : الفقيه أبو عمر يوسف بن عبد الله ابن عبد البر النمري (٣٦٢ - ٤٦٠ هـ / ٩٧٢ - ١٠٦٧ م)، والثاني علي بن أحمد بن سعيد بن حزم (٣٨٤ - ٤٥٦ هـ / ٩٩٤ - ١٠٦٣ م) .

(١) سورة المائدة ، آية (١٠٦) .

(٢) ابن الأبار : التكملة ، ج ٢ ، ص ٧٩٦ .

فالأول ، وهو ابن عبد البركان له جهد بارز في ميادين العلم المختلفة فقد اسهم بنشاط وافر في إثراء حقول المعرفة من دين وتاريخ وأدب (وألف مما جمع تواليف نافعة سارة عنه ، وكان يميل في الفقه إلى أقوال الشافعي رحمة الله عليه) (١) .

ورغم ميله إلى المذهب الشافعي إلا أنه كان صاحب فضل عظيم على المذهب المالكي فقد صنف كتبا عديدة على ذلك المذهب ، ومن بينها كتابا « التمهيد لما في الموطأ من المعاني والاسانيد » والكتاب يقع في حجم كبير حيث بلغ سبعين جزءا وقد اثني عليه ابن حزم ، ووصفه بأنه ليس له نظير في فقه الحديث (٢) ، وبالإضافة إلى ذلك فقد صنف كتابا اسماء (الاستذكار لمذاهب علماء الامصار في شرح ماتضمنه الموطأ من معاني الرأي والاثار) وقد اشار ابن حزم إلى إنه اختصار لكتاب التمهيد المتقدم الذكر (٣) .

وكان لكتب ابن عبد البر في الفقه اثر في اقبال الدارسين عليها ومطالعتها فتعاقب العلماء وطلبة العلم على دراستها ، وقد ذكر ابن خير الاشبيلي انه أخذ الكتابين المذكورين عن شيوخه (٤) .

وكان لعلم ابن عبد البر حاحه القضاء وأهل الفتيا إلى من يجمع لهم آراء واقوال من سبقهم من أئمة العلم والفقه في مجال الفتيا اثر في انصرافه إلى تصنيف كتاب يضم أقوال أهل المدينة وفي مقدمتهم مالك بن أنس واتباعه واسمائه « الكافي » وقد اثني ابن حزم على هذا الكتاب وأشار إلى ماضمه

(١) الحميدي : الجذوة ، ص ٣٦٧ - ابن الوردي : تنمة المختصر ، ج ١ ، ص ٥٦٤ - ٥٦٥ .

(٢) الحميدي : نفس المصدر ، ص ٣٦٨ .

(٣) ابن خير : فهرسة مارواه عن شيوخه ، ص ٨٦ - المقرئ : النفع ، ج ٣ ، ص ١٦٩ - ١٧٠ .

(٤) فهرسة مارواه عن شيوخه ، ص ٨٦ .

ابن عبد البر من مسائل لا يستغني عنها المفتي وإن الناس قد استغنوا بذلك الكتاب عن التصانيف الطوال في الفقه ويقع ذلك الكتاب في خمسة عشر جزءاً (١) .

ولم تكن هذه الكتب وحدها ما ألفه ابن عبد البر بل انه لتضلعه في الفقه ومعرفته بمسائله قد ألف كتاباً في « اختلاف اصحاب مالك بن انس واختلاف رواياتهم عنه » ويقع ذلك الكتاب في اربعة وعشرين جزءاً (٢) .

ويلاحظ كثرة الأجزاء التي يتضمنها كل كتاب من كتب ابن عبد البر المذكور ، كما يبدو أنه كان يتهج في تأليفه منهج التاني وعدم التسرع بحيث لم يكن يحمل نفسه مشقة الإخراج السريع لتأليفه وما يترتب عليه من نصب ومشقة من جهة ، وما يتولد عن التسرع من هفوات لا يخلو منها اي عمل عجل من جهة أخرى ، فكان يوزع جهده العلمي على فترات بحيث ينجز في كل فترة جزءاً من انتاجه العلمي لينتهي الأمر باجزاء كثيرة لأي من كتبه العديدة ، ولا شك أن عمره المديد الذي بلغ ما يقارب قرناً من الزمان - حيث توفي عن ٩٨ عاماً له كان أثر في رسوخ مكانته العلمية ، وغزارة انتاجه العلمي النفيس الذي أثرى به المكتبة الإسلامية .

أما ابن حزم فهو علي بن أحمد بن سعيد ، وأصله من الفرس وجده الأقصى في الإسلام هو (يزيد) مولى يزيد بن أبى سفيان (٣) وقد تلقى ابن

(١) المقرئ : النفع ، ج ٣ ، ص ١٧٠ - هذا ويذكر الحميدي : (في الجنوة ، ص ٣٦٨) انه يقع في ستة عشر جزءاً .

(٢) الحميدي : الجنوة ، ص ٣٦٨ .

(٣) الحميدي : الجنوة ، ص ٣٠٨ - الضبي : البغية ، ص ٤١ .

ذكر عبد الحليم عويس في كتابه (ابن حزم الاندلسي ، ص ٥١) ان يزيد بن ابي سفيان هو « يزيد الخير » والحق أن هذا اللقب ليس له بل كان لاحد الصحابة واسمه زيد بن مهلهل =

حزم العلم على ايدي الكثير من العلماء ، كأحمد بن الجسور في علم الحديث ،
ومحمد بن الحسن المذحجي في المنطق ، وعبد الرحمن بن أبي زيد في الأدب
وغيرهم من العلماء (١) .

ويعتبر بن حزم من أكبر علماء الإسلام قاطبة في ميدان التصنيف
والتأليف في أبواب العلم المختلفة ، فقد اثنى المكتبة الإسلامية بنفائس الكتب
وروائع المؤلفات مما لم يكن لغيره الا ما ذكر عن الحافظ محمد بن جرير
الطبري ، فقد ذكرانه صنف ما يقارب من اربعمائة مجلد في شتى ضروب
المعرفة (٢) .

وفيما يتعلق بنشاطه العلمي في ميدان الفقه فقد مال به النظر في
بداية حياته إلى مذهب الشافعي حيث سار على ذلك فترة من الزمن ولكنه
مال إلى ان انحرف عنه إلى المذهب الظاهري الذي ينسب اصلا إلى الفقيه
المشرقي داود بن علي الاصفهاني (٤) فعمل على تنقيحه وصياغته في منهج

= الطائي الذي وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة ٩ هـ ، ومعه وفد من طيء ، وكان
لكثرة خيله ان لقبه قومه يزيد الخليل ولكن الرسول ﷺ اسماه زيد الخير (الزركلي :
الاعلام ، ج ٣ ، ص ٦١) .

(١) عبد الحليم عويس : ابن حزم الاندلسي ، ص ٦٧ - انخل بالنثيا : المرجع السابق ، ص ٢١٣ .
(٢) صاعد : طبقات الامم ، ص ١٠٢ - ابن بشكوال : الصلة ، ج ٢ ، ص ٤١٦ - ابن بسام :
الذخيرة ، القسم الاول ، ج ١ ، ص ١٤٣ - المراكشي : المعجب ص ٩٤ .

(٣) الكتب نقد وعرض (ابو محمد على حزم وكتابه جوامع السيرة وخمس رسائل اخرى ، تحقيق
احسان عباس وناصر الدين الاسد ، نشر دار المعارف بمصر) مقالا بمجلة معهد الدراسات
الإسلامية بمدريد ، ح ٤ ، ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٦ ، العدد ١ - ٢ - ص ١٨٨

(٤) هو أبو سليمان داود بن علي بن داود بن خلف الاصفهاني . أول من استعمل قول الظاهر
والغنى الرأى والقياس ، وقد وصف بالعلم والفضل وتوفي سنة (٢٧٠ هـ / ٨٨٣ م) (ابن
النديم : الفهرست ، ص ٣٠٣) .

فقهى له قواعد واصول ، ثم عمل على بثه مناضحا عنه ، فآلف فيه من الكتب الكثير (١) .

ومذهب ابن حزم الظاهري يعتمد فيه على قبول ما نص عليه في القرآن أو ورد فيه حديث موثق على ظاهر معناه الا أن يكون هناك ضرورة من عقل أو حس تدعو إلى صرف المعنى عن ظاهره وإلى الأخذ بالتأويل (٢) .

وابن حزم يوضح لنا ذلك في كتابه الفصل فيقول : (واعملوا ان دين الله تعالى ظاهر لا باطن فيه ، وجهر لا سر تحته ، كله برهان لا مسامحة فيه ، واتهموا كل من يدعو أن يتبع بلا برهان وكل من ادعى للديانة سرا وباطنا فهى دعاوى ومخارق ، واعلموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكتف من الشريعة كلمة فما فوقها ولا أطلع اخص الناس من زوجة أو ابنة أو ابن عم أو صاحب على شيء من الشريعة كتمه عن الأحمر والأسود ورعاة الغنم ، ولا كان عنده عليه السلام سرولا رمز ولا باطن غير ما دعى الناس كلهم اليه) (٣) .

ونتيجة لخروج هذا الفقيه على المذهب المالكي واصطدامه باتباعه فقد تألب عليه الفقهاء وتصدى لمناظرته الكثير منهم ، وكان لجرأته في قول الحق أثر

(١) ابن بسام : الذخيرة ، القسم الأول ، ج ١ ، ص ١٤٠ - ١٤١ - المراكشي : المعجب ، ص ٩٤ - ابن سعيد : المغرب ، وشيبي الطرس ، ج ١ ، ص ٣٥٥ - لطفى عبدالبديع : الإسلام في اسبانيا ، ص ٤٢ .

(٢) عمر فروخ : تاريخ الفكر العربي ، ص ٥٩٦ - قدرى طوقان : العلوم عند العرب ، ص ١٨٤ .

(٣) ح ٢ ، ص ١١٦ . وللوقوف أكثر على معانى الظاهرية واسباب انتهاج ابن حزم لها ، انظر : عبد الحليم عويس : ابن حزم الاندلسي من ص ٨٥ إلى ص ٩٦ ، كما أن بالنثيا في كتابه الفكر الاندلسي ، ص ٢١٨ اشار إلى ان ابن حزم عوض قواعد مذهبه في كتابه « الأبطال » والذي نشر جولد زيهرى جزاء منه وقد بين فيه ابن حزم أسس مذهبه وضعف المذاهب الأخرى .

وانظر ايضا محمد ابو زهرة : ابن حزم حياته وعصره . آراؤه وفقهه . ففيه الكثير من المعلومات عن الظاهرية .

في توتر علاقته من غيره من الفقهاء الذين وقفوا ضده وعملوا على تثبيط همته ، والقضاء على مذهبه ، ولكنه جابههم بموقف أكثر صرامة وقوة ، فكان شديد الوطأة على خصومه ، حاد اللسان في مناظراته العلمية ، حتى « ان البعض من العلماء صوروا اسلوبه هذا في صورة قاتمة فوصفوا لسانه بأنه وسيف الحجاج شقيقان(١) .

والحق اننا لو امعنا في موقف ابن حزم وحالته النفسية التي نجمت عن تألب الفقهاء عليه وتظافرهم على احباط نشاطه ، بالإضافة إلى تشرده عن وطنه ، واحراق كتبه لعذرناه بعض الشيء فيما اتصف به من صلابة في مواقفه مع العلماء ، وما اتسم به حديثه من صراحة شديدة .

وأما عن مؤلفاته العلمية في الفقه فقد ألف من الكتب « كتاب الإيصال إلى فهم الخصال الجامعة لجمل شرائع الإسلام في الواجب والحلال والحرام وسائر الاحكام على ما أوجبه القرآن والسنة والإجماع » أورد فيه أقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أئمة المسلمين في مسائل الفقه كما ألف كتاب « الاحكام في اصول الاحكام » وكتاب « الإجماع ومسائله على ابواب الفقه »(٢) .

وأشار السلفي في معرض حديثه عن كتب ابن حزم أن كتاب الإيصال يقع في أربعين مجلدا(٣) وهذا بلا شك فيه اشارة واضحة إلى المجهود العلمي الذي قدمه ذلك الفقيه وإلى ما كان يتمتع به من علم واسع بالشرعية الإسلامية .

(١) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج ٣ ، ص ٢٢٨ - الذهبي : تذكرة الحفاظ ، ج ٣ ، ص ١١٥٣ - ١١٥٤ .

(٢) الحميدي : الجذوة ، ص ٣٠٨ - ٣٠٩ - الضبي : البغية ، ص ٤١٥ - ابن بشكوال : الصلة ، ج ٢ ، ص ٤١٥ - ٤١٦ .

(٣) اخبار وتراجم اندلسية . تحقيق احسان عباس ، ص ٥٣ .

والجدير بالذكر أن ابن حزم لم يكن بارعا في علوم الدين فقط بل كان متضلعا في الكثير من العلوم كالتاريخ والأدب والفلسفة وغيرها من العلوم ، وأن ما قدمه للمكتبة الإسلامية لدليل واضح على ما ذكر عنه .

ولم يكن ابن حزم أول ظاهري في الأندلس ، فقد سبقه إلى ذلك الكثير من العلماء ومنهم الفقيه منذر بن سعيد البلوطي ، وإلى ذلك يشير الحميدي بقوله عنه (قال لنا أبو محمد علي بن أحمد : وكان مائلا إلى القول بالظاهر ، قويا على الانتصار لذلك ، ومن مصنفاته كتاب « الانباه على استنباط الأحكام من كتاب الله » وكتاب « الابانه عن حقائق أصول الديانة » (١) .

وفي عصر الخلافة كان لبعض النساء دور بارز في حركة الدراسات الفقهية فممن برعن منهن في الفقه ، فاطمة بنت محمد بن يوسف المغامي (ت ٣١٩هـ / ٩٣١٣م) والتي وصفت بالفقه والعلم والورع وانها لما ماتت كان يوما جليلا لكثرة من سار في جنازتها من أهل العلم تقديرا واجلالا لمنزلتها وقدرها العلمي وفضلها (٢) .

كما اشتهرت خديجة بنت جعفر التميمي زوجة الفقيه عبد الله بن اسد بالعلم الواسع في الفقه ، وقد حدثت عن زوجها بموطأ القعنبي قراءة عليه بلفظها ، كما أخذت الكثير من العلوم عن زوجها المذكور (٣) .

ولما كان عصر الخلافة وما قبله يحفل بأعداد هائلة من علماء الفقه فقد اتجه الكثير من العلماء إلى تأليف كتب التراجم التي تحفظ أسماء وسير أهل

(١) الجذوة ، ص ٣٤٨ - ٣٤٩ .

(٢) الضبي : بغية الملتبس ، ص ٥٤٧ .

(٣) ابن بشكوال : الصلة ، ج ٢ ، ص ٦٩٣ .

— القعنبي : هو عبد الله بن مسلمة بن قعنب (ت ٢٢١هـ / ٨٣٥م) مديني سكن البصرة
روى عن مالك ووصف بالعلم والفقه - (ابن عبد البر : الإقتضاء ، ص ٦١) .

العلم تخليداً لماثر بلدهم وفضله في العلم ، نألف أحمد بن محمد بن عبد البر كتاباً في تاريخ فقهاء الأندلس وقد استعان به ابن الفرضي في كتابه « تاريخ علماء الأندلس » وأشار إليه في مقدمة كتابه ، كما ألفت الفقيه عبد الله بن محمد بن دليم (ت ٣٥٥ هـ / ٩٦٢ م) كتاباً أسماه « الطبقات ممن روى عن مالك وأتباعهم من أهل الأمصار » وقد نقل عنه القاضي عياض اليحصبي في كتابه المدارك^(١) وألف محمد بن عبد الله ابن عبد البر كتاباً في فقهاء وقضاة قرطبة^(٢) وصنف محمد بن حارث الخشني كتاباً في أخبار الفقهاء والمحدثين^(٣) .

وموجز القول فقد أظهر الأندلسيون بنشاطهم العلمي في ميدان الفقه قدرة هائلة من التحصيل العلمي والانتاج الفكري الواسع في عصر الخلافة الذي ضم الكثير من الفقهاء البارزين اغنوا الفقه بدراساتهم الفقهية القيمة ، وقد حرص هؤلاء الفقهاء في مسيرتهم العلمية على الالتزام بالمذهب المالكي - عدا البعض منهم كابن حزم - والعمل على رفع شأنه بما قدموه من بحوث علمية ومصنفات نفسية ، وإن الناظر في نتائج هذا النشاط العلمي ليدركه القدر الهائل من المؤلفات العلمية التي قدمها أولئك العلماء في صورة تؤكد التفوق العلمي الذي أحرزه الأندلسيون آنذاك في ميدان الفقه .

(١) الزركلي : الأعلام ، ج ٤ ، ص ١٢٠ .

(٢) الحميدي : الجنوة ، ص ٦٤ .

(٣) ابن الفرضي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٣ .

ب - الحديث

يحيى بن مالك بن عائذ - محمد بن عبد الملك - قاسم بن أصبغ - بيت الباجي - يعيش بن سعيد الوراق - أبو بكر ابن الأحمر - أحمد بن مفرج - محمد بن عبد الله الهرري - عبد الرحمن بن فطيس - عبد الله بن يوسف - (ابن الغرضي) هشام بن عبد الرحمن الصابوني - ابن عبد البر النمري - عثمان ابن أبي بكر الصدفي - ابن حزم .

منذ بداية اشتغال الأندلسيين بالعلوم نجد أن علوم الدين قد احتلت الصدارة في نشاطهم العلمي ، وكان علم الحديث هو والفقهاء في مقدمة العلوم الدينية التي توفر الأندلسيون على دراستها .

وقد أقبل الأندلسيون على دراسة الحديث وجمعه وترتيبه ، ولا ننكر فضل المشرق على الأندلس في هذا المجال ، فقد كان للرحلات العلمية التي قام بها رجال الحديث إلى المشرق دور كبير في نهضة علوم الحديث ونشاط دراساته في الأندلس . ولعل رحلة بقي بن مخلد في عصر الإمارة تعد نقطة تحول مهمة في حركة الدراسات الدينية ومن بينها (الحديث) .

وكان علماء الحديث من أكثر الناس رحلة في طلب العلم ، وكانوا كثيرا مايلقون المشقات في سبيل البحث عن طائفة من الأحاديث وربما عن حديث واحد ، وأظهر الكثير منهم صبرا وجلدا في سبيل ذلك ، فيروي أن أبا المطرف ابن فطيس الأندلسي رحل في طلب حديث واحد إلى بعض كور الأندلس حتى سمعه من الشيخ الذي رواه وانصرف ، ثم رحل أيضا في طلب حديث لسفيان بن عيينه^(١) . إلى عالم يسكن بأقليم البيرة فسمعه منه^(٢) .

(١) هو سفيان بن عيينة بن أبي عمران (١٠٧ - ١٩٨ هـ / ٧٢٥ - ٨١٣ م) كان من أهل الحديث والفقهاء ووصف بالورع وتجنب الفتيا (ابن قتيبة : المعارف ص ٢٢١) .

(٢) ابن الغرضي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٣ .

وتحفل كتب التراجم الاندلسية بالكثير من علماء الحديث الذين يعدون -
بالمئات في عصر الخلافة ، فقد تميز ذلك العصر بنشاط كبير في ميادين العلم
المختلفة ومن بينها علوم الدين . ونظر للأعداد الهائلة من أهل الحديث فسوف
نتقصر على ذكر ابرزهم ممن كان له سهم وافر في ازدهار علم الحديث
ودراساته المختلفة .

يأتي في مقدمة علماء عصر الخلافة المحدث يحيى بن مالك بن عائد
(ت ٣٧٥هـ / ٩٨٥م) رحل إلى المشرق وقصد العراق وغيرها من البلدان ،
وسمع بها من سبعمائة عالم وأكثر ، وظل في المشرق يتردد على حلقات العلم
ويلتقي بالشيوخ وقد استغرقت رحلته ما يزيد على عشرين سنة عاد بعدها إلى
الأندلس وهو أوسع علما وأكثر معرفة فتسابق الناس إلى مجالسه العلمية
وحلقات درسه ، وكان لكثرة الإقبال عليه من طلاب العلم أن اتخذ له مكانا في
جامع قرطبه ، وعين له وقتا معلوما في كل أسبوع للتدريس فيه وللإملاء ، فكان
يملي في كل يوم جمعه ، وكان مجلسه ذلك من أشهر المجالس العلمية في
قرطبه (٢) .

وإلى جانب ابن عائد برز محمد بن عبد الملك بن أيمن (ت ٣٣٠هـ /
٩٤١م) الذي وصف بالبراعة التامة في علم الحديث والتمكن في علومه ، وقد
ألف كتابا في السنن صنفه على تراجم كتاب أبي داود ، وتميز ذلك الكتاب
بالدقة والإتقان ، وكان ابن أيمن قد رحل إلى المشرق بصحبة رفيقه المحدث
قاسم ابن اصبغ فوصلا العراق سنة (٢٧٦هـ / ٨٨٩م) ، وكانا يعتزمان لقاء

(١) ابن بشكوال : الصلة ج ١ ، ص ٣١٢ .

(٢) ابن الفوضى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٩٣ - ١٩٤ - الحميدي : الجذوة ، ص ٣٧٩ -
٣٨٠ (يذكر وفاته سنة ٣٧٦هـ) .

الحافظ المحدث أبي داود السجستاني صاحب السنن ، ولكنهما وصلا بعد وفاته بسنه ، فلما فاتهما أبو داود اتجه كل منهما إلى تصنيف كتاب في السنن على تراجم كتاب أبي داود وخرّجا الحديث من روايتهما عن شيوخهما ، وكان لكتائبيهما منزلة رفيعة بين المحدثين وأهل العلم لدقتهما وجلالهما (١) .

ومما يدل على علو كعب بن أيمن في الحديث وعلومه أنه حدث بالمشرق كما حدث بعد ذلك في الأندلس ولقي من أهل عصره كل تقدير وإجلال وقد أشار الحميدي إلى ثناء ابن حزم على كتاب ابن أيمن فيقول : (ومصنف ابن أيمن مصنف رفيع . احتوى من صحيح الحديث وغريبه ما ليس في كثير من المصنفات) (٢) .

وإضافة إلى ما تمتع به ابن أيمن من سعة العلم في الحديث ، فقد كان بارعا في الفقه حافظا لمذهب مالك ولعل مما ساعده على الحفظ والمهارة في اكتساب العلم ما وصف به من ذكاء ونباهة استطاع بهما أن يحفظ الكثير من كتب العلم وتصانيف العلماء فيذكر أحد اصحابه من العلماء أن ابن أيمن كان يأتيه إلى منزله فيأمره باخراج كتابه كذا وكذا الذي فيه حديث كذا وكذا فيبيدي صديقه دهشته بعدم معرفته لذلك حتى إذا أخرج كتابه المذكور وجد ما وصفه ابن أيمن بالتمام مما يبعث على الإعجاب بقوة حافظته وذكائه لدرجة أنه كان حافظا لكتب غيره من العلماء أكثر من حفظهم لها (٣) .

(١) ابن خير : فهرست ما رواه عن شيوخه ، ص ١٢٤ - ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٢ ، ص ٣٢٧ - المقرئ : النفع ، ج ٣ ، ص ١٦٩ .

(٢) جنوة المقتبس ، ص ٦٨ .

(٣) الخشني : تاريخ علماء الأندلس (مخطوط) ورقة ١٦٨ .

أما عن رفيق رحلته إلى المشرق قاسم بن أصبغ البياني (١) (ت ٣٤٠هـ / ٩٥١م) فيعد من كبار حفاظ الحديث ، ومن ألمع من أخرجته الأندلس في هذا الميدان ، وقد سمع العلم من شيوخ وطنه ثم رحل إلى القيروان ومصر ومكة والمدينة والعراق ثم عاد إلى الأندلس فتهاافت عليه طلاب العلم يأخذون عنه ويسمعون منه ما اكتسبه من العلوم والمعارف وقد سمع منه الخليفة عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم وأخوته ، وطال عمره حتى أخذ عنه الكبار ثم الصغار وعرف بسعة علمه في أكثر من علم كالحديث والفقه والأدب والنحو (٢).

ونظر لمكانة البياني العلمية فقد قربه إليه الحكم المستنصر إبان ولايته للعهد وكلفه بتأليف كتاب في الحديث فصنف كتابا في السنن المسنده بدأه في محرم سنة ٣٢٤هـ وقد اختصره من كتابه الكبير فجاء في سبعة أجزاء ، وفيه من الحديث المسند ألفان وأربع مائة وأربعة وتسعون حديثا (٣).

وقد نهج قاسم بن أصبغ في تأليفه لذلك الكتاب أن يكون على أبواب كتاب العلامة المشرقي ابن الجارود صاحب كتاب المنتقى ويشير الحميدي إلى ثناء صديقه ابن حزم على كتاب قاسم بقوله : (قال لنا أبو محمد علي بن أحمد : وهو خير منه (أى من كتاب ابن الجارود) انتقاء وأنقى حديثا وأعلى سنداً وأكثر فائده) (٤).

(١) البياني : نسبة إلى بيانه من أعمال قرطبه (الحميرى : الروض المعطار ص ٥٩) .

(٢) ابن الفرغاني : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٦٤ - ٣٦٥ - ٣٦٦ - الحميدي : جذوة ، ص ٢٣٠ - الضبي : البغية ص ٤٤٧ - ٤٤٨ - ابن فرحون : الديباج المذهب ج ٢ ، ص ١٤٥ - ١٤٦ - الذهبي : المصدر السابق ج ٣ ، ص ٨٥٣ - ٨٥٤ - السيوطي : بغية الرعاة ، ج ٢ ، ص ٢٥١ - المقرئ : النفع ، ج ٢ ، ص ٤٧ - ٤٨ - أحمد أمين : ظهر الإسلام ، ج ٣ ، ص ٥٠ - السيد عبد العزيز سالم : قرطبه حاضرة الخلافة ، ج ٢ ، ص ١٩٧ - ١٩٨ .

(٣) ابن خير : المصدر السابق ، ص ١٢٤ - ابن العماد : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٢٧ - المقرئ : النفع ، ج ٣ ، ص ١٦٩ .

(٤) جذوة المقتبس ، ص ٣٣١ .

وبذلك يتبين لنا المنزلة العلمية التي حظي بها قاسم بن أصبغ ، وما كان يتمتع به علم واسع ، ومعرفة كبيرة بالحديث ، وبراعة في التصنيف ، وأنه بذلك قد برزَّ غيره من علماء المشرق .

ولقاسم بن أصبغ كتب أخرى في الحديث مثل كتاب « الناسخ والمنسوخ » وكتاب « غرائب حديث مالك بن أنس مما ليس في الموطأ » هذا بالإضافة إلى مشاركته في علوم أخرى كالتاريخ ، فقد ألف كتابا في الأنساب وصف بالجوهر والحسن ، وصنف أيضا كتابا في فضائل قریش (٢) .

ولعل من دلائل النهضة العلمية في الأندلس ، وانصراف الناس إلى العلم باخلاص وهمة صادقة ما يلاحظ من بروز أسر علمية في المجتمع الأندلسي أسهم أبنائها في الحركة العلمية ، ومن أشهر الأسرات العلمية في ميدان الحديث أسرة الباجي أو بيت الباجي بأشبيلية ، فقد كانت هذه الأسرة من أعظم الأسرات التي أسدت للعلم والمعرفة جهودا علمية مثمرة ، فكان لها بذلك يدٌ بيضاء على العلم ، وكان أفرادها جميعهم في الفضل والتقدم على درجة رفيعة خازوا بها قصب السبق في العلوم (٢) .

فمن علماء هذه الأسرة عبد الله بن محمد بن علي بن شريعة اللخمي - (٢٩١هـ - ٣٧٨هـ / ٩٠٣م - ٩٨٨م) والمعروف بابن الباجي ، كان من حفاظ الحديث المعدودين ، ومن علمائه المذكورين ، وقد تلقى علومه في بلده أشبيلية ثم ارتحل إلى قرطبة وقام بالتدريس في جامعها حيث تقاطرت نحوه أفواج أهل العلم يأخذون عنه ، وقد أظهر صبرا وجلدا في أداء رسالته العلمية حتى روي أنه حدث ودرس نحو من خمسين سنة (٣) .

(١) الحميدي : نفس المصدر والصفحة .

(٢) ابن بشكوال : الصلة ، ج ٢ ، ص ٥٢٢ - ٥٢٣ .

(٣) ابن الفرزسي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٤٠ - ٢٤١ - الذهبي : تذكرة الحفاظ ، ج ٣ ،

ص ١٠٠ - ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٣١٥ .

ويبدو من انتساب هذا المحدث إلى أشبيلية مدى ما كانت عليه هذه المدينة الأندلسية من رقي وازدهار علمي رفيع ، فلم تكن أقل عطاء وبذلا من حاضرة الخلافة وعاصمة الدولة ، وكان لها في الحياة العلمية في الأندلس دور بارز وجهد واضح لا ينكر .

وخلف ذلك المحدث ابنه بن عبد الله (٣٣٢هـ - ٣٩٦هـ / ٩٤٣ - ١٠٠٥م) الذي لم يكن بأقل قدرا من أبيه ، فكان عالما بالحديث عارفا بعلمه ، وكان قد اكتسب علومه في بداية حياته العلمية من أبيه ثم شد رحاله إلى المشرق مع ابنه محمد حيث لقيا أقطاب العلم في المشرق فاخذا عنهم وسمعا الكثير ثم عادا إلى الأندلس . ليتولى العلامة أحمد القضاء ببلده أشبيلية ، ثم ما لبث أن رحل إلى قرطبة ليقوم بها وينشر علمه بين أهلها الذين ازدحموا على حلقات درسه ومجالسه العلمية ، وكان لنباهته وسعة علمه أنه شوور في ميدان القضاء وعمره ثمان عشر سنة (٢) .

ولم يتوقف عطاء تلك الأسرة في ميدان العلم فقد خلف العلامة المذكور ابنه محمد بن أحمد (٣٥٦هـ - ٤٢٣هـ / ٩٦٦م - ١٠٤١م) ليحمل راية العلم من بعد أبيه ويؤدي دوره وواجبه تجاه وطنه وأمته ، وإذا كان العلامة المذكور يعد من علماء الحديث إلا أن اهتمامه بالفقه قد غلب عليه . وكان له مشاركة في تصنيف بعض الكتب المتعلقة بالفقه والقضاء (٢) .

ومما يبعث على الإعجاب بهذه الأسرة أن العلم لم يكن مقصورا على أفرادها من الرجال بل شمل حتي النساء ، ومنهم فاطمة بنت محمد بن علي أخت المحدث عبد الله بن محمد بن علي المتقدم الذكر . وقد شاركت هذه

(١) ابن بشكوال : الصلاة ، ج ١ ، ص ١١ - ١٢ .

(٢) ابن بشكوال : نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٤٢٢ - ٤٢٣ .

الفقيهة أخاها المذكور في الأخذ عن بعض شيوخه وأجاز لها العلامة المحدث محمد بن فطيس الألبيري في جميع روايته بخط يده (١) .

وكان من عوامل نشاط الحركة العلمية في ميدان الحديث ما أبداه الخليفة الحكم المستنصر من تشجيع العلماء على البحث والدراسة ومنهم علماء الحديث فبتشجيع من الحكم المستنصر ألف المحدث يعيش بن سعيد الوراق كتابا في الحديث وهو مسند حديث ابن الأحمر وكان العلامة يعيش من أروى الناس عن أبي بكر محمد بن معاوية القرشي المعروف (بابن الأحمر) ، وقاسم بن أصبغ البلياني ، وهو ما حدا بالحكم المستنصر إلى أن يأمره بتأليف مسند في حديث ابن الأحمر فالف له ذلك الكتاب (٢) .

ولعناية يعيش بن سعيد بمسند ابن الأحمر فقد كان كثيرا ما يقرأه في حلقات درسه ، فقد أشار الحميدي إلى أن ابن عبد البر قال : (قرأ علينا أبو عثمان يعيش ابن سعيد سنة تسعين وثلاثمائة « مسند حديث أبي بكر محمد بن معاوية القرشي » ومن تأليفه مما سمع منه ، وأخبرنا بذلك عنه) (٣) .

ولا شك أن اهتمام الحكم المستنصر بإخراج مصنف في حديث ابن الأحمر لدليل على مكانته العلمية وما يتمتع به من منزلة علمية كبيرة بين أهل الحديث .

وكان ابن الأحمر قد رحل إلى المشرق فأخذ عن علمائه وفي مقدمتهم أحمد بن شعيب النسوي ، وينسب إلى ابن الأحمر أنه أول من أدخل كتابه في

(١) الضبي : البغية ، ص ٥٤٧ .

(٢) الحميدي : الجذوة ، ص ٢٨٦ - ٢٨٧ .

(٣) الجذوة : ص ٢٨٧ .

السنن إلى الأندلس حيث أخذ العلماء عنه ، وبقي مشغلا بالعلم والبحث إلى قريب من عهد الحكم المستنصر (١) .

وكان لابن الأحمر إسهام في حركة الانتاج العلمي المتصل بالحديث فقد ألف مسندا في الحديث فيه من الحديث المسند أربعة آلاف حديث وثلاثون حديثا ومن الصحابة ثلاث مائة وثلاث عشر ، ومن النساء ثلاث وأربعون امرأة (٢) .

وبالإضافة إلى ما ذكر عن اهتمام الحكم المستنصر بالتأليف العلمي في ميدان الحديث ما ذكر عن محمد بن أحمد بن يحيى بن مفرح القرطبي (ت ٣٨٠هـ / ٩٩٠م) الذي رحل إلى المشرق في طلب العلم ، وقصد الحجاز واليمن ومصر والشام والعراق وأخذ من علماء كثيرين قدر هو عددهم بما يزيد عن مائتي عالم وشيخ ، ولدى عودته إلى الأندلس كان الحكم المستنصر آنذاك وليا للعهد ، ونظرا لما عرف عنه من عناية بالعلم واکرام لأهله فقد أرسل في طلب هذا العالم إلى قصره حيث أكرم نزله ورفع مكانته بين علماء الحديث فصنف له مؤلفات عديدة في مختلف ضروب المعرفة (٣) .

ويلاحظ الباحث في سير أولئك العلماء الأفاضل أنهم كانوا حسب المصطلح الحديث « موسوعين » نبغوا في علوم شتى ، وكانوا يطلقون في الأندلس على من اتصف بذلك لفظ (متفّن) أي أن له سهماً وافراً في كل فن من العلوم ، فالعلامة محمد بن عبد الله بن محمد المري (٣٢٤هـ - ٣٩٨هـ / ٩٣٥م -

(١) الحميدي : نفس المصدر ، ص ٨٨ - ٨٩ .

(٢) ابن خير : المصدر السابق ، ص ١٤٣ .

(٣) ابن الغرضي : تاريخ علماء الأندلس ، ج ٢ ، ص ٩١ - ٩٢ - ٩٣ - الحميدي : الجذوة ، ص ٤٠ - الضبي : البغية ، ص ٤٩ .

١٠٠٧م) كان بارعا في الحديث وعلومه إلى جانب رسوخه في الفقه والتفسير والادب والتاريخ ، فكان بذلك (راسخا في كل جم من العلم ما رؤى قبله ولا بعده مثله) (١)

كما أن المحدث عبد الرحمن بن محمد بن عيسى بن فطيس (٣٤٨هـ - ٤٢٠هـ / ٩٥٩م - ١١١١م) كان من أئمة الحديث وكبار علمائه حافظا للحديث عارفا بعلومه وما يتصل به من أسماء الرجال بصيرا بالمعدلين منهم والمجرحين ، عرف بالذكاء وتوقد الذهن ، وقد أعانه ذلك الحفظ حتى أنه كان يلقي دروسه في الحديث من حفظه ، وكان التلاميذ يكتبون عنه ذلك ، وإضافة إلى تضلعه بالحديث وعلومه فقد كان بارعا بالتاريخ والسير والأدب محبا للكتب جماعا لها (٢) .

وقد صنف ابن فطيس كتباً في الحديث منها « كتاب الأخوة من المحدثين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الخالفين » في أربعين جزءا ، و « مسند حديث محمد بن فطيس » في خمسين جزءا ، و « مسند قاسم بن أصبغ العوالي » في ستين جزءا ، وكتاب في « الكلام على الاجازة والمناولة » في عدة أجزاء ، ، « الناسخ والمنسوخ » في ثلاثين جزءا (٣) .

ولابن فطيس تصانيف كثيرة في فروع مختلفة من العلم ولكننا اكتفينا بذكر ما هو متصل بالحديث (٤) .

ومن دلائل النهضة العلمية في ميدان الحديث ما قام به الكثير من علماء الأندلس من دراسة لكتب الصحاح ، كصحيح البخاري وصحيح مسلم ، والسنن

(١) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ٣ ، ص ١٧٢ - ١٧٣ .

(٢) ابن بشكوال : الصلة ، ج ٢ ، ص ٣١٠ - ٣١١ .

(٣) ابن بشكوال : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٤) انظر مؤلفاته الأخرى في المصدر السابق نفس الجزء والصفحة ، وانظر الذهبي تذكرة الحفاظ ، ج ٢ ، ص ١٠٦١ - والبيضاوي : هدية العارفين ، ج ١ ، ص ٥١٥ .

كسبن الترمذي ، والنسائي ، فتناولوها بالايضاح والشرح ، فمن ينسب إليه الاستغلال بذلك العلامة هشام بن عبد الرحمن بن عبد الله الصابوني (ت ٤٢٣هـ / ١٠٣١م) الذي كانت له عناية بصحيح البخارى ، فشرحه وراعى في تفسير أحاديثه أن يكون على حروف المعجم ، وقد وصف ذلك الكتاب بالأهمية العلمية (١) .

وأثبت الأندلسيون قدرتهم الكبيرة في إثراء ميدان الحديث وعلومه بتأليفهم ودراساتهم المتعددة ، ويأتي في مقدمة هؤلاء أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري الذي سبق الحديث عنه في ميدان الفقه فألى جانب ما تميز به من علم واسع في الفقه ، فقد كان من حفاظ الحديث والعارفين بعلومه وطرقه حتى قال فيه أبو الوليد الباجي - من علماء عصر الطوائف - (لم يكن بالأندلس مثل أبي عمر في الحديث) (٢) .

وقد شارك ابن عبد البر في حركة الإنتاج العلمي بكتبه التالية « كتاب التقصي لحديث الموطأ » وكتاب « الانباه عن قبائل الرواه في أسماء رجال الحديث » وكتاب « الكنى في رجال الحديث » وكتاب « الشواهد في اثبات خبر الواحد » (٣)

وكان لقدرة ابن عبد البر على التأليف أن أخرج كتباً كثيرة في فروع العلم المختلفة ونال بذلك منزلة رفيعة بين علماء عصره ، وما تلى ذلك من عصور حتى قال فيه ابن سعيد - مشيداً بعلمه - (وانظر إلى آثاره تغنك عن أخباره) (٤) .

(١) ابن بشكوال : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٦٥٠ .

(٢) الذهبي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١١٣٨ .

(٣) الذهبي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١١٢٩ - ١١٣٠ - البغدادى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٥٥٠ - ٥٥١ .

(٤) المغرب في حلي المغرب ، ج ٢ ، ص ٤٠٧ - ٤٠٨ .

ومما يؤكد أهمية الرحلات العلمية ما أدخله الكثير من علماء الأندلس إلى بلادهم من ضروب التأليف العلمية ومنها الحديث . فقد روي أن العلامة عثمان بن أبي بكر الصديقي (ت ٤٤٠هـ / ١٠٤٨م) رحل إلى المشرق فسمع من أهل العلم ومنهم الحافظ أبي نعيم الأصفهاني الذي كتب عنه بخطه ما يقارب ألف حديث ، ثم عاد إلى الأندلس وهو يحمل كتباً قيمة في الحديث ، وقد نسب إليه أنه أول من أدخل كتاباً غريب الحديث للخطابي إلى الأندلس (١) .

وكان لابن حزم قدم راسخة في الحديث ، فهو يعد من حفاظه والعارفين بعلومه ، وقد صنف في ذلك كتباً عديدة ، فمما ينسب إليه منها كتاب « الجامع في صحيح الحديث » وكتاب « شرح حديث الموطأ والكلام على مسائله » وترتيب مسند بقي بن مخلد ، وأجوبة من صحيح البخاري ، وكتاب مهم السنن وغيرها (٢) .

وكما شاركت النساء في ميدان الفقه فقد كان لهن مشاركة في نشاط الدراسات المتعلقة بالحديث وعلومه ، ونلاحظ من سير النساء العلمية أن المرأة لم تقتصر في أخذ العلم عن المقربين لها كالأب أو الأخ أو الزوج بل سعت إلى كسب العلم وأخذ المعرفة أنى كانت وسلكت في ذلك طريق الرحلات العلمية ولكن مع من تربطها به صلة القرابة أى أن تكون مع محرم لها ، فيذكر أن راضية مولاة الخليفة الناصر والتي اعتقها ابنه الحكم المستنصر وتزوجها لبيب الفتى أنها رحلت هي وزوجها إلى المشرق فحجا سويا سنة (٣٥٣هـ / ٩٦٤م) ، وكانا يقرآن ويكتبان ويتدارسان كتب العلم ، ودخلا الشام ولقيا

(١) ابن بشكوال : الصلاة ، ج ٢ ، ص ٤٠٨ .

(٢) عبد الحليم عويس : ابن حزم الأندلسي ، ص ١١٢ (وفيه انظر بقية المصنفات المنسوبة لابن حزم في الحديث) .

الشيوخ والعلماء هناك ، ثم رحلا إلى مصر فالتقيا بشيوخ العلم هناك ايضا .
وقد روى عنها العلامة أبو محمد بن خزرج ، وقال عندي بعض كتبها ، وتوفيت
راضية سنة (٤٢٣هـ / ١٠٣١م) بعد عمر مديد بلغ مائة وسبعة أعوام (١) .

ونظرا لما حفل به ذلك العصر وما قبله من اعلام المحدثين فقد صنف
بعض العلماء معاجم لعلماء الحديث فمنها ما صنفه مسلمة بن القاسم بن
ابراهيم (ت ٣٥٣هـ / ٩٦٤م) حيث صنف كتابا طبقات المحدثين والذيل على
الطبقات المذكور (٢) .

وكان لصلات العلامة أحمد بن سعيد الصدي (ت ٣٥٠هـ / ٩٦١م) -
بأهل الحديث والعلم عامة أثر كبير في معرفته الواسعة بالعلماء ، مما دفعه إلى
تصنيف معجم في المحدثين بلغ فيه الغاية والدقة واخذه عنه تلاميذه وأهل
العلم (٣) .

وأخيرا لا يفوت الباحث في سير العلماء وخاصة علماء الدين أن يشير
إلى ما صنفه العلامة المحدث عبد الله بن يوسف الأزدي المعروف (بابن
الفوزي) (٣٥١هـ - ٤٠٣هـ / ٩٦٢م - ١٠١٢م) فقد صنف كتابه المشهور
« تاريخ علماء الأندلس » حيث ضمنه أعداداً كبيرة من أولى العلم في الفقه
والحديث بوجه خاص ، ولعل سعة علمه في الحديث وعلومه كان له أكبر الأثر
في إخراج هذا العمل العلمي الرائع ، ومما يؤسف له أن نهاية ابن
الفرضي كانت مؤلمة للغاية ، حيث قتل في الفتنة التي اجتاحت قرطبة

(١) ابن بشكوال : الصلاة ، ج ٢ ، ص ٦٩٣ - ٦٩٤ .

(٢) البغدادي : هدية العارفين ، ج ٢ ، ص ٤٣٢ .

(٣) ابن الفرضي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٣ - ٤٤ - الصفي : المصدر السابق ، ج ٦ ،

ص ٣٨٩ - ٣٩٠ - أنخل بالنثيا : تاريخ الفكر الاندلسي ، ص ٤٠١ .

سنة ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م (١) كما أن لابن الغرضي مؤلفاً اسمه « المختلف والمؤتلف في أسماء الرجال » وقد لقي هذا الكتاب قبولا كبيرا لدى العلماء آنذاك حتى قال فيه ابن حزم (لا أعلم مثله في فنه البتة) (٢) .

وموجز القول في النشاط العلمي للأندلسيين في هذا الميدان من العلوم الدينية أنهم استطاعوا أن يبرهنوا على قدراتهم الواسعة في تناول هذا العلم من العلوم الدينية بالدراسة والبحث الجادين وقدموا في ذلك روائع من إنتاجهم العلمي الغزير .

والحق أننا لو نظرنا في كتب التراجم الأندلسية لها لنا ما حوته من أعداد غزيرة لعلماء الحديث ، وهذا يدل دلالة واضحة على ما بلغه علم الحديث من نشاط كبير يبعث على الإعجاب بأولئك العلماء ، وبما قدموه من تصانيف وتآليف لا تزال المكتبة الإسلامية حتى وقتنا الحاضر تضم أعداداً كبيرة منها .

(١) الحميدي : الجنوة ، ص ٢٥٤ - ٢٥٥ - الضبي : البغية ، ص ٣٢٤ - ٣٢٥ - ٣٣٦ - ابن بشكوال : الصلة ، ج ١ ، ص ٢٥٢ - ابن فرحون : الديباج المذهب ، ج ١ ، ص ٤٥٢ - ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج ٢ ، ص ١٠٥ - ١٠٦ - ابن قنفذ : الوفيات : ص ٢٢٧ - ٢٢٨ - الزركلي : الأعلام ، ج ٤ ، ص ١٢١ - بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، ج ٦ ، ص ١٠١ .
(٢) المقرئ : نفح الطيب ، ج ٣ ، ص ١٧٠ (نقلا عن رسالة ابن حزم في فضل الاندلس) .

ج - علوم القرآن

القراءات :

أحمد بن محمد الطلمنكي - عثمان بن سعيد الداني -
مكي بن أبي طالب القيسي - علي بن محمد الأنطاكي - أحمد
بن علي الربعي - عبد الملك بن إدريس البجاني - أحمد بن قاسم
اللخمي .

يقصد بعلوم القرآن ما يتعلق به من علوم كالقراءات والتفسير ، وكان
للاندلسيين في هذه العلوم نشاط واضح ملموس ، ويجدر بنا قبل الحديث عن
النشاط العلمي المتعلق بالقراءات أن نشير إشارة سريعة إلى معنى القراءات .

روي أن الصحابة رَوَوْا القرآن عن الرسول ﷺ على طرق مختلفة في
بعض ألفاظه وكيفيات الحروف في أدائها ، وانتقل ذلك عنهم إلى غيرهم
واشتهر إلى أن استقرت سبع طرق معينة وتواتر نقلها أيضا بأدائها ،
واختصت تلك القراءات بأصحابها الذين اشتهروا بروايتها من بين القراء
الآخرين فأصبحت هذه القراءات أصولا للقراءة وذاعت بين المسلمين (١) .

والقراء السبعة هم نافع المدني ، وعاصم بن أبي النجود ، وأبو عمرو بن
الغلاء ، وعبد الله بن كثير ، وعبد الله بن عامر ، وحمزة بن حبيب ، وعلي بن
حمزة الكسائي (٢) .

والقراءات التي يقرأ بها الناس اليوم وصحت روايتها عن الأئمة إنما هي
جزء من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن ، ووافق اللفظ بها مصحف عثمان

(١) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٤٣٧ .

(٢) أحمد حسن الزيات : تاريخ الأدب العربي ، ص ٩٢ . وانظر : ابن قتيبة : المعارف ، ص ٢٣٠

رضي الله عنه الذي أجمع الصحابة رضي الله عنهم ومن أتى بعدهم عليه ونبذ ماسواه (١) .

ولما كانت الحركة العلمية في الأندلس في عصر الخلافة قد ازدهرت بصورة كبيرة وشملت ميادين العلم المختلفة فإنه من الطبيعي أن يكون لعلوم القرآن نصيب وافرفي هذا النشاط العلمي ، وقد سبق القول في التمهيد إلى أن العلامة الغازي بن قيس أحد علماء عصر الإمارة قد ارتحل إلى المشرق حيث أخذ القراءات عن العلامة المقرئ نافع المدني وصحح مصحفه على مصحف نافع ثلاث عشر مرة (٢) .

وفي هذا إشارة إلى بداية اشتغال الأندلسيين بعلم القراءات واهتمامهم بها ، وأن دخول قراءة نافع - وهو أحد القراء السبعة - إلى الأندلس في عصر الإمارة ليعد مؤشرا إلى ما سوف تحتله هذه القراءة المعينة بين قراء الأندلس ، وخاصة إذا علمنا أن الغازي بن قيس الذي ينسب إليه إدخالها كان معلما للتلاميذ ومؤدبا لهم وهو أمر يفيد بلا شك في سرعة انتشار هذه القراءة بين الأندلسيين .

وعليه فإن جهود الغازي بن قيس كانت فاتحة الجهود العلمية في هذا الحقل من الدراسات ، وقد أشار المقدسي إلى انتشار قراءة نافع بين الأندلسيين مما يؤكد غلبتها على من سواها من القراءات (٣) .

وفي عصر الخلافة برز العديد من علماء القراءات والذين أثروا هذا الميدان بجهودهم الموفقة ، وكانت هذه الطائفة من العلماء تحتل مرتبة عالية في المجتمع الأندلسي نظرا لارتباط حياتهم العلمية بالقرآن الكريم من جهة ، وبما

(١) مكي بن أبي طالب : الإبانة عن معاني القراءات ، ص ٢١ - ٢٢ .

(٢) ابن الجزي : غاية النهاية ، ج ٢ ، ص ٢ .

(٣) أحسن التقاسيم ، ص ٢٣٦ .

يقومون من دور تربيوى في تعليم أطفال المسلمين قراءة القرآن بوجه سليم
يضمن لهم الفهم الصائب والادراك الصحيح لمعاني القرآن ، وما ينتج عن ذلك
من حسن التهذيب وغرس المعاني الكريمة في نفوس الناشئة ليكون ذلك زاداً
لهم في مسيرتهم العلمية .

ولا يعنى هذا أن دور القراء كان محصوراً في ذلك بل كان علم القراءات
علماً واسعاً وعميقاً فكان الكثير من طلاب العلم يقبلون على دراسته ومعرفة
قواعده ، والتي يستهدف منها قراءة القرآن على الوجه الصحيح بعيداً عن
التصحيف أو الخلط .

ومن علماء القراءات في عصر الخلافة العلامة المقرئ أبو عمر أحمد بن
محمد بن عبد الله الطلمنكي (٣٤٠هـ - ٤٢٩هـ / ٩٥١م - ١٠٣٧م) (١) ، وكان
لهذا المقرئ مكانة بارزة بين قراء عصره ، نظراً لما تمتع به من معرفة واسعة
بعلوم القرآن ، فقد كان إماماً بارعاً في علم القرآن ، قراءته ، وإعرابه ،
وأحكامه ، وناسخه ومنسوخه ، ومعانيه . وكان له فيها تصانيف تنم عن سعة
علمه وعمق فهمه في هذا الميدان (٢) .

وكانت له رحلة إلى المشرق حيث التقى بعلماء القراءات فأفاد منهم واخذ
عنهم شيئاً كثيراً ، ومن أخذ عنهم علي بن محمد الأنطاكي ، ومحمد بن علي
الأدفوي ، ثم عاد إلى الأندلس وهو أوفر حظاً وأكثر علماً . ونسب إليه إدخال
بعض القراءات إلى الأندلس (٣) .

(١) الطلمنكي : نسبة إلى طلمنكه ، وهي مدينة بثغر الأندلس بينها وبين وادي الحجارة
عشرون ميلاً .

(الحميرى : المصدر السابق ، ص ١٢٨) .

(٢) ابن بشكوال : الصلة ، ج ١ ، ص ٤٥ - ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٣٩ - الصفدي :
الوافي ، ج ٨ ، ص ٣٢ - ٣٣ .

(٣) ابن الجزدي : غاية النهاية ، ج ١ ، ص ١٢٠ - ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٣ ، ص ٢٤٤ .

كان الطلمنكي ذا همة عالية في تعليم وتدريس طلبة العلم ، وكان لا يأخذ على ذلك أجراً بل كان يحتسب علمه لوجه الله ، واخذ ينتقل من بلد إلى بلد ينشر علمه في كل منها ، وكان الناس يسارعون إلى حلقات درسه ، لما اتصف به من علم ومعرفة ، وقد روى أنه خرج على تلاميذه وهم يتدارسون القرآن ويتلقون القراءات عليه فقال : اقرأوا واكثروا فاني لا اتجاوز هذا العام ، فظهر تلاميذه دهشتهم وقالوا لم يرحمك الله ؟ فقال رأيت البارحة من ينشدني في النوم :

اغتنموا البربشيخ ثوى يرحمه السوقة والصيد
قد ختم العمر بعيد مضى ليس له من بعده عيد
وقد توفي في ذى الحجة من ذلك العام (٤٢٩هـ / ١٠٣٧م) (١) .

وعاصر الطلمنكي من القراء المشهورين العلامة المقرئ أبو عمرو عثمان بن سعيد بن عثمان القرطبي الداني (٢) الذي يعتبر بحق أحد مفاخر الاندلس في هذا الميدان فكان ذا قدم راسخه في القراءات ، عارفا بمعانيها عالماً بما يتصل بها ، كما صنف فيها الكثير من الكتب الدالة على علمه وفهمه ، وقد حرص على أن يكون علم القراءات وقواعده ميسور المأخذ . سهل المنال ليكون أدعى إلى فهمه وتعلمه ، فنظم علوم القراءات في أرجوزه ليحفظها طلبة العلم (٣) .

(١) الذهبي : تذكرة الحفاظ ، ج ٢ ، ص ١٠٩٩ .

(٢) الداني : نسبة إلى دانيه ، مدينة بشرقي الاندلس . (الحميري : الروض المعطار ، ص ٧٦) .

(٣) الحميدي : الجنوة ، ص ٣٠٥ - الضبي : البغية ، ص ٤١١ - ٤١٢ - الحميري : المصدر السابق ، ص ٦٧ - السيد عبد العزيز : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٩٨ - لطفي عبد البديع : المرجع السابق ، ص ٤٠ .

وقد أطنب المؤرخون في الثناء على الداني وأنه لم يكن له نظير في عصره ولا بعد ذلك أيضاً ، وأنه لم يكن أحد يضاهيه في حفظه وتحقيقه وعلمه الواسع بالقراءات ورواياتها ومعانيها وطرفها ، وكيف أنه تمكن بجهوده العلمية البارعة من جعل القراء عالة عليه في كتبه وآرائه^(١) .

وقد انصرف الداني إلى ميدان البحث والتأليف فأخرج تصانيف علمية قيمة تشهد له بعلو كعبه في علوم القرآن حتى قال فيه أحد العلماء (ومن ينظر في كتبه علم مقدار الرجل وما وهبه الله تعالى فيه فسبحان الفتاح العليم)^(٢) ومن تصانيف الداني في القراءات كتاب « جامع البيان في القراءات السبع وهو من أعظم كتبه ، ويشتمل على نيف وخمسمائة رواية وطريق حتى قيل انه جمع فيه كل ما يعلمه في هذا العلم^(٣) .

كما ألف الداني من التصانيف كتابه « التيسير في القراءات » . ونظم منظومه اسمها « الاقتصاد » في علم القراءات وتقع في مجلد . كما ألف كتابا في طبقات القراء في أربعة أسفار ، ضم فيه المقرئين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الخالفين إلى عصر مؤلفه على حروف المعجم^(٤) .

ولم تكن شهرة الداني مقتصره على بلده الأندلس بل كان ذائع الصيت مشهور الاسم في العالم الإسلامي لما كان له من جهد عظيم رائع في الدراسات العلمية المتصلة بعلوم القرآن الكريم^(٥) .

(١) الذهبي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١١٢٠ - ١١٢١ - المقرئ : النفح ، ج ٢ ، ص ١٣٥ -

١٣٦ - شكيب ارسلان : الحلل السندسية ، ج ٣ ، ص ٣٣٢ - ٣٣٣ - احمد عطية الله :

القاموس الإسلامي ، ج ٢ ، ص ٣٣٢ - لطفى عبد البديع : الإسلام في اسبانيا ، ص ٤٥ .

(٢) ابن الجزري : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٠٤ - ٥٠٥ .

(٣) حاجي خليفة : كشف الظنون ، ج ١ ، ص ٥٢٨ .

(٤) ابن خير : المصدر السابق ، ص ٧٢ .

(٥) للوقوف على اسماء مصنفاته الأخرى انظر : ابن الجزري : غاية النهاية ، ج ١ ، ص ٥٠٤ .

وايضا ابن خير : فهرست ما رواه عن شيوخه ، ص ٢٩ .

وكانت الأندلس تستقبل الكثير من العلماء في مختلف وجوه المعرفة حيث كانوا يلقون كل تأييد وتشجيع من الخلفاء ففيما يتصل بعلم القراءات فقد وفد على الأندلس العلامة المقرئ مكّي بن أبي طالب حموش بن حمد بن مختار القيسي (٣٥٥ - ٤٣٧ هـ / ٩٦٥ م - ١٠٤٥ م) وذلك سنة (٣٩٣ هـ / ١٠٠٢ م) حيث استقبله الحاجب عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر بكل ترحيب وتكريم ، وعينه للتدريس بجامعة الزهراء ، ولما زال نفوذ العامريين نقله الخليفة محمد بن هشام المهدي إلى قرطبة ، ونظرا لما تمتع به مكّي من علم واسع ومعرفة عميقة بعلوم القرآن فقد كان لذلك أكبر الأثر في ازدياد حركة الاقبال على مجالسه العلمية ، فتهاافت عليه طلبة العلم وعلموا مقداره العلمى فأخذوا عنه وسمعوا منه الكثير ، ولذلك ذاع صيته في الأندلس في علم القراءات (٢) .

ومما يدل على منزلته العلمية ما وصفه به أحد أصحابه وهو أحمد بن محمد المقرئ حيث قال (كان نفعه الله من أهل التبصر في علوم القرآن والعربية ، حسن الفهم والخلق ، جيد الدين والعقل ، كثير التأليف في علوم القرآن ، محسنا لذلك ، مجودا للقراءات السبع ، عالما بمعانيها) (٢) .

وقد صنف مكّي كتباً كثيرة ، منها « كتاب الهداية إلى بلوغ النهاية » ، وكتاب « تفسير إعراب القرآن » ، وكتاب « التبصره في القراءات السبع » ، وكتاب « البيان عن وجوه القراءات في كتاب التبصره » وقد وصف بغزارة الفائدة (٣) .

(١) ابن بشكوال : الصلة ج ٢ ، ص ٦٣٢ - ٦٣٣ - ابن الجزرى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٠٩ - ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٤١ - الانبارى : نزعة الالباب ، ص ٢٥٤ - ٢٥٥ - ابن قنفذ : المصدر السابق ، ص ٢٤٢ - ٢٤٣ .

(٢) ابن بشكوال : الصلة ، ج ٢ ، ص ٦٣١ .

(٣) الانبارى : نزعة الالباب ، ص ٢٥٤ - ٢٥٥ - المقرئ : النفع ، ج ٢ ، ص ١٧٩ .

وكان مكى يدرك ما هو عليه من علم ومعرفة ادراك ثقة وليس غرورا بنفسه ، فهو قد قدم من تصانيف العلم والتأليف ما يجعله يحتل مكانه رفيعة بين علماء عصر فقد قال في مقدمة احد كتبه (هذا كتاب أبين فيه إن شاء الله تعالى معاني القراءات وكيفيةها وما يجب أن يعتقد فيها ، مع ما يتصل بذلك من فوائدها وغرائب معانيها ، وما علمت أحداً تقدمنى إلى مثل كتابي هذا اى بما جمعت وبيئت فيه اعظم الله عليه الأجر واكمل به الذكر ، وجعله لوجهه خالصاً) (١) .

وظهر غير هؤلاء قراء آخرون ، ولكنهم لم يصلوا في علمهم وشهرتهم إلى ما وصل إليه من ذكرناه ، فمنهم علي بن محمد بن أسماعيل الانطاكي (٢٩٩هـ - ٣٧٧هـ / ٩١١م - ٩٨٧م) الذى دخل الأندلس سنة (٣٥٢هـ / ٩٦٣م) فتلقاه الخليفة الحكم المستنصر بكل اجلال وترحيب ، وقد وصف الانطاكي بالبراعة في القراءات ، فدرس على يديه الكثير من طلبة العلم وأخذوا عنه (٢) .

ولابن عبد البر النمري تأليف في القراءات منها « البيان عن تلاوة القرآن » والتجويد والمدخل إلى العلم بالتحديد « جزآن و » الاكتفاء في قراءة نافع وأبي عمرو بن العلاء (٣) .

ومن علماء القراءات القادمين إلى الأندلس : أحمد بن علي الربعى - (ت ٤١٠هـ / ١٠١٠م) وكان قد قدم الاندلس سنة (٣٧٦هـ / ٩٨٦م) واتخذ له مجلسا في جامع قرطبة للتدريس به ونظرا لعلمه الواسع بالقراءات فقد عينه الحاجب المنصور بن أبي عامر مؤدبا لابنه عبد الرحمن ، وكان ذلك العلامة

(١) الابانه عن معاني القراءات ، ص ١٩ - ٢٠ .

(٢) ابن الفرسي : تاريخ علماء الاندلس ، ج ١ ، ص ٣١٦ - ٣١٧ .

(٣) الحميدي : الجذوة ، ص ٣٦٧ - ٣٦٨ - الضبي : البغية ص ٤٩٠ .

بارعا في القراءات عارفا بعلوم القرآن ، قراءته وإعرابه ، وأحكامه ، وناسخه ومنسوخه ، وقد ألف في أحكامه كتابا قيما (١) .

وكان لاهتمام الخليفة الحكم المستنصر بالحركة العلمية وحرصه الشديد على متابعة ما صنف في فروع العلم ما ذكر من أن العلامة المقرئ عبد الملك بن ادريس البجاني (٢) رحل إلى المشرق حيث أخذ عن علمائه ثم عاد إلى الأندلس ومعه كتاب الوقف والابتداء عن نافع برواية ورش ، وما ان علم الخليفة الحكم بذلك حتى بعث في احضاره فاطلع عليه وأفاد منه (٣) .

واتخذ العلامة المقرئ أحمد بن قاسم اللخمي (٣٦٣ - ٤١٠هـ) له مكانا في مسجد الغازي بقرطبة ، لتعليم الناس القراءات ، كما أنه ألف فيها كتابا لقي من العلماء كل قبول وثناء (٤) .

وشاركت النساء في هذا النشاط العلمي ، فقد نبغت منهن المقرئة ريحانة التي درست القراءات واخذت بعض علومها بالمريه عن أبي عمرو ثم قرأت عليه القراءات الأخرى غير السبع وأجازها (٥) .

وبهذا يتبين للباحث في هذا العلم أنه كان لأهل الأندلس مشاركة عظيمة في ازدهار الدراسات الدينية المتعلقة بالقراءات ، فظهر بين علمائهم قراء قديرون استطاعوا أن يقدموا لهذا العلم المهم من علوم القرآن الشيء الكثير بل

(١) ابن بشكوال : الصلة ، ج ١ ، ص ٨٥ - ابن فرحون : الديباج ، ج ١ ، ص ١٧٤ .

(٢) البجاني نسبة إلى بجانة - مدينة بالاندلس من اعمال كوره البيرة بينها وبين غرناطة مائة ميل (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٣٣٩) .

(٣) المراكشي : الذيل والتكملة ، السفر الخامس ، القسم الأول ، ص ١٣ .

(٤) ابن بشكوال : الصلة ، ج ١ ، ص ٣١ - ٣٢ .

(٥) الضبي : البغية ، ص ٥٤٦ .

إننا لا نبالغ إذا قلنا إن أهل الاندلس كان لهم القدح المعلى في إثراء المكتبة الإسلامية بكتب القراءات ، وأن من دلائل تقدمهم في هذا العلم واسهامهم الوافر في ازدهاره ما يتمتع به بعض علماء القراءات من الأندلسيين من مكانة عالية بين المسلمين حتى عصرنا الحاضر ، ويكفى في هذا الصدد شهادة العلماء لأبي عمرو الداني بأن القراء جميعهم عالة عليه وعلى تصانيفه وكفى بهذا فخرا للأندلسيين وبما قدموه من جهود في علم القراءات .

التفسير

أحمد بن بقي بن مخلد - عبد الرحمن بن هروان القنازعي ،
محمد بن عبد الله الهراس - منذر بن سعيد البلوطي - هكي بن أبي
طالب .

ومما يدخل في علوم القرآن الكريم علم التفسير ، الذي حظي باهتمام
كبير من علماء الاندلس ، إذ كان من الطبيعي والقرآن الكريم هو مصدر
التشريع ، ومنبع الاحكام ان ينال الكثير من عناية العلماء ، فاقبلوا على النظر
في كتاب الله ومحاولة تفسيره مع الاستفادة من جهود العلماء الذين سبقوهم
في هذا المجال .

ومن أوائل الدراسات في هذا الميدان ما ألفه العلامة بقي بن مخلد الذي
تقدم الحديث عنه في عصر الإمارة - فقد صنف في التفسير كتابا قيما وصفه
ابن حزم بقوله (انه الكتاب الذي أقطع قطعا لا استثنى فيه أنه لم يؤلف في
الإسلام تفسير مثله ولا تفسير محمد بن جرير الطبري ولا غيره) (١) .
ولا شك ان شهادة ابن حزم لها قيمتها العلمية الكبيرة لما عرف عنه من
علم واسع ومعرفة عميقة بعلوم الدين .

واذا كان كتاب بقي بن مخلد قد ألفه في عصر الاماره فما من ريب انه
كان له اعظم الاثر فيما تلاه من ألوان الانتاج العلمي في التفسير فقد أفاد منه
علماء التفسير باطلاعهم عليه ، ولعل من دلائل التأثير الذي تركه بقي بعد وفاته
ما اتصف به ابنه أحمد بن بقي (ت ٣٢٤هـ / ٩٣٥م) من صفات اكتسابها عن
والده في ميدان العلم ، فقد كان بارعا في علوم القرآن وتفسيره وأحكامه
واختلافات العلماء فيه وكان لعلمه الواسع بما تقدم يصفه ابن عبد ربه بأنه من
عجائب الدنيا وبأنه نسيج وحده (٢) .

(١) المقرئ : النفع ، ج ٣ ، ص ١٦٨ (نقلا عن رسالة ابن حزم في فضل الاندلس .

(٢) ابن فرحون : الديباج المذهب ، ج ١ ، ص ١٧٠ - ١٧١ ، (نقلا عن ابن عبد ربه وهو مما ليس
في كتابه العقد الفريد) .

وكان الكثير من علماء الأندلس يتناولون ما يفد إليهم من كتب التفسير المشرقية بالدراسة العميقة والبحث ، وتتجلى مقدراتهم العلمية وما بلغوه من معرفة واسعة بالتفسير ومناهجه بما سلكوه تجاه تلك الكتب الوافدة عليهم فلم يقتنعوا بقراءتها بل كان لهم دور كبير في تنقيح تلك الكتب بالإضافة العلمية أو بالتصريح لما يرد - فيها من بعض المعلومات ، أو بالاختصار لما فصل منها في صورة تنم عن مستواهم العلمي ونضوجهم الفكري . فيذكر أن العلامة عبد الرحمن بن مروان الانصاري - المعروف « بالقنازمي » (ت ٤١٣هـ / ١٠٢٢م) ارتحل إلى المشرق فأخذ عن العلماء وسمع عن الكثير منهم ، ثم عاد إلى الأندلس سنة (٣٧١هـ / ٩٨١م) ليبيث علمه وينشره بين الناس فرأى من الفائدة العلمية وتيسير المعرفة لدارسي تفسير القرآن أن يختصر تفسير ابن سلام فتناول ذلك بطريقة علمية ماهرة تنم عن مقدرته العلمية وسعة معارفه في التفسير (٢) .

وكان للكثير من العلماء اهتمام وعناية بعلوم الدين عامة ومن بينها التفسير . فالعلامة محمد بن عبد الله المري (٣٢٤ - ٣٩٦ هـ / ٩٣٥ - ١٠٠٧ م) كانت له جهود علمية مختلفة في الحديث والفقه والتفسير ، ومما يتعلق بالتفسير تصنيفه لكتاب في تفسير القرآن (٣) ولا ريب أن ارتباط نشاطه العلمي بعلوم الدين ومعرفته الواسعة بتلك العلوم كان له تأثيره الكبير في تعميق معرفته بتفسير القرآن ومعرفته أحكامه وما يتصل بذلك إذا أن الحديث والفقه أكثر العلوم ارتباطا بالقرآن الكريم في تفسير معانيه ومعرفته أحكامه .

(١) ابن بشكوال : الصلاة ، ج ٢ ، ص ٣٢٣ .

(٢) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ٣ ، ص ١٧٣ .

وكان للقاضي منذر بن سعيد البلوطي^(١) دراسات مهمة في ميدان التفسير وأحكام القرآن الكريم ، فقد وصف بحفظ أقوال العلماء في تفسيره وأحكامه ووجوهه وحلاله وحرامه ، وصنف في ذلك تأليف عديده منها كتاب « الأحكام » وكتاب « الناسخ والمنسوخ » وكتاب في « تفسير كتاب الله العزيز »^(٢) .

وللعلامة قاسم بن أصبغ البياني مشاركة في ميدان التفسير ، حيث صنف كتابا في احكام القرآن الكريم^(٣) .

ونسب للوزير الكاتب أحمد بن محمد بن برد (ت ٤١٨هـ / ١٠٢٧م) كتاب في تفسير القرآن الكريم واسمه « التحصيل في تفسير القرآن »^(٤) ومع أن الحميدي ذكر ذلك العلامة في كتابه جذوة المقتبس^(٥) إلا أنه لم يشر فيه إلى تصنيفه لذلك الكتاب ، وهذا مما يدعونا إلى الشك في نسبة ذلك الكتاب إليه ، إضافة إلى ما وصف به من عناية بالأدب والشعر وأنه لم تذكر له سابقة في علوم الدين ، ونحن نعلم أنه لا يفسد كتاب الله العزيز أديب أو شاعر بل عالم بالدين عارف بالقرآن الكريم وتفسيره وأحكامه .

وكان لمهارة المقرئ مكي بن أبي طالب في علوم القرآن أثر في اكتسابه معارف جمة في ميدان التفسير ووجوهه المختلفة ، فقد صنف في تفسير (١) البلوطي : نسبة إلى فحص البلوط ، وهي ناحية من نواحي قرطبه (الحميري : المصدر السابق ، ص ١٤٠) .

(٢) الزبيدي : طبقات النحويين ، ص ٢٩٥ - الحميري : المصدر السابق ، ص ١٤٠ .

(٣) حاجي خليفة : كشف الظنون ، ج ١ ، ص ٢٠ .

(٤) البغدادي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٧٢ .

(٥) ص ١١٥ وذكر الحميدي أن الأديب المذكور كان حيا سنة ٤٤٠هـ - حيث رآه زائرأ صديقه ابن حزم بضع مرات ، وفي هذا إشارة إلي مجانية البغدادي للصواب عندما ذكر وفاته سنة ٤١٨هـ .

القرآن ، وأحكامه كتاباً قيماً ، حيث ذكر ابن خير أن له كتاباً في ذلك اسمه « الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره وأنواع علومه » في سبعين جزءاً ، وله أيضاً كتاب غريب القرآن . وأن شيخه محمد بن مكّي بن أبي طالب حدثه بهما (١) .

وبهذا يتجلى لنا المشاركة الطيبة التي قام بها الأندلسيون في ميدان التفسير ويأتي في مقدمتها تفسير بقي بن مخلد الذي يعتبر وساماً وضاءاً في الدراسات القرآنية للأندلسيين والذي لم يكتف الأندلسيون بذلك فنشطوا في ميدان البحث والتأليف حول القرآن وما يتعلق به من تفسير وأحكام فأخرجوا في ذلك إنتاجاً علمياً قيماً .

(١) فهرسة ما رواه عن شيوخه ، ص ٤٣ - ٤٤ ، ص ٦٧ . كما أن الانباري ذكر هذين الكتابين في كتابه نزهة الألباء ، ص ٢٥٤ - ٢٥٥ .

جـ - علم الكلام وموقف الأندلسيين منه

تعريف علم الكلام - موقف الأندلسيين منه وأثر ذلك في ضعف الاشتغال به - من أبرز المتكلمين في عصر الخلافة - عبد الله بن مسرة وأتباعه - محمد بن وهب القبري - محمد بن أحمد الشافعي .

لكي نستكمل الحديث عن نشاط الأندلسيين في العلوم الدينية يتوجب علينا أن نتعرف على موقفهم من علم الكلام والمشتغلين به ، وقد عرّف العلماء هذا العلم بأنه (العلم الذي يتضمن الحجاج (الجدال) عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين في الإعتقادات - عن مذاهب السلف وأهل السنة وسر هذه العقائد هو التوحيد)(١) .

وكان لخروج المشتغلين بهذا العلم عن منهج أهل السنة والجماعة أثر في تألب الفقهاء ضدهم ، فالفقهاء يرون في علم الكلام أنه بدعة من البدع التي يجب محاربتها والتنكيل بأتباعها ، ولهذا وقف علماء المسلمين من أهل الكلام على أنهم أهل بدع وزيف ، فيشير الضبي إلى كلام ابن عبد البر النمرى عن هذا الموضوع فيقول (أجمع أهل الفقه والاثار في جميع الامصار ان أهل الكلام أهل بدع وزيف ولا يعدون عند الجميع في طبقات العلماء) كما ذكر ابن عبد البر في كتابه بيان العلم حال أهل الكلام فيقول (أهل الاهواء عند مالك وسائر اصحابنا هم أهل الكلام ، فكل متكلم فهو من أهل الاهواء والبدع اشعريا كان أو غير أشعري ولا تقبل له شهادة في الإسلام ويفجر ويؤدب على بدعته فإنه تمادى عليها استتيب منها)(٢) .

(١) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٤٥٨ .

(٢) بغية الملتمس : ص ١٥٧ -

وبناء على ذلك فإن أصحاب علم الكلام كانت ترى فيهم جماعة المسلمين هذا الرأي وتعاملهم على أنهم أهل ضلال^(١) . ومن ثم كانت تبادر إلى التصدي لهم ، وإحراق كتبهم ، ففي الأندلس كان لفقهاء المالكية دور بارز في القضاء على المتكلمين وعلى أية حركة تستهدف الخروج على مذهبهم الذي ساد الأندلس .

وقد أشار المقديسي إلى كراهيتهم لعلم الكلام وبغضهم لاتباعه ، وأنهم إن عثروا على معتزلي فقد يكون نصيبه القتل^(٢) .

وهذا بلا شك يعطينا دليلاً واضحاً على الموقف الصارم الذي اتخذته علماء الأندلس تجاه أهل الكلام ودراساتهم ، وكان لموقف العلماء المذكور أثر في القضاء على تعدد المذاهب ومنع تسرب التيارات الكلامية للأندلس ، الأمر الذي أدى إلى ضعف اشتغال الأندلسيين به ، وهذا ما عبر عنه ابن حزم بقوله (وأماً علم الكلام فإن بلادنا وإن كانت لم تتجاذب فيها الخصوم ، ولا اختلفت فيها النحل ، فقللاً لذلك تصرفهم في هذا الباب فهي على كل حال غير عربية عنه ...)^(٣) .

ورغم تضافر جهود فقهاء الأندلس في محاربة علم الكلام والتضييق على المتكلمين إلا أنه ظهر بعض المشتغلين به ، ومن هؤلاء يحيى بن السميني (ت ٣١٥ هـ / ٩٢٧ م) الذي ارتحل إلى المشرق ، ولقي هناك علماء الكلام وتأثر بأقوالهم وآرائهم في ذلك ، ثم نقلها إلى الأندلس ، وكانت له وآرائهم في الاعتزال^(٤) .

(١) للوقوف أكثر على حال هذا العلم عند المسلمين وما قيل فيه وسبب ظهوره في المجتمع الإسلامي انظر ابن خلدون : المقدمة ، ص ٤٥٨ ، وما بعدها وكذلك عمر فروخ : تاريخ الفكر العربي ، ص ٢٠٤ - ٢٠٥ .

(٢) احسن التقاسيم ، ص ٢٣٦ .

(٣) المقرئ : النفع ، ج ٣ ، ص ١٧٦ (نقلا عن رسالة ابن حزم في فضل علماء الأندلس) .

(٤) ابن الفرضي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٨٨ .

ونسب الاشتغال بهذا العلم إلى خليل بن عبد الملك بن كليب ، من أهل قرطبة وبسبب ما نسب إليه من اعتناق آراء أهل الكلام ، فقد اجتمع العلماء بعد موته وأخرجوا كتبه ثم أحرقوها بالنار . إلا ماله علاقة بالفقه (١) .

وظهر في عصر الخلافة محمد بن عبد الله بن مسرة (٢٦٩ - ٣١٩هـ/٨٨٢م - ٨٣١م) واشتهر باعتناقه آراء في علم الكلام تنافي تعاليم الشريعة الإسلامية ووصفه الحميدى بقوله (كان على طريقة من الزهد والعباد بسق فيها ، وافتن جماعة من أجلها وله طريقة في البلاغة وتدقيق في غوامض إشارات الصوفية وتوالييف في المعاني نسبت إليه بذلك مقالات نعوذ بالله منها والله أعلم به) (٢) .

ويعتبر ابن مسرة هذا من أبرز المشتغلين بعلم الكلام إلى جانب اشتغاله بالفلسفة مما استوجب تدخل الدولة في القضاء على آرائه وعلى ما ابتدعه أصحابه من بدع خارجه على الدين (٣) ، ففي التاسع من ذى الحجة (٢٤٠هـ/٩٥١م) - قرىء على الناس بجامعي قرطبة والزهاء كتاب الخليفة عبد الرحمن الناصر إلى الوزير صاحب المدينة عبد الله بن بدر بانكاره لما ابتدعه أصحاب ابن مسرة من أفكار خارجه على الدين واستمالتهم الناس إلى مذهبهم وتسترهم بالزهد ، وأن الخليفة أخذته الحمية للدين فأوعز إلى المذكور بتتبع هذه الطائفة والتحقيق معهم ورفع أمرهم إليه لينظر في شأنهم فسعى الوزير إلى تحقيق ذلك (٤) .

(١) ابن الفرضي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٢٩ .

(٢) جنوة المقتبس : ص ٦٣ .

(٣) لمعرفة المزيد عن مذهب ابن مسرة انظر ابن حزم : الفصل في الملل والنحل ، ج ٤ ، ص ١٩٩ . وانظر أيضا احسان عباس : تاريخ الأدب الاندلسي ، ص ٣١ - ٣٨ .

(٤) ابن حيان : المقتبس ، ج ٥ ، ص ٢٤ - ٢٥ .

وفي سنة ٣٥٠هـ جيء بجماعة من أتباع ابن مسرة إلى القاضي محمد بن يبيقي فأمر بما لديهم من كتب فأحرقت وأصحابها ينظرون إليها بين الحاضرين وقد ألف القاضي المذكور كتاباً في الرد على ابن مسره وتفنيده كلامه حول العقيدة (٢) .

وكان لاحتكاك الأندلسيين بعلماء المشرق وتأثرهم بالمجالس العلمية هناك وما يدور في بعضها من مناضرات وجدل بين المتكلمين أثر في اعتقادهم للكثير من الأفكار الكلامية ، وتأثرهم بعقائد المتكلمين فأحدهم وهو محمد بن وهب القبري ، ارتحل إلى المشرق فأطلع على علوم في المعاني والآراء الكلامية ثم عاد إلى الأندلس لبث أفكاره وما اعتنقه من تعاليم فأظهر شيئاً من ذلك فشنع الناس عليه في ذلك ووضع نفسه موضع السخط والكراهية (٣) .

ومن المتكلمين الذين وفدوا إلى الأندلس محمد بن أحمد الشافعي (ت ٣٨٠هـ / ٩٩٠م) حيث أنزله الخليفة الحكم منزلاً كريماً ، ولكن مالبث أن سخط عليه فأخرجه من البلد لما عرف عنه من اعتناق لآراء المعتزلة ونشره لها بين الناس (٤) .

وعليه فإن علم الكلام كان بدعة من البدع ، ولا شك أن أتباعه بخروجهم على ما رسمته الشريعة الإسلامية – من وجوب التسليم بما أنزله الله عز وجل من تعاليم عن توحيده وإيمانه به مطلقاً – لا شك أنهم بخروجهم على ذلك قد استوجبوا سخط الأمة الإسلامية وكراهية جماعة المسلمين لهم فلم تستقم لهم

(١) النباهي : تاريخ قضاة الاندلس ، ص ٧٨ .

(٢) الحميدي : الجذوة ، ص ٩٢ – الضبي : البغية ، ص ١٣٠ – ابن بشكوال : الصلة ، ج ٢ ، ص ٤٩٧ – ٤٩٨ .

(٣) الصفيدي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٧ .

قناة ولم يعمر مذهبهم طويلا ، وقد وضع لنا من خلال هذا البحث صرامة موقف الفقهاء المالكية في الأندلس في محاربة المتكلمين وارئهم باعتبارهم أهل بدع وزيف وضلال وبذلك تدرك حال علم الكلام في الأندلس وانكماشه بسقوط أتباعه أمام قوة أهل السنة .

وخاتمة القول في دور الأندلسيين في ميدان العلوم الدينية ، أنهم استطاعوا أن يفتحوا كل أبواب العلوم الدينية وأن يحققوا في ذلك نشاطا علميا رائعا فقد شهد عصر الخلافة نهضة علمية قوية في كل ميادين المعرفة ، ولما كانت العلوم الدينية من فقه وحديث وتفسير وقراءات هي العلوم الأكثر التصاقا بعقيدة المسلمين في الأندلس . فقد توفر على دراستها أعداد هائلة من العلماء ، وقد حظيت هذه العلوم منذ عصر الإمارة بكثير من الاهتمام والعناية حتى إذا جاء عصر الخلافة كان النشاط العلمي في أوج قوته وذروة ازدهاره ، فاقبل علماء الأندلس بهمة ونشاط على البحث والتأليف في تلك العلوم وتمكنوا من إخراج روائع من الإنتاج العلمي تشهد لهم بالنبوغ والتفوق العلمي .

ويكفي أحدا للوقوف على هذه الحقيقة أن يتصفح كتاب ابن الفريسي (تاريخ علماء الأندلس) أو غيره من كتب التراجم الأندلسية ففيها ما يثبت أن الأندلسيين كانوا في ذلك العصر قد بلغوا شوطا كبيرا في ازدهار العلمي ، وأنهم استطاعوا أن يشاركوا غيرهم من المسلمين في الأقطار الأخرى في دعم المكتبة الإسلامية بنفائس الكتب في الفقه والحديث والتفسير والقراءات .

الفصل الثاني

الأدب والنحو وعلوم اللغة

أ - الأدب :

أولا - النثر .

(النثر الفني - النثر التأليفي الأدبي)

ثانيا - الشعر .

ب - النحو وعلوم اللغة .

١- الأخطاب :

أولاً - النشر :

والنشر بدوره ينقسم إلى نوعين :

١ - النشر الفني .

ب - النشر التألفي الأدبي .

وسوف نبدأ الحديث عن النشر الفني .

النثر الفني

تعريف النثر الفني - أهمية الكتابه عند الاندلسيين - منصب الكتابه في عصر الإمارة ثم في عصر الخلافة ، وأبرز من تولاه - تأثير الأدب المشرقي في الانتاج الأدبي الأندلسي المتصل بالنثر الفني - غلبة الكتابة الديوانية على أنواع الكتابة الفنية - سمات الكتابة الفنية آنذاك - النثر الفني في فترة الحجاب وما اتسم به - بروز الشخصية العلمية الأندلسية في هذا الحقل الأدبي - من أبرز أدباء هذه الفترة - عبد الملك الجزيري - ابن دراج القسطي - أحمد بن عبد الملك بن شهيد - كُتَّاب الأندلس وبراعتهم في النثر والشعر على حد سواء .

النثر الفني يقصد به : أسلوب الرسائل الديوانية . والإخوانيات ، والوصايا وغيرها من مواضيع النثر الفني(١) .

ومن الطبيعي أن ينال ميدان النثر الفني نصيباً كبيراً من الاهتمام بعد أن اتسع نشاط الحركة العلمية . وقد برز في عصر الخلافة عدد كبير من الكتاب البالغاء الذين أغنوا هذا الميدان بإنتاجهم الأدبي الرفيع .

ونظر لأهمية الكتابه وما نالته من عناية لدى الأندلسيين فقد كان لكاتب الرسائل منزلة جليلة في قلوب الناس ، ولكن هذا لايشفع له من انتقادهم اذا جنح عن الصواب ، وكان لسمو منصب الكتابه أن كان صاحبها يشرف ويعظم بذلك في المخاطبات(٢) .

(١) مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسي ، ص ٥٧٠ .

(٢) المقرئ : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ٢١٧ - إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي ، ص ٣٢٥ - بطرس البستاني : دائرة المعارف ، ج ٤ ، ص ٤٨٠ - وبالإضافة إلى كاتب الرسائل كان هناك كاتب الزمام وهو المسئول عن شئون الخراج ويفترض فيه أن يكون مسلماً لاحتياج اعيان الناس ووجوههم إليه (المقرئ : النفح ، ج ١ ، ص ٢١٧) .

وفي عصر الإمارة كان يضم بلاط الدولة أكثر من كاتب ، وهو أمر كان يبدو أنه من مقتضيات السياسة وما يفترضه نظام الدولة (١) ، إلا أنه في عصر الأمير عبد الرحمن الأوسط نرى أنه قد استجد نظام جديد في الكتابة ، إذ اختص ذلك الأمير بكاتب خاص يدعى محمد بن سعيد الزجالي واتخذ لوزرائه كاتباً خاصاً لكتاباتهم (٢) . وقد استمر هذا النظام حتى سقوط الدولة الأموية (٣) .

وحيثما تولى الأمر عبد الرحمن الناصر وقبل أن يتلقب بالخلافة قام بالكتابة لديه الكاتب عبد الله بن محمد الزجالي الذي يعتبر من كبار الكتاب البلغاء . وهو الذي أنشأ البيان الخاص بمروق ابن مسرة (٤) .

وظل الزجالي في منصب الكتابة حتى توفي ٣٠١هـ / ٩١٣م : فتولاها بعده الأديب عبد الله بن بدر ، إلا أن عبد الرحمن الناصر عزله سنة ٣٠٢هـ / وولى الكتابة بعده عبد الملك بن جهور الذي عُزل هو الآخر سنة ٣٠٤هـ / ٩١٦م . ليتولى الكتابة عبد الحميد بن بسيل الذي لم تطل مدته في ذلك المنصب ليعود عبد الملك بن جهور إلى الكتابة مرة أخرى (٥) .

وفي عصر الخلافة اتسعت مهام صاحب الرسائل ، وتشعبت وظائفه ، نظراً لما استجد من أعباء ومسئوليات . وبذلك رأت المصلحة أن يكون هناك أكثر من كاتب لمواجهة الأعباء الملغاة على كاهل الدولة ، وهذا ما حدا

(١) للإطلاع على أسماء كتاب الأمراء انظر : البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٥٨ - ٦١ - ٦٨ - ٨٠ - ٩٣ - ١١٣ - ١٥٢ .

(٢) ابن حيان : المقتبس تحقيق محمود مكي ، ص ٣٤ - ٣٥ .

(٣) ابن حيان : المصدر السابق ، ص ٣٥ .

(٤) محمد عبد الله عنان : دولة الإسلام في الأندلس ، ج ٢ ، ص ٧٠٠ - (وانظر في ذلك البيان المغرب ، نفس المرجع والجزء ، ص ٧٠٨) .

(٥) ابن عذاري : البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ١٦٥ .

بالخليفة عبد الرحمن الناصر سنة ٣٤٤هـ إلى تعيين أربعة من الكتاب يحمل كل منهم لقب وزير ويتولى النظر في جانب من منصب الكتابة (فقلد الوزير جهور بن أبي عبدة النظر في كتب جميع أهل الخدمة ، وقلد الوزير عيسى ابن فطيس النظر في كتب أهل الثغور والسواحل والأطراف وغير ذلك ، وقلد الوزير الكاتب عبد الرحمن الزجاجي النظر في تنفيذ كل ما يخرج من العهد والتوقيعات ، وينفذ به الأمر أو الرأي وغير ذلك ، وقلد الوزير محمد بن حدير النظر في مطالب الناس وحوائجهم ، وتنجز التوقيعات لهم ، فالتزم القوم بالزمو ، فاعتدل بهم ميزان الخدمة ، وسهلت مطالب الرعية) (١) .

وهكذا نلاحظ أن منصب الكتاب كان له دور بالغ في تيسير وتسهيل أمور الدولة وما يصدر عنها من قرارات تخدم أهداف الدولة والمجتمع على حد سواء .

ويأتي في مقدمة كتاب عصر الخلافة جعفر بن عثمان المصحفي الذي استعمله الحكم المستنصر أثناء ولايته للعهد كاتبا لديه ، وعندما تولى الخلافة عينه وزيرا وإبقاه على وظيفة الكتاب ، (وكان مقدما في صناعة الكتابة ، مفضلا على طبخته بالبلاغه ، وله شعر كثير مدون يدل على تمكنه من الإجاده ، وتصرفه في أفانين البيان) (٢) . وفي هذا دليل على ما كان يحرص عليه الخلفاء من تعيين ذوي الكفاءات الأدبية الناجحة في منصب الكتابة .

ويذكر ابن عذاري أنه لثقة الخليفة الحكم المستنصر في جعفر فقد جمع له إلى جانب الكتاب الخاصة الكتاب العليا وهي خطة الكتابة (٣) .

(١) ابن عذاري : البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٢٢٠ .

(٢) ابن الأبار : الحلة السيرة ، ج ١ ، ص ٢٥٧ - ٢٥٨ .

(٣) البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٢٥٤ .

وبالإضافة إلى ما اشرنا إليه من الكتاب فقد كان لبعض النساء دور بارز في ميدان الكتابة الفنية ، فقد اختص بعض الخلفاء ببعض الكاتبات . فكان ممن اختص الخليفة عبد الرحمن الناصر الكاتبة مزنة (ت ٣٥٨هـ / ٩٦٨م) ، وقد وصفت هذه الكاتبة بالأدب الواسع ، وحسن الخط (١) .

كما اختص الخليفة الحكم المستنصر بكاتبة تدعى لبني (ت ٣٧٤هـ / ٩٨٤م) وقد عرف عنها البراعة في الكتابة وجودة الخط (٢) .

ولا ريب أن دخول الكتب الأدبية المشرقية للأندلس إلى جانب التأثيرات الأدبية للمشرق في أدباء الأندلس كان لهما من التأثير ما يكفي لطبع انتاجهم في هذا الميدان بالطابع المشرقي ، فلو عدنا قليلا إلى ما قبل عصر الخلافة لرأينا الأديب فرج بن سلام القرطبي قد رحل إلى المشرق . ودرس على أدبائه وفي مقدمتهم أديب المشرق عمرو بن بحر الجاحظ فأخذ عنه علومه وتصانيفه الأدبية مثل البيان والتبيين (وخف على قلب الجاحظ ، فاستكثر منه ، وكتب كثيرا من مصنفاته ورسائله ، فكان أول من أدخلها الأندلس) (٣) .

ومن غير شك أنه كان لتلك الكتب تأثير واضح في تلوين صور الإنتاج الأدبي الأندلسي ، ومنها بطبيعة الحال النثر الفني الذي أخذ يتجه إلى الاهتمام بالبده والموضوع والختام ، وانعكست عليه فخامة الخلافة فكثرت الألقاب ، والجمال الدعائي المفخمه والعبارات الاعتراضية المعظمه (٤) .

ويبدو من خلال الاطلاع على ما وصل إلينا من ضروب النثر الفني آنذاك أن الكتابة الديوانية كانت غالبية على أنواع الكتابة الفنية ، ولذلك لم تظهر

(١) الضبي : بغية الملتبس ، ص ٥٤٦ - ابن بشكوال : الصلة ، ج ٢ ، ص ٦٩٢ .

(٢) ابن بشكوال : الصلة ، ج ٢ ، ص ٦٩٢ .

(٣) ابن حيان : المقتبس ، تحقيق محمود مكي ، ص ١٦٤ .

(٤) أحمد هيكل : الادب الأندلسي ، ص ٢٥٢ .

الكتابة الديوانية كانت غالبية على أنواع الكتابة الفنية ، ولذلك لم تظهر الكتابه الإنشائية المستقلة إلا فى أواخر عصر الخلافة بظهور كتاب بارعين أغنوا ميدان الكتابه الفنية بأمثلة رفيعة من كتابتهم الانشائية(١) .

وتدل الكتابة الرسمية في هذه الفترة على تفضيل الإيجاز والقصد في التعبير وإيثار المعنى(٢) . ومن نماذج هذه الكتابة خطاب عبد الرحمن الناصر إلى أحد المتمردين الذى كان قد تحصن بأحد الحصون ، وقد جاء فيه (ولما رأيناك قد تذرعت باظهار اتقاء الله رأينا ان نعرض عليك أولا ما لا بد لك منه أخرا ، وليس من أطاع بالمقال كمن أطاع بعد الفعال فبادر مستسلما إلى قرطبه(٣)) ومن الأمثلة أيضا على هذه الكتابة خطاب الخليفة الحكم المستنصر إلى وزيره جعفر المصحفي ، وكان قد أصابه مرض شديد فأوصى اذا مات بتحقيق بعض المطالب لورثته فبعث إليه الحكم برسالة يعده فيها بتحقيق ما أوصى به ويسأل له الشفاء والعافية(٤) .

وكانت الخطب السياسية والدينية تمثل لونا من ألوان النثر الفنى البديع . فمن النماذج السياسية للنثر الفنى خطبة منذر بن سعيد البلوطي في الحفل الذى أقامه الخليفة عبد الرحمن الناصر (٣٣٦هـ/٩٤٨م) لاستقبال وفد امبراطور الروم قسطنطين السابع(٥) .

(١) احسان عباس : المرجع السابق ، ص ٣٢٦ .

(٢) احسان عباس : المرجع السابق ، ص ٣٢٦ .

(٣) ابن سعيد : المغرب ، ج ١ ، ص ١٨٤ .

(٤) ابن حيان : المقتبس ، تحقيق عبد الرحمن الحجي ، ص ٦٩ - ٧٠ .

(٥) انظر هذه الخطبة البليغة في النباهي : تاريخ قضاة الاندلس ، ص ٦٦ - ٦٧ - ٦٨ . والامبراطور المذكور يدعى رومانوس حكم من سنة ٩١٢م إلى ٩٥٩م ، وقد عرف عنه ميله إلى العلم والأدب .

(سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ٤٠٨ - ٤٠٩ .

ولنذر بن سعيد خطب دينية تتسم بالبلاغة وجزالة القول ، وقد وصفه الحميدي بقوله (كان عالما فقيها ، واديبا بليغا ، وخطيباً على المنابر وفي المحافل مصقعا) (١) .

وعرف عن الأديب أحمد بن محمد بن أضحى البلاغة ، والتقدم في البيان ، فمن خطبه ما قاله بين يدي الخليفة عبد الرحمن الناصر ، حيث قال : الحمد لله المحتجب بنور عظمته عن أبصار بريته ، والدال بحدوث خلقه على أوليته ، والمنفرد بما أتقن من عجائب دهره ومنن صمديته (٢) ..

وفي فترة الحجاب ازدهرت حركة النثر الفنية فلمع في ذلك الوقت كتاب بارزون يحررون الرسائل ويصدرون المنشورات ويصفون الوقائع والأحداث المهمة وصفا نثريا (٣) .

وتجلت في النثر الفني تأثيرات مشرقية مقتبسة عن طريقة ابن العميد والتي تميل إلى الإطناب ، وتعتمد على المحسنات من سجع وجناس (٤) .

ويبدو أن النثر الفني في مسيرته قد تعرض لألوان من التأثير الفني المشرقي ففي بداية الحركة النثرية كان أسلوب الجاحظ يغلب على كتابات الاندلسيين ثم مالبت الحال أن تطور لتحل تأثيرات مشرقية جديدة كطريقة ابن العميد . ولكن الحال لم يدم على هذا التقليد بل مالبت الأندلسيون أن بلغوا درجة أرقى وأسمى من ذي قبل ، فأظهر الكثير منهم نبوغا وابداعا وكان لتمرسهم بالكتابة الفنية واشتغالهم الدائب بها أثر في تولد ظاهرة النقد التي

(١) جذوة المقتبس ، ص ٣٤٨ .

(٢) ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ١ ، ص ١٥١ .

(٣) أحمد هيك : الأدب الأندلسي ، ص ٣٣٨ .

(٤) أحمد هيك : نفس المرجع والصفحة .

اسهمت في نقاء الكتابة الفنية وتخليصها من الشوائب ، فهذا الأديب أحمد بن سعيد بن حزم (تقريباً من ٤٠٠هـ/١٠٠٩م) يقول في هذا الصدد (إني لأعجب ممن يلحن في مخاطبة أو يجيء بلفظه قلقه في مكاتبه ، لأنه ينبغي له إذا شك في شيء أن يتركه ويطلب غيره فالكلام أوسع من هذا)(١) .

ويتجلى من خلال هذا النص مدى مالق الحق الكتابه الفنية في الأندلس من تطور ورقي ، وأنه أصبح هنالك الكثير من الأدباء والكتاب الذين اتصفوا بالنظرة الفاحصة والبصيرة النافذه في تقييم الإنتاج الأدبي من الكتابات الفنية ، ولا شك أنها ظاهرة صحية في ميدان المعرفة .

ويأتي في طليعة كتاب هذه الفترة أبو مروان عبد الملك بن ادريس الجزيري الذي تولى الوزارة والكتابة للمنصور بن أبي عامر ثم لابنه عبد الملك ، وما من شك في ان ما اتصف به من ادب واسع وبلاغه في القول كان له أثره الكبير في توليه تلك المناصب ، فقد كان (عالماً اديباً شاعراً غزيراً الماده ، معدوداً في أكابر البلغاء ومن ذوي البديهة في ذلك وله رسائل واشعار كثيرة مدونة)(٢) .

وقد اظهر عبد الملك براعة ومقدرة في كتاباته التي كان يكتبها في بلاط المنصور بن أبي عامر ثم لابنه عبد الملك ، وقد عرف عنه في كتاباته ميله إلى طريقة الكاتب المشرقي عبد الملك الزيات(٣) .

ومن المؤسف أن كانت نهاية عبد الملك حزينه ومؤله ولا تتناسب مع مقامه

(١) الحميدي : الجذوه ، ص ١٢٦ - الضبي : البغية ، ص ١٨٢ .

(٢) الحميدي : الجذوه ، ص ١٢٦ .

(٣) ابن سعيد : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٢١ .

الأديبي إذ قضى آخر عمره سجيناً بأمر عبد الملك المظفر^(١) ، وقد وصف ابن حيان مكانته الأدبية بقوله (ولم يخلف مثله كتابة وخطابة وبلاغة وشعراً وفهماً ومعرفة وبه ختم كتاب الاندلس رحمه الله)^(٢) .

وخلف عبد الملك في ديوان الإنشاء الأديب أبو حفص بن برد (ت ٤١٨هـ / ١٠٢٧م) وقد تولى هذا المنصب لدى الخليفة هشام المؤيد بالله ثم للمستعين وغيره ، ووصف هذا الكاتب بالبلاغة وروعة البيان ، فقد أشار ابن بسام إلى مقدرته الفائقة في الكتابه وأنه أسمع ببلاغته الصم بياناً ، وإن له رسائل تعرب عن مقامه الرفيع في هذا الميدان^(٣) .

ويحتل الشاعر المشهور ابن دراج القسطلبي مكانة سامية بين كتاب تلك الفترة ، فكان من كتاب الإنشاء في عهد المنصور ، معدوداً في جملة العلماء والأدباء ، وكانت طريقة في البلاغة والرسائل تدل على براعته ، وحسن طريقته في الكتابه^(٤) .

ويتضح لمن اطلع على رسائل ابن دراج وكتابات النثرية عنايته الشديدة بانتقاء الألفاظ المناسبة التي تؤدي المعنى في صورة بديعة وجميلة ، ويحوى ديوانه الكثير من رسائله التي تؤكد ذلك ، ومن كتاباته النثرية الرائعة وصفه

(١) لم يشير أي مؤرخ ممن ترجم لعبد الملك الجزيري أسباب سجنه ولكن ابن بشكوال في كتابه الصلة ، ج ٢ ، ص ٣٥٧ ، بقوله (وتوفي بالمطابق في سخطه المظفر عبد الملك بن أبي عامر في ذي القعدة سنة ٣٩٤هـ) .

(٢) ابن بشكوال : الصلة ، ج ٢ ، ص ٣٥٧ (نقلاً عن ابن حيان فيما لم يتوفر بين أيدينا من كتاباته التاريخية) .

(٣) الذخيرة ، القسم الأول ، ج ١ ، ص ٨٤ .

(٤) الحميدي : الجوه ، ص ١١٠ .

لفتح شنت ياقيب^(١) حيث أبدع في الوصف ، وحاز على سرور الحاجب المنصور
واعجابه^(٢) .

وفي أواخر عصر الخلافة يلمع في سماء الكتابة الفنية الأديب البارع
أحمد بن عبد الملك بن شهيد ، (المولود ٣٨٢هـ/٩٩٢م) ، وكان لابن شهيد آراء
صائبة وتعاليم موفقه في ميدان الكتابة فقد عرف عنه التمكن في ميدان الأدب
والتصرف في وجوه البلاغة . وقد تكلم عن الملكة الأدبية سماها (الطبع)
وكيف تقوى بالثقافة ومدى تأثيرها في العمل الأدبي ، كما تحدث عن أثر البيئة
والظروف السياسية والاجتماعية في الآذواق والملكات^(٣) .

ولم يلزم ابن شهيد أسلوباً معيناً في كتاباته إلا أنه كان أكثر إعجاباً
بالبديع وكأنما انشأ رسالته في البرد والنار والحطب والطواء ليحاكي المقامات
فهو مفتون بقدرة البديع في الوصف^(٤) .

ونظر لمكانته الأدبية فقد وصفه صديقه ابن حزم بقوله (ولنا من البلغاء
أحمد بن عبد الملك بن شهيد صديقنا وصاحبنا ، وهو حي لم يبلغ سن الاكتحال

(١) شنت ياقيب تقع بمنطقة جليقية بالشمال الغربي ، وسميت بهذا الاسم نسبة إلى ما يزعمه
النصارى من أن بها قبر القديس يعقوب الحواري ، وكان المنصور قد قام بحملته المذكورة
(٣٨٧هـ/٩٩٧م) يساعده في ذلك الأسطول الذي تحرك من مرساه أمام قصر أبي وانس في
مياه البرتغال الحديثة (انظر : محمد عبد الله عنان : دولة الإسلام في الاندلس ، ج ٢ ،
ص ٥٥٩) .

(٢) الحميدي : الجذرة ، ص ١١٢ .

(٣) أحمد هيكل : الأدب الاندلسي ، ٣٩٤ - ٣٩٥ .

(٤) احسان عباس : المرجع السابق ، ص ٣٣٣ .

— عن بعض رسائل ابن شهيد في الوصف انظر الثعالبي : يتيمة الدهر ج ٢ ، ص ٤٤ وما
بعدها ، والاصفهاني : خريدة القصر ، ج ٢ ، ص ٦٤١ - ٦٤٢ .

وله من التصرف في وجوه البلاغة وشعابها مقدار يكاد ينطق فيه بلسان مركب من - لساني عمرو وسهل^(١) .

ولعل من دلائل اهتمام أدباء الأندلس بهذا الجانب الفني من الأدب أن عكف البعض منهم على دراسة ميدان الكتابة الفنية والبحث في أفضل السبل الكفيلة بإخراج ألوان النثر الفني في صور جيدة وقيمة . فقد قام الأديب عبد الله بن محمد البطل يوسى (ت ٤٢١هـ / ١٠٣٠م) بدراسة كتاب أدب الكاتب لابن قتيبة الأديب المشرقي (ت ٢٧٠هـ / ٩٨٠م) ووضع له شرحا مفيدا^(٢) .

ويبدو أن الأندلس قد حفلت بأعداد كبيرة من الكتاب الأمر الذي دفع أحد العلماء وهو محمد بن موسى بن هشام (ت ٣٠٩هـ) إلى تصنيف كتاب في « طبقات الكتاب بالأندلس »^(٣) ، وكان هذا الأديب حيا في عصر الإماره وتوفي قبل عصر الخلافة . ومما سبق ذكره يتبين لنا مدى ما وصلت إليه الأندلس في هذا المضمار الأدبي المهم ، وأن عصر الخلافة بغير شك قد حظي بأعداد من الكتاب أكبر وأكثر من عصر الإماره ، وفي ذلك دلالة على النهضة الادبية الكبيرة التي عاشتها الأندلس في عصر الخلافة .

وختاما فإن ميدان النثر الفني كان في تطوره وازدهاره مماثلا لما سارت عليه بقية العلوم والآداب من اعتماد على التأثيرات العلمية للمشرق في بداية

(١) المقرئ : نفع الطيب ، ج ٣ ، ص ١٧٨ . (نقلا عن رسالة ابن حزم في فضل الأندلس) .

- عمرو : هو عمرو بن بحر بن محبوب الملقب بالجاحظ ولد بالبصرة ونشأ - ببغداد كان من نوى الأدب والبلاغة والفصاحة يميل إلى المعتزلة في مذهبهم ، ألف عدداً من الكتب القيمة في

الأدب كالبيان والتبيين والحيوان (ابن نباته سرح العيون ، ص ١٤٠ - ١٤١)

- اما سهل : فهو سهل بن هارون الكاتب من نيسابور . تفرد في زمانه بالبلاغة وله كتب في الأدب ، وقد حظي بمنصب الكتابة لدى الخليفة المأمون (ابن نباته : المصدر السابق ، ص ١٣٦ -

١٣٧) .

(٢) حاجي خليفة : كشف الظنون ، ج ١ ، ص ٤٧ - ٤٨ .

(٣) الحميدي : الجذوه ، ص ٨٨ .

الأمر ، ثم ما لبث الحال أن تغير ليبدأ الأندلسيون في محاولة التخلص من قيود التقليد والمحاكاة لغيرهم ، لينتهي الامر بوضوح الشخصية الأندلسية وبروزها . وهو ما نلاحظه في الإنتاج الأدبي لعدد من كتاب الأندلس ، كابن دراج وابن برد وأخيراً ابن شهيد الذي ذاع وعلا ذكره في المشرق والأندلس على حد سواء برسائله الرائعة « التوابع والزوابع » . وقد أشار مصطفى الشكعة إلى براعة كتاب الأندلس وجمعهم بين المهارة في النثر واجادة الشعر وأنهم (حينما يكتبون يحوزون اعجابنا ويثيرون دهشتنا بجمعهم بين جوهري النثر والشعر ، والاجادة فيهما على حد سواء . إذ أن أساتذتهم المشاركة من الكتاب كانوا على إجادتهم للكتابة تضمحل انغامهم وتقل موسيقاهم حين يكتبون الشعر)(١) .

(١) الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه ، ص ٥٦٩ .

النثر التأليفي الأدبي

المقصود بالنثر التأليفي الأدبي - عناية الأندلسيين بالأدب - ما حفل به عصر الخلافة من الأدباء . وأبرزهم في ذلك . أحمد بن محمد (ابن عبد ربّه) ونتاجه الأدبي - أبو علي القالي ودوره الكبير في إزدهار الحركة الأدبية في الأندلس - صاعد بن الحسن وكتابه الفصوص - ابن حزم وكتابه (طوق الحمامة) - حسان بن أبي عبده وتأليفه الأدبية .

نعني بالنثر التأليفي الأدبي تأليف كتب أدب بمفهوم القرن الثالث والرابع الهجريين لكلمة أدب ، فقد كان الأدب آنذاك يقصد به الثقافة العربية الخالصة التي يستهدف بها التأديب ككتاب الكامل للمبرد ، والأمالى لأبي علي القالي ، والأغاني للأصفهاني (١) .

والجدير بالذكر ان الأندلس بلغت في عصر الخلافة درجة رفيعة في النشاط الأدبي ، ولا عجب اذا قلنا ان الادب قد استحوذ على جانب واسع من اهتمام الأندلسيين فابدعوا فيه وكان لهم في ذلك إنتاج أدبي رائع .

وقد بلغ من عناية الأندلسيين بالأدب أن أصبح أنبل علم لديهم وبه يتوصل إلى صحبة الخلفاء والامراء وينال به رضاهم ، واذا لم يكن العالم أدبياً أو يتصف بشيء من الأدب فانه يكون مستثقلاً في مجالس الخلفاء (٢) .

وبناء على ما تقدم فان الكثير من العلماء الأندلسيين بمختلف تخصصاتهم العلمية كان لا يخلو أحدهم من أدب أو قرض للشعر ، وإن

(١) احمد هيكل : الأدب الأندلسي ، ص ٢٥٩ - ٢٦٠ .

(٢) المقرئ : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ٢٢٢ .

تصفحنا لكتب التراجم الأندلسية ومنها كتاب جذوة المقتبس للحميدى ليؤكد هذه الحقيقة .

ولم يكن الأمر مقتصرًا على المسلمين بل نجد أن المسيحيين من أهل البلاد كانوا يقبلون على دراسة اللغة العربية وآدابها في حين كانوا يجهلون الكثير عن لغتهم وآدابهم ، وهذا ما دفع مطران قرطبة الفارو إلى أن يقول : (إن جميع الشبان المسيحيين المميزين بالذكاء كانوا يعرفون لغة العرب وآدابهم ويقرأون ويطلعون كتب العرب بولع ويجمعون أعداداً كبيرة من تلك الكتب بنفقات باهضة ويعلنون في كل جهة على رؤوس الأشهاد اعجابهم بذلك الأدب (١) .

ويذكر أحمد أمين أن الأندلسيين أنتجوا في الأدب أكثر مما أنتجوا في العلوم الأخرى ، وأنهم أثروا من وصف الحياة الاجتماعية بما تضمنه مجالسهم بمختلف مشاربها ، ومن وصف الطبيعة والمواقع الحربية وغير ذلك (٢) .

وما أشار إليه الكاتب المذكور لا يخلو من الصواب ، إلا أن الأندلسيين لم يكونوا أكثر إنتاجاً في الأدب من بقية العلوم . حيث يبدو أنهم كانوا أكثر إنتاجاً في حقل العلوم الدينية من بقية فروع العلم ، فقد كان علماء الدين أكثر من الأدباء والشعراء يدل هذا ما حفلت به كتب التراجم الأندلسية من تراجم الفقهاء والمحدثين والمفسرين ، وبالتالي فإن نشاطهم وإنتاجهم في مجال العلوم الدينية كان أكبر وأوسع .

(١) أنخل بالنتيا : تاريخ الفكر الأندلسي ، ص ٤٨٥ - ٤٨٦ - روبرت بريفالت : المرجع السابق ، ص ١٤٥ - اغناطيوس كراتشكوفسكي الشعر العربي في الأندلس ، ترجمة وتعليق محمد منير مرسى ، ص ٢٨ - خوليان ربييرا : المكتبات في اسبانيا الإسلامية مقال منشور بمجلة معهد المخطوطات العربية ، ج ٥ ، الجزء الأول ، ص ٦٩ .

(٢) ظهر الإسلام ، ج ٣ ، ص ٣٥ .

وقد أنتج علماء الأندلس مؤلفات غزيرة وتصانيف في ميدان الأدب وبها استطاعوا أن يرسموا وجها رائعا للأندلس ، إذ احتلت بعض مؤلفاتهم الأدبية مكانة عالية ليس في الأندلس بل وفي المشرق أيضا .

ونظر للأعداد الهائلة من الأدباء التي حفل بها عصر الخلافة فسوف نكتفي بالإشارة إلى أبرزهم ، ممن كان لهم اسهام وافر في ازدهار الأدب بما قدموا من انتاج أدبي قيم .

ويأتي في مقدمة أولئك الأدباء أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه (٢٤٦هـ - ٣٢٨هـ / ٨٦٠هـ - ٩٣٩م) كان بارعا في الأدب وقول الشعر ، مما كان له أكبر الأثر في تقريب منزلته لدى الامراء في عصر الإمارة ثم لدى الخليفة عبد الرحمن الناصر . كما نال ابن عبد ربه بعلمه وادبه منزلة رفيعة وشهرة واسعة بين ادباء عصره (١) .

وقد نشأ ابن عبد ربه بقرطبة وطلب العلم بها ثم رحل إلى المشرق حيث تلقى العلم هناك ، وكان لاطلاعه علي كتب الأدب المشرقية أثر في تكوين ثقافته وبالتالي في بروز التأثير الأدبي المشرقي في مصنفاته الأدبية وأهمها كتاب (العقد (٢)) .

ولابن عبد ربه مؤلفات عديدة في الأدب واللغة ، ولكن ما يهمننا منها كتابه الأدبي « العقد » والذي عرف فيما بعد « بالعقد الفريد » حيث أن وصفه بالفريد لم يتم إلا فيما بعد وفي عصور متأخرة . فلم يذكر ابن الفرضي أو الحميدى أو الضبي ذلك بل أشاروا إليه باسم (العقد) فقط .

(١) الحميدى : الجذوه ، ص ١٠١ - الثعالبي : يتيمة الدهر ، ج ٢ ، ص ٧٥ - ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج ١ ، ص ١١٠ - ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١١ ، ص ١٩٣ - ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٢ ، ص ٣١٢ .

(٢) أحمد أمين : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٨٥ .

ويعتبر هذا الكتاب من روائع الأدب العربي وأركانه وأصوله ، كما يعتبر مرآة لثقافة الأندلسيين في الأدب (١) .

وقد اعتمد ابن عبد ربه في تأليفه لذلك الكتاب على ثقافته المشرقية مما اكتسبه في رحلاته العلمية ، فقد استند في تأليفه إلى العديد من المصادر العلمية لعلماء المشرق كالمبرد والأصمعي ، والمدائني ، وابن المقفع ، والجاحظ وابن قتيبة وغيرهم (٢) .

ونلمح مدى التأثير العلمي للمشرق على الحركة الأدبية الأندلسية من خلال قراءتنا لكتاب (العقد) ، ونظراً لما حواه من أدب وشعر لأهل المشرق فلم يحظ في بادئ الأمر بقبول واسع لديهم حتى قال الصاحب بن عباد - أبرز وزراء بني بويه في المشرق - عند مطالعته لذلك الكتاب : (هذه بضاعتنا ردت إلينا) (٣) .

وأشار ابن عبد ربه في مقدمة كتابه إلى طريقتيه في التأليف ، فقال :
(وقد ألفت هذا الكتاب وتخيرت جواهره من متخير جواهر الأدب ومحصول

(١) لطفي عبد البديع : المرجع السابق ، ص ٧٥ .

(٢) أحمد أمين : المرجع السابق ، ص ٧٥ - جبرائيل جبور : ابن عبد ربه وعقده ، ص ٤٤ .

- المبرد : محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الأزدي الثمالي (٢٠٧هـ - ٢٨٥هـ / ٨٢٢ - ٨٩٨م) من أشهر أدباء الإسلام له كتاب الكامل في اللغة (ابن النديم : الفهرست ، ص ٨٧) .

الأصمعي : عبد الملك بن قريب الباهلي من كبار أهل الأدب وكانت الراوية أغلب عليه . ولد (١٢٢هـ / ٧٤٩م) وعمر طويلاً (ابن قتيبة : المعارف ، ص ٢٣٧) .

المدائني : علي بن محمد بن عبد الله (١٣٥هـ - ٢٢٥هـ / ٧٥٢ - ٨٢٩م) له كتب في المغازي وأيام العرب وكان بصرياً وسكن المدائن فنسب إليها (ابن الأثير : الكامل ، ج ٥ ص ٢٦٢)

ابن المقفع : عبد الله بن المقفع ، من أئمة الكتاب وأول من عني في الإسلام بترجمة كتب المنطق ولي كتابة الديوان للمنصور العباسي - (الزركلي : الإعلام ، ج ٤ ، ص ١٤٠) .

وقد مرت ترجمة الجاحظ أما ابن قتيبة فقد أشرنا إليه سابقاً في المتن عند الحديث عن النثر الفني .
(٣) ياقوت : معجم الأدباء ، ج ٢ ، ص ٢١٩ - ٢٢٠ .

جوامع البيان ، فكان جواهر الجواهر ، ولباب اللباب ، وإنما لي فيه الاختيار وحسن الاختصار وفرش لدرر كل كتاب وما سواه فمأخوذ من أفواه العلماء ومأثور عن الحكماء والأدباء واختيار الكلام أصعب من تأليفه وقد قالوا : اختيار الرجل وافد عقله)

وبهذا يتضح المنهج الذى سار عليه ابن عبد ربه في تأليفه كتابه المذكور حيث كان عنصر [الاختيار] هو العامل الرئيسي في ذلك . فقد انتقى عيون الأخبار والاشعار ونقل كلام العلماء وأقوال الأدباء . وأسهم أيضا في الكلام عن مقدمة كل باب والتمهيد له بفرشة أدبية تدل على بلاغته وأدبه الواسع . وما من شك أن اختياره لما ورد في كتابه من مادة علمية لدليل على ما اتصف به من ثقافته أدبية وإحاطة بمعارف العرب وأخبارهم .

وقد أشار الحميدى إلى منهج ابن عبد ربه في تقسيم كتابه بقوله (وهو مقسم على معان وقد سمي كل قسم منها باسم من أسماء نظم العقد كالواسطه ونحوها)(١) .

ويلاحظ في هذا التقسيم جمال وابداع حيث جعل من كتابه عقداً بديعاً يحتوى على خمسة وعشرين حبه من جهة ، وخمسة وعشرين حبة من جهة أخرى ، وفي وسطها كلها واسطة العقد، وسمى كل باب من الأبواب باسم جواهره فتشكلت قلاده جميلة تنم عن ذوق فني أضفاه ابن عبد ربه على كتابه المذكور .

وقد نال هذا الكتاب مكانة رفيعة بين كتب الأدب العربية واثنى عليه أكثر من عالم وأديب ووصف بالقيمة الأدبية لما ضمه من ضروب الأدب والمعارف التي لا تتوفر في غيره من كتب الأدب الأخرى الا فيما ندر(٢) .

(١) جذوة المقتبس ، ص ١٠١ .

(٢) ابن خلكان ، وفیات الاعيان ، ح ١ ، ص ١١٠ - ابن العماد : شذرات الذهب ، ح ٢ ، ص ٣١٢ .

وقد أطنب ابن كثير في الثناء على كتاب العقد وأنه ينم عن فضائل جمه وأدب ومعارف كثيرة ، إلا أنه لم يغفر له زلاته فأشار إلى تشيعه وتحامله على بني أمية وإن هذا مخالف للمألف لانه من موالي بني أمية فكان جديرا به أن يواليهم(١) .

وعلى الرغم مما قيل عن تشجيع ابن عبد ربه إلا أن هناك ما يثير الشك في نسبة ذلك إليه . فقد ذكر ابن الأبار أن القاسم بن خلف الجبيري أشار إلى أن الفقيه منذر بن سعيد البلوطي نزل على أبيه خلف في داره بطرطوشه(٢)، واثنا مطالعته لكتبه قرأ أحدها وكان يضم أرجوزه لابن عبد ربه يذكر فيها الخلفاء ويجعل معاويه رابعهم ولم يذكر عليا فيهم ثم وصل ذلك بذكر الخلفاء من بني مروان إلى عبد الرحمن بن محمد ، فلما رأى ذلك منذر غضب وكتب في حاشية الكتاب :

أوما على لا برحت ملعنا بابن الخبيثة عندكم بامام

رب الكساء وخير آل محمد داني الولاء مقدم الإسلام(٣)

وما من شك أن في هذا الخبر ما يفرض على الباحث إعادة النظر فيما يتعلق بتشجيع ابن عبد ربه وتحامله على بني أمية .

ومن كبار ادباء ذلك العصر الأديب البارع واللغوي الكبير أبو علي اسماعيل ابن القاسم بن عيذون المعروف بـ « القالي » (٢٢٨ - ٣٥٦هـ / ٩٠٠م - ٩٦٦م) وكان متضلعا في الأدب واللغة والنحو عارفا بها ، والقالي من أهل

(١) البداية والنهاية ، ج ١١ ، ص ١٩٣ - ١٩٤ .

(٢) طرطوشة : مدينة بشرق الاندلس بالقرب من بانسيه . (القزويني : اثار البلاد ، ص ٥٤٤) .

(٣) التكملة ، ج ١ ، ص ٢٩٣ .

العراق أخذ علومه ومعارفه عن علمائه كأبي بكر بن دريد الأزدي ، وأبي بكر بن الانباري ، وابن درستويه وغيرهم .(١)

وقد توفر القالي على دراسة الأدب واللغة حتى أظهر براعة في تلك العلوم وذاع صيته بين علماء عصره . ويقال ان الأمير الحكم المستنصر كتب اليه ورغبه في القدوم إلى الأندلس ، فشدد القالي رحاله إلى الأندلس ودخلها سنة ٣٣٠هـ/٩٤١م في أيام الخليفة عبد الرحمن الناصر حيث حظي بمنزلة سامية في بلاط الخلافة كما استفاد الأندلسيون من علمه الواسع في الأدب واللغة واتخذوه حجة فيما نقله(٢) .

والجدير بالذكر أن القالي حين دخوله الأندلس جلب معه الكثير من عيون الكتب ونفائس المصنفات الأدبية واللغوية والنحوية لأهل المشرق ، وكان من بينها دواوين شعرية للجاهليين والإسلاميين كشعر ذي الرمة ، وعمرو بن قميئه والحطيئه والنابغة الجعدي ، والأخطل ، وجميل بن معمر العذري وغيرهم(٣) .
ومما لا شك فيه أنه كان لهذه الكتب اثر عظيم في دفع عجلة النشاط الادبي في الأندلس ، وانها قد دفعت الأندلسيين إلى ميدان البحث والتأليف في الأدب واللغة والنحو بعد استفادتهم من مطالعة كتب المشاركة ومصنفاتهم التي جلبها أبو علي القالي .

-
- (١) ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٢٦ - المقري : النفع ، ج ٣ ، ص ٧٢ .
(٢) الحميدى : الجذوه ، ص ١٦٥ - ١٦٦ - المراكشي : المعجب ص ٥٩ - ٦٠ - الصفدي : الوافي ، ج ٩ ، ص ١٩١ - ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٣ ، ص ١٨ - السيد عبد العزيز سالم : قرطبه حاضرة الخلافة ، ج ٢ ، ص ١٦٤ - حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام ، ج ٤ ، ص ٤٧٦ - نقولا زيادة : لمحات من تاريخ العرب ، ص ١٧٤ - كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، ج ٢ ، ص ٢٧٨ .
(٣) ابن خير : فهرست ما رواه عن شيوخه ، ص ٣٩٥ - ٩٦ - ٩٧ - ٩٨ . وهناك الكثير من المصنفات في الادب والاشعار ذكرها ابن خير في كتابه المذكور .

وكان القالي جم النشاط عظيم الاجتهاد في نشر علومه ومعارفه في الأندلس وقد سبق القول عند الحديث عن التعليم ما كان يقوم به من التدريس بجامع الزهراء - وانه كان يكتب عنه في مجلسه العلمي كل خميس أربعمائة شخص أثناء إملائه الأمالي .

وفي ميدان التأليف العلمي أسدي القالي خدمات علمية جلية بما صنفه من الوان التصانيف في الأدب واللغة والنحو .

ففي الأدب ألف كتابه « الأمالي » ويسمى بالنوانر أيضاً ، حيث صدر كتابه بمقدمة أثنى فيها على الخليفة عبد الرحمن الناصر ثم ولي عهده ابنه الحكم المستنصر وجهودهما في نشاط الحركة العلمية ، ثم أشار إلى طريقته في تدريس كتابه ، وكيف أملاه على تلاميذه ، ثم ما تضمنه من المعارف ، فيقول - (فامللت هذا الكتاب من حفظي في الأخمسة بقرطبه وفي المسجد الجامع بالزهراء المباركه وادعته فنونا من الأخبار ، وضروباً من الأشعار ، وأنواعاً من الأمثال ، وغرائب من اللغات ...)(١)

ويلاحظ من النص مدى ما كان يتمتع به القالي من علم واسع بالأدب واللغة وقوة حافظته التي أعانته على اكتساب معارفه الواسعه في تلك العلوم .

كما أن في النص إشارة إلى ماكان عليه جامع قرطبه وجامع الزهراء من مكانة رفيعة في حياة الأندلسيين العلمية ومدى اسهامهما في النشاط العلمي وازدهار العلوم والأداب .

والجدير بالذكر أن كتاب الامالي قد حظي بمنزلة طيبة بين كتب الادب واللغة ، ولقي من الأدباء كل ثناء وتقدير ، فذكره ابن خير فيما رواه عن شيوخه

(١) الامالي : ج ١ ، ص ٣ .

ووصفه بالحسن وأنه يشتمل على أنواع من العلم لا نظير له في معناه (١) . بل إن العلامة ابن حزم الأندلسي أشار إليه وعدّه من مفاخر الأندلس العلمية وقارن بينه وبين كتاب المبرد « الكامل » ، فقال (وهذا الكتاب مبار لكتاب « الكامل » الذي جمعه أبو العباس المبرد ، ولئن كان كتاب أبي العباس أكثر نحوًا وخبرًا فإن كتاب أبي علي لأكثر لغة) (٢) .

ورغم هذه المكانة العالية التي احتلها كتاب الامالي لدى الأندلسيين إلا أنه لم يسلم من نقد العلماء . فقد ألف العلامة اللغوي والجغرافي البارع أبو عبيد البكري كتابا في نقد وتصحيح بعض ما ورد في الامالي وسمى كتابه « التنبيه » وقال في مقدمته (وأبو علي - رحمه الله - من الحفظ وسعة العلم والنبيل ومن الثقة في الضبط والنقل بالمحل الذي لا يجهل وبحيث يقصر عنه الثناء الأحفل . ولكن البشر غير معصومين من الزلل مبرئين من الوهم والخطل . والعالم من عدت هفواته وأحصيت سقطاته . كفى المرء نبلا أن تعد معانيه) (٣) .

ولأبي علي القالي كتب أخرى منها « الإبل ونتاجها وجميع احوالها » في خمسة أجزاء ، وكتاب « حلي الإنسان والخيول وشياتها » وكتاب « مقاتل الفرسان » وكتاب « تفسير القصائد والمعلقات وتفسير إعرابها ومعانيها » (٤)

ويبدو أن كتبه المذكورة قد امتدت إليها يد الضياع كما امتدت إلى غيرها من الآف الكتب لعلماء المسلمين في الشرق والغرب .

(١) ص ٢٢٥ .

(٢) المقرئ : نفع الطيب ، ج ٢ ، ص ١٧٢ (نقلا عن رسالة ابن حزم في فضل الأندلس) .

(٣) ص ١٥ .

(٤) ابن خير : المصدر السابق ، ص ٣٥٥ .

وفي عهد المنصور بن ابي عامر وفد على الأندلس الاديب صاعد بن الحسن الربيعي^(١) من أدباء المشرق . وقد أمدنا صاعد بمقتطفات يسيرة عن سيرته العلمية في المشرق وكيف تلقى علومه على القاضي ابي سعيد الحسن بن عبدالله السيرافي ، والحسن بن أحمد النحوي الفارسي ، وأنه استظهر كتب اللغة المتداولة آنذاك ، وكتب الأدب ودواوين شعر الجاهلية مما قر به إلى السلطان^(٢) حتى عينه الوزير أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف^(٣) النظر في خزانة كتبه فأفاده ذلك باطلاعه على عيون التأليف واتيح له نسخ الكثير من الكتب التي خرجت في نهب دار المقتدر^(٤) والتي كانت بخط الأصمعي والفراء وأبي زيد وابن السكيت ما يزيد على ثلاثة آلاف ورقة . إلا أنه فقدتها في الحادثة التي وقعت بين الوزير وصاحب بغداد مما حملته على الرحيل عن بغداد والبحث عن وطن آخر يجد فيه ما يناسب مكانته العلمية فكانت الاندلس مقصده^(٥) . وعندما دخل صاعد الاندلس استقبله المنصور بن أبي عامر بحفاوة

(١) جانب الأديب أبو عبد الله محمد الاشبيلي الصواب في كتابه المخطوط (ريحان الالباب) ورقة ١٣٩ أ « عندما أشار إلى قدوم صاعد بن الحسن في عهد الخليفة الحكم المستنصر وأنه نال رتبة المناذمة في بلاطه . ولكن الحقيقة ما أشرنا إليه في المتن .

(٢) هو السلطان عضد الدولة بن الحسن بن بويه خلف والده الحسن على ممالكه بعد وفاته ودخل العراق سنة ٣٦٦هـ (ابن الاثير : الكامل ، ج ٧ ، ص ٣٦٧) .

(٣) احد وزراء الدولة البويهية قال عنه ابن خلكان (كان احد البلغاء ، وممن يجرى عند عضد الدولة مجرى الوزراء) (وفيات الاعيان ، ج ٤ ، ص ٤٠٦) .

(٤) المقتدر : هو الخليفة جعفر بن احمد بويج بالخلافة سنة ٢٩٥هـ وكانت مدة خلافته اربعاً وعشرون سنة واحد عشر شهراً . (المسعودي : مروج الذهب ، ج ٤ ، ص ٢٩٢) اما عن نهب داره فقد تم ذلك سنة ٣١٧هـ حينما اقدم مؤنس الخادم وغيره من رجال الدولة على خلع المقتدر وتولية اخيه القاهر بدلا منه (ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١١ ، ص ١٥٩) .

(٥) الفصوص (مخطوط) ج ١ ، ورقة أ ب .

— انظر في ترجمة الفراء وأبي زيد السكيت (ابن قتيبة : المعارف ، ص ٢٣٧) و (ابن النديم : الفهرست ، ص ١٠٨) اما الاصمعي فقد مرت ترجمته .

بالغة وتكريم عظيم ، وأراد أن يجارى به القالي الذي ذاع صيته في عهد الحكم المستنصر . ونظرا لاهتمام صاعد بما يعلي مكانته في بلاط الحاجب المنصور فقد رأى ان يتقرب إليه بعمل علمي ، وصادف أن اطلع صاعد على كتاب الأماي لأبي علي القالي فقال للحاجب المنصور (إن أراد المنصور أمليت كتاب دولته أرفع منه وأجل لا اورد فيه خبرا مما أورده ابو علي فأذن له المنصور في ذلك فجلس بجامع مدينة الزهراء^(١) من اجل ذلك واخذ يملئ كتابه المترجم ب « الفصوص » فلما اكمله تتبعه ادباء الوقت فلم تمر فيه كلمة صحيحة عندهم ولا خبر ثبت لديهم^(٢) .

وقد أشار صاعد في مقدمة كتابه المذكور إلى أمر المنصور له بتأليف ذلك الكتاب وما رغب إليه في أن يمدّه بضروب من الأدب والشعر مما لم يتضمنه كتاب الكامل وغيره من كتب النوادر من التي تساوى الناس في ذكرها وتكافؤ في علمها .

ولم يلق كتاب الفصوص ما كان يأمله صاعد من قبول واستحسان من المنصور ، فقد كان منافسوه من الادباء له بالمرصاد ، حيث اجتهدوا في كشف جوانب النقص في كتابه وتضخيم ما قد يكون فيه من أخطاء حتى أدخلوه من المحاسن وصوره للمنصور في صورة قاتمه مما دفعه إلى أن يأمر بقذفه في النهر ، واستغل ذلك احد خصومه من الادباء فقال :

(١) مدينة الزهراء . مدينة غربي قرطبة بناها الخليفة عبد الرحمن الناصر سنة ٢٢٥ هـ وذلك تحت اشراف ابنه الحكم ولكن لم يتم بناؤها الا في عهد الخليفة الحكم ، وقد انتقل اليها الخليفة عبد الرحمن سنة ٣٣٦ هـ (احمد مختار العبادي : تاريخ المغرب والاندلس ، ص ٢٢٠ - ٢٢١) .

(٢) المقرئ : مفتح الطيب ، ج ٣ ، ص ٧٨ .

(٣) الفصوص : (مخطوط) ، ج ١ ، ورقة ١١ .

قد غاص في النهر كتاب الفصوص وهكذا كل ثقل يغوص
فاجابه صاعد :

عاد إلى معدنه انما توجد في قعر البحار الفصوص
والحق أن هذا الجفاء من المنصور لكتاب صاعد لم يدم طويلا ، فقد أشار
المؤرخون إلى أن المنصور أثاب صاعداً على كتابه المذكور خمسة آلاف
دينار (١) .

وقد أدلى ابن بسام برأيه في موقف الأدباء من صاعد وتأليهم على نقده
وكيف أنه أعانهم على نفسه فيقول (وما أحسب أن أحدا يجتري على اخراج
تصنيف وابداء تأليف يضيق عنه التعديل ، ويدفع في صدره النقد والتحصيل ،
لاسيما وصاعد علم ان قرطبه ... ميدان جياذ وبلد جدال وجلاد ، ولكنه اشترط
غير المشهور فلم يظفروا منه بكبير وأعانهم هو على نفسه بما كان يتفق به من
تنحله وكذبه ولم يكن عند أبي عامر تحرير ولا بصر بالنقد مشهور والافليس
يخلو كتاب الفصوص المذكور من غريبة مسموعة ، ولا من فائدة رائعه بديعه
ولكنه خبر وجدناه فنقلناه) (٢) .

وهكذا نلمس أن هناك عاملين كان لهما أعمق الأثر في وقوف الأدباء ضد
صاعد ومحاولتهم الغض من شخصيته العلمية . فأولهما : اشتراطه الجدية في
تأليفه وبأنه سيورد ما لم تورده كتب غيره من أهل الأدب . وثانيهما : ما كان
يتصف به في بعض الأحيان من ادعاء للحقائق وتزييف للأخبار .

(١) ابن بسام : الذخيرة ، القسم الأول ، ج ١ ، ص ٨ - المراكشي : المعجب ، ص ٧٧ - ٧٨ - ابن
خلكان : وفيات الاعيان ، ج ٢ ، ص ٤٨٩ - ابن كثير : المصدر السابق ، ج ١١ ، ص ٢١ -
السيوطي : بغية الوعاء ، ج ٢ ، ص ٧ - المقري : النفع ، ج ٣ ، ص ٧٨ .
(٢) ابن بسام : الذخيرة ، القسم الرابع ، ج ١ ، ص ٨ .

ورغم ذلك وانصافا للحقيقة فقد كان صاعد (عالما باللغة والأدب والأخبار سريع الجواب ، حسن الشعر ، طيب المعاشرة) (١) .

وقد جانب كراتشكوفسكي الصواب عندما وصف أسلوب صاعد في كتاباته الأدبية بأنه أسلوب بدوي (٢) .

والحق أن ذلك مخالف للحقيقة العلمية المعروفه عن صاعد وما اتصف به من أدب واسع ودراية باللغة ، تكفلان له حسن الأسلوب ، وجودة الكتابه الأدبية في مضمار البحث والتأليف ، وإن من يطلع على كتابه الفصوص ليقف علي حقيقة الحال وصدق القول في ذلك .

وبالإضافة إلى كتاب الفصوص فإن لصاعد مؤلفات أخرى صنفها للمنصور بن أبي عامر منها كتاب « الهججف بن عدقان بن يثربي مع الحنوت بنت مخرمه بن انيف » وكتاب « الجواس ابن قعطل المذحجي مع ابنة عمه عفراء » ، وكان المنصور شديد الشغف بالا ستماع إلى هذا الكتاب الاخير فرتب له من يقرأه عليه كل ليلة (٣) .

ويبدو من خلال عنواني الكتابين أنهما من كتب الاسماء التي تصنف لامتاع – السلطان بما تضمنه من الأخبار والقصص الطريقة فيقضي ليله في الاستماع إليها والتمتع بطرافتها .

(١) الحميدى : الجذوه ، ص ٢٤٠ .

– حفظت لنا الكثير من كتب التاريخ والتراجم نصوصا ادبيه تثبت ما كان عليه صاعد من دراية بالأدب ومعرفة واسعة به . انظر الحميدى : جذوة المقتبس ، ص ٢٤٣ – ابن بسام : النخيره ، القسم الرابع ، ج ١ ، ص ٢١ – ٢٢ – الأزدي : بدائع البدائع ، ص ٢٩٩ – ٣٠٠ – ٣٠١ – المقرئ : نفع الطيب ، ج ١ ، ص ٥٨٣ – ٥٨٤ – ابن الوردي : تنمة المختصر ، ج ١ ، ص ٤٥١ – ٤٥٢ .

(٢) الشعر العربي في الاندلس ، ص ٣٦ .

(٣) الحميدى : المصدر السابق ، ص ٢٤٠ .

كما برز أدباء قديرون غيرهم في مقدمتهم الأديب أحمد بن عبد الملك بن شهيد الذى حظي بمنزلة رفيعة لدى الحاجب عبد الملك بن المنصور ، حيث استوزره ولكنه رغم تضلعه في الأدب لم يبلغ منزلة الكتابه في الديوان فلم يلقب بالوزير الكاتب كما كان يتمنى (١) .

وقد برع ابن شهيد في ميدان الادب فالف فيه كتباً منها « كشف الدك وايضاح الشك » وكذلك « حانوت عطار » وكتاب « التوابع والزوابع » (٢) .

وتعود شهرته الواسعة إلى كتابه الأخير « التوابع والزوابع » ويقصد – بالتوابع هنا الجن تصحب الإنسان ، والزوابع تعنى : العواصف ، وتعنى الزوبعة ايضاً رئيس الجن ، وقد سمي ابن شهيد كتابه المذكور بهذا الاسم نظراً لاعتماده في شرح وتوضيح آرائه في الكتاب والأدباء والشعراء وقضايا الشعر على لسان الجن ، وقد نهج هذا المنهج أبو العلاء المعري في كتابه رسالة الغفران (٣) .

وقد وجه ابن شهيد رسالته إلى شخص كناه أبا بكر واسمه يحيى بن حزم – وهو شيخ من شيوخ الأدب ومن بيت غريبيت ابن حزم الفقيه المشهور (٤) .

وقد قدم في أول رسالته بما يشبه المدخل إلى القصه ، فذكر نشأته العلمية وكيف عجب أبو بكر لذلك ، وحلف ان تابعه تنجده وزوبعة تعينه لأن ما

(١) سامي العاني : دراسات في الأدب الاندلسي ، ص ٣١٧ .

(٢) ابن خلكان : الوفيات ، ج ١ ، ص ١١٦ – ١١٧ – حنا الفاخوري : المرجع السابق ، ص ٨٣١ .

(٣) احمد امين : المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٢١٠ – احمد هيك : المرجع السابق ، ص ٣٨١ .

– اشار البعض من الكتاب إلى ان رسالة التوابع والزوابع اتت تقليدا لرسالة ابي العلاء المعري ولكن الحق ان الاخير اتت بعد الاولى بعشرين سنة ، وانظر في توضيح ذلك احمد امين :

ظهر الإسلام ، ج ٣ ، ص ٢١٠ وسامي العاني : المرجع السابق ، ص ٣٣٣ .

(٤) الحميدي : الجذوة ، ص ٣٧٤ .

يملكه من أدب لا يتأتى إلا لغير الأنس ويقر له أبو بكر بذلك فيوضح أنه كان له صديق فمات وأراد أن يقول في رثائه شيئا من الشعر ولكنه ارتج عليه ، فاذا بجني اسمه زهير بن نمير يتصور له على هيئة فارس ويقدم نفسه كصديق تابع له يعينه على الشعر متى أراد ، ثم غاب في الحائط ، وأنه كلما ارتج عليه اغاثه ذلك التابع ، ثم ينتقل إلى صلب القصة وأنه تذاكر أخبار الشعراء وأصحابهم من التوابع حتى اشتاق إلى لقاء بعضهم ، فابدى الجنى استعداداه لمساعدته بعد أن يستأذن من شيخ الجن فاستأذن منه ، ثم عاد إلى ابن شهيد حيث طاروا في الفضاء حتى أتوا الأرض الجن ، وطاف به تابعه على أصحاب الشعراء الأقدمين كأمريء القيس وطرفة من الجاهليين ، وأبي تمام والمتنبي من الاسلاميين ، وفي كل لقاء مع احدهم يصور مقابلته معه ويسم كل منهم بالملامح التي عرف بها الشاعر في حياته ويسمع من تابعه وينشده هو حتى ينال اعجابه (١) .

ويلاحظ في هذه الطريقة الخيالية التي سار عليها ابن شهيد في سبيل إبراز مواهبه الأدبية وما كان عليه من ادب وبلاغه ، مدى ما تمتع به من مهارة فائقة على التعرف بفنون الكلام ، وما يملكه من خيال واسع استغله في اخراج صورة ادبية رائعة تضمنت اراءه في النقد وصور الصراع بين الموهبه وسعة الإطلاع ، وقد شحن تلك الرسالة بروائع نظمه ونثره معارضا بها غيره ومزج ذلك بمسحة من الفكاهة مع اعجاب بالنفس (٢) .

ومن المؤسف انه لم تصلنا هذه الرسالة كاملة ، كما لم يعثر على مخطوطة لها . وانما وصلنا منها ماضمنه ابن بسام في كتابه الاخيره من

(١) احمد هيكل : المرجع السابق ، ص ٢٨٢ - ٢٨٣ .

(٢) احسان عباس : تاريخ الأدب الاندلسي ، ص ٢٤٠ .

نصوص ، وقد نقلها بطرس البستاني ونشرها فصحها وحقق ما فيها وشرحها وقدم لها دراسة تاريخية ، فقسم تلك النصوص إلى مدخل وأربعة فصول ، فالأول : توابع الشعراء ، والثاني : توابع الكتاب ، والثالث : نقاد الجن ، والرابع : حيوان الجن^(١) .

ويأتي ابن حزم صديق ابن شهيد في مقدمة ادباء تلك الفترة بما قدمه من انتاج ادبي رائع يتمثل في كتابه « طوق الحمامة » الذي يعتبر أهم ما ألفه ابن حزم في ميدان الأدب ، والكتاب عن « الألفة والآلاف » أي الحب والمحبين . والجدير بالذكر ان قيمة الكتاب ليست فيما يخص من فلسفة حول الحب بل ان قيمته تبرز فيما تحويه من القصص والحكايات التي تصور مظاهر الحياة داخل قصور الخلفاء والأمراء ، واساليب السلوك السائدة هناك . كما انه يشتمل على الكثير من الاعترافات الشخصية لابن حزم والتي تلقي ضوءا على سيرته الشخصية في شبابه^(٢) .

ومما يزيد الكتاب اهمية انه كتاب في الحب يكتبه فقيه من فقهاء الاندلس عرف بالحزم في الدفاع عن الدين ، وانه صرف حياته في الاشتغال بعلومه . فتخصيصه وقتا للكلام عن هذا الموضوع فيه ما يسترعي النظر ويثير التساؤل ، وقد كان ابن حزم يحسن وهو يكتبه ما سوف يتعرض له من بعض الاشخاص من نقد لمخالفته سيرته العلمية الدينية ، ولكنه صرح بانه لا يميل إلى المراءاة وان غايته كانت رسم صورة واقعية لحياته وحياة الناس ببلده حول موضوع واحد هو الحب^(٣) .

(١) نشر هذا الكتاب دار صادر ببيروت سنة ١٩٨٠ م .

(٢) احمد هيكل : المرجع السابق ، ص ٢٤٢ - غرسية غومس : الشعر الاندلسي ، ص ٤١ .

(٣) احسان عباس : المرجع السابق ، ص ٣٤١ .

وكان تأليف ابن حزم لهذا الكتاب لرغبة أحد أصدقائه من مدينة المرية ، حيث ارسل إلى ابن حزم في مدينة شاطبه يطلب منه تصنيف رسالة في صفة الحب ومعانيه واسبابه واعراضه . وقد اشار ابن حزم إلى ان تصنيفه للكتاب من قبيل اعطاء النفس حقها من الراحة والانشراح تبعا للاثر القائل « اريحوا النفوس فأنها تصدأ كما يصدأ الحديد » (١) .

وفي هذا إشارة إلى ما تمتع به ذلك الفقيه من مرونة وتسامح إلى جانب ما اتصف به من ثقافة واسعة وادراك عميق لمفاهيم الحياة واسرارها الاجتماعية .

ويذكر ابن حزم أنه قسم كتابه على ثلاثين بابا . منها في أصول الحب عشرة ، وفي أعراض الحب وصفاته المحموده والمذمومه اثنا عشر بابا ، ومنها في الآفات الداخلة على الحب ستة أبواب ، ومنها بابان ختم بهما الرسالة . وهما باب الكلام في قبح المعصية ، وباب في فضل التعفف (٢) .

ولا شك أن البابين الاخيرين يدلان بما يقطع الشك على ما اتصف به ذلك الاديب من نزاهة وعفه يمليانهما عليه تقوى الله ، فقد الف ذلك الكتاب في موضوع الحب وما قد يجر إليه من لهو وعزوف عن الاستقامة ، ولكنه تأكيدا لصلاحه وما اتصف به من خشية لربه فقد ختم كتابه بالبابين المذكورين ، وقد

(١) طوق الحمامه : ص ١ - ٢ .

- المرية : مدينة محدثه امر ببناؤها الخليفة عبد الرحمن الناصر سنة ٣٤٤ هـ . وهي من مراسي الاندلس وكانت تقصدها مراكب التجار من الاسكندرية والشام (الحميري : الروض المعطار ، ص ١٨٣ - ١٨٤) .

- شاطبه : مدينة في شرق الاندلس . وقد اشتهرت بصناعة البرق ، (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٣٠٩) .

(٢) نفس المصدر ، ص ٣ - ٤ .

أشار إلى ذلك بقوله : (وآخر كلامنا الحض على طاعة الله عز وجل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فذلك مفترض على كل مؤمن) (١) .

وأخيرا فإن ميدان التأليف الأدبي قد لقي من الأندلسيين نشاطا وافرا حيث أخرج الأندلسيون الكثير من روائع الأدب التي تشهد بعلو كعبهم في هذا الميدان .

ولا يفوتنا أخيرا أن ننوه بمزيد من الإعجاب ، بدور الخليفة الحكم المستنصر في ازدهار الحركة الأدبية . فالى جانب دوره في تشجيع القالي على تأليف كتابه الامالي فقد ذكرانه بعث بألف دينار ذهب إلى الاصفهاني لقاء إرساله نسخة من كتابه الأغاني ، فبعث إليه بها قبل ان يرى الناس كتابه في العراق (٢) .

وقدم الحاجب المنصور جهدا مشكورا في نهضة الأدب ، فقد صنف له الأديب حسان بن أبي عبده كتابا على شاكلة كتاب أبي السرى الذى الفه للخليفة العباسي هارون الرشيد وسماه « ربعة وعقيل » وقد أثنى ابن حزم على ذلك الكتاب ووصفه بأنه من أملح وأطرف ما صنف ، وأنه ضم مختارات بديعه من شعر حسان المذكور (٣) .

وهكذا يتضح أن الأندلسيين بلغوا شأوا رفيعا في حقل الأدب وانهم لم يكونوا فيه بأقصر باعاً عن أندادهم من أهل المشرق ، فان العديد من مصنفاتهم الادبية لا تزال حتى يومنا تحتل منزلة طيبة في قلوب أهل العلم وخاصة ذوي الأدب منهم .

(١) المصدر السابق ، ص ٣ - ٤ .

(٢) ابن الأبار : الطلة السيرة ، ج ١ ، ص ٢٠٢ - ابن خلدون : العبر ج ٤ ، ص ٣١٧ .

(٣) الحميدي : الجذوة ، ص ٩١٦ .

ثانيا : الشعر

مكانة الشعر لدى الأندلسيين - أثر الطبيعة الأندلسية في الشعر - الشعراء في بلاط الخلافة - أبوز شعراء الأندلس : أحمد بن عبد ربه - يوسف بن هارون الرمادي - ابن هانئ الأندلسي - أحمد بن دراج القسطلبي - عبادة بن ماء السماء - أحمد بن شهيد - مروان بن عبد الرحمن (الطليق) - أثر الخلفاء في ازدهار الشعر - تأليف المعاجم لأهل الشعر .

احتل الشعر لدى الأندلسيين مكانة عظيمة ، وأصبح يمثل تقريبا السمة الأدبية العامة لهم حتي روي أن مدينة شلب قل أن يرى أحد من أهلها من لا يقول شعرا ، ولا يتعانى الأدب ، ولو مر شخص بالحراث خلف فدانه وسألته الشعر لقرض في ساعته أي معنى يقترح عليه وإى معنى يطلب منه (١) .

وقد كان للطبيعة الأندلسية أثر كبير في تألق الحركة الشعرية . وبروز الكثير من الشعراء الأندلسيين ، فقد اتصفت الأندلس بالطبيعة الساحرة من مياه جارية ، وجبال خضراء ، وجنات تزدهو بخضرة أشجارها ورونق أزهارها فرققت مشاعرهم ، وأزالت جفوتهم ، وأثارت ملكاتهم الفكرية فاستغلوا أحاسيسهم العميقة وخيالاتهم الواسعة في وصف جمال الطبيعة والتغني بمفاتنها (٢) .

-
- (١) القزويني : اثار البلاد ، ص ٥٤١ - ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٣٥٧ - ٣٥٨ .
- ستانلي لين بول : العرب في اسبانيا ، ص ١٣٨ - زيفريد هونكه : شمس العرب تسطع على الغرب ، ص ٥٠٧ .
- شلب : بكسر اولها وسكون ثانيها . مدينة بغربي الأندلس وغرب قرطبه بينهما مسيرة عشرة ايام (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٣٥٧) .
- (٢) السيد عبد العزيز سالم : قرطبه حاضرة الخلافة ، ج ٢ ، ص ١٦٨ احمد هيكال : المرجع السابق ، ص ٢١٦ .

وبرع الأندلسيون في فن الوصف ، وتصوير الطبيعة وجمالها الاخاذ ، فقد قدمت إلينا كتب الأدب الأندلسي ومصادره المختلفة ضروريا من الإبداع الشعري في مجال الوصف تكاد تنطق بروعة التصوير وحلاوة الوصف ، ولعل من أعظم الكتب التي حفظت لنا نماذج رائعة من شعرهم . كتاب « التشبيهات » لابن الكتاني الأديب والطبيب الأندلسي الذي عاش في عصر الخلافة ، وقد تناول في كتابه الكثير من روائع الشعر الأندلسي في ميدان الوصف والتشبيه ، وورد في ذلك للكثير من شعراء الأندلس كابن عبد ربه (١) . ويوسف بن هارون الرمادي ، وعباده بن ماء السماء الذي يتجلى في أشعارهم عمق تأثير البيئة الأندلسية .

وعليه فإن البيئة الأندلسية كانت ذات تأثير بالغ في تشكيل اشعار الأندلسيين وتلوينها بما يناسب من ألوان الطبيعة الجميلة التي تشد أذهانهم وتثير أحاسيس الجمال عندهم .

ويلاحظ الدارس للشعر الأندلسي أن للأندلسيين من خلال أشعارهم أخيلة ذهنية ولعبا بالمعاني يكاد أن يتصفوا به وحدهم . وقد يتفوقون في ذلك على المشاركة ، اذ ولعوا بذلك ولعا شديدا ، فلم يقللوا المتنبى في قوة معانيه وروائع حكمه وقوة شاعريته بل أخذوا اسلوبه . وحاكوا فخامة تعبيراته وعمق خيالاته كما فعل شاعرهم ابن هاني (٢) .

وأبداع الأندلسيون في مجالات الشعر المختلفة وأثروا ميدان الشعر بالكثير من اشعارهم البديعة ، وقد وصفها البارون فون شاك بقوله : (إن

(١) للاستزادة عن مدى تأثير الطبيعة في الشعر الأندلسي . انظر : سعد اسماعيل شلبي : البيئة الأندلسية واثرها في الشعر عصر ملوك الطوائف ، ص ٦٧ - ٢١٨ .

(٢) أحمد أمين : ظهر الإسلام ، ج ٣ ، ص ١٠٥ - ١٠٦ - كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ، ص ٣٠٠ .

أشعار الأندلسيين تمتاز بصفة عامة - بجزالة الالفاظ ، وجمال رنينها ، وإبداع
الخيال ، وبعد مداها (١)

وكان لعصر الخلافة بما اتسمت به الأندلس من ازدهار كبير في ميادين
الحضارة ، وما نعمت به من رخاء واستقرار ، وما تميزت به الخلافة من هيبة
وسلطان أثر في انصراف الكثير من الشعراء نحو تصوير تلك المظاهر ،
وعندما وفد رسل ملك الروم إلى قرطبة سنة ٣٣٦هـ أنشد منذر بن سعيد
قصيدة طويلة ضمنها الاشادة بالخليفة عبد الرحمن الناصر وما اتسم به من
قوة ونفوذ ، ويقول فيها :

ترى الناس افواجا يؤمون بابه وكلهم ما بين راج وأمل
وفود ملوك الروم وسط فنائه مخافة بأس او رجاء لنائل (٢)

ويفيدنا ابن حيان بالكثير من المعلومات عن المواقف التي ارتبطت
بالخلافة والتي نظم الشعراء في وصفها أشعاراً بديعة ، فمن هذه المواقف
وصف الأعياد والاحتفالات ، ومما يرويه في هذا الصدد ما قيل بمناسبة عيد
الفطر (٣٦٠هـ / ٩٧٠م) ، فيقول : (وظلت الخطباء والشعراء في هذا الحفل
تناغي فيما ترتجل من خطبها وتنشد من أشعارها فتكثر وتجيد) (٣) .

وفي بداية عصر الخلافة توصل الكثير من الشعراء إلى درجات رفيعة في بلاط
الخلافة ، فكان بلاط الخليفة عبد الرحمن الناصر يضم عددا من الشعراء المبدعين ،
وكان في مقدمة هؤلاء ابن عبد ربه ، وإسماعيل بن بدر ، وعبد الملك ابن سعيد
المرادي ، والشاعر المشرقي طاهر بن محمد المهند ، ومحمد بن حسين الطنبلي (٤) .

(١) انخل بالنثيا : تاريخ الفكر الاندلسي ، ص ٤٦ .

(٢) المقرئ : النفع ، ج ١ ، ص ٣٧٣ .

(٣) المقتبس : تحقيق عبد الرحمن الحجي ، ص ٣١ .

(٤) ابن حيان : المقتبس ، ج ٥ ، ص ٤٠ .

ونظرا لكثرة الشعراء الذين حفل بهم عصر الخلافة فسوف نقتصر على أبرزهم والمبدعين منهم . وفي مقدمة هؤلاء يأتي الأديب الشاعر أحمد بن عبد ربه - (٢٤٦هـ - ٣٢٨هـ / ٨٦٠م - ٩٣٩م) والذي كان يتمتع بموهبة رفيعة في الشعر ، وقد أتاح له ذلك مكانة عالية لدى الأمراء والخلفاء ، وكان لعامل السن وما تتسم به مراحل المختلفة من انطلاق أو تنسك أثر في انقسام شعره إلى قسمين : قسم قرضه وهو في ريعان الشباب ، واتسم شعره في هذه المرحلة بالانطلاق في قول الشعر من غير التزام أو تحفظ ، وقسم قرضه في سن الشيخوخة عندما أدركه الندم وتطلع للتوبة والتكفير عن معاصيه ، فكان شعره في هذه المرحلة يتصف بالزهد والنسك وسماه المحصنات (١) .

ولابن عبد ربه شعر كثير . فمنه أرجوزة في سيرة الخليفة عبد الرحمن الناصر وحروبه وما تهىء له من النصر في المواقع الحربية مع أعدائه ، واول تلك الأرجوزة :

سبحان من لم تحوزه أقطار ولم تكن تدركه الأبصار (٢)

ولا شك أن أرجوزته تلك لها من الفائدة العلمية أكثر مما لها من الفائدة الأدبية ، فإنها تفيدنا في معرفة سيرة الخليفة السياسية والعسكرية ومواقفه مع النصارى وغيرهم ، فهي بالتالي أكثر نفعا في مضمونها في مجال التاريخ أكثر من الأدب .

ونظرا لما تمتع به ابن عبد ربه من ثقافة واسعة فقد كان أبرز ما في شعره أنه مرآة لثقافته وسعة اطلاعه على ضروب من المعرفة كالفقه وميدان الأمثال وهو ما ينم عنه شعره الذي يحفل به كتابه العقد (٣) .

(١) احسان عباس : المرجع السابق ، ص ١٩٥ .

(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ج ٢ ، ص ٣٦٣ - ٣٦٤ .

(٣) احسان عباس : المرجع السابق ، ص ١٩٩ - ٢٠٠ .

ولم تكن سمعة ابن عبد ربه في خارج وطنه بأقل شهرة منها في داخل وطنه ، فقد نال سمعة حسنة بين اهل المشرق ، فيذكر أن أحد علماء الأندلس في أثناء عودته من الحج ومروره بمصر التقى بالشاعر المشرقي المتنبّي وذلك في مسجد عمرو بن العاص فتجاذبا أطراف الحديث حتى قال المتنبّي : أنشدني للبح الأندلس - يعني ابن عبد ربه - فأنشدته أبياتا من شعره طرب لها المتنبّي وطلب إعادتها ثم صفق بيديه وقال : يا ابن عبد ربه لقد تأتيتك العراق حبوا (١) .

ونظرا لما اتسم به شعر ابن عبد ربه من جزالة وعذوبة فقد كان الحكم قبل خلافته حريصا على الاستماع إلى شعره فجمع له ابن عبد ربه قسما كبيرا من شعره . وذكر الحميدى انه رأى منه ما يربو على عشرين جزءا (٢) .

وبرز من شعراء تلك الفترة يوسف بن هارون الرمادى الكندى (ت ٤٠٣هـ / ١٠١٢م) وقد سمي بالرمادى نسبة إلى موضع بالمغرب اسمه رماده كان أحد أبائه منها ، ووصف هذا الشاعر بجودة الشعر ، وسرعة بديهته في قوله . وغزارة ماقاله منه ، لذلك كان مشهورا لدى الخاصة والعامة بالمهارة في الشعر ، ورسوخ قدمه في فنونه المختلفة حتى وصفه ادباء عصره بقولهم (فتح الشعر بكندة وختم بكنده ، يعنون امرأ القيس والمتنبّي . ويوسف بن هارون) (٣)

(١) المقرئ : النفع ، ج ٣ ، ص ٥٦٥ - ياقوت الحموى : معجم الادباء ، ج ٢ ، ص ٢٢٢ - ٢٢٣ .

(٢) جذوة المقتبس ، ص ١٠١ .

(٣) الحميدى : الجذوة ، ص ٣٦٩ - ٣٧٠ - الضبي : البغية : ص ٤٩٣ - ٤٩٤ - ابن بشكوال : الصلة ، ج ٢ ، ص ٦٧٤ - ابن سعيد : المغرب ، ج ١ ، ص ٣٩٢ - ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج ٧ ، ص ٢٢٥ - ٢٢٦ - المقرئ : النفع ، ج ٤ ، ص ٣٥ - ٣٦ - ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٣ ، ص ١٧٠ - ١٧١ - احمد هيكال : الادب الاندلسي ، ص ٢٨٧ - ٢٨٨ - السيد عبد العزيز سالم : قرطبة حاضرة الخلافة ، ج ٢ ، ص ١٧٣ - ١٧٤ .

وفي هذا النص دلالة كبيرة على منزلة يوسف الشعرية وأنه بلغ درجة رفيعة بين شعراء عصره ، فقد وصف شعره بالجوده وأنه في طبقة شعراء الأندلس المعدودين ، وفي مقدمة الحكم المستنصر (١) .

ولما قدم الأديب أبو علي القالي الأندلس كان الشاعر الرمادي في مقدمة مستقبله والمرحبين به ، ومدحه بقصيدة طويلة منها .

فالشرق خال بعده وكأنما نزل الخراب بربعه المأهول

فكانه شمس بدت في غربنا وتغيبت عن شرقهم بأقول (٢)

وقد طال عمره فبلغ نحو قرن من الزمان وكان له أثر في غزارة ما خلفه من شعره ، وتظهر براعة الرمادي في أنه طرق أغراضا جديدة من الشعر كشعره في الطيران ، ومن المؤسف أنه رغم غزارة شعره لم يصلنا ديوانه الشعري ، وما وصلنا من شعره نجده متفرقا في كتب الأدب (٣) .

وكان الرمادي يخرج في شعره بعض الأحيان عن مبدأ التحفظ والالتزام - الخلفي مما كان له اثر في تعقب الشرطه له حتى قبضت عليه وعلى أصحابه ممن كانوا يجارونه في هجاء الناس ونشر مثالبهم (٤) .

وفي السجن كان يستشفع إلى الخليفة الحكم المستنصر في اطلاقه بما كان يقرضه من قصائد المدح وطلب العفو ، ثم اتجه في عزله إلى قول الشعر في أوصاف الطيران حتى ألف في ذلك كتابا كبيرا سماه « كتاب الطير » ، وصف فيه كل طائر وما تتميز به من خواص ، وكانت كل قطعة شعرية يذيلها

(١) المراكشي : المعجب ، ص ٦٩ - ٧٠ .

(٢) المقرئ : نوح الطيب ، ج ٣ ، ص ٧٥ - ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ٢٢٦ .

(٣) أحمد هيكل : المرجع السابق ، ص ٢٩٢ - ٢٩٣ .

(٤) انظر عن هذه الحادثة في ابن حيان : المقتبس ، تحقيق عبد الرحمن الحجي ، ص ٧٤ - ٧٥ .

بمدح هشام بن الحكم ليشفع له عند أبيه في اطلاقه ، وقد وصف كتابه المذكور
بالجودة والملاحه (١) .

وفي عصر الخلافة تآلق الشاعر محمد بن هانيء الأزدي (ولد سنة
٣٢٦هـ/٩٣٧م) بمدينة أشبيلية ، وأصله من بنى المهلب الذين حكموا بعض
أجزاء بلاد المغرب ، وانتقل والده منها إلى الأندلس ، وكان منذ صباه يهوى
الشعر حتى اشتهر ذلك عنه ، وفي بداية شهرته الشعرية قصد صاحب أشبيلية
جعفر بن علي فوجد قصره حافلا بأعيان الشعراء . وهناك تمكن من إلقاء
قصيدته الرائعة التي كانت بداية انطلاقه في ميدان الشهرة ، ومطلعها :

أليتنا اذ أرسلت واردا وحفا وبتنا نرى الجوزاء في أذننا شنفا
حتى إذا بلغ قوله :

كَانَ لَوَاءَ الشَّمْسِ غُرَّةُ جَعْفَرٍ رَأَى الْقُرْنَ فَاَزْدَادَتْ طَلَاقَتُهُ ضَعْفَا
لم يتمالك جعفر نفسه فقام إليه مرحبا به ، وأوسع له في العطاء وأنزله
منزلة كريمة بين شعرائه (٢) .

ونظرا لما نسب إلى ابن هانيء من اشعار تقدر في العقيدة فقد اسخط
الناس عليه ، واستغل خصومه ومنافسوه من الشعراء ذلك فآلبوا الناس ضده
واتهموه بالإلحاد والخروج على الدين بأشعاره ، فأوعز إليه حاكم أشبيلية
بالخروج عن المدينة . فخرج منها نحو المغرب لينزل ضيفا على الفاطميين الذين

(١) الحميدى : جذوة المقتبس ، ص ٣٦٩ - ٣٧٠ - ٣٧١ .

(٢) ابن سعيد : المغرب ، ج ٢ ، ص ٩٧ - ٩٨ - ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ٢ ، ص ٢٨٩ - ٢٩٠ -
ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٤ ، ص ٦٧ - ٦٨ - الصفيى : الوافي ، ج ٤ ، ص ٤٢١ -
اغاطيوس كراتشكوفسكي : الشعر العربي في الاندلس ، ص ٣٢ - محمد كرو : ابن هانيء
الاندلسي ، ص ١٢ - ١٣ - احمد هيكل : المرجع السابق ، ص ٢٣٧ .

رأوا فيه داعية لمذهبهم . فرحب به المعز لدين الله الفاطمي وجعله شاعر بلاطه (١) .

ووصف ابن هانيء بكثرة الشعر وجودته . وأنه سار على منهج المتنبي ، فتعمد القوة في أفكاره وأوزانه وألفاظه ، وأمعن في المغالاة حتى إذا مدح شخصا جعله أفضل الناس وأكملهم ، غير أنه يلاحظ على شعره قعقة الالفاظ (٢) .

والحق أن هذا الشاعر أبدع في الشعر وبرع فيه لدرجة جعلت الكثير من الأدباء يصفونه بأنه لم ينبغ بأنه في شعراء الأندلس مثله ، وأنه كان عند أهل الأندلس في منزلة المتنبي عند أهل المشرق (٣) .

إلا أن ما يؤخذ على ابن هانيء مغالاته الشديدة التي يخرج بها عن الدين والالتزام بتعاليمه . فقد تكلم ابن كثير عن شعره ومغالات في الوصف وأنه من أكبر الكفر وخاصة قصيدته في مدح المعز الفاطمي التي أولها .

ماشئت لا ما شاعت الأقدار (٤)

وفي عهد الحاجب المنصور بن ابي عامر ظهر الشاعر أحمد بن دراج القسطلي (٣٤٧هـ - ٤٢١هـ / ٩٥٨م - ١٠٣٠م) الذي ينتسب إلى موضع في الأندلس يعرف بقسطلة دراج ، وكان من المتضلعين في الأدب ككاتب إنشاء ما ه ، وفي الشعر كشاعر بارع فهو (معدود في جملة العلماء والمقدمين من الشعراء والمذكورين من البلغاء ، وشعره مجموع يدل على علمه) (٥) .

(١) احمد الهاشمي : جواهر الأدب ، ج ٢ ، ص ١٩٧-١٩٨ - احمد امين : ظهر الإسلام ، ج ٣ ، ص ١٣٥ .

(٢) الحميدى : الجنوه ، ص ٩٦ - محمد كرو : المرجع السابق ، ١٥ - ١٦ - حنا الفاخوري : المرجع السابق ، ص ٨٣٠ .

(٣) احمد الهاشمي : جواهر الادب ، ج ٢ ، ص ١٩٨ .

(٤) البداية والنهاية ، ج ١١ ، ص ٢٧٤ .

(٥) الحميدى : جنوة المقتبس ، ص ١١٠ - ١١١ .

ويعتبر ابن دراج القسطلي من ألمع من أخرجته الأندلس من الشعراء إن لم يكن ألمعهم . ولا نعرف شيئاً كثيراً عن نشأته الأولى . إلا أنه يبدو أنه أخذ علومه على شيوخ عصره شأنه شأن غيره من أهل العلم ، وعندما شعر بقدرته على قول الشعر ومهارته في طرق فنونه المختلفة اتصل بالحاجب المنصور ووقف بين يديه لينشده قصيدته التي يمدحه فيها ومطلعها :

اضاء لها فجرالنهى فنهاها عن الدنف المضني بحرّ هواها (٢)

ولم يكن المنصور وجلساؤه يعرفون عن صاحبها أى شيء فاتهموه في نسبتها إليه ، وكان بلاط المنصور يعج بالشعراء المتنافسين على الصدارة فيه فخشوا أن يأتي من يزيحهم أو يزاحمهم الجاه والمنزلة لدى المنصور ، فسعوا به إليه ووصفوه بالانتحال والسرقة ، ولكن المنصور كان أكثر حكمة فعرض أن يختبر ابن دراج في الشعر فإن نجح قربه وأكرمه وإن كان غير ذلك اقصاه .

واستطاع ابن دراج أن يفوز في اختبار المنصور له ، وأن يتبوأ مكانة عالية بين شعراء بلاطه ، فقد أثبت في ديوان الشعراء . ولم يزل ابن دراج منذ ذلك الوقت في علو ورفعه حتى بزّ غيره من الشعراء . ووصف بانه لم يكن بالأندلس مثله في الشعر (٣) .

ولو تصفحنا ديوان ابن دراج وأمعنا النظر في قصائده للمسنا ما كان عليه من بلاغة شعرية ، بالإضافة إلى ما يلاحظ من سعة ثقافته الأدبية

(١) ابن دراج : ديوان ابن دراج ، تحقيق محمود مكي ، ص ٨ .

(٢) الحميدي : الجذوة ، ص ١١٠ - ١١١ - ١١٢ - الضبي البغية ، ص ١٥٨ - ١٥٩ - ١٦٠ - ابن بشكوال : الصلة ، ج ١ ، ص ٤٠ - الصفدي : المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٤٩ - الحميري : الروض - المعطار ، ص ١٦٠ - ابن العماد : شذرات الذهب ج ٣ ، ص ٢١٧ - احمد امين : المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ١٣٠ - ١٣١ - السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٧٢ .

والتاريخية ، فمما يلفت النظر في شعره معارفه التاريخية وعلمه بالأنساب ، فهو يمدنا في الكثير من قصائده بأسماء الملوك الماضين ، والأقوام الغابرة ، ومسميات عن أماكن تاريخية لا يعرفها إلا من درس التاريخ وعنى بدراسة شخصياته البارزة ، ومن قصائده التي تتضمن هذه الإشارات التاريخية قصيدته التي مطلعها :

منكم إليكم مساعي المجد تنصرف ونحوكم عنكم الآمال تنعطف
وكذلك قصيدته التي مطلعها :

بشراك من طول الترحل والسرى صبح بروج السفر لاح فاسفرا (١)
وظل ابن دراج في بلاط المنصور يساير ركابه في سلمه وحربه ، فأمدنا بغرر من قصائده في غزوات المنصور وغير ذلك من الاحداث ، ثم استمر في مكانته الرفيعة في عهد ابنه المظفر عبد الملك ، ولما زال نفوذ العامريين اتصل بالبقية من أمراء الدولة الأموية ، ثم رحل إلى بلنسية ، ثم إلى سرقسطه ، لينزل على يحيى بن المنذر الذي أكرمه هو وابنه المنذر من بعده ، ثم لم يلبث أن رحل إلى دانيه ليمدح أميرها مجاهد العامري وظل هناك حتى وافته المنية (٢) .

وكانت شهرته الشعرية قد بلغت أهل المشرق فاعجبوا به ووصفه احدهم وهو الاديب ابو منصور الثعالبي بأنه بصقع الأندلس كالمتنبى بصقع الشام ، وأنه أحد فحول الشعراء ، وممن أجاد في النظم وبرع فيه (٣) .

وأثنى عليه ابن بسام ووصفه وصفا ينم عن منزلته وقدره الأدبي الرفيع ، فقال فيه (أحد من تضاطلت الآفاق عن جلالة قدره . وكانت الشام والعراق ادنى خطى ذكره) (٤) .

(١) انظر ديوان ابن دراج ص ٢٠٢ و ص ١٠٢ .

(٢) ديوان ابن دراج : تحقيق محمود مكي ، ص ٥٨ - ٥٩ .

(٣) يتيمة الدهر ، ج ٢ ، ص ١٠٤ .

(٤) الذخيرة : القسم الأول ، ج ١ ، ص ٤٤ - ٤٥ .

وأشاد به ابن حزم في رسالته التي وضعها عن فضل علماء الأندلس ،
وأنه لو لم يكن لهم من فحول الشعراء إلا أحمد بن دراج القسطلبي لما قصر
عن شأو بشار بن برد ، وحبيب (ابو تمام) ، والمتنبي (١) .

وبناء عليه فانه يتضح لنا مدى ما كان لهذا الشاعر من مكانة عظيمة بين
شعراء الأندلس . وقد خلف ديوانا ضخما من القصائد الطوال ، والحق أن
المدح غلب على ديوانه ، ويعتبر الموضوع الرئيسي الغالب على قصائده . ولعل
من دواعي اكثاره من المدح ارتباط حياته ببلاط المنصور ثم بابنه عبد الملك
وغيرهم من الحكام (٢) .

والجدير بالذكر أن ديوان شعره لم تصبه يد الضياع كما ضاعت من قبل
دواوين غيره من الشعراء فقد كان لجهود الباحثين أثر في التوصل إلى كشفه .
فقد اطلع عليه حسين مؤنس عند محمد التطواني . وحصل على نسخة منه ،
حيث اهداها إلى محمود مكي الذي تناوله بالدراسة والتحقيق فاخرجه في حلة
قشيبه أضافت إلى تراثنا الأدبي الإسلامي صفحة مضيئة تشهد بروعة الأدب
الأندلسي وبلاغة أهله .

ومن شعراء بلاط المنصور الشاعر بن عبد الله بن ماء السماء
(ت ٤١٩هـ / ١٢٨م) الذي كان من فحول الشعراء وكبارهم ، ومن المقدمين في
ديوان الشعراء . وقد وصف بالبراعة في نظم الشعر ، والتصرف في فنونه ،
ونسب إليه الارتقاء بصناعة التوشيح حتى (كانها لم تسمع بالأندلس الا منه ولا
أخذت الا عنه ، واشتهر بها اشتهارا غلب على ذاته وذهب بكثير من
حسناته) (٣) .

(١) المقرئ : نفح الطيب ، ج ٣ ، ص ١٧٨ .

(٢) أحمد هيكل : الأدب الأندلسي ، ص ٣١٢ .

(٣) ابن بسام : الذخيرة . القسم الأول ، ج ٢ ، ص ١ - ابن بشكوال : الصلة ، ج ٢ ، ص ٤٥٠ .

وعرف عن عباده براعته في الوصف ، وقد أورد له المؤرخون والأدباء الكثير من الأمثلة الدالة على تضلعه في ذلك وقدرته الكبيرة فيما يطرق من فنون الشعر (١٢) .

وفي أواخر عصر الخلافة برز بعض الشعراء . كالعلامة على بن أحمد بن حزم الذى قال فيه صديقه الحميدى (كان له في الأدب والشعر نفس واسع ، وباع طويل ، وما رأيت من يقول الشعر على البديهة أسرع منه ، وشعره كثير وقد جمعناه على حروف المعجم) (٢) .

واشعار ابن حزم متفرقة في كتب الأدب والتاريخ ، وخاصة في كتابه طرق الحمامة الذى سبق القول إليه . كما أن لابن حزم قصيدة شعرية رائعة في الرد على نقفور ملك الروم الذى أرسل قصيدة طويلة للخليفة العباسي يتهدهد ويتوعده بخراب ديار الإسلام وأنه سوف يملكها ، فتصدى له شعراء كثيرون من بينهم ابن حزم . وقد أورد هذه القصيدة السبكي في طبقات الشافعية . وابن كثير في البداية والنهاية (٣) .

كما أن أحمد بن شهيد كان له مشاركة في قول الشعر بالرغم من تفوقه في النثر الذى غلب شخصيته الأدبية . أما عن إنتاجه الشعرى فلم يجمع في حياته ولم يؤثر عنه ديوان من دواوين الشعر ، ولذلك بقيت أشعاره مبعثرة في كتب الأدب والتاريخ الأندلسية وكتب الأدب المشرقية كاليتيمة للثعالبي .

(١) انظر في هذا الصدد : الحميدى ، الجذوة ، ص ٢٩٣ - ٢٩٤ والكتاني . التشبيهات ، ج ١ ، ص ١٩ ، ج ٢ ، ص ٢٢٠ .

(٢) الجذوة ، ص ٣٠٩ .

(٣) طبقات الشافعية ، ج ٣ ، ص ٢١٤ - ٢٢٢ - البداية والنهاية ، ج ١١ ، ص ٢٤٧ - ٢٥٢ .

وقد تمكن المستشرق الفرنسي « شارل بلا » من أن يجمع قدرا لا بأس به من شعره يقع في ثمانمائة وثلاثة وأربعين بيتا ، وقدمه في ديوان وصدره بدراسة جيدة (١) .

ومهر الكثير من خلفاء وأمراء بني أمية في الشعر ، فقد تناول ابن الأبار في كتابه (الحلة السيرة) من برع في الشعر وكان لهم به عناية ، وأورد لهم الكثير مما قرضوه .

وأكثر من اشتهر بقول الشعر من الخلفاء من بني أمية في الأندلس ، الخليفة المستعين الذي وصف بالأدب ، والفصاحة في قول الشعر ، وأن له إنتاجاً بديعاً فيه (٢) .

ومن المشهورين بقول الشعر من أمراء بني أمية في الأندلس مروان بن عبد الرحمن المعروف بـ « الطليق » الذي وصف بالبراعة في الشعر ومهارته في فنونه المختلفة . وقد شبهه ابن حزم في ملاحه شعره وحسن تشبيهه بابن المعتز العباسي . وكان قد سجن لأقدامه على قتل أبيه فمكث في السجن ستة عشر عاما ثم اطلق في عهد الحاجب المنصور ، وفي سجنه هذا قال أكثر شعره (٣) .

وكان للنساء مشاركة كبيرة في ازدهار الشعر ، فقد برز منهن شاعرات مجيدات ، كالأديبة صفية بنت عبد الله الربيعي (ت ٣١٧هـ) التي وصفت بالنباهة في الأدب والبراعة في قول الشعر (٤) .

(١) سامي العاني : المرجع السابق ، ص ٢٢٤ - ٢٢٥ .

(٢) ابن الأبار : الحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ٨ - ٩ .

(٣) الحميدي : الجنوة ، ص ٣٤٢ - ٣٤٣ - ابن الأبار : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٢٠ - ٢٢١ .

(٤) الحميدي : الجنوة ، ص ٤١٣ .

كما اشتهرت من بينهن الشاعرة الغسانية التي كانت تمدح الملوك .
وكانت من بجانة كما ذكر أن لها قصيدة طويلة تمدح فيها خيران العامري ،
وتعارض بها قصيدة ابن دراج التي مدح بها الامير المذكور وأولها :
لك الخير قد أوفى بعهدك خيران وبشراك قد آواك عن وسلطان
ومطلع قصيدتها :

أتجزع أن قالوا ستظعن أظعان وكيف تطيق الصبر ويحك إن بانوا(١)
وقد أفرد مصطفى الشكعة في كتابه عن الأدب الأندلسي بابا عن
شاعرات الأندلس ، وقد يكون أشهرهن في باب الشعر ولادة بنت المستكفي
التي عاشت أكثر عمرها في عصر ملوك الطوائف .

والحق أن من عوامل ازدهار الحركة الأدبية ومنها ميدان الشعر يعود إلى
عوامل من أهمها ما بذله الخلفاء من جهود وفي مقدمتهم الخليفة الحكم
المستنصر ، وقد سبقت الإشارة إلى ما ذكره الحميدى من أنه رأى أجزاء
كثيرة من شعر ابن عبد ربه الذي جمعه للحكم المستنصر .

كما أنه بتشجيع من الخليفة الحكم المستنصر ألف الأديب أبو عمر احمد
ابن فرج الجياني كتابا في الشعر أسماه « الحقائق (عارض فيه كتاب الزهره
لأبي بكر محمد بن داود الاصبهاني ، إلا أن أبا بكر إنما ذكر مائة باب في
كل باب مائة بيت ، وأبو عمر اورد مائتي باب . في كل باب مائتي بيت ليس
فيها باب تكرر اسمه لأبي بكر ولم يورد فيه لغير أندلسي شيئا)(٢) .

ولعل في هذا المنهج الذي سار عليه ابن فرج دليل علي ماتمتع به شعراء
الأندلس وأدباؤها من علم واسع بالأدب وقدرة كبيرة على اثبات شخصيتهم
العلمية في ميدان المعرفة ، ومناهج التأليف ، ومن المؤسف أن ذلك الكتاب لم
يصلنا .

(١) ابن بشكوال : الصلة ، ج ٢ ، ص ٦٩٦ - المرقى : النفع ، ج ٤ ، ص ١٧٠ .

(٢) الحميدى : الجذرة ، ص ١٠٤ - ١٠٥ .

ومن دلائل اهتمام الحكم المستنصر بالحركة الشعرية ورغبته في ازدهارها ما ذكر أنه عزم على الغزو سنة (٣٥٢هـ/٩٦٣م) ، وكان يحرص على اصطحاب العلماء والشعراء حتى في حروبه ، ولكن حدث أن أحدهم وهو عبد الله بن مغيث اعتذر عن صحبه الخليفة في تلك الغزوة لضعف جسمه ، ولكن الحكم أراد أن يعرض تخلف الأديب عن صحبته بما يرضى شغفه العلمي فعرض عليه مقابل تخلفه أن يؤلف كتابا في أشعار خلفاء بني أمية كما ألف الصولي - الأديب المشرقي - كتابا في أشعار خلفاء بني العباس ، فابدى ذلك الأديب قبوله ، وعرض عليه الخليفة تأليف الكتاب في منزلة او بدار الملك ، فاختار دار الملك ، وفي أثناء عودة الخليفة من الغزو تلقاه أحد أتباعه بمؤلف ابن مغيث في أشعار خلفاء بني أمية ، فسربه الخليفة الحكم وزاد في إعلاء منزلته وأوسع له في العطاء (١) .

وسار الحاجب المنصور على خطى الحكم المستنصر في تشجيع الأدب ، ففي ميدان الشعر أظهر إهتماما كبيرا وادخل على الحركة الشعرية في بلاطه نظاما جديدا ، فقد وضع ديوانا يضم أسماء الشعراء ، وينزلهم فيه حسب مراتبهم في الشعر .

وكانت الصلات والأعطيات المرسومة لهم حسب مراتبهم المذكورة ، وقد أوكل أمر هذا الديوان والإشراف عليه إلى الأديب عبد الله بن محمد بن سلمه . وكان على جانب كبير من الأدب ومعرفة الشعر وفنونه ، فكانت على يديه تخرج عطايا الشعراء ، وينظره ينزلون منازلهم المختلفة (٢) .

وقد مر معنا كيف أن المنصور اختير الشاعر ابن دراج القسطلبي وعندما اثبت نجاحه ومقدرته الشعرية ضمّه إلى ديوان الشعراء .

(١) الحميدى : نفس المصدر ، ص ٣٥٢ - ٣٥٣ - احسان عباس : المرجع السابق ، ص ٦٩ .

(٢) الحميدى : الجذوة ، ص ٧٨ - المراكشي : المعجب ، ص ٦٠ - احسان عباس : المرجع السابق ،

ص ٧٥ - اغناطيوس كراتشكولسكي : المرجع السابق ، ص ٣٣ .

كما أن من دلائل اهتمام المنصور بالشعر وازدهاره ، حرصه الشديد على مصاحبة الأدباء والشعراء له في سلمه وحربه ، فكان حريصا على أن يرافقه - ويسيروا معه أينما حل وارتحل (١) .

ويشير غرسيه غومس إلى أن الأندلسيين قد نظموا الشعر في كل فن وباب من الزهديات والتاريخيات إلى النوريات التي أكثر الناس في عصر الحاجب المنصور (٢) .

وهكذا نرى أن الخليفة الحكم ومن بعده المنصور بن أبي عامر كان لهما أثر كبير في ازدهار الحركة الشعرية ، وما أدى إليه ذلك من بروز أعداد هائلة من الشعراء الذين لا يقل البعض منهم مقدرة وبراعة عن أشهر شعراء المشرق .

وبناء عليه (لم يصل الشعر الأندلسي إلى أوجه الكامل وسمته الجمالي إلا في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي الذي يقترب بقيادة الخلافة الأموية الأندلسية (٣١٧هـ/٩٢٩م) (٣) .

ونتيجة للأعداد الهائلة من الشعراء الذين ظهروا في الأندلس فقد اؤلفت معاجم كثيرة تضم تراجمهم . ومن صنف في ذلك الأديب محمد بن هشام المرواني (ت ٣٤٠هـ/٩٥١م) حيث ألف كتابا في اخبار شعراء الأندلس ، كذلك ألف اسماعيل بن محمد الاشبيلي (ت ٤٤٠هـ/١٠٤٨م) كتابا جمع فيه اشعار أهل الأندلس سماه كتاب « البديع في وصف الربيع » ، وألف علي بن عبد المحسن الفتوح (ت ٣٨٤هـ/٩٩٤م) مؤلفا في تراجم الشعراء واللغويين عنوانه « المستجاد من فعلات الاجواد (٤) .

(١) على ادهم : المنصور بن ابي عامر ، ص ١٧٨ - احمد امين : ظهر الإسلام ، ج ٣ ، ص ١٥٦ - ستانلي لين بول : قصة العرب في اسبانيا ، ص ١٥٢ .

(٢) الشعر الأندلسي ، ص ٣٨ .

(٣) غرسيه غومس : الشعر الأندلسي ، ص ٣٤ وما اشال إليه غرسيه غومس اعلاه من ان قيام الخلافة الاموية في الأندلس سنة ٣١٧هـ مخالف لما اوردته الكتب التاريخية من ان ذلك كان سنة ٣١٦هـ .

(٤) أنخل بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ، ص ٢٨٦ - ٢٨٧ .

بل إن مما يؤكد براعة الأندلسيين في الشعر ما صنفه الأديب قاسم ابن نصير (ت ٣٣٨هـ / ٩٤٩م) فقد صنف كتابا في تراجم من برع من الفقهاء في نظم الشعر (٣) .

وأخيرا فإن عصر الخلافة قد أنجب فئة من الشعراء شهد لهم الأدباء من معاصريهم ومن أتى بعدهم بالبراعة في الشعر والتصرف في فنونه ، فابن عبد ربه قد شهد له المتنبي بالمهارة في قول الشعر وجودة ما يقوله منه ، وكفى ابن عبد ربه فخرا أن يشهد له شاعر المشرق الأكبر . كما أن يوسف بن هارون وصفه الأدباء بأنه والمتنبي ختم بهما الشعر .

وأن ابن دراج كان بالاندلس كالمتنبي بالمشرق ، وهذا بلا شك دليل كبير على تفوق الأندلسيين وعلى ما بلغوه من درجة رفيعة ومكانة سامية في قرض الشعر .

(١) ابن الفرضي : تاريخ علماء الاندلس ، ج ١ ، ص ٣٦٤ .

النحو وعلوم اللغة

عناية الأندلسيين بالنحو — بداية الاشتغال به — مكانة النحاه
واللغويين في المجتمع الأندلسي — تاثر الأندلسيين بالمناهج
التعليمية المشرقية في النحو — أبرز النحاه واللغويين : أبو علي
القيالي — ابن القوطية — محمد بن الحسن الزبيدي — أحمد بن إبان —
ابن سيده الأعمى ونتاجه العلمي في اللغة .

ب - النحو وعلوم اللغة :

من الطبيعي وقد أثبت الأندلسيون قدراتهم الواسعة في ميادين المعرفة
أن يمتد نشاطهم العلمي إلى حقل الدراسات النحوية واللغوية ، فقد انصرف
الكثير من علماء الأندلس إلى البحث والنظر في هذه العلوم ، وذلك لارتباطها
الشديد بعلوم كثيرة كعلوم القرآن والدين بوجه عام .

وكان الأندلسيون يحرصون على استقامة الفاظهم ، وصحة كلامهم
وخلوه من اللحن ، ولهذا نجد أن علم النحو عندهم كان في درجة رفيعة ، ومن
العلوم القيمة لديهم ، فاهتموا به وسعوا إلى دراسته وحفظ قواعده (وكل عالم
في أي علم لا يكون متمكناً من علم النحو ، بحيث لا تخفي عليه الدقائق فليس
عندهم بمستحق للتميز ولا سالم من الازدراء) (١) .

وفي بداية اشتغال الأندلسيين بالنحو كانوا يعتمدون على قراءة كتب
الأدب والنصوص الأدبية دون استعمال كتب النحو . ثم قادهم ذلك إلى التوسع
في دراسته فتناولوا كتب النحو وعكفوا على دراستها . وأول ما ذاع بينهم
كتابي الكسائي (ت ١٨٨هـ / ٨٠٤م) وسيبويه (ت ١٧٧هـ / ٧٩٣م) ثم لم يلبث

(١) المقرئ : النفع ، ج ١ ، ص ٢٢١ .

بعضهم ان اتجه إلى تأليف كتاب في ذلك . مثل جودي بن عثمان (ت ١٩٨هـ / ٨١٣م) والذي نسب إليه انه أول من أدخل إلى الأندلس كتاب الكسائي^(١) . وكان جودي قد رحل في طلب العلم إلى المشرق ، والتقى هناك بكبار علماء النحو كالرياشي والفراء ، والكسائي^(٢) .

ويتبين لنا من أثر الرحلات العلمية في ازدهار حركة الدراسات النحوية واللغوية في الأندلس . وكيف ان ذلك دفع الأندلسيين إلى طرق ميدان الدراسات النحوية واللغوية والنظر فيما وصل إلى أيديهم من انتاج أهل المشرق ، فاستفادوا من ذلك كله . وتيسر لهم الانطلاق بعد ذلك في البحث والتأليف ، فلم تمر فترة وجيزة حتى نشطت حركة الدراسات النحوية واللغوية وأتت اكلها .

ففي القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي ، ظهر بعض علماء النحو الأندلسيين الذين كان لهم اهتمام بالغ بهذه العلوم . ومنهم العلامة مفرج بن مالك الذي عكف على دراسة كتاب الكسائي دراسة دقيقة فوضع له شرحا مفيدا في توضيح مسائل وشرح قواعده . كما أن معاصره أبا بكر بن خابط

(١) أنخل بالنثيا : المرجع السابق ، ص ١٨٥ - الكسائي : على بن حمزة بن عبد الله الكوفي أخذ عن جماعة من أهل العلم ثم قدم بغداد ، فعينه الرشيد مؤدبا لا بنيه الامين والمأمون مات بالرى وخلف كتباً في النحو والقراءات . (ابن النديم : الفهرست ، ص ٩٧ - ٩٨) .
سيبويه : عمرو بن عثمان مولى لبني الحارث أخذ النحو عن الخليل وبرع فيه فآلف فيه كتابا اشتهر عنه . (ابن النديم : الفهرست ، ص ٧٦ - ٧٧)

(٢) لطفي عبد البديع : الإسلام في اسبانيا ، ص ٧٣ .
الرياشي : محمد بن سليمان من علماء اللغة والنحو كثير الرواية عن الاصمعي ، توفي سنة ٢٥٧هـ / ٨٧٠م . (ابن النديم : الفهرست ص ٨٦) .
الفراء : يحيى بن زياد ، له كتاب معاني القرآن وكتب في النحو ، توفي (ت ٢٥٧هـ / ٨٢٢م) .
(ابن النديم : الفهرست ، ص ٩٩ - ١٠٠)

النحوى ألف كتابا في النحو قول بالكثر من الرضى والاستحسان من علماء النحو(١) .

ومما يجدر ذكره أن علماء النحو واللغة احتلوا مكانة سامية في بلاط الخلافة والمجتمع الاندلسي على السواء ، ذلك انه يعول عليهم في تأديب الناشئة ، وتعليمهم قواعد اللغة العربية والنطق بها نطقا سليما ، فقد اهتم الخلفاء والامراء بهذه الفئة من العلماء ، وحرصوا على تقريبهم ، والاعتماد عليهم في تنشئة أبنائهم نشأة علمية سليمة ، ولهذا يلاحظ عند الاطلاع على تراجم النحويين واللغويين اشتغال الكثير منهم بتأديب أبناء الخلفاء أو الامراء وغيرهم من أفراد المجتمع .

وعندما رحل النحوي الأندلسي محمد بن يحيى الرباحي إلى المشرق اطلع هناك على أساليب الدراسة ومناهج النحويين في التعليم ، وفي عودته إلى وطنه انجفل إليه الناس ليأخذوا عنه العلم ، ولم يكن في عهده عند مؤدبي العربية عناية كبيرة بالنحو ، وكان الاندلسيون يعانون صعوبات في طريقة التعليم والتأديب ، بالاضافة إلى عدم درايتهم بدقائق العربية فبين لهم الرباحي المناهج العلمية وطرق التأديب عند أهل المشرق ، ووجوب عنايتهم بالنحو ومعرفة مسائله(٢) وفي هذا إشارة إلى التطور التعليمي للأندلسيين واقتباسهم اللون التقدم العلمي والحضارى عن اخوانهم من أهل المشرق . ولا شك ان الحال لم تدم على هذه الصورة فقد استطاع الأندلسيون بعد ذلك أن يثبتوا قدراتهم الذاتية في ميدان النشاط العلمي بصوره المختلفة .

(١) شوقي خيف : المدارس النحوية ، ص ٢٨٩ .

(٢) الزبيدي : طبقات النحويين ، ص ٣١٠ - ٣١١ .

ويلاحظ في دراسة النحو وعلوم اللغة ارتباطهما ببعض ، ولذلك فمن الصعب الفصل بينهما في دراستنا عن النشاط العلمي لتلك العلوم .

وعلى عادة الخلفاء في تشجيع النشاط العلمي وحث العلماء على البحث والتأليف فقد خصص الخليفة الحكم المستنصر جانباً من دار الملك لتكون أشبه بما يسمى في عصرنا بمركز البحوث والدراسات^(١) ، وفي هذا المكان كان العلماء - والباحثون يجتمعون للبحث والدراسة والتأليف ، ومن هذه الاجتماعات العلمية ما ذكر أن الحكم المستنصر دعا بغض العلماء وهم محمد بن أبي الحسين ، وأبو علي القالي ، وأبني سيد ، وذلك لمقابلة كتاب العين للخليل بن أحمد ، وأحضر من هذا الكتاب نسخاً كثيرة من جملتها نسخة القاضي منذر بن سعيد التي رواها بمصر عن ابن ولاد . وقد انصرف هؤلاء العلماء إلى دراسة تلك النسخ ومعرفة وجوه الاختلاف بينها ، فلا حظوا أن نسخة منذر بن سعيد كانت أكثر خطأ فبينوا ذلك للخليفة ، ولما بلغ ذلك منذراً غضب ، وبعث بأبيات شعرية يغض فيها من علمهم ويسخر منهم ، مما دفع العلامة محمد بن أبي الحسين لأن يرد عليه بأبيات طويلة ضمنها سوء معرفته بكتاب العين ، ويثني فيها على أبي علي القالي وسعة علمه^(٢) .

(١) في هذا المكان من دار الملك ألف الأديب عبد الله بن مغيث كتابه في شعر خلفاء بني أمية في الأندلس للخليفة الحكم المستنصر . (انظر باب الشعر) .

(٢) الحميدى : جذوة المقتبس ، ص ٥٠ - ٥١ - ٥٢ - الأزدي : بدائع البدائى ، ص ٥٢ - ٥٣ - ٥٤ .

- الخليل بن أحمد بن عمر الفراهيدى الأزدي ولد بالبصرة سنة ١٠٠هـ / ٧١٨م ، واشتغل بالعلوم وصنف الكثير من الكتب في اللغة ومنها كتاب العين ولم يتمه ، وكتاب النقط والشكل والنغم والشواهد وهو أول من وضع العروض ، توفي سنة ١٦٠هـ / ٧٧٦م ، (ابن نباتة : سرح العيون ، ص ١٥٢) .

وظهر في عصر الخلافة أعداد كبيرة من علماء النحو واللغة ، وسوف نكتفي بالإشارة إلى أبرزهم ، فيأتي في مقدمتهم الأديب اللغوي أبو علي القالي الذي وفد إلى الأندلس في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر ، وكان من ضمن الكتب التي أدخلها الأندلس كتاب سيبويه في النحو . وقد نهج في تدريسه للنحو نهج البصريين ، وتبعه في ذلك تلميذه ابن الإفيلي الذي كان يقرئ كتاب سيبويه ويدرسه لتلاميذه في جامع قرطبة (١) .

وكان لابي على مشاركة واسعة في نشاط علوم اللغة ، فكان بارعا فيها ، مجتهدا في دراستها فألف في ذلك كتابا مهماً اسماء (البارع في اللغة) ، والذي وصف بأنه (في اللغات كلها وأنه زاد على كتاب الخليل بن أحمد نيفا وأربعمائة ورقة ما وقع في العين مهملا فاملأه مستعملا ، ومما قلل فيه الخليل فاملأ فيه زيادة كثيرة ، ومما جاء دون شاهد فأملأ الشواهد ، وكان ابتداء أوله سنة تسع وثلاثين وكماله في شوال (٣٥٥هـ/٩٦٥م) ومات رحمة الله قبل ايعاب النسخة المرفوعة منه ، وقبل ان ينقحه فاستخرج من الصكوك والرقاع وخرج بخط فصيح في مائة وأربعة وستين جزءا عدد اوراقها أربعة آلاف ورقة وأربع مائة وست وأربعون ورقة) (٢) .

كما ان القالي صنف في « المقصور والممدود » مما نال ثناء وتقدير علماء اللغة والنحو ، ووصفه ابن حزم بأنه لم يؤلف مثله في باب (٣) .

واكد القالي علو كعب وقدرته الفائقة في النحو بما أضافه من دراسات مهمة إلى تلك العلوم وإلى ما صنّفه غيره من علماء اللغة ، فقد ألف للخليفة

(١) شوقي ضيف : المرجع السابق ، ص ٢٨٩ - ٢٩٠ .

(٢) ابن خير : فهرست ما رواه عن شيوخه ، ص ٣٥٥ .

(٣) المقرئ : النفع ، ج ٣ ، ص ١٧١ (نقلا عن رسالة ابن حزم في فضل علماء الأندلس) .

الحكم المستنصر كتاب « فعلت وأفعلت » وجعله ثلاثة أضعاف ما كان للزجاج النحوي المشرقي (١) .

ومن علماء النحو واللغة المشهورين في عصر الخلافة محمد بن عمر بن عبد العزيز المعروف بابن القوطية (ت ٣٦٧هـ / ٩٧٧م) ، وهو من أهل قرطبة ، وكان من البارعين في النحو ، والمتصلعين في علوم اللغة حتى بز فيها غيره من العلماء فكان مرجعا في اللغة والنحو ، لا يلحق شأوه ، وله في هذا العلوم مؤلفات قيمة منها كتاب (تصارييف الأفعال) ، وكتاب (المقصور والممدود) وغير ذلك من الكتب المهمة في ذلك (٢) .

وكان ابن القوطية يعقد مجالسه العلمية في جامع قرطبة ، حيث كان يزدهم علي مجالسه تلك الكثير من طلبة العلم ، فيأخذون عنه كتب اللغة ويقرأونها عليه وممن تردد على مجالسه العلمية العلامة ابن الفرضي الذي ذكر أنه درس على يديه العربي ، وسمع منه كتاب (الكامل للمبرد) ، ولكن لم يتم سماعه منه لوفاة استاذه ابن القوطية (٣) .

ولعل من شواهد نبوغ ابن القوطية في اللغة والنحو ما كان يبيديه أبو علي القالي له - وهو بالمنزلة التي لا تنكر - من ضروب التقدير والاجلال لعلمه وفضله (٤) .

(١) ابن خير : المصدر السابق ، ص ٣٥٢ .

(٢) ابن الفرضي : تاريخ علماء الاندلس ، ج ٢ ، ص ٧٦ - ٧٧ - الحميدي : الجذوة ، ص ٣٦ -

الضبي : بغية الملتبس ، ص ١١٢ - ابن فرحون : الديباج ج ٢ ، ص ٢١٧ - ٢١٨ - الصفدي :

المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٤٢ - ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج ٤ ، ص ٣٦٨ - ٣٦٩ -

السيوطي : بغية الوعاه ، ج ١ ، ص ١٩٨ .

(٣) ابن الفرضي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٧٧ .

(٤) الثعالبي : يتيمة الدهر ، ج ٢ ، ص ٧٤ .

ولا شك أن في ذلك ما يشير إلى الدرجة الرفيعة التي كان يحتلها ابن القوطية في ميدان الدراسات النحوية واللغوية ، وأنه قد أسهم بقدر كاف في ازدهارها بما كان يعقد من مجالس الدرس في جامع قرطبة وما تلقاه عنه طلبة العلم من المعرفة الواسعة في تلك العلوم إلى جانب مشاركته في ميدان التأليف العلمي .

ومن معاصري ابن القوطية الأديب النحوي محمد بن الحسن الزبيدي الاشبيلي (ت ٣٧٩هـ / ٩٨٩م) الذي انتقل إلى قرطبة وأخذ عن علمائها النحو واللغة والأدب وكان لعلمه الواسع ومعارفه الغزيرة في النحو أثر في تقريبه إلى بلاط الخلافة . فنال جاها ورياسة ، وصحب أبا علي القالي وأخذ عنه الأدب واللغة وبرع على وجه الخصوص في النحو واللغة ، حتي وصف بأنه أوجد عصره في علم النحو وحفظ اللغة . وقد لقي من الخليفة الحكم المستنصر كل تكريم وتشجيع فعينه في بعض مناصب الدولة ، ولكنه مع ذلك لم ينصرف عن واجبه العلمي فكان علي صلة بحلقات العلم والتدريس وأخذ الكثير عنه كتبه وعلومه (١) .

ولا شك أن في ذلك دلالة على ما اتسم به ذلك العصر من اخلاص للعلم ، فالمناصب التي تولاها الزبيدي لم تكن لتشغله عن ميدان البحث والدرس . وتعد تلك الظاهرة سمة من سمات ذلك العصر .

وكان للزبيدي نشاط كبير في حقل التأليف ، فقد ألف الكثير من المؤلفات في النحو وعلوم اللغة ، فصنف كتاب « الواضح » واختصر كتاب « العين » ،

(١) ابن الغرسي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٨٩ - ٩٠ - الصفدي : الوافي ، ج ٢ ، ص ٣٥١ - ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٣٧٢ - ٣٧٣ - كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، ج ٢ ، ص ٢٨٠ .

وألف في « الأبنية » و « لحن العامة » وفي « أخبار النحويين » (١) .

وكان الزبيدي يلقي من الخليفة الحكم المستنصر كل تشجيع فقد خلع عليه خلعة سنية بعد تصفحه لكتابه في اختصار كتاب العين (٢) .

ونظرا لعناية الزبيدي بالنحو فقد ألف في طبقات النحويين كتابا نفسيا . ضمنه أشهر النحاة في المشرق والأندلس من زمن أبي الأسود الدؤلي إلى زمن عبد الله الرباحي شيخه في النحو ، وهذا الكتاب من بين ما اعتمد عليه الباحث في الكلام عن علماء اللغة والنحو الاندلسيين .

وقد نهج الزبيدي في تأليفه لذلك الكتاب منهجا املاه عليه الخليفة الحكم المستنصر ، فقد كان لاهتمامه بحركة التأليف أن أورثه ذلك خبرة واسعة في التصنيف ومناهج التأليف ، وإلى هذا أشار الزبيدي في مقدمة كتابه المذكور بقوله : (ألفت هذا الكتاب على الوجه الذي أمرني به (أى الخليفة الحكم المستنصر) واقمته على الشكل الذي حده ، وامدني ، رضي الله عنه ، في ذلك بعنايته وعلمه ، واوسعني من روايته وحفظه إذ هو البحر لاتعبر اواذيه ، ولا تدرك سواحل ولا ينزح غمره ، ولا تنضب مادته ..) (٣) .

وهكذا يتبين ما كان عليه الزبيدي من علم واسع بعلوم النحو واللغة ومدى إخلاصه التام في نشر معارفه النحوية واللغوية . وأنه قد استفاد من تشجيع

(١) الحميدي : جذوة المقتبس ، ص ٤٦ - الضبي : البغية : ص ٦٦ - ٦٧ - ابن فرحون : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢١٩ - ٢٢٠ - المراكشي : المعجب ص ٦٢ - ٦٣ - ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٣٧٢ - ٣٧٣ - السيوطي : بغية الوعاة ، ج ١ ، ص ٨٤ - ٨٥ - ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٣ ، ص ٩٤ - ٩٥ - أحمد امين : ظهر الإسلام ، ج ٢ ، ص ٨٩ . وانظر الموسوعة العربية الميسرة . حرف الزاى . ص ٩١٩ .

(٢) ابن حيان : المقتبس ، تحقيق عبد الرحمن الحجي ، ص ١٣٣ - ١٣٤ .

(٣) طبقات النحويين ، ص ٩ - ١٠ .

واكرام الخليفة الحكم المستنصر في بث علومه وتآليف الكتب النافعة والتي لا يزال بعضها بين ايدينا .

وكان لأحمد بن ابان بن سيد (ت ٣٨٢هـ / ٩٩٢م) جهود موفقة في ميدان النحو واللغة ، فصنف كتاب « العالم » في مائة مجلد ، مرتبة على الأجناس ، بدأ فيه بالفلك وختم بالذرة (١) .

كما تناول كتاب الأخفش (٢) في النحو وقام بشرحه وأضاف إليه اضافات مهمة ، وكان لهذا الكتاب منزلة رفيعة حتى اثنى عليه ابن حزم ووصفه بالإتقان (٣) .

وبرع العلامة تمام بن غالب المعروف بابى الثياني (ت ٤٣٦هـ / ١٠٤٤م) في علم اللغة ، وقد انتقل من قرطبه إلى مرسية . حيث انصرف إلى التدريس ونشر علمه ، ثم عكف على التأليف فصنف كتابا في اللغة ، ولما اطلع عليه الأمير مجاهد العامري حاكم دانيه اعجب به وبعث إلى تمام بألف دينار وكسوة على أن يذكر في مقدمته أنه صنفه باسمه ، ولكن تمام لاخلاصه للعلم رفض ذلك . وقال : كتاب صنفته لله ولطلبة العلم لا أصرفه إلى اسم ملك ، وحلف أن لا يفعل ذلك ، ورد الألف دينار والكسوة ، فعظم في عين مجاهد والناس ، وأثنى عليه العلماء ، ووصفوه بالنزاهة والقدر العلمي الكبير (٤) .

(١) الحميدي : الجذوة و ص ٤٠٥ - الضبي : البغية ، ص ٥٣٨ - المقرئ : النفع ، ج ٣ ، ص ١٧٢ - السيوطي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٩١ - البغدادي : هدية العارفين ، ج ١ ، ص ٦٨ .

(٢) الاخفش : سعيد بن مسعدة من كبار نحويي البصرة ، وقد اخذ علومه عن سيبويه ، وقرأ عليه كتاب سيبويه بعد موته ، وقد ألف بعض الكتب في النحو منها الأوسط ، والاشتقاق ، توفي سنة ٢٢١هـ / ٨٣٥م .

(٣) ابن النديم : الفهرست ، ص ٧٧ - ٧٨ .

(٤) الحميدي : المصدر السابق ، ص ٤٠٥ .

(٤) ابن سعيد : المغرب ، ج ١ ، ص ١٦٦ - المقرئ : النفع ، ج ٣ ، ص ١٧٢ - شكيب ارسلان : الحل السندسيه ج ٣ ، ص ٤٥٩ - آنخل بالنتيا : تاريخ الفكر الاندلسي ، ص ١٨٩ .

وفي أواخر عصر الخلافة لمع اسم اللغوي الكبير أبو المحسن علي بن إسماعيل ابن سيده الاعمى (ت ٤٥٨هـ/ ١٠٦٥م) ، وكان بارعا في اللغة ، متضلعا في علومها حتى وصف بأنه لا يعلم بالأندلس أشد اعتناء منه باللغة ، ولا أعظم من مصنفاته في ذلك ، وأنه من مفاخر مرسية (بلده) حتى قال فيه أحد العلماء (وهو عندي فوق أن يوصف بحافظ أو عالم) (١٢) .

وقد أشاد به العلماء وأنثوا على علمه الواسع حتى وصفه القاضي بأنه أعلم أهل الاندلس بالنحو واللغة والأشعار ، واحفظهم لذلك حتى انه كان يحفظ الكثير من المصنفات اللغوية والنحوية عن ظهر قلب (٢) .

ولم تكن منزلته العلمية معروفة لدى الأندلسيين فقط ، بل كانت أيضا معروفة لدى المشاركة فذكروه وأشادوا به ويعلمه ، فقد روى السلفي بقوله : (سمعت أبا عبد الله محمد بن الحسن بن أبي زرارة اللغوي يقول : كان بالمشرق لغوي وبالمغرب لغوي في عصر واحد ولم يكن لهما ثالث وهما ضريران : فالمشرقي أبو العلاء التنوخي المصري ، والمغربي ابن سيده الأندلسي ، وابن سيده أعلم من المعري) (٣) .

ولو أننا ألقينا نظرة على ما تركه ذلك العلامة من تصانيف علمية قيمة لوقفنا على مقدار فضله ، وسعة علمه ، وعلو منزلته في ذلك . فقد صنف كتاب « المحكم » والمحيط الأعظم « وهو مرتب على حروف المعجم في اللغة ، و « المخصص » في اللغة أيضا وهو مرتب على ابواب ، وكتاب « شرح أبيات الجمل للزجاجي » ، وكتاب « الانيق في شرح الحماسة » ، وكتاب العويس في شرح اصلاح المنطق « (٤) .

(١) ابن سعيد : المغرب ، ج ٢ ، ص ٢٥٩ .

(٢) طبقات الامم : ص ١٠٣ .

(٣) اخبار وتراجم اندلسيه . ص ٧٠ .

(٤) ابن خير : المصدر السابق ، ص ٣٥٦ .

كما أن من بين مؤلفات ابن سيده الأعمى كتاب « شرح مشكل شعر المتنبي » تناول فيه شرح الألفاظ المستعصية التي تضمنها شعر المتنبي وأبدى في ذلك براعة في معرفة معاني الألفاظ ، وحل غموضها وتوضيح معانيها بطريقة تنم عن سعة علمه^(١) ، وكان الأديب إبراهيم بن محمد بن الأفليلي قد شرح شعر المتنبي شرحا وافيا وصف بالجودة والحسن^(٢) .

والجدير بالذكر أن تلك الكتب قد احتلت منزلة عالية بين كتب اللغة فتناولها العلماء بالدراسة والإفادة مما حوته من معارف لغوية جمة . وقد ذكر أنه كتاب « المحكم » في ثلاثين مجلدا ، وأنه ليس في كتب اللغة أحسن ولا أنفع منه^(٣) .

أما كتاب « المخصص » فقد بلغ به منزلة لا تدانى ، والحق أن من يطلع على هذا الكتاب فإنه سوف يلمس ما كان عليه ذلك العلامة من علم ومعرفة لم تتأتى لغيره . والكتاب في مضمونه لغوي مرتب حسب المعاني ، وكل موضوع من موضوعات الحياة البشرية من مادی ومعنوی يذكره مفردا ، ويضع له بابا خاصا به ثم يذكر جميع ما ورد فيه عن العرب من ألفاظ وجمل^(٤) .

وقد وصف هذا الكتاب بأنه موسوعة عظيمة ، ودائرة معارف جلييلة ، وأنه يقع في عشرين مجلدا تنم عن جلاله ما حواه وعظم ماضيه من معارف^(٥) .

وأخيرا يتضح لنا عظم ما سده الأندلسيون في هذا الميدان المهم ، وما أضافوه إلى المكتبة الإسلامية من دراسات مهمة أسهمت في رفع شأن النحو

(١) قام بتحقيق ذلك الكتاب محمد رضوان الدايع ، وصدر عن دار المأمون للتراث بدمشق .

(٢) المقرئ : نفح الطيب ، ج ٣ ، ص ١٧٣ (نقلا عن رسالة ابن حزم في فضل الأندلس) .

(٣) السلفي : المصدر السابق ، ص ٧٠ - القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ٤٦٨ .

(٤) شكيب أرسلان : المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٤٦٤ .

(٥) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ، ج ٤ ، ص ٤٧٧ .

واللغة العربية ، ولا نقول ذلك جزافا فإن الأندلسيين اعتمدوا أولا في دراساتهم اللغوية والنحوية على المشرق ثم لم يلبثوا أن انطلقوا في ميدان البحث والدراسة ليخرجوا لنا في نهاية الأمر بدراسات علمية قيمة وتصانيف نفسية . فما اضافهُ القالي إلى كتاب الخليل بن أحمد من دراسة مستفيضة وزيادة مهمة لدليل على تفوق الأندلسيين ونبوغهم وعدم اتكالهم على المشرق . وكفاهم فخرا أنه ظهر من - بينهم ابن سيده الذي لا يستبعد أن يكون أعظم لغوي في الأندلس والمشرق على حد سواء . وقد تمتعت الأندلس بسمة عظيمة في هذه الدراسات فنبت فيها في عصر الخلافة وما بعده علماء كبار منهم ابن عصفور وابن مالك الجياني ، وأبو حيان الغرناطي وغيرهم كثير .

وخلاصة القول أن ميدان الحياة الأدبية واللغوية والنحوية شهد في عصر الخلافة نشاطا زاهرا ، أثبت فيه الأندلسيون سعة معارفهم وتآلق شخصيتهم العلمية .

ومن الحق أن نشير إلى أن هذه العلوم قد أسهم الأندلسيون في تطورها منذ عصر الاماره ، فالنشاط العلمي آنذاك كان ينصب في أكثره على علوم الدين والأدب وعلوم اللغة ، ولا غرو في ذلك فإن الأندلسيين رأوا ضرورة الارتباط بين علوم الدين وبين تلك العلوم وما يؤدي إليه ذلك من ايضاح الكثير من مسائل الدين الواردة في القرآن الكريم والسنة المطهرة ، وشرح معاني الفاظها وتسهيل فهمها .

وفي عصر الخلافة كان الأندلسيون قد بلغوا درجة رفيعة في ميدان البحث العلمي في مختلف وجوه العلم ومنها الدراسات الأدبية واللغوية والنحوية ، ولا أدل على ذلك من ظهور الكثير من اعلام الأدب واللغة والنحو

الذين أثروا ذلك الميدان بانتاجهم العلمى الرفيع ، و اضافوا بذلك دراسات قيمة إلى المكتبة العربية .

وقد تألفت اسماء الكثير منهم كابن عبد ربه ، وأبو علي القالي الذى يرجع إليه الفضل في ازدهار الدراسات الأدبية واللغوية والنحوية في عصري الخليفة عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر ، وكذلك الأديب المشرقي صاعد بن الحسن الربيعي الذى رغم ما وصف به من ادعاء وانتحال كان أديبا واسع الاطلاع ، جم المعارف ، بالإضافة إلى بروز العلامة ابن القوطية في اللغة والنحو وبما اثرى به تلك العلوم من دراسات مستفيضة ، وإلى جانب هؤلاء تألق اسم محمد بن الحسن الزبيدي الذى كانت له جهوده الموفقة في ذلك ، ويختتم عصر الخلافة بظهور اللغوى الكبير ابن سيده الذى ذاع صيته شرقا وغربا . وبهؤلاء وغيرهم تجلت لنا صور النشاط العلمى في الأدب واللغة والنحو ، ووقفنا على ما قام به الأندلسيون من جهود علمية رائعة في هذه الميادين .

الفصل الثالث

المفهوم الإنساني

- التاريخ .

- الجغرافيا والرحلات الجغرافية .

- الفلسفة .

١ - التاريخ

عناية الأندلسيين بالتاريخ - نشاط ميدان التراجم واهتمام الأندلسيين به - أبرز مؤرخي الأندلس : ابن القوطية ونتاجه العلمي . أسرة الرازي . أحمد بن محمد وابنه عيسى - محمد بن الحارث الخشني - ابن الغرض - ابن عبد البر النمري - من عواهل ازدهار الدراسات التاريخية - اهتمام الخلفاء بذلك وخاصة الخليفة الحكم المستنصر الذي كان يحفز الملكات العلمية على التأليف والبحث - دور المنصور في ازدهار التاريخ والتراجم - أبرز مؤرخي الأندلس ابن حيان ونتاجه العلمي - ابن حزم ونتاجه العلمي في التاريخ - ابن شهيد مؤرخا - دور أهل الذمة في دراسة التاريخ .

نال علم التاريخ من الأندلسيين كل عناية واهتمام ، فقد رأوا من واجبهم الوطني نحو بلدهم الأندلس أن يسعوا بجد للحفاظ على تاريخه وما يتضمنه من ضروب النشاط السياسي والعسكري والحضاري بوجه عام .

ولما كانت الأندلس في عصر الخلافة قد بلغت شأناً كبيراً في ميدان الحضارة والحقل العلمي خاصة ، فمن الطبيعي أن نرى الأعداد الهائلة من العلماء في مختلف وجوه العلم وفروع المعرفة ، الأمر الذي دفع الأندلسيين نحو تخليد مآثر بلدهم في هذا الميدان بكتابة تراجم علمائه وأعيانه .

والواقع أن الأندلسيين من باب استكمال وجوه الحضارة وإثبات مكانتهم العلمية نشطوا في ميدان الدراسات التاريخية ، وكانهم استهدفوا من وراء ذلك إبراز ما أسهم به بلدهم مع المشرق الإسلامي في بناء الحضارة الإسلامية .

وإذا ما تتبعنا حركة الدراسات التاريخية في الأندلس نلاحظ أن الأندلسيين عنوا أكثر بكتابة التراجم ، فقد نشطت حركة التأليف في هذا

الميدان نشاطا كبيرا ، وإن مجرد إلقاء نظرة على المكتبة التاريخية الأندلسية لكفيل بأن يرينا هذه الحقيقة بوضوح .

وقد أظهر الأندلسيون براعة تامة وقدرة كبيرة في ميدان التراجم ، وكان الكثير منهم في بادئ الأمر يتجهون إلى كتابة سير علماء الأندلس بصورة عامة ثم ما لبثوا أن تناولوا كتابة التراجم بصورة أكثر تخصيصا للعلماء وأهل المعرفة ، فعمد البعض إلى التأليف في تراجم طبقة معينة من العلماء كطبقات الأطباء لابن جليل ، وطبقات النحويين للزبيدي ، بل إن أفراداً منهم ألفوا في تراجم علماء جهة من الجهات ، ككتاب « أخبار شعراء البيرة » ، أو في ترجمة شخصية معينة كالمنصور بن أبي عامر ، فقد ألف حسين بن عاصم كتابا أسماه « المآثر العامرية » في سير المنصور وغزواته وأوقاتها^(١) .

وقد شهد عصر الخلافة نشاطا كبيرا في ميدان التاريخ ، فبرز مؤرخون بارعون كان لهم جهد بارز في إثراء هذا العلم بالكثير من الدراسات المثمرة التي تتم عما أمتازوا به من القدر العلمي الكبير .

وفي مقدمة مؤرخي عصر الخلافة يأتي المؤرخ محمد بن عمر بن عبدالعزيز المعروف « بابن القوطية » (ت ٣٦٧هـ / ٩٧٧م) ، وقد أشرنا إليه سابقا عند الحديث عن النحو وعلوم اللغة باعتباره أحد العلماء البارزين فيها ، وبالإضافة إلى ما تقدم . كان ابن القوطية بارعا في التاريخ (حافظا لأخبار الأندلس ، ملما برواية سير أمرائها وأحوال فقهاءها وشعرائها ، يملأ ذلك عن ظهر قلب)^(٢) .

ولابن القوطية في ميدان التأليف التاريخي مصنف اسمه « تاريخ افتتاح الأندلس » ، ويبدو أن انتماء ابن القوطية إلى القوط من جهة أمه كان له أثر في

(١) الحميدي : الجذوة ، ص ١٩٣ .

(٢) ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، ج ٢ ، ص ٧٦ - ٧٧ .

نظرتة إلى الوقائع التاريخية التي حدثت بين القوط والمسلمين ، فكان يميل في بعض الأحيان إلى تمجيد العنصر القوطي ، والانسحاق نحو عواطفه القومية مما يخرج به عن محيط الموضوعية. في كتاباته التاريخية ، فهو حينما يتحدث عن الزعيم القوطي ارطباس وأخباره مع الزعيم العربي الصميل بن حاتم نجده يصور الزعيم القوطي في خلق نبيل وأنه صاحب دهاء وحكمة في حين يصور الزعيم العربي في صورة أقل من ذلك ، كما أنه يتوسع في أخبار الثائرين من أصول اسبانية كمروان الجليقي ، وعمر بن حفصون ، وفضلا عن ذلك فهو باعتباره من موالى بني أمية فهو لا يخفى ميله نحوهم والإشادة بهم في كتابه^(١) .

ورغم ما تقدم فإن للكتاب قيمته التاريخية المهمة بين كتب التاريخ الأندلسي إذ يأتي في طليعة الكتب التي أرخت لأحداث الأندلس منذ افتتاحها إلى عصر الخليفة عبدالرحمن الناصر كما يتميز بالإسهاب والتفصيل في شرح بعض الأحداث والوقائع التي لم يكن يعرفها العرب^(٢) .

ومن حق ميدان التاريخ أن يزهو بأسرة آل الرازي التي كان لها فضل كبير في ازدهار علم التاريخ .

يأتي في مقدمة مؤرخي تلك الأسرة المؤرخ أحمد بن محمد بن موسى الرازي الكتاني (٢٧٤ - ٣٤٤هـ / ٨٨٧ - ٩٥٥م) ، وكان والده محمد قد وفد إلى الأندلس من المشرق حيث نزل مكرماً على الأمير محمد بن عبدالرحمن ، وقد أشرنا إلى براعته في ميدان الجغرافيا أثناء الحديث عن ذلك في عصر

(١) أحمد هيكل : الأدب الأندلسي ، ص ١٩١ - ١٩٢ - أحمد أمين : ظهر الإسلام ، ج ٣ ، ص ٢٧٥ .

(٢) أحمد أمين : المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٢٧٥ - السيد عبدالعزيز سالم : قرطبة حاضرة الخلافة ، ج ٢ ، ص ٢٠٣ - لطفي عبد البديع : الإسلام في اسبانيا ، ص ٦٩ - ٧٠ .

الإمارة ، أما ابنه أحمد فقد ورث عن أبيه البراعة في التاريخ ، ووصف بسعة العلم وحفظ وقائع التاريخ الأندلسي ، والمعرفة التامة بسير ملوك الأندلس وأعيانها^(١) .

والحق أن ما أسداه ذلك المؤرخ لحقل الدراسات التاريخية الأندلسية تأليفاً وترجمة لهو شئ يثير الإعجاب ، فقد صنف كتاباً في « أخبار ملوك الأندلس وخدمتهم وركبانهم وغزواتهم » ويقع في حجم كبير ، كما ألّف كتاباً في « صفة قرطبة ، وخططها ومنازل العظماء بها » ، وقد نهج في تأليف كتابه الأخير طريقة المؤرخ المشرقي أحمد بن طاهر في كتابه أخبار بغداد وذكره لمنازل صحابة المنصور بها ، كما أشار ابن حزم إلى تأليفه كتاب في « أنساب مشاهير أهل الأندلس » وأنه يقع في خمس مجلدات ، ووصفه بالقيمة العلمية الكبيرة^(٢) .

وبالإضافة إلى جهود أحمد الرازي في ميدان التاريخ ، فقد كان له أيضاً إسهام وافر في ازدهار الدراسات الجغرافية وسوف نأتي على ذكر ذلك عند الحديث عن الجغرافيا .

وقد أنجب أحمد الرازي ابناً اسمه عيسى ، ورث عن أبيه المهارة في دراسة التاريخ إلى جانب تمكنه في الأدب ، وكان لما اتصف به عيسى أثر في تقريب الخليفة الحكم له وإدناء منزلته ، وكان يشجعه على البحث والتأليف ، فألّف له عيسى كتاباً قيماً في التاريخ ، ولم يزل عيسى محفوظ الجاه كريم

(١) ابن الفرضي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٢ .

(٢) الحميدي : جذوة المقتبس ، ص ١٠٤ - الضبي : البغية ، ص ١٥١ - الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ٨١ ، ص ١٣١ - ياقوت : معجم الادباء ، ج ٢ ، ص ٢٣٥ - ٢٣٦ لطفي عبدالبديع : المرجع السابق ، ص ٦٨ - ٦٩ أحمد هيكل : المرجع السابق ، ص ١٩١ - عمر فروخ : تاريخ الفكر العربي ، ص ٥٨٧ .

المقام حتى تولى الحاجب المنصور زمام الأمور بعد وفاة الخليفة الحكم ، وقد ألف عيسى للمنصور كتاباً في « الوزارة والوزراء » ، كما ألف له كتاباً في « الحجاب »^(١) .

وإذا كان لبعض العلماء الواردين على الأندلس نور بارز في ازدهار حركة الدراسات التاريخية في الأندلس فإنه يأتي في طليعتهم المؤرخ محمد بن حارث بن أسد الخشني القيرواني (ت ٣٧١هـ / ٩٨١م) الذي تلقى علومه الأولى في القيروان ، وقد انصرف إلى التاريخ والتراجم فكان له في ذلك جهود قيمة ، وانتاج علمي نفيس، ونظراً لما كانت عليه الأندلس من حضارة وما ضمتها من أرباب العلم والمعرفة فقد كان ذلك دافعاً للخشني إلى قصدها فدخلها سنة (٣١٢هـ / ٩٢٤م) ليأخذ العلم عن علماء قرطبة أمثال قاسم بن أصبغ وأحمد بن عباد وغيرهم من العلماء ، وكان لسعة علمه وفضله أثر في تقريب الخليفة الحكم له فأدنى منزلته ورفع مكانته بين العلماء^(٢) .

وقد أسهم الخشني بجهد وافر في رقي الدراسات التاريخية بما صنفه من المؤلفات القيمة ، فقد صنف كتاباً في « قضاة قرطبة » ، وصدر المؤلف كتابه بالثناء على الأمير الحكم المستنصر - الذي كان آنذاك ولياً للعهد - وأنه كان وراء تصنيفه للكتاب بما كان يبيده له من ضروب التشجيع المادي والمعنوي ورغبة منه في حفظ سير أهل العلم ، ثم يعرض الخشني في مقدمة كتابه إلى منهجه في جمع المادة العلمية للكتاب فيقول : (لما أمر الأمير - أبقاه الله - بتأليف كتاب القضاة مقصوراً على من قضى للخلفاء رضي الله عنهم بأرض

(١) المراكشي : الذيل والتكملة ، السفر الخامس ، القسم الثاني ، ص ٤٩١ .

(٢) ابن الغرزي : تاريخ علماء الأندلس ، ج ٢ ، ص ١١٣ - الذهبي : تذكرة الحفاظ ، ج ٣ ، ص

١٠٠٢ - الصفدي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣١٥ - أنخل بالنثيا : تاريخ الفكر

الأندلسي ، ص ٢٦٧ - ٢٦٨ .

المغرب في الحاضرة العظمى قرطبة ، ذات الفخر الأعظم وعمالهم بها من قبل
هزرت رواة الأخبار في أخبارهم ، وكاشفت أهل الحفظ عن أفعالهم ، وسألت
أهل العلم عما تقدم من سيرهم قولاً وفعلًا^(١) .

والجدير بالذكر أن هذا الكتاب لقي عناية فائقة من دارسي التاريخ
الأندلسي وخاصة من يهتمهم دراسة الحياة الاجتماعية في ذلك العصر ، وقد
ترجم فيه مؤلفه لمن تولى القضاء منذ الفتح حتى سنة ٣٥٦ هـ / ٩٦٦ م ، وهي
السنة التي تولى فيها القضاء القاضي محمد بن إسحاق بن السليم وبه ختم
الكتاب .

والكتاب يفيض بالمعلومات القيمة عن سير القضاة وما يتخللها من مواقف
طريفة مع الناس ، حتى وصف هذا الكتاب بأنه يضعنا في قلب قرطبة من
خلال ما يمدنا به من معلومات عن الحياة الاجتماعية ، كما أن أخباره مصوغة
في قالب من الواقعية التي لا يرقى إلى مستواها أي من كتب التاريخ
والآداب^(٢) .

وبالإضافة إلى ما سبق صنف الخشني الكثير من الكتب ، فقد ذكر ابن
الفرضي أنه صنف للخليفة الحكم المستنصر مائة ديوان^(٣) . ولاشك أن فيه
دلالة على ما اتصف به الخشني من سعة العلم والدراسة العميقة بأكثر من علم ،
وفيه دليل أيضا على ما كان يوليه الخليفة الحكم من عناية بالبحث والتأليف .

ومما ينسب للخشني من كتب التاريخ « تاريخ الأندلس » و « تاريخ
الأفريقيين » و « كتاب النسب »^(٤) .

(١) قضاة قرطبة ، ص ١ - ٢ .

(٢) أحمد هيكل : الأدب الأندلسي ، ص ١٩٣ .

(٣) تاريخ علماء الأندلس ، ج ٢ ، ص ١١٣ .

(٤) الذهبي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٠٠٢ - ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٣ ، ص ٣٩ .

والجدير بالذكر أنه عُثر لهذا العلامة على مخطوط يسمى (تاريخ علماء الأندلس) وهو عبارة عن معجم تراجم لأعلام الأندلسيين حتى القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، ويحوي ذلك المخطوط ١٨٢ ورقة مكتوبة بخط أندلسي عتيق جدا ، وقد أشار ابن الفرضي إلى اعتماده في تأليفه لكتابه تاريخ علماء الأندلس على كتاب للخشني في تراجم رجال الأندلس فلعله ذلك المخطوط المشار إليه^(١) .

وفي مجال التراجم يبرز العلامة المؤرخ عبدالله بن محمد الأزدي المعروف بابن الفرضي (ت ٤٠٣هـ / ١٠١٢م) الذي سبقت الإشارة إليه في ميدان الحديث .

كان هذا العلامة جَم النشاط كثير الاشتغال بالعلم ، فقد صنف العديد من كتب العلم ، ففيما يتعلق بالتاريخ ما صنفه في ميدان التراجم ، وهو كتابه « تاريخ علماء الأندلس » ، والذي يعد من أهم المصادر التاريخية لدراسة الحياة العلمية في الأندلس حتى القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي . كما أن هذا الكتاب يعد أقدم كتب التراجم العامة التي بين أيدينا ، فعلى الرغم من أن كتاب الخشني « تاريخ علماء الأندلس » - الذي لا يزال مخطوطاً حتى اليوم - يعتبر أقدم من كتاب الفرضي المذكور إلا أن الأخير بما أتيح له من أسباب الانتشار ، كان في مقدمة كتب التراجم الأندلسية المهمة ذيوعاً بين المشتغلين بدراسة التاريخ الأندلسي .

وفي مقدمة الكتاب يشير المؤلف إلى عنايته بالتراجم فيقول : (ولم أزل مهتما بهذا الفن ، معتنياً به مولعاً بجمعه والبحث عنه ، ومسائلة الشيوخ عما

(١) يوجد هذا المخطوط بالمكتبة الملكية بالرباط تحت رقم « ٦٩١٦ » وقد اخذنا منه في بعض جوانب البحث .

لم أعلم منه حتى اجتمع لي من ذلك بحمد الله وعونه ما املته وتقيد في كتابي هذا - من التسمية - ما لم أعلمه يقيد في كتاب ألف في معناه في الأندلس قبله^(١) .

وقد اعتمد ابن الفرضي في تأليفه لكتابه المذكور على من سبقه من العلماء أمثال أحمد بن محمد بن عبد البر ، وخالد بن سعد ، ومحمد بن الحارث الخشني الأنف الذكر - والمؤرخ أحمد الرازي، والمؤرخ ابن يونس بن عبد الأعلى المصري في كتابه تاريخ مصر والمغرب ، وغيرهم من المؤرخين بالإضافة إلى ما تلقاه من أفواه العلماء مشافهة وما قيده عليهم^(٢) .

والحق أن كتاب ابن الفرضي على الرغم من سلوكه سبيل الاختصار فيما أورده من تراجم فله قيمته العلمية التي لا تنكر في توضيح ما كان عليه المجتمع الأندلسي من اهتمام بالعلوم والمعارف وما تمتع به الأندلسيون من علم واسع وخاصة في حقل العلوم الدينية إذ غلبت على الكتاب تراجم علماء الحديث والفقه وبعض أهل الأدب ، ولا نكاد نلمس فيه ما له صلة بالمبشرين العلمية الأخرى كالطب والفلك والرياضيات والكيمياء .

وقد نال كتاب ابن الفرضي تقدير وثناء العلماء ، فذيل عليه أحدهم وهو أبو القاسم خلف بن عبد الملك المعروف بابن بشكوال (٤٩٤ - ٥٧٨ هـ / ١١٠٠ - ١١٨٢ م) بكتابه القيم « الصلة » .

وأسهم العلامة يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري في ازدهار الدراسات التاريخية بما بذله من جهد وافر تمثل فيما صنفه من كتب التاريخ والتراجم وفي مقدمتها « الاستيعاب » في أسماء المذكورين في الروايات

(١) تاريخ علماء الأندلس ، ج ١ ، ص ٢ .

(٢) نفس المصدر والجزء ، ص ٢ - ٣ .

والسير والمصنفات من الصحابة رضي الله عنهم والتعريف بهم وتلخيص أحوالهم ومنازلهم وعيون أخبارهم على حروف المعجم ويقع في اثني عشر جزءاً، وكتاب « الدرر في اختصار المغازي والسير » في ثلاثة أجزاء ، وكتاب « أخبار أئمة الأمصار » في سبعة أجزاء^(١) .

ويعد الكتاب الأول وهو « الاستيعاب » من أهم كتب التراجم التي تناولت حياة الصحابة رضي الله عنهم ، والتي يعتمد عليها في معرفة سيرهم وأخبارهم ، فهو بذلك كتاب جليل غزير الفائدة ، وبه اكتسب ابن عبد البر منزلة رفيعة بين العلماء ، كما ألف ابن عبد البر النمري كتاب « الانباء على قبائل الرواة عن النبي ﷺ بما انضاف إلى ذلك من أنساب العرب » ويعدّ الكتاب بمثابة مدخل لكتاب الاستيعاب^(٢) .

ويذكر المقري أن ابن عبد البر صنف كتاباً في التاريخ أسماه « القصد والأمم في معرفة أخبار العرب والعجم »^(٣) وقد أشار كراتشكوفسكي إلى هذا الكتاب ووصفه بأنه عبارة عن رسالة صغيرة تقع في عشرين صفحة تقريباً ، وأنها لا تتضمن شيئاً عن العرب بل تدور حول أصول الشعوب الأخرى التي ورد ذكرها في الحديث ، كما يشير إلى أن العلامة شيفير SCHEFER كان مصيباً في نشره لقطعة من الرسالة مقرونة بترجمة فرنسية . وهي القطعة الخاصة بأهل الصين ، وأكد أنه توجد بها إشارة دقيقة إلى عبادة الأسلاف بالإضافة إلى تضمنها فكرة عن وجود قبائل الينو AINO في شمال الصين ، وأن أحد العلماء وهو فيران FERRAND رغم تشككه بصدد النقطة الأخيرة إلا

(١) الحميدي : الجنوة ، ص ٣٦٨ - ٣٦٩ ، الضبي : البغية : ص ٤٨٩ - ٤٩٠ ، ابن بشكوال : الصلاة ، ج ٢ ، ص ٦٧٧ - ٦٧٨ - ٦٧٩ .

(٢) ابن خير : فهرست مارواه عن شيوخه ، ص ٢١٤ - ٢١٥ .

(٣) نفح الطيب ، ج ٣ ، ص ١٨٢ .

أن ذلك لم يمنعه من الاستشهاد بما أورده ابن عبد البر حول مسألة علاقة الصين بسكان الملايو^(١) .

وبناء عليه ندرك ما كان يتمتع به ابن عبد البر النمري من علم واسع بالتاريخ والتراجم ، حتى قيل أنه : (كان مع تقدمه في علم الاثر ، وبصره بالفقه ومعاني الحديث له بسطة كبيره في علم النسب والخبر)^(٢) .

وفي عصر الخليفة عبدالرحمن الناصر أهدى الإمبراطور رومانوس إليه كتابين أحدهما في الطب وهو كتاب ديسقوريدس ، والآخر في التاريخ وهو كتاب هروشيئ^(٣) ، ويهمننا الآن الكتاب الأخير لعلاقته بالتاريخ ، فقد ترجمه الأندلسيون من اللاتينية إلى العربية بواسطة قاضي النصارى الوليد بن خيزران ، والعلامة قاسم بن أصبغ^(٤) .

ويظهر أن هذا الكتاب لم يكن له من التأثير في كتابات مؤرخي الأندلس بقدر ما كان تأثرهم به في مجال الجغرافيا كما سيأتي بيانه عند الحديث عن الجغرافيا .

ولعل من أهم أسباب ازدهار الدراسات التاريخية ما كان يتصف به الخلفاء من عناية بالعلم وتشجيع العلماء على البحث والتصنيف ، فقد كان للخليفة الحكم المستنصر دور بارز في النشاط العلمي المتصل بهذا الميدان وغيره من ميادين المعرفة ، ولا أدل على ذلك مما تزودنا به كتب التاريخ من أسماء الكتب العلمية التي صنفت باسم الحكم المستنصر وبناء على رغبته، كالذي صنفه الخشني ، وعيسى بن أحمد الرازي وقد مر ذكرهما .

(١) الأدب الجغرافي العربي ، القسم الأول ، ص ٢٧٣ .

(٢) ابن بشكوال : الصلة ، ج ٢ ، ص ٦٧٩ .

(٣) ألفه Boulus Orosius وهو عن تاريخ العالم من ولد آدم وألفه في سنتين ونصف .

(٤) إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي ، ص ٦٧ (نقلا عن ابن خلدون) .

— سبقت الإشارة إلى التعريف بهذا الإمبراطور ، انظر الفصل الخاص بعناية الخلفاء بالحركة العلمية ما يتعلق بالخليفة عبد الرحمن الناصر .

ومن هؤلاء المؤرخين الذين حظوا برعاية الخليفة الحكم محمد بن يوسف الوراق ، وقد نشأ في القيروان ، ولكنه ما لبث أن شدَّ رحاله إلى الأندلس حيث قرَّبه ، وأدنى منزلته ، وأغدق عليه الصلات الجزيلة ، وأتاح له من الأسباب ما جعله ينصرف إلى البحث والتأليف فصنف له كتباً عديدة في التاريخ والجغرافيا ، ففيما يتصل بالتاريخ ألف كتباً في أخبار ملوك أفريقية وحروبهم والغالبين عليهم ، كما ألف في أخبار مدن أفريقية كثيهرت ، ووهران ، وتنس ، وغيرها^(١) .

كما أن العلامة إسحاق بن مسلمة بن وليد القيني كان متضلعا في تاريخ الأندلس عارفا بأخبارها وسير ملوكها ، وقد ألف في ذلك كتابا بناء على رغبة الحكم المستنصر^(٢) .

وبالإضافة إلى ما تقدم من التصانيف المؤلفة للحكم المستنصر ، ولا نستبعد أن يكون المؤرخ الطبيب عريب بن سعد قد ألف كتابه في التاريخ « صلة تاريخ الطبري » بناء على رغبة الخليفة الحكم المستنصر ونزولا على

(١) الحميدي : الجذوة ، ص ٩٧ - ابن الأبار : التكملة ، ج ١ ، ص ٣٦٦ .

- تيهرت : تنطق تاهرت بفتح الهاء وسكون الراء ، مدينة جزائرية تقع في إقليم وهران ينسب تأسيسها إلى عبدالرحمن بن رستم الأباخي ١٤٤هـ / ٧٦١ م. (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٧ - أحمد عطية الله : القاموس الإسلامي ، ج ١ ، ص ٤٣٣) .

- وهران : مدينة بالجزائر بينها وبين تنس ثماني مراحل. بناها قديما محمد بن أبي عون ومحمد بن عبون وجماعة من الأندلسيين ٢٩٠ هـ وتعرضت في تاريخها للتخريب غير مرة (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ٣٨٥ - ٣٨٦) .

- تنس : مدينة ساحلية جزائرية تقع في منتصف الطريق بين وهران والجزائر وعلى مسيرة ١٢٥ ميلا من هذه الأخيرة وهي بلدة قديمة جدها بعض مهاجري الأندلس إبان القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي (أحمد عطية الله : القاموس الإسلامي ، ج ١ ، ص ٥٠١) .

(٢) ابن الفرغاني : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٧٣ - الحميدي : الجذوة ، ص ١٦٩ - الضبي : البغية ، ص ٢٣٦ - الصفدي : المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٤١٢ .

أمره^(١) . وخاصة إذا علمنا أن عريب المذكور قد ألف كتابه في الطب باسم الخليفة الحكم المستنصر^(٢) .

ولم يكن الخليفة الحكم المستنصر بالذي يقصر باعا عن هؤلاء المؤرخين ، فقد كان على علم واسع ومعرفة عميقة بالتاريخ والأنساب ثقة فيما ينقله^(٣) .

وقد دفعه اهتمامه بعلم الأنساب إلى تقييد الكثير من أنساب أهل بلده ، وإلى تكليف أهل الأقاليم بأن يلحقوا كل عربي اخمل ذكره قبل ولايته ، وأن يصحح أنسابهم نوو المعرفة بذلك ، وقد نسب إليه تأليف في الأنساب^(٤) .

ويشير البغدادي إلى مؤلف له في الأنساب اسمه « أنساب الطالبين والعلويين القادمين إلى المغرب »^(٥) .

ومما يؤكد اهتمامه البالغ بهذا الجانب من التاريخ سؤاله واستفساره عن أنساب الأمم وتواريخهم ، فيذكر أنه في سنة ٣٥٢ هـ وقد عليه رسول من أمير براغوطه^(٦) وكان المترجم عن ذلك الرسول الأديب عيسى بن داوود المسطاسي ، فسأله الحكم المستنصر عن نسب براغوطه ومذهبهم فأفاده بذلك^(٧) .

ولم يألوا الخليفة الحكم جهدا في تشجيع العلماء على البحث ولم يدخر وسعا في ذلك ، بل إن مما يزيدنا إعجابا به وبما أسداه للحركة العلمية - ومنها ميدان التاريخ - ما يذكر عنه أنه كان يعين العلماء على التأليف بما يوفره لهم

(١) أحمد هيكل : الأدب الأندلسي ، ص ١٩٢ - أحمد أمين : ظهر الإسلام ، ج ٣ ، ص ٢٧٥ .

(٢) انظر فيما بعد الحديث عن الطب .

(٣) ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٢ ، ص ٥٦ .

(٤) ابن الأبار : الحلة السيرة ، ج ١ ، ص ٢٠٣ - ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، تحقيق ليفي بروفنسال ، ص ٤١ .

(٥) هدية العارفين ، ج ٢ ، ص ٣٣٣ .

(٦) انظر نسب هذه القبيلة البربرية وأخبارها ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٢٢٣ - ٢٢٤ .

(٧) ابن عذاري : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٢٢٣ .

من كتب العلم ومصادر البحث ليس في الأندلس فقط بل وخارجها أيضا ، فقد أشار ابن الفرضي في مقدمة كتابه « تاريخ علماء الأندلس » إلى اعتماده على كتاب أبي سعيد عبدالرحمن بن يونس المصري في تاريخ مصر والمغرب والذي اعتمد في تأليفه على كتاب في التاريخ أنفذه إليه الحكم المستنصر ليعينه على تأليف كتابه المذكور .

ويتضح لنا من خلال ما قدمه الخليفة الحكم المستنصر من جهود كثيرة في كتابة التاريخ مدى ما له من فضل في هذا الميدان ، وهو ما يتجلى في صفحات الكثير من كتب التاريخ والتراجم والأنساب والتي تؤكد مدى إسهامه العظيم في ازدهار الحركة العلمية بحفزه الملكات على التأليف والبحث العلمي . ولم يكن المنصور بن أبي عامر خالي الوفاض من تشجيع الحركة العلمية والعناية بميدان البحث والتأليف وقد سبقت الإشارة إلى ما صنفه عيسى بن أحمد الرازي من كتب للمنصور في « الوزارة والوزراء » و « الحجاب » . بالإضافة إلى تأليف حسين ابن عاصم - وهو القائم على مكتبة المنصور والمشرف عليها كتابا في التاريخ اسماه « المآثر العامرية » في سيرة المنصور ابن أبي عامر وغزواته وأوقاتها^(١) .

ولا ريب أن عصر الحاجب المنصور ثم ابنه عبدالملك من بعده كان من أعظم العصور قوة وعزة للمسلمين في الأندلس ، وكان لما اتصف به عصر العامريين بوجه عام من قوة ورخاء أثر في انصراف بعض العلماء إلى تأريخ حكمهم وسيرهم وما قاموا به من أعمال ، فصنف المؤرخ عبدالرحمن بن محمد ابن معمر (ت ٤٢٣ هـ) كتابا في « تاريخ الدولة العامرية »^(٢) .

(١) الحميدي : الجذوة ، ص ١٩٣ - الضبي : البغية ، ص ٢٦٧ .

(٢) ابن بشكوال : الصلة ، ج ٢ ، ص ٣٢٨ - البغدادي : هدية العارفين ، ج ١ ، ص ٥١٦ .

ولم يقف الحال في مسيرة البحث التاريخي على التأليف في دولة ما أو عصر ما ، بل نجد بين كتب التاريخ الأندلسية ما صنف في بعض الأسرات الأندلسية التي ارتبط ذكرها بأحداث ووقائع مشهورة فقد اشار ابن حزم إلى بعض الكتب في هذا - المجال ومنها ما هو في أخبار عمر بن حفصون القائم برية ووقائعه وسيره وحروبه ، وكتاب آخر في أخبار عبدالرحمن بن مروان الجليقي الذي كان قاطنا بالجوف ، وكتاب في أخبار قس والتجيين وبني الطويل بالثغر^(١) .

وفي الفترة التي حكم فيها المنصور بن أبي عامر ولد أشهر مؤرخ في الأندلس وهو حيان بن خلف بن حسين بن حيان القرطبي ويكنى أبو مروان (٣٧٧ - ٤٦٩ هـ / ٩٨٧ - ١٠٧٦ م)، وقد نشأ هذا العلامة نشأة علمية حيث تلقى علوم اللغة والأدب على الأديب أبي عمر بن أبي الحباب النحوي صاحب أبي علي القالي ، كما درس على الأديب صاعد بن الحسن الربيعي وأخذ الحديث عن العلامة عمر بن حسين بن نابل وغيره^(٢) .

ونظرا لمكانته العلمية ومعرفته الواسعة بالتاريخ والأدب . فقد تولى بعض المناصب الإدارية والأدبية الهامة ، كمنصب صاحب الشرطة أو صاحب المدينة في قرطبة ، كما ضمَّ إلى ديوان الإنشاء^(٣) .

وتتضح لنا مكانة ابن حيان التاريخية مما خلفه من كتابات ودراسات تاريخية قيمة يأتي في مقدمتها كتابه « المقتبس » ويقع في عشرة أجزاء و « المتين » في تاريخ الأندلس ويقع في ستين مجلدا^(٤) .

(١) المقرئ : النفع ، ج ٢ ، ص ١٧٣ - ١٧٤ .

(٢) ابن بشكوال : الصلة ، ج ١ ، ص ١٥٣ - ١٥٤ - ابن خلكان : الوفيات ، ج ٢ ، ص ٢١٨ - ٢١٩ .

أنخل بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ، ص ٢٠٨ - محمد عبدالله عنان : تراجم إسلامية ، ص ٢٧٢ .

(٣) أحمد هيكل : الأدب الأندلسي ، ص ٣٦٤ - ٣٦٥ - أنخل بالنثيا : المرجع السابق ، ص ٢٠٨ .

(٤) الصفدي : الوافي ، ج ١ ، ص ٤٩ - المقرئ : النفع ، ج ٢ ، ص ٤٩ - المقرئ : النفع ، ج ٣

ص ١٨١ - بطرس البستاني : المرجع السابق ، ج ٧ ، ص ٣٠٣ .

والكتابان المذكوران أهم ما ألفه في تاريخ الأندلس ، وله كتب أخرى في التاريخ ككتاب « البطشة الكبرى في تاريخ الدولة العامرية » ، وكتاب « انتخاب من أخبار القضاة »^(١) .

وما يؤسف له أنه لم يصلنا أي من كتبه كاملا ما عدا قطع من كتابه الأول وهو المقتبس فالقطعة الأولى عثر عليها بروفنسال في خزانة القرويين بفاس ، وتحتوي على تاريخ الأندلس من سنة (١٨٨ - ٢٣٢ هـ / ٨٠٣ - ٨٤٦ م) وتقع في ستين لوحة لم تنشر ولم يعثر عليها بعد وفاة بروفنسال . أما القطعة الثانية فهي محفوظة بخزانة جامع القرويين ، وتقع في خمس وتسعين لوحة ، وتحتوي على تاريخ الأندلس من سنة (٢٣٢ - ٢٦٧ هـ / ٨٤٦ - ٨٨٠ م) . وقام على نشرها وتحقيقها محمود علي مكي .

القطعة الثالثة : وتضم مائة وسبع لوحات وتتناول تاريخ الأندلس من سنة (٢٧٦ - ٣٠٠ هـ / ٨٨٠ - ٩١٢ م) . وقام على نشرها ملشيور انطونيا .

القطعة الرابعة : وتحتوي على تاريخ أربعة أعوام من حكم الخليفة المستنصر من سنة (٣٦٢ - ٣٦٥ هـ / ٩٧٢ - ٩٧٥ م) ، وقام على تحقيقها عبدالرحمن الحجي^(٢) .

وأما القطعة الخامسة : وتعد من أهم القطع بل أهمها جميعا - فقد عثر عليها بين محتويات الخزانة الملكية بالرباط ، وتتعلق جميعها بعصر عبدالرحمن الناصر ، وتبدأ من سنة ٣٠٠ هـ وتنتهي بسنة ٣٣٠ هـ (٩١٢ - ٩٤١ م) ، وقد نشرت هذه القطعة بعناية بعض الأساتذة وهم . ب . ثالميتا و . ف . كورثيبي . و . م . صبح بالمعهد الإسباني العربي للثقافة بمديريد ١٩٧٩ م .

(١) ابن حيان : المقتبس ، تحقيق عبدالرحمن الحجي ، ص ١٤ .

(٢) محمد عبد الله عنان : تراجم إسلامية ، ص ٢٧٧ - ٢٧٨ .

وفي بداية هذه القطعة يتحدث ابن حيان عن الخليفة عبدالرحمن الناصر وأبنائه وتربيتهم وما كان عليه الخليفة من قوة الدين وسعيه في عزته ، وما سلكه في سبيل القضاء على حركة ابن مسره ، ثم يتحدث عن شعراء الناصر في بلاطه وأبرزهم في الشعر .

ويعتمد ابن حيان في كتاباته التاريخية على من سبقه من المؤرخين كالمؤرخ أحمد الرازي وابنه عيسى ، كما ينقل عن ابن الفرضي في كتابه « تاريخ علماء الأندلس » وعن يوسف بن عبدالله الوراق الذي يصفه بأنه حافظ المغرب ، وعن ابن القوطيه ، ومحمد بن حارث الخشني ، ومعاوية بن هشام ، وابن عبدالبر النمري ، ويزداد اعتماده أكثر على آل الرازي وهو ما يتضح لكل مطلع على ما تبقى من كتابه « المقتبس » .

وبالإضافة إلى ما تقدم ، فقد كان ابن حيان يعني عناية شديدة بإيراد الوثائق الرسمية المهمة ، فيورد منها ما لا نجده في أي مصدر من مصادر التاريخ الأندلسي ، ككتاب الحكم بن هشام عن ثورة الربض ، وكتاب الخليفة الناصر الموجه ضد ابن مسره وتعاليمه وغير ذلك^(١) .

وتتجلى في كتابات ابن حيان ما كان عليه من فصاحة وبلاغة ، وأنه كان ينهج في ذلك منهج الالتزام بالصدق والصراحة فيما يقول من غير تحامل أو هو^(٢) .

وأسلوب ابن حيان في كتاباته التاريخية أسلوب رفيع بليغ حتى وصفه نوزي بأنه (يسوق التاريخ مساق من يبدي رأيه وحكمه فيما يعرض من القضايا ، ويبحث عن أسباب الأشياء ويناقشها عن علم وفهم وذكاء) ... ويمتاز

(١) محمد عبدالله عنان : المرجع السابق ، ص ٢٧٥ .

(٢) ابن بشكوال : الصلة ، ص ٢١١ .

ابن حيان إلى ذلك بأسلوب صاف ناصع لا يهبط إلى الركافة التي تثير السخط^(١) .

ولا شك أن ابن حيان بهذا الأسلوب قد استحق ثناء العلماء من معاصريه ومن أتى بعدهم فقد حظي بالتقدير والإجلال ، ونال مكانة رفيعة بين مؤرخي الإسلام ، فهو يقف موقف الند مع المؤرخ المشرقي أبي الحسن علي المسعودي (ت ٣٤٦ هـ / ٩٥٧م) ، والمؤرخ المشرقي الآخر ابن الأثير ، ويجمع في أسلوبه القوى بين البلاغة التي يمتاز بها المسعودي ، وبين روح التحقيق التي يمتاز بها ابن الأثير^(٢) .

أما عن طريقته في الكتابة التاريخية فهي مزيج بين طريقة الفصول ومنهج الحوليات فيما يخص الغزوات والأحداث العسكرية ، ويتخلل ذلك الحديث عن الشخصيات البارزة في ذلك العصر^(٣) .

ويأتي في أواخر عصر الخلافة من المؤرخين العلامة ابن حزم الذي اتصف بتفennه في العلوم والمعارف ومشاركته الواسعة في ميدان البحث والتأليف العلمي ، ففيما يتعلق بالتاريخ فقد أسهم فيه بنصيب وافر من الجهد العلمي الجاد ، فمن ذلك تأليفه كتاب « جمهرة أنساب العرب » الذي وصف بأنه أوسع كتب النسب وأحفلها وأدقها مع الإيجاز ، وقد كان لثقافته التاريخية وإطلاعه الواسع أثر في وقوفه علي أقوم المعلومات عن الأنساب فجمعها ونسقها في كتابه المذكور مع الإشارة إلى أهم الأحداث التاريخية والأدبية وأيام العرب في أسلوب جذاب سهل كما تتضح براعته في دراسة مواطن وأماكن

(١) أنخل بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ، ص ٢١١ .

(٢) محمد عبدالله عنان : تراجم إسلامية ، ص ٢٧٣ - ٢٧٤ .

(٣) محمد عبدالله عنان : المرجع السابق ، ص ٢٨١ .

القبائل العربية في الأندلس ، إلى جانب ما أبداه من غزارة العلم وسعة المعرفة بأنساب بني إسرائيل وتواريخهم^(١) .

ولاشك أنه كان لما تمتع به ابن حزم من ثقافة واطلاع واسع علي الكثير من العلوم كالفقه والحديث والتاريخ والأنساب أثر فيما توصل إليه من نتائج علمية قيمة في ميدان التاريخ والأنساب وأنه كان لاهتماماته بدراسة كتب اليهود والنصارى أثر في ترسيخ معلوماته عن تواريخ اليهود والنصارى ومعرفته العميقة بمذاهبهم وطرائقهم الدينية وهذا ما أزره عند دفاعه عن الاسلام ضد مزاعم أهل الديانات والفرق الأخرى كما يلاحظ في كتابه « الفصل » بالإضافة إلى تسهيل مهمته عند دراسته لأنساب بني إسرائيل وتاريخهم في كتابه عن الأنساب .

ولابن حزم كتاب آخر في التاريخ اسمه « نقط العروس » وقد نشر هذا الكتاب مرات عديدة ويضم معلومات مقتضبة عن خلفاء المشرق والأندلس مرتبة فصولا بحسب جوامع مختلفة تربط بينهم مثل أكثر الخلفاء عمرا ، أو من ولي صبييا منهم^(٢) .

وبالإضافة إلى ذلك فقد ألف رسالة صغيرة في فضل الأندلس ، ولحسن الحظ فقد حفظت من الضياع وهي على صغر حجمها ذات قيمة علمية كبيرة ، فهي توضح لنا ما كان عليه الأندلسيون من علم وأدب ومعارف شتى وما قدموه في حقول المعرفة من تصانيف علمية نفيسة تنم عما بلغته الأندلس آنذاك من ازدهار في ميدان العلوم والآداب^(٣) .

(١) ابن حزم : جهمزة أنساب العرب ، مقدمة المحقق ، ص ١٣ - ١٤ .

(٢) أنخل بالنتيا : المرجع السابق ، ص ٢٢٠ .

(٣) نظرا لأهمية هذه الرسالة في التعريف بجهود الأندلسيين العلمية وما بذلوه من جهود في ميدان التأليف العلمي في مختلف وجوه المعرفة ، فقد رأينا أن نثبتها في آخر الرسالة كملحق .

وتأليف ابن حزم لتلك الرسالة فيه انعكاس لشخصيته العلمية وما تميز به من علم واسع بجهود علماء بلده ووقوفه على كتبهم ، فهو يشير في أكثر من جانب إلى أنه اطلع على الكثير من تأليفهم كقوله - بعد أن أورد عدداً من كتب التاريخ والسير - (فقد رأيت من ذلك كتباً مصنفة في غاية الحسن) وكقوله فيما يتصل بالشعر (ومنها كتب كثيرة جمعت فيها أخبار شعراء الأندلس للمستنصر رحمه الله رأيت منها « أخبار شعراء البيرة »)^(١) .

ونظراً لما كان لابن حزم من جهد وافر في ميدان الدراسات التاريخية ، فقد ألف عبد الحليم عويس كتاباً في نشاطه العلمي في ميدان التاريخ واسمه : « ابن حزم الأندلسي وجهوده في البحث التاريخي والحضاري » ، وهو بلا شك يكشف الكثير عن الجهود العلمية التي بذلها ذلك العلامة البارع في حقل الدراسات التاريخية وما كان له من أثر بارز في ازدهارها .

وكان لصديق ابن حزم عبد الملك بن شهيد إنتاج علمي في التاريخ فقد ألف كتاباً فيه ، يبدو أنه كان كبير الحجم غزير الفائدة إذ وصف بأنه يقع في أكثر من مائة سفر في « الأخبار على توالي السنين بدأ به من عام الجامعة سنة أربعين وانتهى إلى أخبار زمانه المنتظمة بوفاته »^(٢) .

وشارك أهل الذمة في نشاط الحركة العلمية ففي التاريخ ألف الأسقف جودمار الجيروني كتاباً بالعربية عن تاريخ الفرنجة^(٣) .

كما أن حسداي بن إسحاق شبروط الذي تبوأ مكانة سامية في بلاط الخليفة الحكم المستنصر ، كان له دور كبير في ازدهار الحركة العلمية في الطب كما سيأتي ذكره - وإلى جانب الطب اتجه إلى دراسة التاريخ فكان له

(١) انظر ، المقرئ : نفع الطيب ، ج ٣ ، ص ١٧٣ - ١٧٤ - ١٧٥ .

(٢) ابن بشكوال : الصلاة ، ج ٢ ، ص ٣٥٥ .

(٣) زيفريد هونكه : شمس العرب تسطع على الغرب ، ص ٥٠١ .

في ذلك جهد يارز بما سلكه في بعث الدراسات التلمودية ، فينسب إليه أنه أول من فتح لأهل الأندلس من اليهود باب علمهم في الفقه والتاريخ وكانوا قبل ذلك يستندون في معرفة فقه دينهم وسني تاريخهم على إخوانهم من يهود بغداد ، ولكن حسداي كفاهم مؤنة ذلك فاستجلب ما أراد من تواليف اليهود بالمشرق ويسر لهم بذلك معرفة فقههم وتاريخهم^(١) .

وأخيراً فإن ميدان التاريخ والتراجم قد حظى من الأندلسيين بكل اهتمام وعناية بالغين فظهر فيهم مؤرخون لامعون استطاعوا أن يمدوا حركة الدراسات التاريخية بالكثير من الجهود العلمية فاثروا بذلك حقل التاريخ والتراجم والأنساب ، وكان للخليفة الحكم المستنصر دور مهم في ازدهار تلك الدراسات بما كان يبذله من جهود في سبيل ازدهارها من حفز للملكات على التأليف والبحث العلمي ، وما يقدمه من عون في سبيل ذلك ، ولا أدل على ازدهار الدراسات التاريخية وتطورها في عصر الخلافة من هذا العرض السابق للمكتبة التاريخية الأندلسية .

(١) مساعد : طبقات الأمم ، ص ١١٦ - إحسان عباس : المرجع السابق ، ص ٦٨

ب - الجغرافيا

بداية الدراسات الجغرافية وارتباطها بالتاريخ - تأثر جغرافي
الأندلس بكتابات هرويش الجغرافية - أبرز الجغرافيين آنذاك .

أحمد بن محمد الرازي وكتابه الجغرافية - محمد بن يوسف
الوراق وإنتاجه العلمي - أحمد بن عمر العذري وآرائه الصائبة في
الجغرافيا - أحمد بن سعيد الفياض - ابن النظام - كتابات ابن سيده
الجغرافية - ما أورده المجريطي في كتابه غاية الحكيم من
معلومات جغرافية .

شهد ميدان الجغرافيا في عصر الخلافة نشاطا كبيرا يتمثل في الجهود الجغرافية التي تُنم عن المستوى العلمي الطيب الذي بلغه جغرافيو الأندلس آنذاك .

وإذا كان الجغرافي اللامع عبدالله بن عبدالعزيز البكري الذي ظهر في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي يعتبر عمدة الجغرافيين في الأندلس ، فإن من الحق أن نشير إلى أنه يدين بالكثير من معارفه الجغرافية لمن سبقه من علماء عصر الخلافة وهو ما سوف يتبين لنا من خلال هذا العرض الذي نقدمه عن النشاط الجغرافي في هذه الفترة موضوع دراستنا .

وكان علم الجغرافيا يرتبط في الكثير من الأحيان بعلم التاريخ ، فقد ظهر في عصر الخلافة فئة كبيرة من المؤرخين البارزين الذين عنوا بالجغرافيا إلى جانب عنايتهم بالتاريخ ، فالكثير من المؤرخين الذين تحدثنا عنهم من قبل كان لهم إسهام جيد في تنشيط الدراسات الجغرافية كالمؤرخ أحمد الرازي ومعاصره محمد بن يوسف الوراق .

والجدير بالذكر أن بعض جغرافيي الأندلس قد تأثروا بما ورد في كتاب هروشيئش التاريخي وما تطرق إليه من معلومات جغرافية عن الأندلس كان لها أثر في الدراسات الجغرافية عند الأندلسيين فلم يقتصر الجغرافيون الأندلسيون على المعلومات الجغرافية التي أخذوها عن هروشيئش ، بل أضافوا إليها ما اكتسبوه من معلومات توفرت لديهم عن طريق التجربة العلمية من رحلات ومشاهدات للمعالم والظواهر الجغرافية^(١) .

ويبدو أن الجغرافيين الأندلسيين حينما تناولوا ما ورد في كتاب هروشيئش من آراء عن صفة الجزيرة الأيبيرية لم يحاولوا تصحيحها لأنهم كانوا يعتبرونها كمقدمة ولعل السبب في ذلك يعود إلى أنهم عندما وصفوا جغرافية بلادهم

(١) حسين مؤنس : الجغرافية والجغرافيون في الأندلس : مقال بمجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، العدد الثالث ، ج ٧ ، ٨ ، ص ٢١٨ .

سلكوا في ذلك مذهب البلدانين والمسالكيين ، فقسموا البلاد إلى أقاليم وتحدثوا عن المسالك وأطوالها وذلك بما كان لهم من معرفة ببلادهم وبأقاليمها وبمسالكها^(١) .

وعلى الرغم من ظهور طائفة من الجغرافيين البارزين في ذلك العصر ، إلا أن مما يؤسف له أن آثارهم العلمية لم يصلنا منها إلا قطعا متناثرة ونصوصا مبعثرة في بعض المصادر الجغرافية والتاريخية ، والتي اعتمد مؤلفوها في بعض جوانب دراساتهم العلمية على آثار أولئك الجغرافيين .

ويأتي في مقدمة جغرافيي عصر الخلافة العلامة أحمد بن محمد الرازي (٢٧٤هـ - ٣٤٤هـ / ٨٨٧م - ٩٥٥م) الذي كان له دور كبير في رقي الدراسات الجغرافية في الأندلس ، فقد ألف في ذلك كتباً عديدة أبرزها ما ألفه في مسالك الأندلس ومراسيها وأمهاة مدنها والأجناد العربية الستة التي نزلها بعد الفتح^(٢) ، وكان دقيقاً في أوصافه الجغرافية فذكر خواص كل بلد منها وما يتميز به عن البلدان الأخرى وضمن ذلك معلومات لا توجد في مصنفات غيره من الجغرافيين^(٣) .

كما أن كتابه في صفة قرطبة لا يخلو من معلومات جغرافية تتعلق بالصورة الجغرافية للمدينة وتقسيماتها المختلفة مما يلحق الآن بميدان جغرافية المدن .

(١) حسين مؤنس : نفس المقال ، ص ٢١٩ .

(٢) يذكر المقرئ أنه إبان حكم الوالي أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبى كثر أهل الشام الواردين على الأندلس بقيادة بلج بن بشر القشيري وأن قرطبة قد ضاقت بأعدادهم الكبيرة ففرقهم أبو الخطار فأنزل أهل دمشق البيرة لشبهها بها وسماها دمشق ، وأنزل أهل حمص أشبيلية وسماها حمص وأهل قنسرين جيان وسماها قنسرين ، وأهل الأردن ريه ومالقه وسماها الأردن . وأهل فلسطين شذونه وسماها فلسطين ، وأهل مصر تدمير وسماها مصر (نفع الطيب ، ج ١ ، ص ٢٣٧) .

(٣) الحميدي : جذوة المقتبس ، ص ١٠٤ - الضبي : بغية الملتبس ، ص ١٥١ - الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ٧ ، ص ٤٠٢ - ياقوت الحموي : معجم الأديباء ، ج ٢ ، ص ٢٣٤ - ٢٣٥ - عبد الرحمن حميدة : أعلام الجغرافيين العرب ، ص ٢٤٧ .

وقد جانب عبدالرحمن حميدة الصواب في كتابه عن الجغرافيين العرب عندما أشار إلى أن لأحمد بن محمد الرازي كتابا في وصف افريقية والمغرب^(١) .

الحق أن ذلك الكتاب من تأليف محمد بن يوسف الوراق كما سيأتي توضيحه فيما بعد ، ولم يعرف للرازي مصنف بذلك الاسم وقد يكون الأمر قد التبس على الأستاذ المذكور . نظرا للاضطراب الواضح في ترجمته لكل منهما فهو يذكر أن أحمد الرازي شرقي المولد ، وهذا مجانب للصواب ، فأبوه محمد هو المشرقي المولد وليس ابنه أحمد كما يذكر الكاتب . وبالإضافة إلى ذلك فهو يشير إلى أن وفاته كانت سنة ٣٦٣ هـ / ٩٧٣ م وهي السنة التي توفي فيها الوراق^(٢) وأما أحمد بن محمد الرازي فقد كانت وفاته سنة ٣٤٤ هـ / ٩٥٥ م .

وقد تناول أحمد بن محمد الرازي الجغرافيا على أنها علم متمم للتاريخ وما تبقى من نصوص عن معارفه الجغرافية التي بين أيدينا هي في الغالب مقدمة لكتابة في التاريخ « أخبار ملوك الأندلس » وذلك لأن النصوص الجغرافية الباقية والمترجمة إلى البرتغالية والأسبانية تستطرد إلى الحديث عن ملك الأندلس ومن قطنها من الأمم مثل دخول المسلمين إليها^(٣) .

ومن المصادر التاريخية التي حفظت لنا نصوصا جغرافية للرازي كتاب المقرئ نفح الطيب ، حيث أورد المقرئ نصاً من أهم ما خلفه الرازي في هذا الميدان عن جغرافية الأندلس ، ففي بداية هذا النص يشير الرازي إلى موقع

(١) ص ٢٤٧ .

(٢) انظر أعلام الجغرافيين العرب ، ص ٢٤٧ .

(٣) حسين مؤنس : الجغرافية والجغرافيون في الأندلس ، مقال بمجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، العدد الثالث ، ج ٧ ، ٨ ، ص ٢٥٥ - ٢٥٦ ، وانظر ما ذكره ج . س . كولان عما قام به كايانكوس من ترجمة نسخة جغرافية للرازي من البرتغالية إلى الأسبانية (الأندلس ، ص ٧١) .

الأندلس ، وأنها في الإقليم الرابع ، وما لها من خواص طبية تتعلق بتربته وخصوبة أرضه وصفاء هوائه ومدى تأثير المناخ في الأثمار والفواكه والنبات ، ثم يتطرق إلى الشكل الجغرافي للأندلس وأنها مثثة ومعتمدة على ثلاثة أركان . ويصف موقع كل ركن منها ، ثم يصف المناخ وأن الأندلس تنقسم به إلى قسمين في اختلاف الظواهر المناخية من هبوب الرياح ومواقع الأمطار ، وجريان الأنهار ، فهناك أندلسي غربي وأوديته إلى البحر المحيط الغربي ويمطر بالرياح الغربية ، وأندلسي شرقي وتجري أوديته إلى الشرق ويمطر بالرياح الشرقية^(١) .

ومن دلائل النبوغ العلمي في الجغرافيا عند الرازي براعته في وصف الظواهر الجغرافية ، حيث أمدنا بفقرتين في غاية الأهمية الأولى عن أنهار الأندلس والثانية عن جباله .

وقد نفى حسين مؤنس أن يكون الرازي ناقلا وصفه للأنهار والجبال عن اليونان أو اللاتين ، لأن ما وصفه هؤلاء عن الأندلس ما هي إلا معلومات متفرقة متناثرة غير منسجمة ، ومن غير المعقول أن يطلع الرازي على كل ما كتبه من هذه النصوص المتفرقة ثم يجمعه مرتبا منسقا بهذه السهولة . بالإضافة إلى أن أحدا من هؤلاء لم يشير إلى العلاقة بين رياح الأندلس وأمطارها وأنهارها وإلى أهمية هذه الأنهار في الري وإنما تحدثوا فقط عن أهميتها الملاحية توطئة لغزو تلك البلاد فدراستهم بذلك كانت من قبيل الإعداد العسكري لغزو البلاد ، بعكس الرازي الذي يكتب عن بلاده عن علم وخبرة بأحوالها الجغرافية^(٢) .

وحظي أحمد الرازي بمنزلة رفيعة بين علماء عصره ومن أتى بعدهم لما اتصف به من علم غزير وعناية بالغة بالتاريخ والجغرافية ، ولما قدم في ذلك من ضروب التأليف القيمة التي تنم عن مكانته العظيمة حتى وصف بأنه أول من

(١) ج ١ ، ص ١٢٩ - ١٣٠ - ١٣١ . وانظر أيضا . ج . س . كولان ، الأندلس ، ص ٧٣ - ٧٤ .

(٢) الجغرافية والجغرافيون في الأندلس ، مقال بمجلة معهد الدراسات الإسلامية بمديرد ، العدد الثالث ، ج ٧ ، ص ٢٥٨ .

أدخل الجغرافيا الإقليمية إلى الأندلس ، وكذلك اشتهر في أوروبا شهرة واسعة حتى عرف هناك باسم Elmore Elrasis^(١) .

وقد وصف ابن حزم كتاب الرازي في جغرافية الأندلس الذي تحدث فيه عن مسالك الأندلس ومراسيها بأنه بديع في ميدانه ، وأنه اشتمل على الكثير من المعلومات التي تقدر بها عن غيره من كتب الجغرافيا الأندلسية^(٢) .

ومن دلائل تفوق الرازي في ميدان الجغرافيا ، وأهمية ما أورده من معلومات في وصف الأندلس أننا لو أردنا أن نكتب وصفا جغرافيا جامعاً للأندلس لما أضفنا شيئاً إلى ما ذكره هو ، كما أنه لقيمة معلوماته الجغرافية أن اعتمد عليها الأسباب حتى القرن الثالث عشر في حل الكثير من مشكلات التنظيم الإداري التي اعترضتهم فيما استولوا عليه من بلاد المسلمين^(٣) .

وهكذا نلمس ما كان عليه أحمد بن محمد الرازي من معرفة واسعة بالجغرافيا ، وأنه بذلك قد أسدى إلى علم الجغرافيا الكثير من النتائج العلمية القيمة التي تضمنتها أبحاثه ودراساته المهمة .

وإذا كان معلوما لدينا أن الرازي أندلسي ولد في الأندلس وعاش بين سهولها وجبالها ومروجها وأنهارها ، فإن من الطبيعي أن يكون منهجه العلمي في إيراد معلوماته منهج المشاهدة والملاحظة وليس المنهج النظري الذي يكتفي العالم فيه بالسماع والرواية عن الغير ، الأمر الذي يوضح مدى ما كانت عليه معلوماته وكتاباته الجغرافية من صحة وصدق .

(١) اغناطيوس كراتشكوفسكي : الأدب الجغرافي العربي ، القسم الأول ، ص ٦٩ (والجدير بالذكر أن كراتشكوفسكي لم يوضح تفسيراً للأسم الأول ، ويبدو أنه تحريف لكلمة المؤرخ إذا علمنا أنه كان يطلق عليه صفة « التاريخي » فيقال له أحمد بن محمد الرازي التاريخي) - عبد الرحمن حميدة : المرجع السابق ، ص ٢٤٧ .

(٢) المقرئ : نفح الطيب ، ج ٣ ، ص ١٦٠ (نقلا عن رسالة ابن حزم في فضل الأندلس) .

(٣) حسين مؤنس : الجغرافية والجغرافيون في الأندلس ، مقال بمجلة معهد الدراسات الإسلامية بمطريد ، العدد الثالث ، ج ٧ ، ٨ ، ص ٢٦٧ .

ونظرا لقيمة ما خلفه الرازي من الكتابات الجغرافية في وصف الأندلس ، فقد اعتمد عليها من أتى بعده من الجغرافيين كالبكري الذي اقتبس الكثير عنه فيقول البكري عند تعرضه لبعض الظواهر الجغرافية : (وفي جبل المنتلون الطحلب الذي لا يعدل به ، قال أحمد بن محمد بن موسى الرازي .. وهو المقدم في الافاوة المفضل في أنواع الأشنان لا ينبت في شيء من الأرض إلا بالهند والأندلس ..) (١) .

ولم يكن المؤرخ محمد بن يوسف الوراق بأقل إسهاما في ميدان الجغرافيا من معاصره أحمد الرازي فقد أظهر الوراق مهارة كبيرة في التاريخ والجغرافيا معا ، وكان لما تمتع به من علم واسع أثر كبير في إخراجه الكثير من التصانيف التاريخية والجغرافية الهامة والتي كان لها أعظم الأثر في ازدهار تلك الدراسات ، لا سيما إذا علمنا ما كان يكنه الخليفة الحكم المستنصر للوراق من مودة وتشجيع مكناه من الانصراف إلى البحث والتأليف العلمي ، فمما صنّفه الوراق للخليفة الحكم المستنصر من كتب الجغرافية كتاب « مسالك أفريقية وممالكها » (٢) ، وكتب أخرى في أخبار مدن أفريقية سبق أن أشرنا إليها عند الحديث عن جهوده في ميدان التاريخ ، وما من شك أن تلك الكتب تضم الكثير من المعلومات الجغرافية الموثوقة بين ثنايا الكتابات التاريخية .

وكان لنشأة الوراق بالقيروان أثر في تعميق معارفه واتساع علمه عن تاريخ وجغرافية أفريقية ، فاقامته الطويلة بها ، وحياته بين أجوائها اكسبته

(١) المسالك والممالك : تحقيق عبدالرحمن الحجي ، ص ١٢٥ - ١٢٦ (وفي الكتاب نصوص أخرى للرازي نقلها عنه البكري) .

(٢) الحميدي : الجنوة ، ص ٩٧ - الضبي : البغية ، ص ١٤١ - ابن الأبار : التكملة ، ج ٢ ، ص ٦٧١ - الصفدي : الوافي ، ج ٥ ، ص ٢٥١ - ياقوت : معجم الأدباء : ج ٢ ، ص ٢٣٥ - ٢٣٦ - شكيب أرسلان : الحلل السندسية ، ج ٢ ، ص ٧٣ - أنخل بالنثيا : المرجع السابق ، ص ٣٠٩ - آدم ميتز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ، ج ٢ ، ص ١٦ .

معرفة بمسالكها وممالكها وما يتصل بذلك من معارف تاريخية وجغرافية ، وهذا أمر لا مبالغة فيه إذا علمنا أن الكثير من جغرافي العرب اعتمدوا على منهج الملاحظة والمشاهدة في ايراد معلوماتهم عن جغرافية البلدان .

ومما يؤسف له أنه بالرغم من غزارة ما كتبه الوراق في التاريخ والجغرافيا إلا أن مؤلفاته لم تسلم من يد الضياع كما ضاعت غيرها من الكتب في مختلف فروع العلم ، ولم يتبق لدينا مما كتبه إلا نصوص متفرقة في بطون الكتب ، ككتاب المسالك والممالك للبكري ، وكتاب البيان المغرب لابن عذاري .

ويعلل حسين مؤنس تقريب الخليفة الحكم المستنصر لمحمد بن يوسف الوراق وتشجيعه على البحث والتأليف في جغرافية أفريقية والكتابة عن مسالكها وممالكها ، بأن الخليفة الحكم المستنصر كان مشغول البال مهتماً بمحاولات الفاطميين بسط نفوذهم على المغرب وأنه وجد في الوراق خير عارف بأحوال المغرب وشئونه فشجعه على البحث والتأليف بغية الاستعانة بما يؤلف في سبيل درء الأطماع عن تلك المنطقة^(١) .

والحق أن الخليفة المستنصر وإن كان مهتماً بتحركات الفاطميين السياسية والعسكرية في المغرب إلا أن ذلك لا يعني - ونحن نعلم مدى اخلاص الحكم المستنصر للعلم والمعرفة - أن تشجيعه للوراق إنما كان لخدمة الأغراض - السياسية والعسكرية ، وخاصة إذا علمنا أن عصر الخليفة الحكم كان عهد سلام نسبي ، ولم يكن هناك من الخطر الشديد ما يدعو إلى الارتياح والخوف الذي يدفع الحكم المستنصر إلى تحويل دفة البحث العلمي إلى غير وجهته الصحيحة .

(١) انظر مقال : الجغرافية والجغرافيون في الأندلس : مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمadrid ، العدد الثالث ، ج ٧ ، ٨ ، ص ٢٦٩ .

ويعتبر محمد بن يوسف الوراق أول من صنف في الغرب الإسلامي كتاباً بعنوان « المسالك والممالك » ، ومن هذا يتبين لنا أنه كان مسالكياً ، في حين كان أول جغرافي أندلسي وهو أحمد الرازي بلدانيا ، وبالإضافة إلى ذلك يتضح مما اقتبس البكري عن الوراق أنه هو الذي ابتكر مزج الجغرافية بالتاريخ ، فكان يربط بين جغرافية المكان وما اقترن به من أحداث تاريخية ، وهي طريقة يسير عليها البكري في أجزاء كثيرة من مسالكه^(١) .

وظهر في أواخر عصر الخلافة العلامة الجغرافي أحمد بن عمر بن أنس العذري المعروف بابن الدلائي^(٢) من أهل المرية (٣٩٣ هـ - ٤٧٨ هـ / ١٠٠٢م - ١٠٨٥م) ، وكان له اسهام وافر في أكثر من علم ومن بينها علوم الدين وقد أخذ عنه ابن عبد البر النمري وابن حزم الظاهري وغيرهما من العلماء^(٣) .

وقد أظهر العذري مقدرة فائقة في ميدان الجغرافيا ، فكانت له أبحاثا موفقة ودراسات قيمة ، ولكن الأمر المدهش أن من ترجم له كالحميدي والضبي وابن بشكوال لم يتطرقوا إلى دراساته المتعددة في علم الجغرافيا ، بل اكتفوا بالإشارة إلى تضلعه في علم الحديث وغير ذلك من علوم الدين .

وقد ذكر ابن حزم عددا من علماء الجغرافية في رسالته التي كتبها في فضل الأندلس ولكنه لم يذكر العذري أو يشير إليه وإلى نشاطه العلمي^(٤) .

ولكن المهتمين بالدراسات الجغرافية ذكروه في كتبهم ، فالبكري أشار إليه وإلى كتاب « نظام المرجان في المسالك والممالك » ، وكذلك ذكره العلامة

(١) حسين مؤنس : المقال السابق ، ص ٢٧١ .

(٢) الدلائي نسبة إلى دلاية وهي قرية من أعمال المويه . (الحميري : الروض المعطار ، ص ٧٧) .

(٣) ابن بشكوال : الصلة ، ج ١ ، ص ٦٦ - ٦٧ .

(٤) انظر رسالة ابن حزم المذكورة في كتاب نفح الطيب ، ج ٣ ، ص ١٦٣ - ١٧٣ .

الجغرافي المشرقي زكريا بن محمد القزويني (١٢٠٣ م - ١٢٨٣ م) صاحب كتاب « آثار البلاد وأخبار العباد » ونقل عنه الكثير من النصوص الجغرافية المتعلقة بالأندلس .

وقد حفظت لنا قطعة من كتاب العذري قام على تحقيقها عبد العزيز الأهواني وعنوانها نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك .. ، ويشير ضياء الدين الريس إلى أن الأهواني قد أشار في مقدمة دراسته تلك إلى أن الجزء المتبقي يمثل عشر الكتاب ، لأن العذري جعله كتابا كبيرا في المسالك والممالك ، ولكنه في الجزء المنشور لا يسير على طريقة المسالكين ، بل يلاحظ مزجه بين الجغرافيا والتاريخ وأن المادة التاريخية تتخلل كل جزء من أجزاء الكتاب^(١) .

وقد حفظ لنا القزويني الكثير من النصوص الجغرافية للعذري ، ويتضح من خلالها ما كان يتمتع به العذري من معارف واسعة وتمكن عميق في الجغرافيا وبراعة فذة في الوصف الجغرافي فهو إذا وصف كورة فعل ذلك في اتقان وشمول وصدق ، وإذا تحدث عن مدينة صورها تصويرا جليا واضحا وضمن حديثه عنها إشارات مهمة عن أحوال أهلها الاقتصادية والاجتماعية^(٢) .

ويكفي أن ندرس ما نقله القزويني في كتابه « آثار البلاد وأخبار العباد » عن العذري لنلمس مقدرة العذري الجغرافية وجدارته العلمية بالوقوف في مقدمة جغرافي الأندلس على طول تاريخه^(٣) .

(١) الكتب نقد وعرض (أحمد بن محمد بن أنس العذري ، نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك) تحقيق عبدالعزيز الأهواني مطبوعات معهد الدراسات الإسلامية في مدريد سنة ١٩٦٥ م .

(٢) ضياء الدين الريس : نفس المقال والصفحة .

(٣) للوقوف على ما أشرنا إليه انظر آثار البلاد ، ص ٥٠٢ - ٥١٢ ، ٥٤٢ - ٥٤٥ .

وظهر في عصر الخلافة جغرافيون آخرون ولكنهم لم يصلوا في مستواهم العلمي وعطائهم إلى من ذكرناهم ، منهم : أحمد بن سعيد بن أبي الفياض (٣٧٥ هـ - ٤٥٨ هـ / ٩٨٥ م - ١٠٦٥ م) وكان تلميذاً للمقري أبي عمر الطلمنكي ، وقد أُلّف في حقل الدراسات الجغرافية كتاباً يسمى « العبر » نشر ميخائيل الغزيري قطعة منه على أنها للرازي ، كما أُلّف في الجغرافية أيضاً كتاباً عن « الطرق والأنهار » ولكنه ضاع فيما ضاع من كتب الأندلسيين^(١) .

وكان للعلامة عبدالله بن عبدالحكم المعروف بابن النظام نشاط كبير في ميدان الجغرافية وقد اعتمد على ما كتبه في ذلك المؤرخان ابن حيان في المقتبس والمقري في نفح الطيب الذي أورد له الأخير نصاً جغرافياً مهماً حول جغرافية الأندلس وحدودها^(٢) .

ومما تجدر الإشارة إليه أن ابن سيده الأعمى (ت ٤٥٨ هـ / ١٠٦٥ م) ضمن كتابه « المخصص » الكثير من المعارف الجغرافية المتعلقة بالأرض وأوصافها وما يتصل بذلك من خصب وجذب ورمال وانخفاض وارتفاع واستواء وصحة وحرث ، ونبات وكذلك ما يتعلق بالشجر وأوصافها ، والنبات والثمار وغير ذلك من الموضوعات ذات الصلة القوية بعلم الجغرافيا^(٣) .

ولا شك أن ما ورد في كتاب ابن سيده لدليل واضح على ما تمتع به من علم واسع ليس بميدان اللغة فقط وإنما بمظاهر الحياة وما تحويه البيئة ، وأن ما ورد من معلومات عن النبات في كتابه لهو أكثر ارتباطاً بما يدرسه الجغرافيون المحدثون في ميدان الجغرافية الإقليمية .

(١) أنخل بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلس ، ص ٢١٢ .

(٢) انظر ذلك النص في نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٣١ - ١٣٢ - ١٣٣ .

(٣) عمر كحالة : العلوم البحتة ، ص ٢٩٥ - ٢٩٦ .

وإلى جانب من ذكرنا يقف المطالع لمخطوط « غاية الحكيم » لمؤلفه مسلمة الجريطي على الكثير من المعارف الجغرافية ، كأهمية الوقوف على أسرار الكائنات ، وما تضمه الأرض من الحيوان والنبات والأحجار ، ومعرفة الطول والعرض ، وما تمتاز به بعض بقاع الأرض من أنهار وبحار وتربة وأمطار وثلوج وبراري ، وما يقرب منها من خط الاستواء ، وإلى غير ذلك من المعلومات التي تدخل في حقل الدراسات الجغرافية^(١) كما يتحدث في موضع آخر من كتابه عن فصول السنة وهي الربيع والصيف والخريف والشتاء^(٢) .

وبالإضافة إلى ذلك يضم الكثير من المعلومات عن خواص النبات والمعادن وتأثيرها وما يتداوى به منها^(٣) كما يحوي إشارات هامه إلى الوسائل الناجحة في عملية التكيف بين الإنسان وبيئته وإزالة ما قد يعيق راحته ويهدد أمنه وسلامته كتواجد الحيوانات السامة والطريقة المثلى للقضاء عليها ، وإزالتها من بيئة الإنسان إلى غير ذلك من المعلومات القيمة المهمة حول البيئة وتأثيرها في الإنسان .

(١) مسلمة الجريطي : غاية الحكيم (مخطوط) ورقة ٢٦٣ ١ .

(٢) مسلمة الجريطي : نفس المصدر ، ورقة ٨٨ ب ، ١٨٩ ١ .

(٣) مسلمة الجريطي : غاية الحكيم (مخطوط) ورقة ١٣٠٩ ١ .

الرحلات الجغرافية

أبرز من قام بالرحلات الجغرافية ، إبراهيم بن يعقوب الطرطوشي - رحلة الغتيان المغربيين من لشبونة واقتحامهم المحيط الاطلنطي - الاشارة إلى رحلة الخشخاش واقتحامه المحيط الاطلنطي مع عدد من رفاقه القرطبيين - ممن كان له رحلات جغرافية مطرف بن عيسى الغساني الغرناطي .

نشطت الرحلات في القرون اللاحقة لعصر الخلافة حيث برز في ذلك الميدان بعض الرحالة الذين لا تزال شهرتهم تستحوذ على اهتمام الباحثين في ميدان الرحلات كالرحالة ابن جبير الكناني (٥٣٩ هـ - ٦١٤ هـ / ١١٤٤م - ١٢١٧م) .

ورغم ذلك فإن عصر الخلافة لم يخل من بعض النشاط في هذا الميدان الحيوي المهم فممن كان له نشاط في ذلك التاجر اليهودي إبراهيم بن يعقوب الطرطوشي ، وكان عمله الرئيسي جلب الرقيق الأوروبي إلى الأندلس ولعل هذا هو ما فتح له المجال للتجول في أصقاع أوروبا فقام برحلات إلى ألمانيا وبلاد الصقالبة وشمالى أوروبا ، ونظرا لعناية الخليفة الحكم المستنصر بكل ما له صلة بالعلم والمعرفة فقد قرب ذلك التاجر إليه وشجعه على الاستمرار في ارتحاله وكتابة ما يتوصل إليه في ذلك ، ولهذا فقد بعث إبراهيم برسالة إلى الخليفة الحكم المستنصر عن رحلة قام بها إلى ألمانيا أيام الإمبراطور اوتو الكبير على الأغلب ، ومن حسن الحظ أن البكري قد ضمن كتاباته الجغرافية جزءا كبيرا من رسالة الطرطوشي ، وقد عني بهذا الجزء من رسالة الطرطوشي نفر من المستشرقين ككرنك وروزن وجورج ياكوب فنشروه على حدة وترجموه إلى عدة لغات منها الألمانية والروسية والهولندية^(١) .

وفي هذا دلالة علي أهمية ما كتبه الطرطوشي^(٢) عن أحوال الشعوب الأوربية وعاداتها إلى غير ذلك من المعلومات الطريفة والمهمة التي توضح لنا ما كانت عليه أوروبا آنذاك .

(١) حسين مؤنس : الجغرافية والجغرافيون في الأندلس ، مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد - العدد الثالث ، ج ٧ ، ٨ ، ص ٢٧٢ .

(٢) الطرطوشي : نسبة إلى طرطوشة ، مدينة أندلسية بشرق الأندلس بينها وبين البحر الأبيض عشرون ميل ، (الحميرى : الروض المعطار ، ص ١٢٤) .

والقطعة التي أوردتها البكري من رسالة الطرطوشي تصف رحلته إلى شرق أوروبا وكيف عبر البحر الادرياتي . وأنه وصل إلى بلاد « صقالبة الغرب » وزار براج وشرقي ألمانيا ووصل إلى مجد برج وهي مقر إقامة الإمبراطور أوثر . وكيف التقى مع أعضاء سفارة ملك البلغار ثم سيره بحذاء نهر الألب فبلاد الصقالبة حتى وصل إلى اشغارن على مقربة من البحيرة المسماة بذلك الاسم ، ويجد الباحث صعوبة في تحديد خط سيره بدقة نظرا للتحريف الكبير الذي لحق أسماء المواضع في النص^(١) .

والجدير بالذكر أن الطرطوشي في كتاباته الجغرافية قد اتصف بالملاحظة الدقيقة وحب الاستطلاع فكان وصفه رائعا فيما أوردته في تلك الرحلة، فهو يقف كثيرا عند وصفه لأعضاء سفارة ملك البلغار فيصف ملابسه وأخلاقهم وجلالة قدرهم وبأس ملكهم وديانتهم وكيف أن ملكهم حاصر القسطنطينية مما دفع ملكها إلى مداراته وتزويجه ابنته فتتصر من أجل ذلك . وكان اعتماد البكري كبيرا جدا على الطرطوشي فيما يتعلق بوصف أحوال الشعوب الأوروبية والحديث عن بلاد البلغار وعاداتهم^(٢) .

وقد حرص الطرطوشي في التثبت مما توصل إليه في رحلته من معلومات جغرافية وأخبار فالبكري يشير إلى ثبوت وجود مدينة النساء نقلا عن الطرطوشي الذي تأكد له ذلك عندما سأل امبراطور الروم أوتو عن ذلك فأخبره بحقيقة وجودها^(٣) .

ولأهمية ما خلفه الطرطوشي من كتابات جغرافية قيمة فسنورد نموذجا منها مما نقله البكري عنه في وصف بلاد الجليقيين وعاداتهم المعيشية وأخلاقهم.

(١) حسين مؤنس : المقال السابق ، ص ٢٧٣ .

(٢) البكري : المسالك والممالك ، ص ١٧٥ - ٧٦ - ٧٨ .

(٣) البكري : نفس المصدر ، ص ١٧٠ .

يقول البكري : (جملة القول في بلاد الجليقيين والإفرنج وغيرهم من قبائل النصراني إلى بلاد الصقالبة وغيرهم على ما أورده إبراهيم بن يعقوب الإسرائيلي الطرموشي ، قال إبراهيم : بلد الجليقيين سهل جميعه والغالب على أرضهم الرمل ، وأكثر قوتهم الدخن والذرة ومعولهم في الأشرية على شراب التفاح (والبشكة) وهو شراب يتخذ من الدقيق ، وأهله أهل غدر ودناءة أخلاق لا يتنظفون ولا يغتسلون في العام إلا مرة أو مرتين بالماء البارد ولا يغسلون ثيابهم منذ يلبسونها إلى أن تنقطع عليهم ، ويزعمون أن الوسخ الذي يعلوها من عرقهم تنعم به أجسادهم وتصح أبدانهم وثيابهم أضيق الثياب ، وهي مفرجة يبدو من تقاريجها أكثر أبدانهم . ولهم بأس شديد لا يرون الفرار عند اللقاء (في الحرب) ويرون الموت دونه^(١) .

وفي عصر الخلافة الذي تميز برقيه وازدهاره في كل ميدان من ميادين الحضارة وما ترتب على ذلك من اتساع المعارف والرقي الفكري لدى الاندلسيين في ميدان الجغرافيا فقد أدى ذلك إلى رغبة البعض منهم في الوقوف على الحقائق الجغرافية لبعض مظاهر الطبيعة عبر الملاحظة والمعاينة الحسية . فهذه مجموعة من الشبان من مدينة لشبونة وعددهم ثمانية رجال كلهم أبناء عم عزموا على دخول البحر للظلمات ليعرفوا ما فيه وإلى أين انتهاؤه (قابتنوا مركبا وأدخلوا فيه من الماء والزاد ما يكفيهم لأشهر ، ثم دخلوا البحر في أول طاروس^(٢) الريح الشرقية ، فجروا بها نحواً من إحدى عشر يوماً ، فوصلوا إلى بحر غليظ الموج ، كدر الروائح كثير التروش^(٣) ، قليل الضوء ،

(١) المسالك والممالك : (جغرافية الأندلس وأوروبا) ، ص ٨٠ - ٨١ .

(٢) طاروس لفظه غير عربية ومعناها هبوب الريح (شكيب أرسلان : الحلل السندسية ، ج ١ ، ص ٩٦) .

(٣) التروش قد تكون مأخوذة من فعل ترش أي ساء خلقه فيكون هذا المعنى مناسباً لسياق الكلام (شكيب أرسلان : الحلل السندسية ، ج ١ ، ص ٩٦) .

فايقنوا بالتلف ، فردوا قلعههم في اليد الأخرى ، وجروا في البحر في ناحية الجنوب اثني عشر يوما ، فخرجوا إلى جزيرة الغنم ، وما فيها من الغنم ما لا يأخذه عد ولا تحصيل ، وهي سارحة لا ناظر لها ولا راع ، فقصدوا الجزيرة ونزلوها فوجدوا عين ماء جارية ، عليها شجرة تين بري ، فأخذوا من تلك الغنم فذبحوها فوجدوا لحومها مرة لا يقدر أحدهم على أكلها ، فأخذوا من جلودها وساروا مع الجنوب اثني عشر يوما إلى أن لاحت لهم جزيرة ، فنظروا فيها إلى عمارة وحرث ، فقصدوا إليها ليروا ما فيها ، فما كان إلا غير بعيد حتى أحيط بهم في زوارق ، فأخذوا وحملوا إلى مدينة على ضفة البحر ، فانزلوا بها في دار ، فرأوا بها رجالاً شقراً زعراً شعورهم سبطة ، وهم طوال القدود ، ولنسائهم جمال عجيب ، فاعتقلوا في بيت ثلاثة أيام ثم دخل عليهم في اليوم الرابع رجل يتكلم باللسان العربي ، فسألهم عن حالهم وفيهم جاؤا ، وأين بلادهم ، فأخبروه بكل خبرهم فوعدهم خيراً ، وأعلمهم أنه ترجمان فلما كان في اليوم الثاني من ذلك اليوم احضروا بين يدي الملك ، فسألهم عما سألهم عنه الترجمان فأخبروه بما أخبروا به الترجمان بالأمس ، وأنهم اقتحموا البحر ليروا ما فيه من العجائب وليقفوا على نهايته ، فلما علم الملك ذلك ضحك وقال للترجمان : أخبر القوم أن أبي أمر قوماً من عبيده بركوب هذا البحر ، وأنهم جروا في عرضه شهرا إلى أن انقطع عنهم الضوء وانصرفوا من غير فائدة تجدى ، ثم وعدهم خيرا وصرفوا إلى موضع حبسهم إلى أن بدأ جري الريح الغربية ، فعمر بهم زورق وعصبت عيونهم وجرى بهم في البحر برهة من الدهر .

قال القوم : قدرنا أنه جرى بنا ثلاثة أيام بلياليها ، حتى جئ بنا إلى البر فأخرجنا وكتفنا إلى خلف ، وتركنا بالساحل إلى أن تضاحى النهار ، وطلعت الشمس ونحن في ضنك وسوء حال من شدة الكتاف ، حتى سمعنا ضوضاء وأصوات ناس فصحننا بجملتنا فاقبل القوم إلينا فوجدونا بتلك الحال السيئة .

فحلوا وثاقنا وسألونا فأخبرناهم بخبرنا وكانوا برابر . فقال لنا أحدهم :
أتعلمون كم بينكم وبين بلدكم ؟ فقلنا : لا . فقال : مسيرة شهرين : فقال زعيم
القوم : وأسفي فسمي المكان الى اليوم آسفي ، وهو المرسى الذي في أقصى
المغرب^(١) .

ورغم اشتهار هذه الحادثة الجغرافية المهمة عند الكثير من جغرافي
المسلمين ابتداءً من الإدريسي ومن أتى بعده من الجغرافيين كالعلامة أبو حامد
الغرناطي والعمرى والحميري والذين نقلوها أساساً عن الإدريسي وما تنسم به
من دلائل الصحة والصدق إلا أن كراتشكوفسكي خلع عليها الكثير من
التشكيك والأساطير ، فأشار إلى أن هذه القصة تدخل في حقل الأدب الشعبي
للقرون الوسطى ، وأن أحد العلماء وهو دي خويه قد استطاع أثناء تحليله
للأساطير الأوروبية المبكرة عن رحلة القديس براندان أن يكشف الكثير من نقاط
الشبه بين القصتين مما يشير إلى مصدر مشترك^(٢) .

والحق أن هذه الرحلة التي قام بها الأندلسيون كانت في ميدان الحقيقة
أكثر منها في مسرح الأسطورة والإدعاء كما زعم البعض ، بل إن فيما أورده
كراتشكوفسكي بصدد هذا الحادث فيه رد عليه وعلى محاولاته في الانتقاص
من هذه الخطوة الجريئة للأندلسيين في ميدان الرحلات والمغامرات التي فتحت
الباب أمام الكشوفات الجغرافية لقارة امريكا ، فيقول كراتشكوفسكي : (ورغما
عن هذا فقد اعتقد المتخصصون في جغرافيا العصور الوسطى أن هذه الرحلة
ربما ساهمت في الحث على الرحلات المتأخرة التي قام بها الملاحون الأوروبيون

(١) الحميري : الروض المعطار ، ص ١٧ - ١٨ .

(٢) الأدب الجغرافي العربي : القسم الأول ، ص ١٣٧ .

في المحيط الإطلنطي^(١)، وفي اعتراف هؤلاء رد كاف على مزاعم كراتشكوفسكي ودحض لأقواله فإذا كان تأثير هذه الرحلة بهذه الصورة الجلية فمن الأولى أن تنتفي عنها مزاعم الإدعاء والخيال .

ويعلق عمر الدقاق على هذه الحادثة بتسائله عن هؤلاء الأقوام الذين ورد وصفهم في النص بشقرة ألوانهم وشعورهم السبطة وقنودهم الطويلة - هل هم السكان الأصليون لقارة أمريكا الذين أطلق عليهم كولومبوس فيما بعد الهنود الحمر ؟ أو ليس من المحتمل أن تكون مسيرة هؤلاء الرحالة عبر البحر هذه المدة التي تبلغ ٣٥ يوماً قد قادتهم إلى شواطئ العالم الجديد ؟ وهي مدة كافية للوصول إلى هناك^(٢) .

وقبل هذه الحادثة كان للأندلسيين مغامرة بحرية ولكنها لم تكن بحجم ماتلاها، فقد أورد المسعودي خبراً عن أحد فتیان قرطبة اسمه الخشخاش وأنه جمع إليه بعض رفاقه من الفتیان المتحمسين وأغراهم باقتحام المحيط الإطلنطي ومعرفة حقيقته وأبعاده فاستعدوا لذلك بتهيئة المراكب والزاد ثم ولجوا المحيط وغابوا مدة طويلة ثم عادوا من رحلتهم بالكثير من الغنائم . وذاع خبر هذه الرحلة بين الأندلسيين وتناقلوها زمناً طويلاً^(٣) .

ولا نعلم بالتحديد في أي وقت تم هذا الحدث المهم الذي كان فاتحة لمغامرت مشابهة وإن كان كراتشكوفسكي قد أشار إلى احتمال كونها حدثت في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي^(٤) .

(١) نفس المراجع والقسم والصفحة .

- في هذا الصدد انظر التعليق المهم الذي كتبه شكيب أرسلان في الطل السندسية ، ج ١ ، ص ٩٢ - ٩٣ - ٩٤ - ٩٥ - ٩٦ .

(٢) مغامرة العرب عبر بحر الظلمات « الإطلنطي » (مقال نشر بمجلة الفيصل العدد ٤٦ ، ربيع الثاني سنة ١٤٠١ هـ ، ص ٧٠ .

(٣) مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ج ١ ، ص ١١٩ - عمر الدقاق : المثال السابق ، ص ٦٩ .

(٤) المرجع السابق ، القسم الأول ، ص ١٣٦ .

وفيما تقدم إشارة بيّنة إلى النضوج العلمي والتطلع العميق إلى الحقيقة العلمية لدى أهل الأندلس ، وكيف أن هؤلاء الأشخاص سواء الخشخاش ورفاقه أو من أتى بعدهم كأبناء العمومة السالفي الذكر ، تحملوا أخطار البحر وأعباء الرحلة وأهوالها في ذلك المحيط من أجل الحقيقة العلمية التي سعوا إليها ومعرفة ما يكون عليه بحر الظلمات (المحيط الاطلسي) وحدود انتهائه .

وهي بلا شك محاولة عظيمة في ميدان الكشف الجغرافي تلاها الكثير من المحاولات الكشفية باقتحام ذلك المحيط والرغبة في معرفة أسرارها وما يكون بعده ، وبهذا فالأندلسيون كانوا أول من طرق هذا الميدان ، ولا ريب أن ما توصلوا إليه من معلومات في هذا الميدان قد كشف الستار وأماط اللثام عن الغموض الذي كان يحجب بحر الظلمات ، فاستفاد الأوروبيون من ذلك وبنوا معلوماتهم عن ذلك المحيط على ما وصلهم من العرب في ذلك ، ومن الجحود وغمط الحق أن لا يذكر للمسلمين فضل في اكتشاف القارة الأمريكية وهم أسبق الناس إلى محاولات الكشف الجغرافي لتلك القارة .

ونسب إلى العلامة مطرف بن عيسى الغساني الغرناطي (ت ٢٧٧ هـ / ٩٨٧ م) العديد من الرحلات الجغرافية ، فهو قد قام بالتجوال الطويل في البلدان المختلفة في المشرق وجلب معه إلى الأندلس علما كثيرا ، وكانت له منزلة عالية في بلاط الخليفة الحكم المستنصر ، وألف له كتابا في الجغرافيا اسمها « المعارف - في أخبار كورة البيرة وأهلها ، وبوائرها ، وأقاليمها وغير ذلك من منافعها » ووصف هذا الكتاب بالقيمة العلمية الكبيرة وعظم الفائدة^(١) .

(١) ابن بشكوال : الصلة ، ج ٢ ، ص ٦٢٢ .

— في ط أوروبا « وفوائدها » ، وفي ط العطار « وبوائدها » نفس المصدر والجزء والصفحة ، ح رقم ١ .

وقد أشار بالنتيـا إلى هذا العلامة الجغرافي ووصفه بأنه صاحب رحلات وأسفار^(١)، ولكن للأسف لم تمدنا المصادر التي ترجمت له بمعلومات كافية عن رحلاته وتـوله في البلدان .

وخلصة القول أن ميدان الجغرافيا والرحلات شهد نشاطا طيبا ، وقد نجم عن ذلك إثراء هذا الميدان بعدد من التصانيف العلمية التي تتضمن ما توصل إليه أولئك الجغرافيون والرحالة من علماء عصر الخلافة من دراسات كانت بمثابة القاعدة لما حدث فيما تلاه من عصور من جهود جغرافية كان لها أعظم الأثر في تطور المعارف الجغرافية وتوسيع آفاق البحث في ميدان الجغرافيا .

(١) تاريخ الفكر الأندلسي ، ص ٢٨٦ .

جـ - الفلسفة

بداية الاشتغال بالفلسفة وأسباب تأخره - أثر الرحلات العلمية بين
الأندلس والمشرق في نهضة الدراسات الفلسفية - ابن مسرة الفيلسوف
وما آل إليه أمره - ابن الكتاني - ابن البغونش - نشاط أهل الذمة
في ميدان الفلسفة - موقف المنصور من الفلسفة وما نجم عنه - ابن
حزم ودراساته الفلسفية ودوره في الكشف عن نظرية المعرفة -
تفسير ابن حزم الفلسفة في دحض آراء الفلاسفة الملحدين .

خلت اسبانيا من الاشتغال بالفلسفة فيما قبل الإسلام ، فلم يعرف عن أهلها الاهتمام بهذا العلم والاشتغال به ، ولم تزل على هذه الحالة عاطلة من الفلسفة حتى فتحها المسلمون - ٩٢ هـ / ٧١٠ م ، واستمر الحال على هذه الصورة إلى أن توطد الملك لبني أمية فانصرف الناس إلى العلوم ومن بينها الفلسفة^(١) .

ولم تشهد الأندلس قبل عصر الخلافة نشاطا ملحوظا في ميدان الفلسفة إلا ما يذكر عن الأمير عبدالرحمن الأوسط من أنه كان مهتما بالعلم وجمع الكتب راغبا فيما يختص منها بالفلسفة وعلوم الأوائل ، وأنه كان يبعث في اقتنائها من خارج الأندلس ، ولهذا ينسب إليه أنه أول من أدخل الفلسفة الأندلس^(٢) .

ويمكن أن نرجع السبب في ضعف الاشتغال بالفلسفة في الأندلس فيما قبل عصر الخلافة إلى أمور أهمها : انشغال الأندلسيين آنذاك بالدراسات الدينية كالحديث والفقه والدراسات اللغوية والأدبية ، إذ كانت هذه العلوم جل ما استحوذ على اهتمامهم وعنايتهم ولذلك لم يكن أمامهم متسع لدراسة الفلسفة وعلوم الأوائل .

كما أن الأندلسيين آنذاك كانوا ينظرون للفلسفة نظرة الكراهية وعدم الاستحسان ، بل كانوا ينقمون على من يشتغل بها فهي بهذا : (علم ممقوت بالأندلس لا يستطيع صاحبه إظهاره فلذلك تخفى تصانيفه)^(٣) .

ولا غرابة في ذلك فإن ما عرف به فقهاء المالكية من تشبث بأحكام الشريعة والتزام بها قد دفعهم إلى محاربة كل ما من شأنه الخروج على شرائع

(١) مساعد : طبقات الأمم ، ص ٨٣ - ٨٤ .

(٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٥٥٦ .

(٣) المقرئ : النفع ، ج ٣ ، ص ١٨٦ (نقلا عن ابن سعيد في تذليله على رسالة ابن حزم في فضل الأندلس) .

الدين وتعاليمه فقد حاربوا علم الكلام بل هاجموا أصحاب المذاهب الأخرى التي تحاول فرض وجودها ، إلى جانب المذهب المالكي في الأندلس وإذا كان الأمر كذلك تبين لنا عمق الكراهية والتبرم الشديد لغير المألوف من المذاهب الدينية والأفكار الفلسفية .

ومن الطبيعي وعلم الفلسفة يتضمن فيما يتضمنه الكثير من الدراسات الفلسفية حول الإنسان والكون والعدم والوجود إلى غير ذلك من المسائل التي تستند في تعريفها وتوضيحها على الاجتهادات العقلية لبعض الفلاسفة ممن لا يعطي جانب الإيمان بالله أي نصيب في ذلك ، وهو أمر يترتب عليه اقحام النفس الإنسانية في ميدان الضلال والانحراف العقائدي ، وبالتالي يتسم العديد من مسائل الفلسفة بسمة الإلحاد والخروج على الدين ، وهذا بلا شك هو الدافع الحقيقي الذي جعل الفلسفة مذمومة ممقوته في نظر الأندلسيين (فإنه كلما قيل : فلان يقرأ الفلسفة أطلقت عليه العامة اسم زنديق ... وقيدت عليه أنفاسه فإن زل في شبهة رجموه بالحجارة أو أحرقوه قبل أن يصل أمره للسلطان ، أو يقتله السلطان تقربا لقلوب العامة وكثيرا ما يأمر ملوكهم بإحراق كتب هذا الشأن إذا وجدت)^(١) .

وعليه فإن من كان يشتغل بالفلسفة في الأندلس كان يتهم بالكفر والزندقة وهذا حال بلا شك دون اقبال العلماء في الأندلس على الاشتغال بالفلسفة .

وعلى الرغم من ذلك فقد وجدت الفلسفة في الأندلس أتباعا ودارسين لها ، وكان هؤلاء يمارسون الطب ودراسة الفلك والرياضيات وعلم الكلام ، تسترا

(١) المقرئ : النفح ، ج ١ ، ص ٢٢١ ، وانظر في ذلك أحمد أمين : ظهر الإسلام ، ج ٣ ، ص ٢٣٤ والسيد عبدالعزيز سالم : قرطبة حاضرة الخلافة ، ج ٢ ، ص ٢١٦ واحسان عباس : الأدب الأندلسي ، ص ٦٣ - وأحمد الزيات : تاريخ الأدب العربي ، ص ٢٨٧ .

بتلك العلوم من باب التقية والتخفي تحت ستارها لدرء نقمة العامة والفقهاء عليهم، وهذا ما تلحظه في سير البعض من المشتغلين بالفلسفة كابن مسرة^(١) .

وكان للرحلات العلمية إلى المشرق أثر في اقتباس الأندلسيين لما هنالك من تيارات كلامية ، وأفكار فلسفية . وقد سبقت الإشارة إلى ارتحال يحيى بن يحيى المعروف بابن السمينه إلى المشرق ولقائه لعلماء الكلام وأخذه كتبهم وتأثره بأفكارهم وأقوالهم ونقله كل ذلك إلى وطنه الأندلس^(٢) .

كما أن عمرو بن أحمد الكرمانى من علماء عصر الخلافة رحل إلى المشرق حيث تلقى علومه في الطب والفلسفة على علماء المشرق ثم عاد إلى الأندلس وهو يحمل رسائل اخوان الصفا ، وقد نسب إليه أنه أول من أدخلها إلى الأندلس^(٣) .

ومن الحق أن نقول إن عهد الخليفة الحكم المستنصر كان يتسم بالازدهار العام في أبواب المعرفة ومنها الفلسفة ، وكان لعنايته بالكتب واهتمامه بجمعها أن دخلت الأندلس الكثير من الكتب ، من بينها كتب الفلسفة (فكثر تحرك الناس في زمانه إلى قراءة كتب الأوائل وتعلم مذهبهم)^(٤) .

(١) انظر الخشنى : تاريخ علماء الأندلس (مخطوط) ورقة ١١٥ ب .

(٢) ابن الفرسي : تاريخ علماء الأندلس ، ج ٢ ، ص ١٨٨ .

(٣) صاعد : طبقات الأمم ، ص ٩٧ - القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ٢٤٣ - ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٤٨٤ - ٤٨٥ - عمر فروغ : تاريخ الفكر العربي ، ص ٥٨٩ - أحمد الزيات : تاريخ الأدب العربي ، ص ٣٨٧ ، أنخل بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي (على الرغم من أنه يذكر ص ١١ أن مسلمة المجريطي هو الذي نقل رسائل اخوان الصفا إلى الأندلس إلا أنه يعود ، ص ١٧ ، فيذكر أن الكرمانى هو الذي أدخلها إلى الأندلس والحق ما أشرنا إليه أعلاه لتضافر المصادر التاريخية على ذلك) .

(٤) صاعد : طبقات الأمم ، ص ٨٨ .

وهكذا نجد أن الاحتكاك العلمي بين الأندلسيين والمشاركة إلى جانب دخول كتب الأوائل ومن بينها كتب الفلسفة إلى الأندلس قد أثر في انصراف الناس إلى دراسة الفلسفة والاشتغال بها .

وأول من نسب إليه الاشتغال بالفلسفة محمد بن عبدالله بن مسرة القرطبي (٢٦٩ هـ - ٣١٩ هـ / ٨٨٢ م - ٩٣١ م) . وكانت له آراء فلسفية وطريقة انتهجها في بث أفكاره وأقواله بين تلاميذه .

ويشير إليه ابن الفريسي بقوله : (وكان يقول بالاستطاعة ، وإنفاذ الوعيد ، ويحرف التأويل في كثير من القرآن وكان مع ذلك يدعي التكلم على تصحيح الأعمال ومحاسبة النفوس على حقيقة الصدق في نحو من كلام ذي النون الأحميمي وأبي يعقوب النهرجوري ، وكان له لسان يصل به إلى تأليف الكلام ، وتمويه الألفاظ وإخفاء المعاني)^(١) .

وكان ابن مسرة قد جلب عليه نقمة العامة وسخط الفقهاء ، فاتهموه بالزندقة والخروج على الدين ، فخرج هاربا من الأندلس إلى المشرق حيث اشتغل بملاقة أهل الكلام وأصحاب الجدل من المعتزلة وغيرهم ، ثم رجع إلى الأندلس في ثوب الزاهد المتنسك فاقبل عليه الناس ليأخذوا عنه علومه إلا أنه ما لبث أن انكشف مذهبه فانقبض عنه البعض وتمادى البعض الآخر في صحبته والأخذ عنه^(٢) .

وقد سبق القول إلى الحديث عن آرائه في علم الكلام وما انتهى إليه أمره وأمر أتباعه^(٣) وإذا تعدينا ابن مسرة إلى غيره من المشتغلين بالفلسفة لتبين لنا

(١) تاريخ علماء الأندلس ، ج ٢ ، ص ٣٩ .

(٢) ابن الفريسي : نفس المصدر والجزء والصفحة ..

(٣) للوقوف على آراء ابن مسرة ومنهجه الفلسفي انظر : الخشني : تاريخ علماء الأندلس (مخطوط) ورقه ١١٥ ب . ومساعد : طبقات الأمم ، ص ٢٨ ، وابن الأبار : التكملة ، ج ١ ، ص ٥٩٢ ، وانخل بالنشيا : تاريخ الفكر الأندلسي ، ص ٣٢٩ - ٣٣٠ ، احسان عباس : الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبه ، ص ٣٤ وما بعدها .

تقيد الكثير منهم بما أملتة الشريعة الإسلامية من تعاليم وعدم الخروج عليها ، فمن هؤلاء أبو عبدالله محمد بن الحسن المعروف بابن الكتاني (ت ٤٢٠ هـ - ١٠٢٩ م) الذي كان عارفا بالطب ماهراً في الفلسفة والمنطق ووصف بالذكاء وجودة الفهم في الاشتغال بتلك العلوم^(١) .

وكان لهذا الفيلسوف مشاركة جمة في ميدان التأليف فألف العديد من الكتب والرسائل ، وأثنى عليه وعلى تصانيفه في الفلسفة ابن حزم فقال (وأما رسائل أستاذنا أبي عبدالله محمد بن الحسن المذحجي في ذلك فمشهورة متداولة وتامة الحسن فائقة الجودة عظيمة المنفعة)^(٢) .

ولا شك أن ما ذكره ابن حزم حول تداول رسائل الكتاني الفلسفية بين الناس لهو مؤشر هام على ما أصبح للفلسفة من منزلة في الأوساط العلمية الأندلسية .

هذا ويتضح لنا أن الجانب الفلسفي الذي كان يلقي القبول بين الأندلسيين كان فيما يتعلق بالآراء الصائبة في ميدان الأدب والأخلاق ، يدل على ذلك ما أورده ابن حزم عن اسناده المذكور فيقول : (سمعتة يقول لي ولغيري : « إن من العجب من يبقى في العالم دون تعاون على مصلحة ، أما يرى الحراث يحرق له ، والبناء يبني له ، والخراز يخز له ، وسائر الناس كل يتولى فيه شغلا له فيه مصلحة وبه إليه ضرورة .

أما يستحي أن يبقى عيالا على كل من في العالم ؟ ألا يعين هو أيضا بشئ من المصلحة » .

(١) المقرئ : النفع ، ج ٣ ، ص ١٧٥ (نقلا عن رسالة ابن حزم في فضل الأندلس) .

(٢) المقرئ : النفع ، ج ٣ ، ص ١٧٥ (نقلا عن رسالة ابن حزم في فضل الأندلس) .

قال أبو محمد : ولعمري إن كلامه هذا لصحيح ، وقد نبه الله تعالى عليه بقوله : ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ﴾ فكل ما لمخلوق فيه مصلحة في دينه أو فيما لا غنى به عنه في دنيا فهو بر وتقوى (١) .

ونلمس من خلال ما تقدم أن ما كان من الفلسفة مختصا بما يوافق الشرع من الحث على محاسن الأخلاق وجميل الآداب فقد قوبل من الأندلسيين بالاستحسان والتقدير . أما ما يتعارض مع العقيدة فكان يلقى المعارضة الشديدة ، والتشهير به وبصاحبه ورميه بالزندقة من الفقهاء والمجتمع الأندلسي .

وكان لأبي عثمان سعيد بن محمد بن البغونش (ت ٤٤٤ هـ / ١٠٥٢م) آراء في الفلسفة تتم عن براعته فيها وحسن سيرته ، وقد وصفه القاضي صاعد بقوله : (لقيت منه رجلا عاقلا جميل الذكر والمذهب حسن السيرة نظيف الثياب ذا كتب جليلة في أنواع الفلسفة وضروب الحكمة وتبينت منه أنه قد قرأ الهندسة وفهمها والمنطق وضبط كثيرا منه ثم أعرض عن ذلك وتشاغل بكتب جالينوس وجمعها ...) (٢) .

ونلمس من خلال سير الكثير من المشتغلين بالفلسفة اتصافهم بحسن السيرة وجميل الأخلاق وهذا بلا شك يعطينا انطبعا عن نوعية الدراسات الفلسفية التي كانوا يدرسونها ومدى تأثيرها في أخلاقهم .

كما وأسهم أهل الذمة في ميدان الفلسفة ، وممن اشتغل بذلك منهم اسحاق قطار (ت ٤٤١ هـ / ١٠٥٦م) وكان ماهرا في المنطق عارفا بالفلسفة ملماً بمسائلها (٣) .

(١) الحميدي : جنوة المقتبس ، ص ٤٩ .

(٢) طبقات الامم ، ص ١٠٩ - ١١٠ .

(٣) صاعد : نفس المصدر ، ص ١١٧ .

وكان يماثله في ذلك الفيلسوف والطبيب اليهودي منجم بن الفوال السرقسطي الذي عاصر أحداث الفتنة التي اجتاحت قرطبة عقب زوال النفوذ العامري ، وكان يتمتع بعلم واسع في الطب والمنطق وسائر علوم الفلسفة ، بالإضافة إلى نشاطه في مجال التأليف فقد ألف في الفلسفة كتابا اسماه « كنز المقال » رتبته على المسألة والجواب وضمنه معارف جمّة في قوانين المنطق واصل الطليعة^(١) .

وعندما تولى الحاجب المنصور بن أبي عامر الأمر في عهد الخليفة هشام ابن الحكم (عمد أول تغلبه عليه إلى خزائن أبيه الحكم الجامعة للكتب .. وأبرز ما فيها من ضروب التأليف بمحضر خواص من أهل العلم والدين وأمرهم بإخراج ما في جملتها من كتب العلوم القديمة المؤلفة في علوم المنطق وعلوم النجوم وغير ذلك من علوم الأوائل حاشا كتب الطب والحساب فلما تميزت من سائر الكتب المؤلفة في اللغة والنحو .. أمر بإحراقها وإفسادها ، فأحرق بعضها وطرح بعضها في آبار القصر وهيل عليها بالتراب والحجارة ، وغيرت بضروب من التغيير ، وفعل ذلك تحببا إلى علوم الأندلس وتقبيحا لمذهب الخليفة الحكم عندهم^(٢) .

ومن الحق أن نقول أن الحاجب المنصور رغم ما استهدفه من عملية إبادة كتب الفلسفة هو اكتساب ثقة الفقهاء توطيدا لمكانته السياسية إلا أن ذلك لا يعني بالضرورة أنه كان مشجعا لتلك الدراسات مؤيدا لأهلها من الفلاسفة يعمل على ذلك ما وصفه به المؤرخ ابن عذاري من أنه كان أشد الناس معاداة لمن علم أن لديه شيء من الفلسفة والجدل في الاعتقاد وممارسة علم التنجيم والاستخفاف بشيء من الشريعة الإسلامية^(٣) .

(١) البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٢٩٣ .

(٢) مساعد : طبقات الأمم ، ص ٨٨ - ٨٩ - زكريا هاشم : فضل الحضارة الإسلامية على العالم ، ص ٥٥٦ .

(٣) البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٢٩٣ .

وكان من نتائج موقف المنصور هذا من الفلسفة أن ضعف نشاط الفلاسفة وضمحل انتاجهم العلمي فأثر الكثير منهم السكون والبعد عن الاشتغال بمسائل الفلسفة كما تستر الكثير منهم بالاشتغال بعلوم أخرى كالطب والرياضيات ولم يعوبوا إلى نشاطهم إلا بعد زوال الخلافة الأموية^(١) .

وبالإضافة إلى ذلك فقد أثر الكثير من الفلاسفة الهجرة إلى خارج وطنهم الأندلس وفي مقدمتهم الفيلسوف عبدالرحمن بن اسماعيل المعروف بالاقليدي الذي كان ماهرا في علمي الفلسفة والمنطق حاذقا فيهما ، فلما وقف المنصور موقفه المعادي للفلسفة اضطر خوفا على نفسه إلى الرحيل إلى المشرق^(٢) .

كما أن الفيلسوف سعيد بن فتحون المعروف بـ « الحمار » السرقسطي كان له نشاط وافر في ميدان الفلسفة والأدب واللغة والموسيقى . وقد ألف في الفلسفة كتابا في المدخل إلى علوم الفلسفة أسماه « شجرة الحكمة » وصنف رسالة في تعديل العلوم ، وقد نال هذا الفيلسوف على يد الحاجب المنصور شيئا من التنكيل حيث سجنه ثم أطلقه بعد ذلك مما كان له أثر على نفسيته فخرج من الأندلس إلى صقلية^(٣) .

والجدير بالذكر أن هذا الفيلسوف كان له مكانة علمية رفيعة وانتاج علمي نفيس استطاع به أن يحتل منزلة سامقة بين علماء عصره حتى قال فيه ابن حزم (وأما الفلسفة فأنني رأيت فيها رسائل مجموعة وعيونا مؤلفة لسعيد بن فتحون السرقسطي المعروف بالحمار دالة على تمكنه من هذه الصناعة)^(٤) .

(١) صاعد : طبقات الأمم ، ص ٨٨ - ٨٩ - زكريا هاشم : فضل الحضارة الإسلامية على العالم ، ص ٥٥٦ .

(٢) صاعد : نفس المصدر ، ص ٩١ - القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ٢٢٥ .

(٣) صاعد : طبقات الأمم ، ص ٩٢ .

(٤) المقرئ : نفح الطيب ، ج ٣ ، ص ١٧٥ (نقلا عن رسالة ابن حزم في فضل الأندلس) .

وفي أواخر عصر الخلافة برز العلامة ابن حزم في ميدان الفلسفة كما برز في علوم أخرى وكانت له آراء وأقوال قيمة في الفلسفة ضمنها كتاب (الفصل في الملل والنحل) فعندما طرق ميدان الفلسفة في كتابه المذكور بدأ بتعريفها بقوله : (الفلسفة في الحقيقة إنما معناها وثمرتها والغرض المقصود بتعلمها ليس هو شيئاً غير إصلاح النفس بأن تستعمل في دنياها الفضائل وحسن السيرة المؤدية إلى سلامتها في المعاد ، وحسن السياسة للمنزل والرعية وهذا نفسه لا غير هو غرض الشريعة)^(١) .

والعلم والمعرفة عند ابن حزم اسمان لمعنى واحد ، وهو اعتقاد الشيء على ما هو عليه وتيقنه به وارتفاع الشك عنه ، وسبل المعرفة عنده أربعة :

١ - النصوص من القرآن والأحاديث النبوية .

٢ - ما أوجبه اللغة من المعاني التي تحملها الكلمات وما اصطلح عليه العرب من الفهم عند سماع هذه الكلمات .

٣ - الإكتساب « بالاختيار » ونقل التواتر .

٤ - الحس بالبديهة والعقل^(٢) .

ولا شك أن ابن حزم بما توصل إليه من آراء صائبة في ميدان الفلسفة قد حل أعظم مشكلة في تاريخ نظرية المعرفة ، وهي المشكلة التي تشدق مؤرخو الفلسفة الأوروبية بأنهم قد توصلوا إلى حلها بواسطة فيلسوفهم الألماني كانط Kant (ت ١٨٠٤ م) الذي كانت تشغل باله الإجابة على السؤال الآتي :

« كيف تكون الأحكام المبنية على الاختيار الحسي ممكنة البديهة ؟ وقد توصل إلى حل ذلك بتوضيحه أن المعرفة التي نعتقد أننا قد عرفناها بواسطة بديهة العقل Apriori راجعة إلى الحواس في زمن متقدم ثم سمي ذلك

(١) ج ١ ، ص ٩٤ .

(٢) عمر فروخ : تاريخ الفكر العربي ، ص ٥٩٦ - ٥٩٧ .

Apriori Aposteriori ولم يعلم أن ابن حزم الأندلسي الذي عاش قبله بسبعة قرون قد وقف أمام هذه المشكلة ثم حلها حلا لا يقصر عما توصل إليه اللهم إلا في بسط القول وشكل المنطق اللذين امتاز بهما كانط مع أسبقية ابن حزم في ميدان الكشف العلمي^(١) .

والجدير بالذكر أن ابن حزم قد عالج الكثير من القضايا المتعلقة بالكون وما فيه في أسلوب فلسفي مقنع مؤيدا أقواله بالنصوص الكريمة من القرآن والسنة وأقوال العلماء .

ومن الحق أن نقول أن ابن حزم قد أظهر نبوغا مدهشا في كتابه الفصل الذي ضمنه الكثير من آرائه الفلسفية والتي استهدف منها الدفاع عن التعاليم الإسلامية والذود عن حمى الشريعة ، وبذلك كان ابن حزم فيلسوفا إسلاميا لامعا ، بل إنه يعد أفضل الفلاسفة في عصره بما قدمه من جهود رائعة في تسخير هذا العلم كأداة لدحض مزاعم خصوم الإسلام من الفلاسفة الملحدين وغيرهم من أهل الضلال هذا إلى جانب توصله إلى نظرية المعرفة التي تعد من أعظم النظريات الفلسفية .

وبهذا يتبين أن ميدان الفلسفة في عصر الخلافة كان نشاطه مقيدا بما يوافق تعاليم الشريعة الإسلامية ويلأئم نصوصها ، ولعل ظاهرة خروج الفيلسوف ابن مسرة على تعاليم الدين وما لاقاه من تنكيل هو وأتباعه كان له أثره في انصراف الكثير من العلماء الفلاسفة عما يتعلق بالعقائد وما لا يوافق الشرع إلى دراسة مظاهر السلوك الإنساني كالأخلاق والآداب ، فكان لبعضهم آراء صائبة وأقوال حكيمة في ذلك .

(١) عمر قنوق : المرجع السابق ، ص ٥٩٧ - ٥٩٨ - قدرى طوقان : العلوم عند العرب ، ص ١٨٢ - ١٨٣ .

- للاستزادة من التوضيح انظر ابن حزم : الفصل ، ج ١ ، ص ٥ - ٧ ، ج ٢ ، ص ١٠٧ - ١٠٨ و ج ٥ ، ص ١٠٨ ، عمر قنوق : تاريخ الفكر الغربي ، ص ٥٩٧ .
وكتابه الآخر عبقرية العرب في العلم والفلسفة ، ص ١٤٦ ، وما بعدها .

وبعد هذا العرض للنشاط العلمي للأندلسيين في ميدان العلوم الإنسانية من تاريخ وجغرافيا وفلسفة نخلص إلى القول أن هذه العلوم لقيت نشاطا ملحوظا من علماء الأندلس ، فلم يكونوا في عطائهم هذا لما ذكرناه من علوم بأقل مما منحوه للعلوم الأخرى ، ولا نرمي القول جزافا فإن المكتبة الإسلامية في عصرنا هذا تشهد بعطائهم الخصب في هذه الميادين العلمية .

والحق أن الأندلسيين أظهروا براعة مدهشة في مجال التاريخ بما أثروا به هذا الميدان من دراسات وبحوث علمية قيمة في مقدمتها ما نراه ماثلا أمامنا من ضروب التأليف التاريخية في ميدان التراجم والتاريخ . وأن فيما اعتمدنا عليه في كتابة هذا البحث من مصادر التاريخ الأندلسي لشاهد قوي علي ما ذهبنا إليه ، ويكفي الأندلسيون فخرا أن ظهر فيهم من هو في طبقة ابن الأثير والمسعودي ، وهو المؤرخ البارع ابن حيان الأندلسي الذي يعود الفضل الأول في ظهور قدراته العلمية إلى ما تميزت به البيئة الأندلسية من علم ومعرفة وما توفر فيها من أجواء كفلت لمواهبه العلمية النمو ومنحت شخصيته العلمية البروز ، كما أن فضل من سبقه من المؤرخين لا ينكر كأسرة الرازي التي كانت من أعظم الأسر العلمية عطاء في ميداني التاريخ والجغرافيا .

وفي الجغرافيا أثبت الأندلسيون مقدرة واسعة رغم ضياع الكثير من تأليفهم إلا أن ما بقى بين أيدينا منها فيه دليل علي ازدهار الدراسات الجغرافية آنذاك ، وما ذكرناه من جهودهم في هذا الصدد ليؤكد ما أشرنا إليه ، ولعل من عوامل تألق عمدة جغرافي الأندلس أبو عبيدة البكري اعتماده على جغرافي عصر الخلافة كالوراق وأحمد الرازي والطرطوشي وغيرهم .

وفي ميدان الفلسفة فقد أظهر الأندلسيون نبوغا واضحا بالرغم مما
اعترض اشتغالهم بهذا العلم من عقبات أشرنا إليها إلا أن الكثير من علماء
الفلسفة الأندلسيين التزموا في أبحاثهم الفلسفية البعد عما يخالف الشرع وما
قدمه ابن حزم الأندلسي في هذا العلم من ابتكاره نظرية المعرفة فيه دليل على
مقدرتهم الواسعة على خوض هذا الميدان والخروج بنتائج علمية لا تزال موضع
إعجاب الباحثين ومناطق اهتماماتهم العلمية .

الفصل الرابع

المعلوم التجريبية

١ - الطب .

٢ - الرياضيات والفلك .

٣ - الكيمياء .

١ - الطب

بداية الدراسات الطبية - دخول كتب الطب المختلفة إلى
الأندلس - اشتغال بعض الأطباء بالطب لدى الخلفاء كأصبع بن يحيى ،
ويحيى ابن إسحاق ، وابن الكتاني ، أبرز أطباء عصر الخلافة - خلف بن
عباس الزهراوي وإنتاجه العلمي القيم وخاصة في ميدان الجراحة -
عريب بن سعيد وكتابه « خلق الجنين » - سليمان بن حسان ، وبراعته
في الصيدلة - أبنا يونس الحرائيس وطب العيون .. وغيرهم .

١- الطب :

يعتبر علم الطب وما يلحق به من علوم أخرى كالصيدلة من أبرز العلوم التي حازت على اهتمام وعناية الأندلسيين . بل لا نغالي إذا قلنا أن الطب يأتي في مقدمة العلوم الطبيعية من حيث النشاط ووفرة الإنتاج العلمي في الأندلس . وقد سبقت الإشارة إلى بداية اشتغال الأندلسيين بالطب ، وأنهم كانوا قبل عصر الخلافة أقل دراية ومعرفة بميدان الطب ، وكيف أنهم كانوا يعولون في دراستهم لمسائل الطب على كتاب مترجم من كتب النصارى يقال له « الابريشم » أي الجامع^(١) .

ويتضح لمتتبع حركة الدراسات الطبية قبل عصر الخلافة أن أكثر المشتغلين بالطب آنذاك كانوا من أهل الذمة ، وهذا بلا شك يأتي تأكيداً لما جبل عليه المسلمون من تسامح كريم في معاملة أهل الذمة وإفساح المجال أمامهم للتزود من المعرفة والثقافة ، وممارسة نشاطهم العلمي في أمان ويسر .

وفي عصر الخليفة عبدالرحمن الناصر أخذت حركة الاشتغال بالطب تأخذ أبعاداً جديدة « فتتابعت الخيرات في أيامه » ودخلت الكتب الطبية من المشرق ، وجميع العلوم ، وقامت الهمم وظهر الناس ممن كان في صدر دولته من الأطباء المشهورين^(٢) .

وقد كان للتيارات الثقافية الواردة على الأندلس أثر في النهوض بالطب والرقى بدراساته المختلفة ، وهو ما أشار إليه ابن جلجل كظاهرة علمية حدثت في عصر الخليفة عبدالرحمن الناصر .

(١) ابن جلجل : طبقات الأطباء ، ص ٩٢ - صاعد : طبقات الأمم ، ص ١٠٤ - إحسان عباس : الأدب الأندلسي ، ص ٧٤ .

(٢) ابن جلجل : المصدر السابق ، ص ٩٧ - ٩٨ .

من أهم تلك الكتب كتاب « زاد المسافر » الذي نقله العلامة عمر بن بريق . وكان ابن بريق من أمهر الأطباء في الأندلس . وحدث أن خرج إلى أفريقية فدرس الطب على يد الطبيب القيرواني المشهور أبي جعفر بن الجزار ولازمه مدة ستة أشهر ثم عاد إلى الأندلس وهو يحمل كتاب ابن الجزار المذكور^(١) .

ومن الكتب الطبية التي دخلت الأندلس وكان لها أثر في دفع عجلة الدراسات الطبية ورفقها كتاب في النباتات الطبية لديسقوريدس^(٢) .

وكان ذلك الكتاب قد ترجم في المشرق في العصر العباسي على يد الترجمان اصطف بن يسيل ولكنه لم يتمكن من ترجمة كل الأسماء الواردة في ذلك فأبقاها على حالتها باللغة اليونانية ، ثم دخل الكتاب بصورته تلك إلى الأندلس فانتفع به أطباء الأندلس . وفي سنة ٣٣٧ هـ / ٩٤٨ م بعث الإمبراطور البيزنطي أرمانوس إلى الخليفة عبدالرحمن الناصر بهدايا نفيسة ومن ضمنها كتابين : الأول وهو كتاب ديسقوريدس مصورة فيه الحشائش تصويرا رائعا ، وكتاب هروشيئش باللاتينية في التاريخ - وقد سبق الحديث عنه في ميدان التاريخ . ولا لم يكن لدى الناصر من يجيد اللغة اليونانية فقد ظل كتاب ديسقوريدس متداولاً بين الناس بترجمة اصطفن .

(١) ابن جلجل المصدر السابق ، ص ١٠٧ - صاعد : المصدر السابق ، ص ١٠٦ - ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص ٤٩٠ - ٤٩١ .

(٢) يتألف هذا الكتاب من خمس مقالات :

- الأولى : في ذكر أدوية عطرية الرائحة وأدهان وصبوغ .
- الثانية : في ذكر الحيوان ووطباته والحبوب والبقول .
- الثالثة : أصول النبات والنبات الشوكي وبنور وصبوغ وحشائش مزهره .
- الرابعة : في ذكر أدوية أكثرها حشائش بارده وحاره ومسله ومقيئه وماينفع منها للسموم .

الخامسة : ذكر الكرم وأنواع الأتربة والأدوية المعدنية .

(عمر كحاله : العلوم البحتة ، ص ٢٩٧ - ٢٩٨) .

أما النسخة المرسلة فقد بقيت في مكتبة الخليفة عبدالرحمن الناصر حتى بعث إلى إمبراطور الروم رسالة يطلب فيها أن يبعث إليه من يجيد اليونانية ليتسنى له الاستفادة من ذلك الكتاب ، فبعث براهب يدعى نقولا سنة ٣٤٠ هـ / ٩٥١ م فاجتمع مع بعض الأطباء الأندلسيين أمثال حسداي بن شيروط ، ومحمد الشجار ، وعالم آخر يعرف بالبسباسي ، وأبو عثمان الجزار المعروف باليابسة ، ومحمد بن سعيد ، وعبدالرحمن بن إسحق بن الهيثم ، وأبو عبد الله الصقلی وكان يجيد اليونانية عارفا بخواص الأدوية^(١) .

وقد أشار ابن جلجل إلى عملية الترجمة هذه بقوله : « فصح يبحث هؤلاء النفر الباحثين عن أسماء عقاقير كتاب ديسقوريدس تصحيح الوقوف على أشخاصها بمدينة قرطبة خاصة بناحية الأندلس ما أزال الشك فيها عن القلوب وأوجب المعرفة بها بالوقوف على أشخاصها وتصحيح النطق بأسمائها بلا تصحيف إلا القليل منها الذي لا بال له ولا خطر له ، وذلك يكون في مثل عشرة أدوية^(٢) .

وبناء على ذلك فقد كان لكتاب ديسقوريدس أثر هام في اتساع افق الدراسات الطبية وما يتعلق بالنباتات وتركيب الأدوية . ولم يكن الأندلسيون ليقفوا موقف الأخذ والتسليم بما يروهم من علوم عن الأمم الأخرى بل كانوا يدرسون إنتاج غيرهم بنظر ثاقب وتمحيص دقيق فيأخذون ما يصح لديهم وينبذون ما عداه ويضيفون الكثير من الايضاحات والشرح إذا لزم الأمر وهو

(١) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٤٩٤ - زيفريد هونكه : شمس العرب تسطع على الغرب ص ٣٢٢ - ٣٢٣ .

Titus Burckhardt Moorish Culture in Spain P. 69

ذكريا هاشم : المرجع السابق ، ص ٤٦٣ - ٤٦٤ .

(٢) ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص ٤٩٤ .

ما فعلوه بكتاب ديسقوريدس . فقد درس أحد أطباء الأندلس وهو سليمان بن حسان المعروف بابن جلجل ذلك الكتاب فلاحظ أن ديسقوريدس قد أغفل ذلك ولم يذكره إما لأنه لم يره ولم يشاهده عياناً وإما لأن ذلك كان غير مستعمل في دهره وأبناء جنسه^(١) .

وكان الخلفاء يحرصون على أن قصورهم عدداً من الأطباء البارعين لحاجتهم إليهم في مجال العلاج الطبي وفيما يحسن تناوله من الأغذية والأشربة ولهذا نلاحظ عند دراستنا للطب آنذاك اشتغال الكثير من الأطباء بخدمة الخلفاء والحكام وممارستهم الطب داخل قصورهم .

فمن أولئك الأطباء أصبغ بن يحيى القرطبي الذي خدم بالطب الخليفة - عبدالرحمن الناصر^(٢) .

كما اشتغل بخدمة الخليفة عبدالرحمن الناصر من الأطباء عمر بن بريق الذي كان يعينه في تحضير الأدوية وتركيبها عدد من الأتباع^(٣) .

ومن بين الأطباء في قصر الخليفة عبدالرحمن الناصر الطبيب سليمان بن باج الذي عرف بالتمكن العميق في الطب وتركيب الأدوية . وحدث أن تعرض الخليفة إلى رمد في عينه فوصف له علاجاً ناجحاً عوفي به من مرضه ، وقد وصف سليمان بالتحفظ الشديد على أسرار عمله حتى أن الخليفة عبدالرحمن طلب منه الوصفة العلاجية السابقة فأبى ذلك^(٤) .

(١) ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص ٤٩٥ .

(٢) ابن جلجل : طبقات الأطباء ، ص ١٠٨ - ابن الأبار : التكملة ج ١ ، ص ٢٠٦ .

(٣) ابن جلجل : المصدر السابق ، ص ١٠٧ - صاعد : طبقات الامم ص ١٠٦ .

(٤) ابن جلجل : المصدر السابق ، ص ١٠٢ - ١٠٣ - ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٤٨٩ .

ويسميه ابن تاج بخلاف ابن جلجل .

وقد نال الطبيب يحيى بن إسحاق مكانة رفيعة لدى الخليفة عبدالرحمن الناصر ، ونظرا لعلمه الواسع وسيرته الحسنة أن قلده الوزارة . وكان يحيى ماهرا في الطب فآلف فيه كتابا على نهج الاقدمين سماه (الابريشم)^(١) .

ويبدو أنه قد استحدث نظام جديد للأطباء المشتغلين بخدمة الخلفاء وذلك في عصر الخليفة الحكم المستنصر ، فقد أنشئ ديوان يضم أولئك الأطباء وينزلهم درجات متفاوتة حسب قدراتهم وكفاءاتهم ومن هؤلاء الطبيب أحمد بن حكم ابن حفصون الذي اشتغل بخدمة الخليفة الحكم المستنصر . وكان قد قدمه في ديوان الأطباء الحاجب جعفر الصحفي . ونال ابن حفصون مكانة عالية بين أطباء البلاط فلما مات جعفر أسقط ذلك الطبيب من ديوان الأطباء ، مما أثر على منزلته العلمية والاجتماعية فبقي خامل الذكر حتى وفاته^(٢) .

ولحق بخدمة الخليفة الحكم المستنصر أبو بكر أحمد بن جابر وكان كبير المنزلة عند الخلفاء معظما لديهم ، ومثله أيضا الطبيب أبو عبدالملك الثقفي الذي جمع بين المهارة في الطب والبراعة في الهندسة ، وكان عالي المقام لدى الحكم المستنصر^(٣) .

وفي عصر الخليفة هشام المؤيد برز بعض الأطباء في بلاطه وفي مقدمتهم الطبيب الذائع الصيت سليمان بن حسان « ابن جلجل » ، وسوف نفصل الحديث عنه فيما بعد .

ونال الطبيب الفيلسوف محمد بن الحسين المعروف « بابن الكتاني » مكانة سامية في بلاط الحاجب المنصور بن أبي عامر وخدمه وابنه عبدالملك

(١) صاعد : طبقات الأمم ، ص ١٠٤ - ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص ٤٨٨ - ٤٨٩ .

(٢) ابن جلجل : المصدر السابق ، ص ١١٠ - صاعد : المصدر السابق ص ١٠٦ - ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص ٤٩٢ .

(٣) ابن جلجل : طبقات الأطباء ، ص ١١١ - ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص ٤٩٢ .

المظفر بالطب، ولما وقعت الفتنة انتقل إلى سرقسطة حيث توفي بها سنة ٢٠٢هـ / ١٠٢٩م^(١) .

كما أن الطبيب عبدالرحمن بن إسحق بن الهيثم حظي بمنزلة عالية لدى الحاجب المنصور . ووصف ذلك الطبيب بالمعرفة الواسعة بالطب وتركيب الأدوية المسهلة والمقيئة « والاقتصاد والايجاد في خطأ ابن الجزار في الاعتماد »^(٢) و « الاكتفاء بالدواء من خواص الأشياء » وهذا الكتاب ألفه بناء على رغبة الحاجب المنصور بن أبي عامر^(٣) كما ألف أيضا من الكتب كتابا في السموم^(٤) .

وهكذا نلمس ما كان يحتله بعض أطباء ذلك العصر من مكانة عالية لدى الخلفاء وأن ارتباطهم العملي بخدمة الخلفاء قد دفعهم إلى مزيد من الدراسات العلمية التي تعلي مكانتهم وترفع شأنهم أكثر في بلاط الخلفاء . ولا أدل على ذلك مما ألفه الطبيب ابن جلجل من تأليف طبية ، وكذلك ابن الهيثم وغيرهما مما ذكرنا من الأطباء المشتغلين بخدمة الخلفاء .

ولعل من دلائل النهوض العلمي في ميدان الطب ونشاط علمائه أن كان الكثير من الأطباء يمارس هذه المهنة في صورة تشابه ما عليه حال أطباء هذا العصر من الاشتغال فيما يسمى بالعيادات الطبية التي يردها المرضى للعلاج ، فقد كان الطبيب ابن ملوكه النصراني يشتغل بمداواة المرضى وعلاجهم

(١) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٤٩٣ - أحمد عيسى : معجم الأطباء ، ص ٣٧٤ .
(٢) ابن الجزار : أحمد بن إبراهيم من ألمع أطباء أفريقية وهو من أهل القيروان ، (ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق، ص ٤٨١) ، وقد مر ذكر ابن الجزار في بداية الحديث عن الطب ، فأنظر ذلك .

(٣) جانب البغدادي الصواب في كتابه هدية العارفين عندما ، أشار إلى أن وفاة ابن الهيثم سنة ٢٤٠هـ . فكيف يصح هذا وهو قد ألف للمنصور أحد كتبه في الطب والمنصور تولى الأمر بعد وفاة الخليفة الحكم سنة ٣٦٦هـ .

(٤) ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص ٤٩٣ - أنخل بالنتيا : تاريخ الفكر الأندلسي ، ص ٤٦٣ .

وخصص لذلك داراً يستقبل فيها المرضى ووضع على باب تلك الدار ثلاثين كرسيًا لجلوس الناس وانتظارهم العلاج^(١) .

وهذا بلا شك يعطينا صورة واضحة لما كان عليه أطباء ذلك العصر من مراعاة تامه للناس والتزام عميق بالتنظيم والتنسيق في أداء عملهم وممارسة نشاطهم .

وفي ذلك العصر برز الكثير من الأطباء ممن عنوا بالطب وما يتعلق به من دراسات مختلفة ، كدراسة النباتات الطبية وتركيب الأدوية مما يدخل تحت مسمى « الصيدلة » .

ونظرا للأعداد الكبيرة من الأطباء الذين عاشوا في عصر الخلافة ، فإن حديثنا سيكون مقتصرًا على أبرزهم ممن كان لهم دور فعال في ازدهار الطب ورقي دراساته .

ويأتي في مقدمة هؤلاء الأطباء الطبيب اللامع خلف بن عباس الزهراوي^(٢)، ويكنى أبو القاسم ويعرف في اللاتينية « بأبو الكاسيس » . Abulcasis^(٣) ولا نعلم بالتحديد تاريخ ولادته فلم يشر إلى ذلك أولي التراجم الأندلسية كالحميدي أو الضبي أو ابن بشكوال ، وقد اكتفى أولهم بالإشارة إلى وفاته بعد الأربعمئة^(٤) .

ونظرا لعدم وضوح تاريخ مولده ووفاته في كتب التراجم المشار إليها ، فقد ظهر الاختلاف بين الكتاب والمؤرخين المحدثين في ذلك ، حتى إن بعضهم

(١) ابن جليل : المصدر السابق ، ص ٩٧ - ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص ٤٨٦ .

(٢) نسبة إلى مدينة الزهراء بناها الناصر عبدالرحمن وبينها وبين قرطبة خمسة أميال (الحميري : الروض المعطار ، ص ٩٥) .

(٣) Titus Burkhard : OP . CIT , P . 69

سيد حسين نصر : العلوم في الإسلام ، ترجمة مختار الجوهري ، ص ١٤٥ .

(٤) الجنوة : ص ٢٠٩ .

اشتط في الخروج عن حقيقة الأمر بأن أشار إلى وفاته (٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م) ومنهم غوستاف لوبون ، وحسن إبراهيم حسن و Titus Burckhardt^(١) .

ومهما يكن من أمر فمن المؤكد أن الزهراوي كان حيا في القرن الرابع الهجري : العاشر الميلادي^(٢) وهو ما يؤكد ابن حزم عند كلامه عن فضل الأندلس وجهود علمائه فيقول مشيدا بكتاب الزهراوي في الطب (وكتاب التصريف لأبي القاسم خلف بن عياش الزهراوي وقد أدركناه وشاهدناه ولئن قلنا أنه لم يؤلف في الطب أجمع منه ولا أحسن للقول والعمل في الطبائع لتصدقن)^(٣) .

ويتضح من كلام ابن حزم أن الزهراوي عاش في عصر الخلافة ، فقد أدركه وشاهده ، ابن حزم كما هو معروف عاش فترة كبيرة من عمره في عصر الخلافة ، وإن ما ورد في النص السابق بلفظ « أدركناه » لفيه دلالة على أن مشاهدة ابن حزم له تمت والزهراوي في أواخر عمره ، أي أنه قضى أكثر عمره في عصر الخلافة ، وهذا بلا شك دليل قوي على معاصرة الزهراوي لتلك الفترة ، هذا بالإضافة إلى إشارة الحميدي إلى أن وفاته كانت بعد الأربعمئة أي أنه قضى شطرا كبيرا من عمره في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي . ومما يدعم هذا الرأي ما ذكره عنه آنخل بالنثيا أنه ولد سنة ٤٢٤ هـ / ٩٣٥ م ، وتوفي سنة ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م^(٤) .

(١) انظر كتبهم بالترتيب ، حضارة العرب ، ص ٤٩٠ - تاريخ الإسلام ، ج ٤ ، ص ٥٢١ - Moorish Culture in Spain, P. 70.

(٢) لتأكيد ذلك انظر خالد ناجي : الزهراوي وعمليات الغدة الدرقية ، مجلة المؤرخ العربي - العدد السادس عشر ١٩٨١ م - ص ١٨٥ .

- في بقية المصادر والمراجع يسمى « عباس » .

(٣) المقرئ : نفح الطيب ، ج ٣ ، ص ١٧٥ (نقلا عن رسالة ابن حزم في فضل الأندلس) .

(٤) تاريخ الفكر الأندلسي ، ص ٤٦٦ .

ويعد خلف بن عباس الزهراوي من أعظم الأطباء في الإسلام بل لا نبالغ إذا وصفناه بأنه أنبغهم في ميدان الجراحة الطبية على الإطلاق ، فقد كان له باع طويل في ازدهار الجراحة الطبية ووضع الأسس العلمية الصحيحة لذلك المجال الحيوي المهم من الطب .

وكان الزهراوي جم النشاط في اشتغاله بالطب ماهر التصرف في فنون الجراحة متضلعا في معرفة دقائقها ، وقد ألف في ذلك كتابا عظيم الفائدة كبير النفع أسماه « التصريف لمن عجز عن التأليف » وأشار في مقدمة الكتاب إلى سبب تسميته بذلك فقال : (إنما أسميته بذلك لكثرة تصرفه بين يدي الطبيب وكثرة حاجته إليه في كل الأوقات وليجد فيه من جميع الصفات ما يغنيه عن التأليف) (١) .

ويتضح لمن اطلع على ذلك الكتاب - الذي لا يزال مخطوطا - أن الزهراوي ألفه بعد عمر طويل من التجارب والبحث والدراسة والحياة العملية الجادة في حقل الطب والجراحة . وقد أشار في مقدمة كتابه إلى ذلك لدى حديثه عما تضمن كتابه بقوله (وكل ما جريته وامتحنته من طول عمري منذ خمسين سنة) (٢) .

والكتاب المذكور لحسن الحظ لا يزال موجودا وتوجد منه نسخ في بعض المكتبات الإسلامية والأوربية ، ومنها نسخة موجودة في المكتبة الملكية بالرباط ويقع ذلك الكتاب المخطوط في عدة أجزاء ويتضمن ثلاثين مقالة كالتالي :

الأولى : في الأغذية وتركيب الأدوية وهي كالمدخل للكتاب .

الثانية : في تقسيم الأمراض وعلامتها وعلاجها .

الثالثة : في وصف المعاجين .

(١) الزهراوي : التصريف لمن عجز عن التأليف (مخطوط) ج ١ ، ص ٢ ، ٣ .

(٢) التصريف لمن عجز عن التأليف (مخطوط) ج ١ ، ص ٤ .

- الرابعة : في التريقات^(١) والأودية المفردة النافعة من السموم .
- الخامسة : وصف الارياجات^(٢) القديمة والحديثة وادخارها وتخميرها .
- السادسة : وصف الأنوية المسهلة من الحبوب لجميع العلل .
- السابعة : وصف أنوية القيء والحقن وغيرها .
- الثامنة : الأنوية المسهلة للذيذة الطعم المأمونة .
- التاسعة : أنوية القلب والمسك .
- العاشرة : وصف الاطريقلات^(٣) والمنبهات والمسهلات .
- الحادي عشرة : وصف الجوارشات^(٤) والكمونيات .
- الثانية عشرة : أنوية الباءه والمسمنة للأبدان المهزولة والمدرة للبول .
- الثالثة عشرة : الأشربة والسكنجيات^(٥) والربوب .
- الرابعة عشرة : المطبوخات والمنقوعات المسهلة وغير المسهلة .
- الخامسة عشرة : في المربيات^(٦) ومنافعها وحكمة ترتيبها وادخارها .
- (١) الترياقات جمع ترياق ، مشتق من اليونانية تيريون : وهو اسم لما ينهش من الحيوان كالأنعام ونحوها ، ويقال له بالعربية درياق ، (الخوارزمي : مفاتيح العلوم ، ص ١٣٩) .
- (٢) الارياجات : أشار إليها الخوارزمي على أنها من أصناف الأنوية ولم يوضح ما هي (مفاتيح العلوم ، ص ١٤٠) .
- (٣) الاطريقلات أو الاطريقفل بالهندية (تري ايهل) . أي ثلاث أخلاط وهي اهليلج وبليج وأملج (الخوارزمي : نفس المصدر السابق ، ص ١٤٠) .
- (٤) الجوارشات أو الجوارشونات ، ذكرها الخوارزمي ضمن الأنوية ولم يوضح ما هي وقال التهانوي في كشف اصطلاحات الفنون ، ج ١ ، ص ٣٢٨ بقوله (الجوارش بضم الجيم وكسر الراء المهمله معرب كوارش والجوارن بالنون تصحيف : معناه الهاضم للطعام .. والجوارش لا تكون إلا عذبة طيبة الرائحة) .
- (٥) السكنجيين : دواء يتركب من الخل والعسل (الخوارزمي : المصدر السابق ، ص ١٤٠) .
- (٦) المربيات : ما يربب بالعسل من الاترج والاهليلج ونحو ذلك (الخوارزمي : المصدر السابق ، ص ١٤٠) .

- السادسة عشرة : في الشفوفات^(١) المسهلة وغير المسهلة .
- السابعة عشرة : في الأقراص المسهلة والممسكات .
- الثامنة عشرة : في السعوطات والبخورات والقطورات والذرورات والغراغر .
- التاسعة عشرة : في الطيب والزينة وغيرها .
- العشرون : في الأحوال وغيرها .
- الحادية والعشرون : أدوية الفم والحلق وما أشبه ذلك .
- الثانية والعشرون : في أدوية الصدر والسعال .
- الثالثة والعشرون : في الضمادات لجميع العلل .
- الرابعة والعشرون : في صناعة المراهم .
- الخامسة والعشرون : في الأدهان ومنافعها .
- السادسة والعشرون : في أطعمة المرضى وكثير من الأصحاء مركبة حسب الأمراض .
- السابعة والعشرون : في طبائع الأدوية والأغذية وما يتعلق بها .
- الثامنة والعشرون : في إصلاح الأدوية وحرق الأحجار المعدنية وما يتصرف في الطب من ذلك .
- التاسعة والعشرون : في تسمية العقاقير باختلاف اللغات وأعمارها وشرح ما ورد من أسماءها في كتب الطب والأكيال والأوزان .
- الثلاثون : في العمل باليد من الشق والبط والجبر والكلي والخلع^(٢) .

(١) الشفوفات أو الشياقات من الأدوية التي يحتقن بها في الدبر (الخوارزمي : المصدر السابق ص ١٤٠) .

(٢) الزهراوي : المخطوط السابق ، ج ١ ، ص ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ .

ويتضح من عناوين المقالات السابقة العلم الواسع والبراعة التامة التي تميز بهما الزهراوي . حيث ضمن كتابه المذكور الكثير من صور العلاج الطبي وأوصاف الأدوية المختلفة والأغذية والأشربة المتنوعة مما يصح به جسم الإنسان ويقويه أمام مختلف الأمراض .

والجزء الأخير من الكتاب في الجراحة . ويقول في مقدمته : (لما اكملت لكم يابني هذا الكتاب الذي (هو) جزء العلم في الطب بكماله وبلغت الغاية فيه من وضوحه وبيانه فرأيت أن أكمله لكم بهذه المقالة التي هي جزء العمل باليد في بلدنا وفي زماننا معدوم البتة حتى كاد أن يندر من عمله وينقطع أثره وإنما بقي منه رسوم يسيره في كتب الأوائل قد صحفته الأيد وواقعه الخطأ والتشويش حتى استغلقت معانيه وبعدت فايدته فرأيت أن أجيده(*) وأولف فيه هذه المقالة على طريق الشرح والبيان والاختصار وأن آتي بصور حدايد الكي وسائر آلات العمل إذ هو من زيادة البيان ووكيد ما يحتاج إليه^(١) .

ويتضح من هذه المقدمة مدى عناية الزهراوي بميدان الجراحة واهتمامه البالغ بتوضيح الأساليب العلمية الصحيحة في إجراء العمليات الجراحية وسعيه الجاد في سبيل رفع شأن هذا الحقل المهم من علم الطب بعد أن شوه أدعياء الطب صورته وأدخلوا عليه ما ليس منه . فوضع الزهراوي الأسس السليمة لعلم الجراحة وأضاف إليه الكثير من الابتكارات العلمية الهامة ، وكان لجهوده في ذلك أبعد الأثر في ازدهار علم الجراحة الطبية .

والزهراوي يقدم الكثير من التوجيهات والإرشادات التي يوجهها إلى زملائه من الأطباء والجراحين . فهو ينصح الجراح أن يكون عارفاً بأعضاء الجسد ودقائق تكوينه والذي ينطوي تحت « علم التشريح » لكي يتسنى له

(١) الزهراوي : المخطوط السابق ، ج ٧ ، ص ٣٠ ، ٣١ .

(*) هكذا في الأصل ، وربما تكون لفظ « اقيده » .

الوقوف على منافع الأعضاء وهيئاتها واتصالها وانفصالها وعددها ومخارجها ، ويقول في ذلك : (من لم يكن عالماً بما ذكرنا من التشريح لم يخل أن يقع في خطأ يقتل الناس به كما قد شاهده كثير من ممن تسور في هذا العلم وادعا له بغير علم ولا دراية)^(١) .

ويضرب الزهراوي الكثير من الأمثلة لأطباء لم يعتنوا بما ذكر فوقه في أوخم النتائج وأودوا بحياة مرضاهم . ومن ضمن ذلك ما ذكره بقوله : (إنني رأيت طبيباً جاهلاً قد شق على ورم خنزيري^(*) في عنق امرأة فابداً بعض شريانات العروق فنزف دم المرأة حتى سقطت ميتة بين يديه)^(٢) .

وقسم الزهراوي هذا الجزء على ثلاثة أبواب :

الباب الأول : في الكي بالنار والكي بالدواء ، مرتب من القرن إلى القدم وصور آلات حديد الكي وكلما يحتاج إليه .

الباب الثاني : في الشق والبط والفصد والحجامة والجراحات وإخراج السهام مبوب مرتب ، وصور آلاته في سبعة وتسعين فصلاً .

الباب الثالث : في الجبر والخلع وعلاج الكسر مبوب مرتب من القرن إلى القدم وصور آلاته في خمسة وثلاثين فصلاً^(٣) .

ومما يؤكد علو مكانة الزهراوي في حقل الجراحة الطبية ما زود به كتابه المذكور من صور الآلات الجراحية التي يحتاج إليها الجراح أثناء إجرائه

(١) التصريف لمن عجز عن التأليف (مخطوط) ج ٧ ، ص ٣ - ٤ .

(٢) نفس المصدر والجزء ، ص ٤ .

(*) الخنزيري أو الخنازير أورام الشباب الغدد في الأباط والأربية (الخوارزمي مفاتيح العلوم ، ص ١٣٠) .

وقال الثعالبي في فقه اللغة ، ص ٨٦ - (الخنازير أشباه الغدد في العنق) .

(٣) التصريف (مخطوط) ج ٧ ، ص ٥ .

العمليات الجراحية للمرضى . والكتاب يحوى العشرات من صور تلك الأنوات الجراحية^(١).

وقد أطنب المؤرخون والكتاب من قدماء ومحدثين في الثناء على الزهراوي — وعلى كتابه « التصريف لمن عجز عن التأليف » . فقال فيه ابن حزم الأندلسي (ولئن قلنا أنه لم يؤلف في الطب أجمع منه ولا أحسن للقول والعمل في الطبائع لنصدقن)^(٢) .

واعتمد عليه الكثير من الأطباء في عصره وما بعده ونقل عنه المؤرخ النويري عند حديثه عن الغوالي والندود وكيفية عملها^(٣) .

وأشاد ابن أبي أصيبعة بذلك الكتاب ووصفه بالأهمية في ميدان الطب والقيمة العلمية العالية^(٤) .

ولم يخف الكتاب الغربيون إعجابهم بالزهراوي ومدى ما توصل إليه في ميدان الجراحة الطبية من تفوق باهر . وقد أشار بالنيثا إلى ذلك بقوله : (أما الجزء الثلاثون من كتاب الزهراوي الذي نشر في اللاتينية باسم الجراحة فقد كان أهم وأذيع كتاب في تاريخ الطب كله . وقد ارتفع به الزهراوي في أعين الناس إلى طبقة ابقرات وجالينوس)^(٥) .

ولم يكن الإعجاب بالزهراوي ومكانته العلمية مقصورا على من تقدم بل وصف عند بعض الكتاب الغربيين بأبي الطب^(٦) .. وإذا كان هذا الثناء على

(١) انظر الملحق .

(٢) المقرئ : النفع ، ج ٣ ، ص ١٧٥ (نقلا عن رسالة ابن حزم في فضل الأندلس) .

(٣) انظر نهاية الأرب ج ١٢ ، ص ٥٢ و ص ١٢٤ .

(٤) عيون الأنباء ، ص ٥٠١ .

(٥) تاريخ الفكر الأندلسي . ص ٤٦٦ .

(٦) ستانلي لين بول : العرب في اسبانيا ، ص ١٣٦ - ١٣٧ .

الزهرائي من الأوروبيين ، فإن الأطباء العرب المحدثين لم يكونوا أقل احتفاء وتقديرا له من غيرهم ، فهو في نظرهم أول من نبغ في الجراحة ، بل هو كما يقول نجيب محفوظ « فخر الجراحة العربية » ، وهو ثالث الثلاثة النوابغ من الأطباء المسلمين وفخرهم ، وهم : الرازي وابن سينا والزهرائي ، هؤلاء العباقرة الذين يرجع إليهم الفضل في نهضة الطب في الشرق والغرب على حد سواء^(١) .

هذا قليل من كثير مما قاله العلماء عن الزهرائي وجهوده الموفقه في ميدان الطب . ونظرا لأهمية ما صنفه في ذلك فقد ترجم كتابه « التصريف » إلى اللاتينية جيراد الكريموني وسماه الساهار افاريوس ، وهو تحريف لاسم الزهرائي . وقد طبعت الترجمة اللاتينية له على مراحل . ففي عام ١٥١٩م طبع منه جزء بعنوان « كتاب النظر والعمل » ، وكان قد سبق طبع جزء آخر وكثر استعماله منذ عام ١٤٧١م وهو كتاب « الخادمين » ، وموضوعه تحضير الأدوية المفردة^(٢) .

كما طبع الجزء الخاص بالجراحة سنة ١٤٩٧م ، والجزء الخاص بأمراض النساء سنة ١٥٦٦م ونشرت له تراجم عديدة إلى اللغات الحديثة^(٣) .

وهذا بلا شك فيه دلالة قاطعة على أهمية الكتاب وعظم نفعه للناس ، وإدراكهم قيمته . وهذا أيضا ما دفع الأطباء في مدرستي سالرنو ومونبيليه

(١) عبد الحليم منتصر : تاريخ العلم ، ص ٢٠٥ - محمد عوضين : صفحات من تراثنا الطبي : مقال بمجلة البحث العلمي ، العدد الأول ، ص ٢٠٩ - علي عبدالله الدفاع : الزهرائي الرائد الأول للجراحة ، مجلة الفيصل ، العدد ٤٢ ، ص ٧٩ .

(٢) أنخل بالنتيا : تاريخ الفكر الأندلسي ، ص ٤٦٦ - سيد حسين نصر : العلوم في الإسلام ، ص ١٥١ .

(٣) عبد الحليم منتصر : المرجع السابق ، ص ٢٠٥ ، وانظر الموسوعة العربية الميسرة حرف الزاي ، ص ٩٣٠ .

وغيرهما من مدارس الطب في أوروبا الى جعل كتاب الزهراوي مقرا علميا يدرس في تلك المدارس ويعتمد عليه طلاب العلم في حياتهم الدراسية ، وهذا بلا شك قد ساعد على وضع أسس الجراحة في أوروبا^(١) .

ومن روائع ابتكارات الزهراوي في ميدان الجراحة أنه اهتدى إلى طريقة علمية رائعة في سحق الحصاة في المثانة ، وقد عدت هذه الطريقة من اختراعات العصر الحاضر على غير حق^(٢) .

كما أن الزهراوي درس علاج تشويهاات الفم والفك باستعماله عقافة « صنانير » في استئصال العينية (البوليب أو الأورام الليفية في الأغشية المخاطية) ، ونجح كذلك في عملية شق القصبه الهوائية وأجرى هذه العملية على خادمه . ووفق في إيقاف النزيف في حالة إجراء العمليات بربط الشرايين الكبيرة ميسرا بذلك دوره كجراح من جهة ومحافظا على سلامة مريضه من جهة أخرى ، وهو بلا شك فتح علمي كبير ادعى تحقيقه لأول مره الجراح الفرنسي الشهير امبرواز باري عام ١٥٥٢م ، ولم يكن يعلم أن الزهراوي كان قد أحرز ذلك السبق قبله بستة قرون^(٣) .

(١) زيفريد هونكه : شمس العرب ، ص ٣٤٧ - غوستاف لويون : حضارة العرب ، ص ٤٩٠ - أرنولد وآخرون : تراث الاسلام ، ص ٤٧٤ - أحمد الملا : أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية ، ص ١٣٦ - ١٣٧ - قدرى طوقان : العلوم عند العرب ، ص ١٥٥ - ١ - سيدو : تاريخ العرب العام ، ص ٢٨٧ - الموسوعة العربية الميسرة : حرف الزاي ص ٩٣٠ - عبدالعزيز بن عبدالله : الفكر العلمي في المغرب الاقصى (مجلة الدارة . السنة الرابعة . العدد الرابع ص ١٦٤ - ي . أ . شاهين : أثر العرب في الطب ، محاضرة أقيمت بجامعة اسكس ٤ نوفمبر ١٩٧١ م - خالد ناجي : الزهراوي وعمليات الفدة الدرقية ، مجلة المؤرخ العربي ، العدد السادس عشر ، ص ١٩٩ .

(٢) غوستاف لويون : المرجع السابق ، ص ٤٩٠ - أحمد الملا : المرجع السابق ، ص ١٣٧ - محمد الحسيني : الحياة العلمية في الدولة الإسلامية ، ص ١٩٦ - عز الدين فراج وآخرون : الطب الإسلامي ، ص ٤٦ - عبدالعزيز بن عبدالله ، المقال السابق ، ص ١٦٤ .

(٣) زيفريد هونكه : شمس العرب ، ص ٢٧٧ - ٢٧٨ - لوتروب استوارد : حاضرة العالم الإسلامي ، ج ١ ، ص ١٣٥ - عز الدين فراج وآخرون : الطب الإسلامي ، ص ٤٦ - جون . س . بانو وآخرون : عبقرية الحضارة العربية ، ص ١٨٤ .

وكان لتمرس الزهراوي بالجراحة وعلاقته الطويلة بميدان العمليات الجراحية أثر في ازدياد معارفه وظهوره بالكثير من الأساليب العلمية المهمة التي انتهى إليها تفكيره بعد حياة مديدة من الالتصاق بالجراحة والعمليات الجراحية . فمثلا كان الزهراوي يحرص تمام الحرص أن لا تؤثر العملية الجراحية على شكل الجسم خارجيا ويحاول أن يقلل مقدار الأثر الناجم عن ذلك . وكان يعتمد إلى طريقة التدريز (نسبة إلى ثمانية) في جراحات البطن ، ويوضح كيفية تخييط الجرح بأبرتين وخييط واحد مثبت بهما ، وكان يلجأ في الكثير من الأحيان إلى استخدام أمعاء القطط في تخييط بعض الجروح^(١) .

ومن المؤلم أن تنسب الكثير من ابتكاراته العلمية في إجراء العمليات الجراحية إلى غيره من الأطباء وخاصة الغربيين الذين كانوا ينهلون من كتابه التصريف ويأخذون عنه معارفهم في الجراحة . فإن طريقته التي اتبعها أثناء إجرائه للعمليات الجراحية في النصف السفلي من الإنسان ، والتي أوصى فيها أن يرفع الحوض والأرجل قبل كل شيء قد أخذها الأوروبيون عنه ونسبت بغير حق إلى الجراح الألماني فردريك لنبورغ^(٢) .

وتبدي زيغريد هونكه اعجابها العظيم بالجراح العربي وتذكر أفضاله على الطب وجهوده الموفقة في ذلك ، فتقول : (ولكن من يذكر أفضال الجراح العربي العظيم ؟ وعنه أخذنا طريقة ترك فتحة في رباط الجبس في الكسور المفتوحة ، وأمد الجراحين وأطباء العيون والأسنان الأوروبيين بالآلات اللازمة للعمليات بواسطة الرسوم الجديدة التي وضعها)^(٣) .

(١) زيغريد هونكه : المرجع السابق ، ص ٢٧٨ - ٢٧٩ .

(٢) زيغريد هونكه : المرجع السابق ، ص ٢٧٩ .

(٣) شمس العرب تسطع على الغرب ، ص ٢٧٩ .

كما اهتم الزهراوي كثيرا بحياة مرضاه ومن يجري لهم عمليات جراحية خطيرة وكان حريصا جدا في عمله لا يسلك طريقا في ذلك إلا بعد دراسة وافية لحالة المريض واستعداده للعملية الجراحية . وقد ابتكر طريقة جديدة لايقاف النزف فكان أول من استعمل الكي بواسطة كاويات مصنوعة من الذهب الخالص وبأنواع وأحجام مختلفة^(١) . وكتابه التصريف يحوي الكثير من صور تلك الآلات التي تثبت مهارته الفائقة في هذا الميدان^(٢) .

ولا زال الطب الحديث مدينا لأبي القاسم الزهراوي بالشئ الكثير إذ تعتبر طريقة إيقاف النزف بواسطة الكي من أحدث الطرق المتبعة حتى عصرنا الحاضر^(٣) .

وأشار الزهراوي في معرض حديثه عن ظاهرة نزف الدم إلى استعداد بعض الأجسام للنزيف (هيموفيليا) ، فقد شاهد عدة حوادث نزيف في عائلة عالجها بالكي^(٤) .

(١) الزهراوي : التصريف (مخطوط) ج ٧ ، ص ٢٧ .

(٢) انظر الملحق . لتقف على بعض أنواع أدوات الكي التي كان يستعملها الزهراوي .

(٣) خالد ناجي : الزهراوي وعمليات الغدة الدرقية . مقال بمجلة المؤرخ العربي العدد السادس

عشر ١٩٨١ م ، ص ١٩٩ .

(٤) زيفريد هونكه : المرجع السابق ، ص ٢٧٧ .

وأظهر الزهراوي براعة عميقة في معالجة التهاب المفاصل وإصابة فرزات الظهر بالسل ، ومع الأسف ينسب علاج الأمراض وتحديد أعراضها إلى الإنكليزي برسيغال بوت فيعرف بالدواء البوتي (١) .

بل إن الزهراوي اهتدى من خلال أبحاثه الطبية وتجاربه المثمرة في ميدان الجراحة ومن خلال تمرسه بالعمليات الجراحية وكشفه على مرضاه إلى الإشارة إلى مبدأ انتشار الأورام السرطانية ، وما يتعلق بذلك من سرطان الرحم وكيفية علاجه (٢) .

كما اهتم الزهراوي بعلاج الأسنان ووضع الكثير من الأساليب العلمية السليمة لمعالجتها وتنظيفها مما يلحق بها من تسوس ، وصنع لجراحة الأسنان الكثير من الأدوات الجراحية التي تساعد على خلع الأضراس أو الأسنان أو تنظيفها ، وينصح الزهراوي بالعمل على معالجة الضرس الذي يسبب الألم لصاحبه وعدم قلعه بقدر الاستطاعة لأنه لا يمكن تعويض فقدته بمثله . كما يرشد إلى الطريقة السليمة في قلع الضرس إذا أصر المريض على ذلك بواسطة مشروط يحل اللثة من كل جهة ثم يحرك الضرس حتى إذا ترززع من مكانه قلع بالكلبتين (٣) .

وفيما يتعلق بالأسنان وجراحة الفم فقد أشار إلى عملية صنع «الكباري» لتثبيت الأسنان الضعيفة، بل إنه اهتدى إلى ما عليه أطباؤنا الآن من استعمال أداة كالمعلقة لتخفيض اللسان عند الكشف على اللوزتين (٤) .

(١) زيغريد هونكه : المرجع السابق ، ص ٢٧٧ .

(٢) انظر . التصريف لمن عجز عن التأليف ، ج ٧ ، ص ١٥٨ .

(٣) الزهراوي : التصريف (مخطوط) ، ج ٧ ، ص ١١٥ - ١١٦ .

(٤) جلال مظهر : حضارة الإسلام ، ص ٣٣٣ - عز الدين فراج وآخرون : المرجع السابق ، ص ٤٧ - ي . ١ . شاهين : أثر العرب في الطب ، محاضرة وانظر تلك الأداة في الملحق .

وفي أمراض النساء أحدث الزهراوي تطورا جديدا في ميدان الولادة .
ففيما يختص بسقوط يدي وركبة الجنين أو وضعه المسمى بوضع الأرجل أي
(تقدم الأرجل من باب الرحم على الرأس، أو الوضع الوجهي، فالزهراوي يعتبر
أول من عالج هذا الوضع ، وأول من نصح بولادة الحوض^(١) . وهي الولادة
المسماة حديثا بأسم طبيب النساء الشتوتغرتي ، كما ينسب إلى الزهراوي
ابتكار مرآة خاصة للمهبل وألة لتوسيع باب الرحم^(٢) .

هذه بعض الأمثلة على مدى ما تمتع به الزهراوي من معرفة واسعة
بالطب وبراعة تامة في ميدان الجراحة الطبية ومدى ما اسهم به من ابتكارات
علمية في هذا المجال .

والحق أننا لو تتبعنا الزهراوي في سيرته العلمية وما قدمه في ميدان
الطب وبخاصة الجراحة لاحتجنا إلى وقت أكبر ولخرج الباحث في ذلك بكتاب
مستقل عن الزهراوي وجهوده العلمية ، ولكن فيما اشرت إليه ما يكفي للدلالة
على عظمة الزهراوي وأثر أبحاثه العلمية في علم الطب فقد تقدمت الدراسات
الطبية في عهده وازدهر الطب الجراحي وأصبح علما مستقلا له قواعد
وأسس . وحسبك شاهدا على رقي الجراحة العربية كلمات الازدراء التي قالها
« لانفرانك » Lanfranc في أواخر القرن الثالث عشر عن الجراحين الفرنسيين ،
فبعد أن عاد من إيطاليا واطلع فيها على ترجمة تأليف أبي القاسم ورجع إلى
باريس قال عن جراحي باريس : إنهم جهلاء ولا يكاد يوجد فيهم جراح واحد
عالم بصنعتة^(٣) .

(١) انظر : التصريف لمن عجز عن التأليف ، ج ٧ ورقة ص ١٩٩ الى ورقة ص ٢٠٢ . وانظر
جون . س . بادو : عبقرية الحضارة العربية ص ١٨٤ .

(٢) زيفريد هونكه : المرجع السابق ، ص ٢٧٨ - عبد الحليم منتصر : المرجع السابق ، ص
٢٠٥ - ي . ١ . شاهين : أثر العرب في الطب (محاضرة) الموسوعة العربية الميسرة ، حرف
الزاي ، ص ٩٣٠ .

(٣) لوثرروب استواردة حاضر العالم الاسلامي ، ج ١ ، ص ١٢٣ .

وكان الزهراوي إلى جانب تمكنه من الجراحة الطبية ماهرا في تحضير الأدوية وتركيبها ، وقد اعتمد في هذا العلم على من سبقه من العلماء كديسفوريدس وجالينوس وعلى معاصريه من أهل بلده كابن جليل ، وعلى أهل المشرق كالرازي وابن الجزار القيرواني . وقد جانب علي عبدالله الدفاع الصواب عندما أشار إلى اعتماده على الطبيب النباتي ابن البيطار^(١) ، فالمعروف أن ابن البيطار كان من رجال القرن السابع الهجري : الثالث عشر الميلادي ، فمن أين للزهراوي إذا أن يعتمد على طبيب ونباتي عاش بعده بثلاثة قرون^(٢) .

وقد اثنى ابن أبي أصيبعة على جهود الزهراوي في حقل الصيدلة وتركيب الأدوية ، فيقول عنه : (كان طبيبا فاضلا خبيرا بالأدوية المفردة والمركبة ، جيد العلاج)^(٣) .

وفي ندوة عن تاريخ العلوم عند العرب عقدت ١٣٩٦ هـ / ١٩٧٦م بمعهد التراث العربي بحلب أشاد أحد العلماء المشتركين في هذه الندوة بأن الزهراوي - أول من استعمل الفحم في ترويق شراب العسل البسيط ، وأنه أول من استعمل قوالب خاصة لصنع الأقراص الدوائية^(٤) .

(١) ابن البيطار : ضياء الدين محمد بن عبد الله بن أحمد الأندلسي ، (٥٧٥ هـ - ٦٤٦ هـ / ١١٧٩ م - ١٢٤٨ م) درس علم النبات على علماء الأندلس ووصف بأنه أعظم نباتي العرب تجول في المشرق وترك لنا مصنفا في الأدوية المفردة (محمد الصادق : تطور الفكر العلمي عند المسلمين ، ص ٢٢٢) .

(٢) انظر : الزهراوي الرائد الأول للجراحة (مقال بمجلة الفيصل ، العدد ٤٢ سنة ١٤٠٠ هـ ، ص ٨١) .

(٣) عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ص ٥٠١ . وانظر جون . س . بادو ، عبقرية الحضارة العربية ص ١٨٤ .

(٤) علي الدفاع : الزهراوي الرائد الأول للجراحة ، مجلة الفيصل ، العدد ٤٢ سنة ١٤٠٠ هـ . ص ٨١ .

وقد تتلمذ على الزهراوي تلاميذ كثيرون أخذوا عنه معارفهم في الطب والجراحة ، وتلقوا على يديه الكثير من الخبرات العلمية نظريا وعمليا ، وكان لهؤلاء التلاميذ أثر في بث علوم ومعارف أستاذهم الزهراوي فأدت جهودهم في هذا الصدد إلى اتساع رقعة النشاط العلمي في ميدان الطب في ذلك العصر وامتداده إلى كثير من مدن الأندلس الأخرى . ولا أدل على ذلك من شهادة أحد الكتاب الغربيين وهو الأستاذ كاميل في كتابه الطب العربي حيث قال (كانت الجراحة في الأندلس تتمتع بسمعة أعظم من سمعتها في باريس أو لندن أو أدنبره وذلك أن ممارسي مهنة الجراحة في سرقسطة كانوا يمنحون طبيب جراح (Medico - Surgeon) ، أما في أوروبا فكان لقبهم حلاق - جراح (Barber - Surgeon) ، وظل هذا التقليد ساريا حتى القرن السادس عشر الميلادي^(١) .

وبرز إلى جانب الزهراوي العديد من الأطباء ولكنهم لم يبلغوا الدرجة التي بلغها الزهراوي الذي كان يعد فريدا في ميدان الجراحة الطبية ولم يكن له نظير في ذلك .

فمن أولئك الأطباء الطبيب عريب بن سعيد القرطبي^(٢) وكان من الموالي من بيت يعرف ببني التركي ، وقد اتصف بالمعرفة الواسعة في العديد من العلوم كالطب والتاريخ والأدب . ولكنه لمع في ميدان الطب وأظهر تفوقاً كبيراً في ذلك وكانت له تأليف في الطب منها كتاب في عيون الأدوية وكتاب في خلق الجنين وتدبير الحبالى والمولود . وكان معظماً لدى الخلفاء جليل المنزلة عندهم فحظى بمقام كريم لدى الخليفة عبدالرحمن الناصر ثم ابنه الحكم المستنصر ثم الحاجب المنصور بن أبي عامر^(٣) .

(١) محمد الصادق العفيفي : تطور الفكر العلمي ، ص ١٨١ .

(٢) ورد اسم أبيه في الكثير من الكتب « سعد » ولكنه ورد « سعيداً » في كتابه المخطوط الذي سوف أتحدث عنه . كما أن المراكشي في الذيل أورد سعيد كما هو أعلاه .

(٣) المراكشي : الذيل والتكملة . السفر الخامس . القسم الأول . ص ١٤١ - ١٤٢ - أحمد هيكل : المرجع السابق . ص ١٩٢ - عمر كحاله : العلوم البحتة ، ص ٤٦ - محمد عوضين : صفحات من تراثنا الطبي ، مجلة البحث العلمي ، العدد الأول ، ص ٢٠٥ .

ولعل شهرة عريب تعود إلى مصنفه القيم « خلق الجنين وتدبير الحبالى والمولود » الذي حفظ لنا الكثير مما كان يتمتع به عريب من معرفة واسعة بالطب وتضلع في ميدان مهم منه . وهو طب الأطفال .

وقد ألف عريب كتابه هذا في عصر الحكم المستنصر حيث يقول في مقدمة كتابه المذكور « وإن أحق ما طرقت الهمم إليه واستعملت الأفكار فيه بعد حقوق الله عز وجل واستيفاء حدود شكره طلب الزلفى إلى الإمام الأهدى الحكم المستنصر بالله أمير المؤمنين ... ولما رأيت أن أحظى الأعمال المقربة من حسن رأيه - أيداه الله - وأقرب الوسائل إليه وأزكاها لديه تأليف كتب العلم وجمع منشور الحكم . وتجديد آثار الأوائل الذين سبقوا إلى الفضيلة ، وفازوا بالرفعة ونهجوا سبيل الحكمة ، ومنحوا من بعدهم صنوف المنفعة تكلفنا كتابا يشتمل على أقاويل العلماء في ابتداء خلق الله تعالى الإنسان الذي جعله أشرف المخلوقات وخيار أتم الآلات . وسخر له ما تحت أكتاف السموات وكيف أحكم تدبيره . واتقن تصويره ، وأنشأه وركب أعضائه ، وجعله في درجة النمو إلى أن بلغ به حد الانتهاء وغاية الكمال ثم حطه إلى نقصان^(١) * .

وفي المقدمة إشارة إلى جهود الخليفة الحكم المستنصر في دفع عجلة الحركة العلمية وتشجيعه العلماء على البحث والتأليف ، وبهذا يتبين لنا مدى ما أسهم به ذلك الخليفة من جهود عظيمة في كل ميدان من ميادين المعرفة ومنها ميدان الطب .

ثم يتطرق عريب إلى الحديث عن الجنين وتدبيره وأسباب الولادة وما يتعلق بذلك من مسائل كآسباب الحمل ومستقر النطف ثم خلق الأجنة في

(١) عريب بن سعيد : خلق الجنين وتدبير الحبالى والمولود (مخطوط) ، ورقة ٨٥ ب و ٨٦ أ .
(*) يلاحظ أن أول ورقة في المخطوط تحمل الرقم ٨٥ ب ، وهذا راجعاً إلى أن المخطوط ضمن مجموعة من المخطوطات ، ولم يكن منفصلاً على حده ، بل كانت صفحاته في ترقيمها تبعاً لما سبقه من ترقيم للمخطوط الذي قبله .

الأرحام ومواقيت تحريكها ووصف ألوان العلاج لذلك . كما تطرق إلى دلائل كون الجنين ذكرا أو أنثى مُسلماً في ذلك بأن الله عالم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام^(١) .

وقد وضع عريب لكتابه المذكور فهرسا يحوي المواضيع الطبية التي تناول - فيها خلق الجنين وتدبير الحبالى والمولود وقسمه على أبواب كالآتي :

الباب الأول : في الزرع الذي هو علة الحيوان وأول خلق الإنسان وما يتعلق بذلك .

الباب الثاني : في القضيب وما يتعلق به من قوة أو ضعف وعلاج ذلك .

الباب الثالث : في الأرحام وموضعها والعلل المانعة للحمل ووصف علاجها .

الباب الرابع : وصف حال النطف وذكر ما يساعد على ذكورة الجنين من العلاجات .

الباب الخامس : في امتزاج زرع الوالدين ودلائل العلوق وخلق الجنين ومايتكون من الأعضاء أولا وغير ذلك .

الباب السادس : في قدر الحمل وحدوده وعدد شهوره وأيامه والمولودين لسبع أشهر أو ثمانية وما فوق ذلك .

الباب السابع : في تدبير الحبالى وحفظ قواهن ووصف العلاج لحفظ صحتهن والحديث عن الإسقاط وأسبابه وعلاجه .

الباب الثامن : في دلائل الوضع وتسهيل الولادة . وتدبير النفساء واستخراج المشيمة .

الباب التاسع : في تكوين اللبن وارضاع المولود واختيار الصبي وحفظ صحته وما يختار من الرضاع .

(١) عريب بن سعيد : المخطوط السابق ، ورقة ١٨٦ .

الباب العاشر : في أعمار المولودين وتنقلهم فيها ومراتبها ودرجاتها .

الباب الحادي عشر : في تدبير الطفل من قرب ولادته وأول حدود سنه وما يعالج به من الأمراض العارضة له .

الباب الثاني عشر : في تدبير الأطفال ووصف علاجهم بعد الأربعين يوما إلى وقت نبات الأضراس .

الباب الثالث عشر : في تدبير الصبي من بعد نبات أضراسه إلى وقت اتغاره وهو الجزء الثالث من سنه وابتداء كلامه ومشيه وغطامه وما يلحق به من الأمراض وعلاجها .

الباب الرابع عشر : في تدبير الصبي من بعد اتغارهم إلى وقت إشعارهم وقرب احتلامهم وعلاج ما يعرض لهم .

الباب الخامس عشر : في احتلام الغلمان وحيض الجواري ومواقيت البلوغ وما يحدث من اختلاف عند ذلك في الحركات والصور وتحديد أهل الطب لسن الإنسان من بدء حياته إلى نهاية عمره^(١) .

ويتجلى لنا من عناوين الموضوعات السابقة ما ضمه ذلك الكتاب من معارف وخبرات طبية تنم عن علم واسع بالطب ودراية عميقة بطب النساء والأطفال ، وقد أظهر عريب نبوغا فيما يتعلق بكل ذلك ، ومن روائع ما توصل إليه عريب ما ذكره في الباب الثالث من محاولات جيدة في سبيل علاج المرأة العقيمة وما وصفه في سبيل ذلك من طرق العلاج ، وهي بلا شك مسألة طبية صعبة ولا تزال إحدى الأبحاث الطبية المطروحة في وقتنا هذا أمام أطباء النساء .

(١) عريب بن سعيد : خلق الجنين وتدبير الحبالى والمولود (مخطوط) ، ورقة ٨٦ ب و ٨٧ أ .

كما يلاحظ أيضا في هذا الفهرس ترتيبه مسمى عمر الإنسان من حمله إلى بلوغ رشده ، فهو أولا جنين ثم مولود ثم طفل فصبي ، ولكل مرحلة من هذه المراحل علاجات ونصائح طبية وإرشادات قيمة ، والكتاب لا يخلو أيضا من نصائح طبية ونفسية يراعى الالتزام بها في تربية الطفل لكي يكفل له أسباب السلامة النفسية والجسدية . وقد وصف هذا الكتاب بأنه أهم ما كتب في طب الأطفال في أية لغة حتى القرن العاشر الميلادي (١) .

وكان يعاصر عريب من الأطباء الطبيب الذائع الصيت سليمان بن حسان المعروف بابن جلجل ، وقد وصف بالبراعة في تركيب الأدوية وتحضيرها (فكان طبيبا فاضلا خبيراً بالمعالجات ، حسن التصرف في صناعة الطب ، وكان في أيام هشام المؤيد بالله ، وخدمه بالطب ، وله بصيرة واعتناء بقوى الأدوية المفردة) (٢) .

وعرف عن ابن جلجل عنايته بعلم الطب ودراسته منذ صغره حيث درس على أيدي أطباء عصره من أهل قرطبة فبلغ فيه درجة رفيعة أهلتة لتدريس الطب وهو ابن أربع وعشرين سنة (٣) .

وكان لاهتمامه بالطب وعكوفه على دراسته أثر في رسوخ قدراته العلمية في ذلك الميدان وخاصة فيما يتعلق بتركيب الأدوية ومعرفة النباتات الطبية حتى قال عن نفسه (وكان لي في معرفة تصحيح هيولي الطب الذي هو أصل الأدوية المركبة حرص شديد وبحث عظيم حتى وهبني الله من ذلك بفضل بقدر ما أطلع عليه من نيتي في إحياء ما خفت يدرس وتذهب منفعة لأبدان الناس فالله قد خلق الشفاء وبثه فيما انبثته الأرض واستقر عليها من الحيوان المشاء والسابح

(١) جون . س . يانر وآخرون : عبقورية الحضارة العربية ، ص ١٦١ .

(٢) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ص ٤٩٣ .

(٣) ابن جلجل : طبقات الأطباء ، مقدمة المحقق فؤاد سيد (نقلا عن ابن الأبار في التكملة) .

في الماء والمنساب وما يكون تحت الأرض في جوفها من المعدنية كل ذلك فيه شفاء ورحمة ورفق^(١) .

وهكذا نلمس في سيرة ابن جليل ودراسته للطب وبحثه في حقل الصيدلة وتركيب الأدوية مدى إخلاصه العميق لذلك العلم وحرصه البالغ على إحياء ما اندرس منه فكان له بالفعل دراسات علمية قيمة لا يزال بعضها بين أيدينا .

وقد أثنى عليه القفطي ووصفه بالذكاء والنباهة وأنه تفرد بصناعة الطب وأن له ذكر في عصره ومصره^(٢) .

ومن تصانيفه العلمية في حقل الصيدلة وتركيب الأدوية كتاب فسر فيه أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديسقوريدس ، وقد ألفه في سنة ٣٧٢ هـ / ٩٨٢ م ، بقرطبة في عصر الخليفة هشام المؤيد بالله . كما أنه لم يكتف بذلك بل أضاف شيئاً جديداً في علم الأدوية فصنف مقالة في ذكر الأدوية التي لم يذكرها ديسقوريدس في كتابه ، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك وإلى سبب إغفال ديسقوريدس لتلك الأدوية عند الحديث عن كتاب ديسقوريدس^(٣) .

وكانت لابن جليل آراء وتوجيهات قيمة في ميدان الطب والعلاج فقد ألف رسالة في ذلك أسماها رسالة التبيين فيما غلط فيه بعض المتطببين ، كما أنه صنف كتاباً في تراجم الأطباء والفلاسفة^(٤) .

(١) ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص ٤٩٤ - ٤٩٥ .

(٢) تاريخ الحكماء ، ص ١٩٠ .

(٣) انظر ذلك في مقدمة الحديث عن ميدان الطب .

(٤) ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص ٤٩٥ - البغدادي : هدية العارفين ، ج ١ ، ص ٣٩٦

— السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢١٤ - ٢١٥ — عمر كحالة : العلوم

البحثة ، ص ٣٠١ .

ويذكر فؤاد سيد أن الكتاب الأول ضاع ولم يصل إلينا منه إلا قطعة صغيرة محفوظة في مكتبة مدريد ، أما المقالة التي ذكر فيها ما لم يذكره ديسقوريدس فقد أشار أن في مكتبة البودليان باكسفورد رسالة صغيرة ضمن مجموعة عنوانها (استدراك على كتاب الحشائش لديسقوريدس لابن جلجل) ، ومن الجائز أن تكون هي ، وأما الرسالة التي ألفها في غلط المتطببين فقد ضاعت كما ذكر فؤاد سيد أن له مقالة في أدوية الترياق ومنها نسخة ضمن المجموعة السابقة بالبودليان^(١) .

وفيما يتعلق بكتابه طبقات الأطباء فقد حفظ من الضياع وأشار إليه القفطي بقوله : (وله تصنيف صغير في تاريخ الحكماء لم يشف فيه غليلا ، وكيف وقد أورد من الكثير قليلا ومع هذا فقد كان حسن الإيراد)^(٢) .

ويتضح من مقدمة الكتاب أن ابن جلجل ألفه لأحد الأمراء من بني أمية حيث أشار إلى ذلك ، فقد وصف هذا الأمير بأنه من نسل الخلفاء وأن تصنيفه لذلك الكتاب يأتي تلبية لرغبته وعلى ما رسمه له^(٣) .

وقد نهج ابن جلجل طريق الاقتضاب والاختصار في تراجمه للأطباء والحكماء ، فطبقات الأطباء كتاب مختصر لم يحط فيه بالكثير من أعلام الطب والفلسفة ، وقد أشار إلى ذلك بقوله (واقترضنا على قليل من كثير لتلايمه قارئه ، وليسهل على النفس حفظه ، والكلام إذا طال ثقل)^(٤) .

وفي ميدان طب العيون برع الأخوان أحمد وعمر ابنا يونس الحراني وكانا يعيشان في عصر الخليفة عبدالرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر .

(١) ابن جلجل : المصدر السابق ، من مقدمة المحقق .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٩٠ .

(٣) طبقات الأطباء ، ص ٣ - ٤ .

(٤) نفس المصدر ، ص ١١٦ .

وفي سنة ٣٣٠ هـ / ٩٤١ م رحلا إلى المشرق حيث طافا هناك مترددين بين حلقات العلم ومجالس الأطباء ومنهم ثابت بن سنان بن ثابت بن قره حيث درسا على يديه كتب جالينوس ، كما درسا طب العيون على ابن وصيف ثم انصرفا عائدين إلى الأندلس فدخلها في عصر الخليفة الحكم المستنصر سنة ٣٥١ هـ / ٩٦٢ م ، حيث أنزلهما منزلا كريما ورفع مقامهما بين علماء بلاطه^(١) .

وكان الأخوان أحمد وعمر يجتهدان في رفع مكانتهما العلمية بين علماء عصرهم ، ويسعيان إلى إرضاء ميول الخليفة الحكم المستنصر في ميدان العلم والبحث ولم يزل حالهما على هذه الصورة حتى لحق عمر مرض شديد توفي على أثره . وبقي أخوه أحمد على منزلته العالية لدى الحكم المستنصر حيث أسكنه في قصره بمدينة الزهراء ، ووصف أحمد بالتمكن العميق في الطب والبراعة في طرق العلاج المختلفة فضلا عما عرف به من الورع وحسن السيرة^(٢) .

وكان لما تمتع به أحمد من صفات العالم الماهر أثره الكبير في إعلاء منزلته لدى الحكم المستنصر ، فقد سمح له الحكم المستنصر أن يقيم خزانة طبية بالقصر رتب فيها اثني عشر صيبا طبائخين للأشربة صانعين للمعجونات ، ونظرا لما جبل عليه من حسن الخلق فلم يكن ييخل بشئ من العلاج على المرضى من الفقراء والمساكين الذي كانوا يترددون على هذه الخزانة الطبية حتى كان يستقبلهم ويكشف عليهم ويصف لهم العلاج الناجح . وكان لمهارته في طب العيون أن أشتهر بذلك وذاع صيته بين الناس^(٣) .

(١) ابن جليل : طبقات الأطباء ، ص ١١٢ - ١١٣ - ابن الأبار : التكملة ج ١ ، ص ١٥ - فرات فائق : الكحالة عند العرب ، ص ٣٦ .

(٢) ابن جليل : نفس المصدر ، ص ١١٣ .

(٣) ابن جليل : المصدر السابق ، ص ١١٣ - ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٤٨٧ .

ويتضح لنا من سيرة ذلك الطبيب خاصة الأثر الأخلاقي الحميد الذي كان يصبغ سيرته العلمية وما كان يتمتع به أطباء ذلك العصر عامة من أخلاق حميدة وحسن معاملة لمرضاهم ، مما كان له الأثر البالغ في نفسيات المرضى وفي الإسراع بشفائهم .

ولم من الأطباء في تلك الفترة محمد بن عبدون الجبلى . وقد رحل ابن عبدون إلى المشرق سنة ٣٤٧ هـ / ٩٥٨ م ، وفي البصرة التقى بالكثير من العلماء وأخذ عنهم الكثير من المعارف ، وفي عودته إلى وطنه عرج على مدينة الفسطاط بمصر وتولى إدارة بيمارستانها^(١) .

وهذا بلا شك يعطينا دليلا واضحا على ما كان له من معرفة واسعة بالطب ، فإن توليه لذلك المنصب لدليل على منزلته العلمية وعلوها بين أطباء العالم الإسلامي ، كما يثبت تفوق الشخصية الأندلسية .

وبعد عودة ابن عبدون إلى الأندلس سنة ٣٦٠ هـ / ٩٧٠ م لقي من الخليفة الحكم المستنصر ما يناسب مقامه العلمي وحظي لديه ولدى ابنه هشام بمنزلة رفيعة وخدمهما بالطب . وقد وصف ابن عبدون بالبراعة في الطب وحسن العلاج^(٢) .

كما اشتهر الطبيب أبو الحكم عمرو بن عبدالرحمن الكرمانى (ت ٤٥٨ هـ / ١٠٦٥ م) الذي جمع في علمه بين الرياضيات والفلسفة والطب - بالمهارة في ميدان الجراحة الطبية ، وكان له (نفوذ مشهور في الكي والقطع والشق والبتر وغير ذلك من أعمال الصناعة الطبية)^(٣) .

(١) ابن جلجل : طبقات الأطباء ، ص ١١٥ .

(٢) ابن جلجل : نفس المصدر والصفحة - ابن أبي اصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٤٩٢ - ٤٩٣ - المقرئ : نفع الطيب ، ج ٢ ، ص ١٥١ - ١٥٢ .

(٣) صاعد : طبقات الأمم ، ص ٩٤ - ٩٥ ، ابن أبي اصيبعة : المصدر السابق ، ص ٤٨٤ - ٤٨٥ .

وبرز أبو بكر حامد بن سمجون في صناعة الأدوية المفردة وأفعالها ، وقد عرف بالتمكن في معرفتها وتقصى أنواعها ، وله كتاب في ذلك وصف بالجودة والقيمة العلمية العالية^(١) . وقد أُلّف ذلك الكتاب في عصر الحاجب المنصور الذي لم يكن عصره أقل مما سبقه في عصر الخليفة عبدالرحمن الناصر ثم ابنه الحكم المستنصر من ازدهار في المعرفة والعلوم . ولابن سمجون أيضا من كتب الطب كتاب الاقربا بآدين^(٢) .

وممن لمع أيضا من أطباء عصر الخلافة سعيد بن عبدالرحمن بن محمد ابن عبد ربه (ت ٣٤٢ هـ) الذي كانت له طرق مختلفة اختص بها في معالجة لبعض الأمراض . ومنها طريقته في مداواة الحميات إذ كان يخلط بالمبردات شيئا من الحوار ، وقد وصفت طريقته تلك بالصواب والاتقان^(٣) .

ومما يذكر عنه أن أحد أصحابه وهو الفقيه سليمان بن أيوب مرض بالحمى وطال ألمه ، حتى إذا كان في أحد الأيام التقى والده بالطبيب سعيد بن عبدالرحمن فسأله عن علة ابنه ثم بعث إليه بعد ذلك بثمانية عشرة حبة من حبوب مدورة وأمره أن يشرب منها كل يوم شيئا معينا ، فما أكملها حتى زال مرضه وذهبت أوجاعه^(٤) .

ونلمس من خلال هذه القصة ما بلغه الطب آنذاك من ازدهار ومدى ما وصل إليه ميدان العلاج الطبي من تطور ، فالعلاج المذكور أشبه ما يكون بما يتناوله المرضى في عصرنا هذا من الحبوب ، فالدواء كان على صورة حبوب في شكل مدور ثم إن تناولها كان على فترات معينة ، وبمقدار محدود ، ولو

(١) ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص ٥٠٠ .

(٢) ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص ٥٠٠ .

(٣) ابن جلجل : المصدر السابق ، ص ١٠٤ - ١٠٥ - صاعد : المصدر السابق ، ص ١٠٤ - ١٠٥ .

(٤) ابن جلجل : المصدر السابق ، ص ١٠٤ - ١٠٥ .

تصورنا البعد الزمني بيننا وبينهم لأدركنا أنهم فيما يخص الطب كانوا ذوى فضل عظيم في تطور هذا العلم وازدهاره وبلوغه هذا المستوى الذي ننعم به الآن .

ومن الحق أن نقول في الختام أنه برز في عصر الخلافة أعداد كبيرة من الأطباء بذلوا جهودا مثمرة في ميدان الدراسات الطبية ، وقد اكتفينا بأبرزهم وأكثرهم تأثيرا في تطور الطب آنذاك .

وما من شك أن ما ذكرناه من جهود الأندلسيين في هذا الصدد كان شيئا يبعث على الإعجاب، فما قدمه أبو القاسم الزهراوي من دراسات وأبحاث قيمة في تطور الطب والجراحة ، وما قدمه غيره من الأطباء كعريب بن سعيد وابن جلجل، وابن يونس الحراني وغيرهم كان عملا عظيما لا ينساه العلم لهم ، ولا يزال الكثير من أبحاثهم ودراساتهم العلمية يستحوذ على إعجابنا ويشهد لهم بعلو كعبهم في — ميدان الطب والصيدلة ، ويكفي أن نختتم هذا الحديث عن أطباء الأندلس بما ذكره عنهم أحد الكتاب الغربيين ، وهو روبرت بريفالت ، الذي يقول (كان الحكام المسيحيون يفوضون تعليم أولادهم إلى الأساتذة العرب وإذا أصيبوا بتوعلك معي ذهبوا بأنفسهم إلى قرطبة لاستشارة أشهر الأطباء فيها)^(١) .

(١) أثر الثقافة الإسلامية في تكوين الإنسانية ، ص ١٧٧ .

ب - الرياضيات والفلك :

تأخر الاشتغال بالرياضيات والفلك وسبب ذلك - ازدهار الدراسات الرياضية والفلكية في عصر الخلافة - الارتباط الوثيق بين الرياضيات والفلك آنذاك . مدرسة مسلمة المجرطي في الرياضيات والفلك وجهوده العلمية - ابن السمع الغرناطي - ابن الصغار - أبو مسلم بن خلدون - الكرمانلي - السري - أحمد بن نصر - الأسقف بن زيد .

الرياضيات والفلك :

لم يكن لإسبانيا قبل فتح المسلمين لها نشاط يذكر في ميدان العلوم القديمة ومنها الرياضيات والفلك . فقد كانت في قديم الزمان خالية من تلك العلوم ولم يشتهر أحد من أهلها بالاشتغال بأي منها واستمر ذلك الوضع حتى فتحها المسلمون (فتمادت على ذلك أيضا ، لا يعني أهلها بشئ من العلوم إلا بعلوم الشريعة وعلم اللغة إلى أن توطد الملك لبني أمية بعد عهد أهلها بالفتنة فتحرك ذورا الهمم منهم لطلب العلوم وتنهبوا لإشارة الحقائق)^(١) .

ولعل من عوامل تأخر الاشتغال بتلك العلوم ما ذكرناه عند الحديث عن الفلسفة من انشغال الأندلسيين بعلوم الدين ، وما كانوا يكونونه لبعض العلوم القديمة من كراهية وامتناع مما أدى إلى تأخير حركة الاشتغال بها ، وبخاصة الفلسفة والفلك والتنجيم .

وقد جانب آنخل بالانثيا الصواب عندما أشار في معرض حديثه عن الرياضيات إلى أن الفقهاء كانوا يتشددون في الاشتغال بالرياضيات ولم يكونوا يبيحون إلا الحساب في مسائل الميراث^(٢) .

وهذا بلا شك مخالف للحقيقة ، فالرياضيات لم تلق من التحريم والكراهية ما لقيته الفلسفة والفلك مثلا ، كما نعلم أن الرياضيات علم هو أبعد ما يكون عن مجال الانحراف العقائدي والمساس بعقيدة المشتغل بها . والرياضيات تتضمن الحساب والهندسة وهما علما أشتغل بهما الأندلسيون واحتاجوا إليهما ، فالحساب احتاجوا إليه في ميدان الفرائض والضرائب وغيرهما من الميادين التي تستند في نشاطها إلى الأرقام الحسابية ، والهندسة

(١) مساعد : طبقات الم ، ص ٨٣ - ٨٤ .

(٢) تاريخ الفكر الأندلسي ، ص ٤٤٧ .

احتاجوا إليها في ميادين البناء والعمارة والري ، وعندما ازدهرت علوم الرياضيات اعتمد عليها الفلكيون في ممارسة نشاطهم وأبحاثهم الفلكية ، وهو أمر لم يتحقق إلا في بداية القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي .

ويتضح لمن تتبع حركة الدراسات الرياضية والفلكية أن تلك العلوم لم تزدهر وتتطور إلا في عصر الخلافة ، وهو العصر الذي ازدهرت فيه الحركة العلمية بشكل عام ، ومن الطبيعي أن تشمل في ازدهارها علوم الرياضيات والفلك .

وما من شك في أن للتطور الحضاري أثر في اتساع آفاق الدارسين والإقلال من نظرة الكراهية لتلك العلوم ، فمن دلالات الوعي الحضاري وحرية الفكر أننا نجد علماء بارعين في الفلك والرياضيات ، وفي نفس الوقت كانوا مبرزين في علوم الدين حتى تولى بعضهم القضاء . ومن هؤلاء العلامة محمد ابن احمد بن الليث (ت ٤٠٥ هـ / ١٠١٤ م) الذي وصف بالتمكن في الفلك والرياضيات ، وقد تقلد قضاء شربون من أعمال بلنسية . ومثله مختار بن شهر الرعيني (ت ٤٣٥ هـ / ١٠٤٣ م) ، الذي تقلد القضاء وجمع إلى علمه في الدين براعته في الهندسة والفلك^(١) .

وكان للرحلات العلمية أثرها العظيم في ازدهار تلك العلوم . فكان الأندلسيون العائدون من المشرق يحملون معهم ما اكتسبوه من علوم ومعارف عن إخوانهم المشاركة فيبثونها في بلادهم وبين تلاميذهم . كما كان لوفود العلماء المشاركة إلى الأندلس أثر بارز في نشاط تلك الدراسات وتطورها بما كان يحمله أولئك العلماء من ألوان المعرفة وضروب التأليف العلمية .

وإذا أضفنا إلى ذلك كله موقف الخليفة الحكم المستنصر من العلوم وعنايته الكبرى بذلك الميدان العلمي المهم لا تضح لنا مدى ما وصلت إليه

(١) صاعد : طبقات الأمم ، ص ٩٦ - ٩٧ .

الدراسات الرياضية من رقي وازدهار ، فقد برع فيها الكثير من العلماء الذين أثروا ذلك الميدان بدراساتهم وأبحاثهم القيمة .

كما ازدهر الفلك في عهد الحكم المستنصر ، فقد أولاه رعايته وأحاطه بتشجيعه ، واستجلب من العراق ومصر أهم الكتب الأساسية فيه قديمها وحديثها وقد أدى ذلك إلى نبوغ الكثير من الفلكيين الذين تخصصوا في مراقبة حركات النجوم واستخدام آلات المرصد وأثبتوا نبوغهم وعبقريتهم في ذلك المجال بما قاموا به من تصحيح وتحسين الجداول الفلكية ، وتقويم نتائج من سبقهم^(١) .

ونتيجة للارتباط الشديد بين الدراسات الرياضية والفلكية فسوف نلاحظ أن العديد من العلماء بل أكثرهم قد جمعوا إلى مهارتهم في الرياضيات براعتهم في الفلك ، وهذا راجع بلاشك إلى حاجة الفلكي إلى الحساب والهندسة لمعرفة مواضع الكواكب ، فالزيج وسيلة من الوسائل المهمة في الدراسات الفلكية ، وقد عرفه ابن خلدون بأنه : صناعة حسابية على قوانين عددية فيما يخص كل كوكب من طريق حركته وما أدى إليه برهان الهيئة في وضعه من سرعة وبطء واستقامة ورجوع وغير ذلك يعرف به مواضع الكواكب في أفلاكها^(٢) .

وبناء على ماتقدم فمن الصعوبة أن نفرق بين الفلكي والرياضي فكل منهما يعتمد في علمه على نصيب كبير من علم الآخر .

وبعد أن ازدهرت الدراسات الرياضية والفلكية أصبحت تدرس في الجوامع جنباً إلى جنب مع العلوم الدينية والأدبية واللغوية ، فكانت قرطبة

(١) مياس بياكروزا : المؤلفات الأولى عن الاسطرلاب في إسبانيا العربية ، مقال بمجلة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، العدد الثالث ، ج ١ ، ص ١٩٢ .

(٢) المقدمة : ص ٤٨٨ - ٤٨٩ .

والكثير من مدن الأندلس تعج بالرياضيين والفلكيين الذين انصرفوا إلى تدريس تلك العلوم في جوامعها وبثها بين طلبة العلم ، فقد كان أحمد بن محمد الأنصاري ضليعا في الرياضيات ماهرا في الفلك ، وكان يجلس لتعليم ذلك في جامع قرطبة في عصر الخليفة الحكم المستنصر ، وقد شهد له أستاذة مسلمة المجريطي بالتفوق الكبير في الهندسة والعلوم الرياضية^(١) .

والجدير بالذكر أنه قد ظهر في قرطبة مدرسة علمية كبيرة في الرياضيات والفلك كان لها أكبر الأثر في نشاط تلك العلوم وتخريج أجيال كبيرة من الرياضيين والفلكيين ، وهذه المدرسة العلمية هي مدرسة العلامة مسلمة بن أحمد المجريطي (ت ٣٩٨ هـ / ١٠٠٧ م) الذي كان أمام الرياضيين في الأندلس في وقته وأعلم ممن كان قبله بعلم الأفلاك ، وكانت له عناية بأرصاد الكواكب وشغف بفهم كتاب بطليموس المعروف بالمجسطي^(٢) .

ويتجلى من خلال هذا النص النشاط العلمي الواسع الذي كان يتمتع به مسلمة ومدى تعمقه في علمي الرياضيات والفلك . وعنايته الكبيرة في رصد الكواكب وما يتصل بذلك من النشاط الفلكي بمناحيه المختلفة .

وقد ألف مسلمة كتابا في الرياضيات وبالذات في علم العدد وهو المعروف لدى أهل الأندلس بالمعاملات^(٣) .

(١) صاعد : المصدر السابق ، ص ٩١ ظل ابن الآبار : التكملة ج ١ ، ص ١٤ .

(٢) صاعد : المصدر السابق ، ص ٩٢ - ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٤٨٢ - ٤٨٣ .

— يلاحظ ورود اسمه مسلمة المجريطي في أكثر من علم . والسبب في ذلك أن هذا العلامة قد اتصف بالمعرفة الواسعة في أكثر من علم كعلمه في علم الرياضيات والفلك والكيمياء وعلم الحيوان والجغرافيا . وهي صفة اتصف بها الكثير من علماء المسلمين ، وكانت سمة من سمات الحياة العلمية عند المسلمين آنذاك .

(٣) تصريف الحساب في معاملات المدن في البياعات والمساحات والزكوات وسائر ما يعرض فيه العدد من المعاملات (ابن خلون : المقدمة ، ص ٤٨٤) .

وقد اثنى ابن خلدون على تفوق الاندلسيين في هذا الميدان حيث قال :
(ولأهل الصناعة الحسابية من أهل الأندلس تأليف فيها متعددة من أشهرها
معاملات الزهاوي وابن السمع وأبي مسلم بن خلدون من تلاميذ مسلمة
المجريطي)^(١) .

وكان لمسلمة جهود موفقة في ميدان الدراسات الفلكية ، وكان لتضلعه في
ذلك العلم أثر مهم في نظرتة العلمية إلى دراسات من سبقه من العلماء في
الفلك فقد ألف كتابا اختصر فيه تعديل الكواكب من زيح البتاني^(٢) .
كما اهتم بزيح العلامة المشرقي الرياضي محمد بن موسى الخوارزمي وترجم
تاريخه الفارسي إلى التاريخ العربي ووضع أوساط الكواكب فيه لأول تاريخ
الهجرة ، وأضاف إليه من علمه جداول حسنه ويشير القاضي صاعد إلى وقوع
مسلمة رغم علمه الواسع في نفس الأخطاء التي وقع فيها الخوارزمي ، وأنه قد
نبه على ذلك في كتاب ألفه في الفلك^(٣) .

ومما يؤكد مكانة مسلمة العلمية وعظم تأثيره في ازدهار الفلك
والرياضيات ما حظيت به مجالسه العلمية من الشهرة وبعد الصيت حتى
ازدحمت حلقات درسه بأعداد هائلة من طلبة العلم ، فكان له تلاميذ نجباء
أخذوا عنه العلم وقاموا بدورهم في بث تلك المعارف ونشرها في الأوساط
العلمية في مختلف أرجاء الأندلس وسوف نشير إلى أهم تلاميذه في خاتمة
الحديث عنه .

(١) المقدمة : ص ٤٨٤ .

(٢) البتاني : هو جعفر بن سنان من أشهر علماء الرياضيات والفلك بين المسلمين كان حيا في
القرن الثالث الهجري : التاسع الميلادي . (صاعد : طبقات الأمم ، ص ٧٥) .

(٣) طبقات الأمم : ص ٩٢ - ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص ٤٨٢ - ٤٨٣ - عبدالحليم
منتصر : تاريخ العلم ، ص ١٨١ - عمر فروخ : المرجع السابق ، ص ٥٨٨ - قدرى طوقان :
تراث العرب العلمي ، ص ٢٥٧ .

وبالإضافة إلى ما تقدم من جهود مساهمة العلمية تنسب إليه دراسات على تأليف عربي مفقود أصله اليوناني ، وقد ترجمه إلى اللاتينية هرمان الألماني وكذلك يوحنا الإسباني ، وموضوع الكتاب حول استخدام الإسطرلاب^(١) المسطح^(٢) .

ويشير بياكروزا في معرض حديثه عن نشاط الأندلسيين في ميدان الدراسات الفلكية إلى ما قام به مسلمة من دراسات علمية في ذلك بقوله : (وإذا كانت هذه المؤلفات من عمل مسلمة فإنه يكون بذلك أول من ألف عن الإسطرلاب في الأندلس ولكن يحوط الشك بهذه النسبة لسببين : أولهما أن ابن سعيد الطليطلي وهو خير مرجع لهذه الدراسات لم يذكر عن مسلمة أنه قام بعمل تأليف عن الإسطرلاب ، علاوة على عدم وجود إشارة كهذه في الكتب العربية الأخرى ، والسبب الثاني : هو عدم وجود أصل عربي له ، إذ أن كل ما نعرفه هو إشارات في الترجمات اللاتينية ويجب ألا يغرب عن البال أن كثيرا من هذه الترجمات اللاتينية تخلط بين المؤلفين الأصليين للكتب^(٣) .

والحق أن ما أدلى به بياكروزا لا يخلو من الصحة إلا أن ما ذكره ليس كافيا في القطع بأنه لم يكن لمسلمة تأليف عن الإسطرلاب . ذلك أن صاعداً في كتابه طبقات الأمم لم يحط بكل ما ألفه الأندلسيون في كل علم من العلوم القديمة، وبذلك لا يكون كتابه حجة في كونه قد استقصى كل ما أؤلف في ذلك . فمثلا كان لمسلمة كتب أخرى لم يذكرها صاعد ككتاب « رتبة الحكيم » و « مفاخر الاحجار » و « غاية الحكيم » ، ولا يدفعنا عدم ذكر صاعد لهذه

(١) الإسطرلاب . معناه مقياس النجوم وهو باليونانية « اصطرلابون » واصطر هو النجم ولايون

هو المرأة (الخوارزمي : مفاتيح العلوم ، ص ١٧٧) .

(٢) قدرتي طوقان : تراث العرب العلمي ، ص ٢٥٧ .

(٣) المؤلفات الأولى عن الإسطرلاب في أسبانيا العربية . مقال بمجلة معهد الدراسات الإسلامية

بمدريد ، العدد الثالث ، ج ١ ، ص ١٩٢ - ١٩٣ .

الكتب أن نشك في نسبتها إلى مسلمة . كما أن السبب الآخر ليس قاطعاً في ذلك المجال ، فإن عدم وجود أصل عربي للكتاب لا يعني أنه مستحيل كونه أصلاً مؤلف عربي . فمن الجائز أن أصله العربي ضاع أو فقد كما ضاع الكثير من كتب الأندلسيين الذين تعرضوا على مسار تاريخهم للكثير من ضروب الفتن والكوارث إلى جانب ما نعرفه من تعصب النصارى ضد التراث الإسلامي وإحراقهم إياه بعد كل نصر يحرزونه على المسلمين .

ومما يوضح هذا الأمر ما ذكر عن الفلكي الأندلسي ابن الزرقال الذي عاش في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي من أن له كتاباً في الكواكب السيارة وكيف ضاع أصله العربي ولا يوجد منه إلا ترجمة عبرية^(١) . هذا بالإضافة إلى أن أنخل بالنثيا أشار إلى أن من بين مؤلفات مسلمة « رسالة في الاسطرلاب »^(٢) . ولا شك أن شهادة بالنثيا في هذا الميدان لها قيمتها وثقلها في مساندة من يذهب إلى مشاركة مسلمة في التأليف العلمي حول الإسطرلاب .

وكان لمسلمة دور كبير في تعريب بعض الكتب اليونانية في الفلك ، فقد ترجم كتاب « قبة الفلك » Planis Phaerium لبطليموس . وقد نشرت ترجمته اللاتينية في سويسرا سنة ١٥٣٦م بعنوان :

Sphaetas atqua astroum coelestium
ratio, naturaetmotus

« أي سرعة أفلاك السماء ونجومها وطبيعتها وحركتها »^(٣) . و مترجمها إلى اللاتينية هو رودولف أوف برجس^(٤) Rudolf of Burges .

(١) أنخل بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ، ص ٤٥١ ، ج رقم ٢ .

(٢) نفس المرجع ، ص ٤٤٨ .

(٣) أنخل بالنثيا : المرجع السابق ص ٤٤٨ - ٤٤٩ .

(٤) قدرى طوقان : تراث العرب العلمي ، ص ٢٥٧ .

وكان لطول ارتباط مسلمة بالدراسات الفلكية واطلاعه على الكثير من أسرار هذا العلم أن دفعه ذلك إلى تأليف كتاب أسماه « غاية الحكيم » الذي ضمنه الكثير من المعلومات الفلكية . ولكنه صبغ ذلك بصبغة تنافي حقائق هذا العلم إذ شاب كتابه المذكور الكثير من النصوص المتعلقة بالطلاسم والتعاويذ . فهو القائل في مقدمة كتابه المذكور (اعلم أن الداعي الذي حركني إلى تأليف هذا الكتاب الذي سميته بـ (غاية الحكيم)^(١) . وكان تألفي لهذا الكتاب سنة ثلاثة وسبعين وثلاثمائة عند فراغي من تنقيح كتابي رتبة الحكيم واتممه في أربع وسبعين وثلاثمائة والمحرك إلى تأليفه ما رأيت أكثر أهل زماننا يبحثون عنه من أمور فنون أنواع السحر وهم لا يعلمون ما يفعلون^(٢) ولا في أي سبيل يقصدون^(٣) .

وقد قسم كتابه المذكور إلى أربع مقالات يتضح من خلالها مدى ما كان يعتقد الأوائل في الكواكب وعمق تأثيرها في حياة الناس وارتباط ذلك التأثير بالإنسان من الشعوذة التي تنافي حقائق العلم وتعاليم الدين .

والكتاب رغم هذا يحوي الكثير من المعارف المهمة في الكيمياء والفلسفة والجغرافيا والطب والنبات وغير ذلك من المعلومات القيمة التي تلقي الضوء على نواحي من العلم والمعرفة تفيدنا في دراسة تلك العلوم وتوضيح نشاط الأندلسيين في ذلك .

(١) في الأصل رتبة الحكيم والصحيح ما أثبتناه إذ أن حديثه عن كتاب غاية الحكيم وليس رتبة الحكيم ، وقد يكون ذلك الخط عائداً إلى الناسخ أو غير ذلك .

(٢) في الأصل توجد كلمة غامضة ، والكلمة التي بين الحاصرتين تتماشى مع مفهوم النص وسياقه الكلام .

(٣) مسلمة الجريطي : غاية الحكيم (مخطوط) ورقة ١١ .

- ترجم هذا الكتاب إلى اللغة اللاتينية بأمر من الملك الفونسو وذلك عام ١٢٥٢ م ، تاريخ وتحت عنوان Picatrix (على الدفاع : أمام علماء المغرب في العلوم التطبيقية الجريطي - الجريطي : مقال نشر بمجلة الفيصل ، العدد ٥٦ . صفر سنة ١٤٠٢ هـ .

ونسب إليه البغدادي في هدية العارفين تأليف كتاب « إخوان الصفا وخلان الوفا » والحق أن هذا الكتاب لم يكن من تأليفه بل كان من تأليف بعض علماء المشرق ، وقد نسب إدخال ذلك الكتاب إلى العلامة الأندلسي الكرمانلي تلميذ مسلمة . ويذكر عبد الحليم منتصر أنه من الجائز أن مسلمة وضع بحثا في ذلك في قالب مبسط خال من التعقيد^(١) .

وكان لمكانة مسلمة العلمية وتفوقه في الفلك أن ذكره ابن حزم بقوله : (سمعت من اثنى بعقله ودينه من أهل العلم ممن اتفق على رسوخه فيه يقول : أنه لم يؤلف في الأزياج مثل زيح مسلمة وزيح ابن السمع وهما من أهل بلدنا)^(٢) .

ولم يفارق مسلمة الدنيا حتى خلف من بعده تلاميذ نجباء حملوا الرسالة العلمية من بعده وكانوا مثالا نيرا لغيرهم من العلماء^(٣) .

ومن ألمع تلاميذ مسلمة بل كبيرهم أصبغ بن محمد بن السمع المهري القرطبي (ت ٤٢٦هـ / ١٠٣٤م) ، وكان متضلعا في الرياضيات راسخا في علم الفلك بالإضافة إلى مهارته الفائقة في ميدان الطب^(٤) .

وما من شك أن تلقيه العلم على يد مسلمة المجريطي وملازمته إياه قد عاد عليه بفائدة جلية ، ومعارف جمه بدت علاماتها واضحة في سيرته العلمية وفيما قدمه من جهود علمية تتمثل في تأليفه العلمية المتعلقة بالفلك والرياضيات والطب .

(١) تاريخ العلم ، ص ١٨١ .

(٢) المقرئ : النفع ، ج ٣ ، ص ١٧٦ (نقلا عن رسالة ابن حزم في فضل الأندلس) .

(٣) صاعد : المصدر السابق ، ص ٩٢ .

(٤) صاعد : المصدر السابق ، ص ٩٣ - ابن الأبار : التكملة ، ج ١ ، ص ٢٠٧ - ابن أبي أصيبعة :

المصدر السابق ، ص ٤٨٣ - ٤٨٤ - ابن الخطيب : الإحاطة في أخبار غرناطة ، ج ١ ، ص ٤٢٨ -

الصفدي : الوافي بالوفيات ج ٩ ، ص ٢٨٢ - المقرئ : النفع ، ج ٣ ، ص ٣٧٥ - ابن قنفذ :

الوفيات ، ص ٢٣٤ - عمر فروخ : المرجع السابق ، ص ٥٨٩ - عمر كحالة : العلوم بحتة ، ص ١٨٨ .

وكان للفتنة التي اجتاحت قرطبة بعد زوال النفوذ العامري أثر في تبرمه لما أصاب تلك المدينة من كوارث ، مما أثر على نفسيته فخرج من قرطبة إثر ذلك واستقر بغرناطة حيث نزل ضيفا على أميرها حبوس بن ماكسن الصنهاجي الذي أنزله منزلا كريما ورفع مكانته بين علماء بلاطه^(١) .

وفي هذا إشارة إلى ما نجم عن الفتنة من تفرق العلماء في مختلف أقطار الأندلس وانتشارهم في مدنها المختلفة .

وأسهـم ابن السـمـح الذي جمع في علمه بين الرياضيات والفلك والكيمياء في حركة التأليف العلمي ، فألف كتابا في الهندسة « المدخل إلى الهندسة في تفسير كتاب اقليدس »^(٢) . كما ألف كتابا اسمه « ثمار العدد » والمعروف بالمعاملات ، وكتاب « طبيعة العدد » . بل كان لاهتمامه بالهندسة أن ألف فيها كتابا كبيرا تقصى فيه أجزاءها من الخط المستقيم والمقوس والمنحنى ، أما فيما يتعلق بالدراسات الفلكية فقد صنف كتابين في آلة الاسطرلاب ، أحدهما في التعريف بكيفية صنعها على مقالتين . أما الآخر فمؤلف في كيفية العمل بها والتعريف بجوامع ثمارها ، وهو مقسم على مائة وثلاثين . كما أنه صنف زيجا وذلك على طريقة الهند المعروفة بالسند هند^(٣) ، وهو كتاب كبير يقع في جزئين أحدهما في الجداول ، والآخر في رسائل الجداول^(٤) .

(١) ابن الأبار : التكملة ، ج ١ ، ص ٢٠٧ .

(٢) هذا الكتاب مصنف في أصول الهندسة ، واقلیدس من علماء الرياضة اليونان (الخوارزمي : المصدر السابق ، ص ١٥٧ .

(٣) ذكر القاضي مساعد في كيفية انتقال السند هند إلى المسلمين نقلا عن أحد العلماء أنه قدم على الخليفة العباسي المنصور رجل من الهند عالم بالحساب والفلك وكان بحوزته كتاب في الفلك اسمه السند هند في حركات النجوم وما يتعلق بها من مسائل ويحوي اثنا عشر بابا ، فأمر المنصور بترجمة ذلك الكتاب وألف عليه العلامة محمد بن الفراري كتابا يسميه الفلكيون « بالسند هند الكبير » ثم اختصره الخوارزمي وأضاف إليه الكثير من المسائل . انظر : طبقات الأمم ، ص ٦٧ – عبدالله مبشر : علم الفلك والنجوم عند أهل الهند والسند (مقال بالمجلة العربية ، السنة الرابعة ، العدد ١١ ، ص ٥٨) .

(٤) مساعد : طبقات الأمم ، ص ٩٣ – قدری طوقان : تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك ، ص ٣٣٦ .

وقد اثنى ابن حزم الأندلسي على زيغ ابن السمع وأنه لم يؤلف مثله هو زيغ أستاذه مسلمة كما سبق أن أشرت .

ولم يكن ابن حزم هو الوحيد الذي أثنى على ابن السمع ، فقد وصف ابن الخطيب مؤلفاته بالحسن والجوده وإنها عظيمة الفائدة ، كما أشار إلى أن له مصنفاً كبيراً في التاريخ ، وأنه لمنزلة العلمية وعلو مقامه يعد من مفاخر الأندلس^(١) .

وشارك ابن السمع في ازدهار حركة الدراسات الرياضية والفلكية صديقه أحمد بن عبدالله بن عمر القرطبي المعروف بابن الصفار (ت ٤٢٦ هـ / ١٠٣٤ م) الذي لم يكن بأقل عطاء من ابن السمع ، فقد أسهم في نشر علمه وبث معارفه حتى اتخذ له موطعاً في جامع قرطبة يلقي فيه دروسه ويعلم فيه التلاميذ^(٢) .

وصنف ابن الصفار العديد من المصنفات من بينها تأليفه لزيغ مختصر على مذهب السند هند ، كما ألف كتاباً في العمل بالإسطرلاب موجز حسن العبارة قريب المأخذ^(٣) .

ومما يسر أن كتابه الأخير لا يزال محفوظاً وموجوداً بين أيدينا ، وهو كتاب صغير الحجم إلا أن ما ضمه من معلومات حول العمل بالإسطرلاب تعد من أهم المعلومات وأعظمها فائدة في هذا الميدان . ويشير مياس بياكروزا الذي

(١) الإحاطة ، ج ١ ، ص ٤٢٨ .

(٢) صاعد : المصدر السابق ، ص ٩٣ - ٩٤ - ابن بشكوال : الصلة ج ١ ، ص ٤٢ - ابن أبي أصيبعة : المدر السابق : ص ٤٨٤ .

(٣) صاعد : المصدر السابق ، ص ٩٣ - ٩٤ ابن أبي أصيبعة : عمر كحالة : العلوم البحتة ، ص ١٨٩ .

نشر ذلك المخطوط في مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمديريد^(١). إلى أن الكتاب ترجمه إلى اللاتينية بلاتوتيبير تينوس في الثلث الأول من القرن الثاني عشر الميلادي ، وأن للكتاب ترجمه أخرى إلى اللغة العبرية^(٢) .

ولكن بعد اطلاعي على مخطوطة الكتاب ومقارنتها بما نشره بياكروزا لوحظ اختلاف كبير بين ما هو في المخطوط وما نشر ، ففي المخطوط الكثير من المواضع التي لم ترد في النسخة المنشورة .

والمخطوط يقع في ١٨ لوحة . وبعد البسملة والصلاة على النبي ، ﷺ ، ذكر نسبة الرسالة إلى ابن الصفار ثم يبدأ الحديث عن الإسطرلاب والآلة ومهمة كل منها ، ويظهر من أسلوب المؤلف أن الكتاب المذكور موجه لطلبة العلم والمشتغلين بالفلك في صورة توجيهات وإرشادات فهو يصدر كل باب من رسالته بقوله « إذا أردت - مثلاً - كذا وكذا فافعل كذا .. » ، وهو بهذا يرسم الطريقة العلمية الصحيحة للمشتغلين بالفلك ، وكيف يتبعون أحسن السبل في ممارسة نشاطهم العلمي . كما يتضح من دراسة ذلك المخطوط المهارة الفائقة والتطبيق العملي الذي كان يجريه ابن الصفار في محاولة منه للخروج بأينع الثمرات وأهم النتائج .

ويوضح ابن الصفار في رسالته كيفية العملية السليمة لمعرفة الأوقات وتحديد موضع الشمس من فلك البروج ومعرفة اوقات النهار وما يمر من ساعات وتعين وقت الظهر والعصر ، بل إنه يعين جزئيات ساعة واحدة من الليل والنهار . ثم يتابع دراسته العملية في توضيح ارتفاع الشمس وكيف يتم ضبط ذلك ، وكيف تتم معرفة درجة الشمس المجهولة من قبل ارتفاع نصف

(١) ابن الصفار : العمل بالإسطرلاب ، العدد الثالث ، ج ١ ، ص ٤٧ - ٧٦ .

(٢) مياس بياكروزا : المؤلفات الأولى عن الإسطرلاب في إسبانيا العربية ، مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمديريد ، العدد الثالث ، ج ١ ، ص ١٩٣ .

نهارها . ويستمر في توضيح الكثير من المعلومات المتعلقة بدرجات طلوع الشمس والتعريف بالكواكب الموضوعة في الشبكة إلى معرفة وقت طلوع أول درجة من البروج ، ومع أي درجة يتوسط السماء أي كوكب ، لينتقل إلى موضوع تعيين القبلة في الليل والنهار . ويمضي المؤلف ليعين الطول وكيفية أخذه ويوضح معنى الطول بقوله : (واعلم أن الطول هو ما بين نصف نهار بلدك ونصف نهار بلد آخر من دائرة معدل النهار)^(١) .

كما ينبه إلى معرفة كيفية معرفة الظل من قبل ارتفاع الشمس ومعرفة ارتفاع الشمس من قبل الظل . ويسير المؤلف على هذا المنهج حتى يصل إلى كيفية معرفة موضع القمر من البروج ، ومواضع الكواكب السياره فيها ، وفي باب آخر معرفة سعة المشارق . ثم يتطرق إلى باب آخر في معرفة دخول السنين العجمية وشهورها فيقول : (إذا أردت في أي يوم يدخل فيه يناير) من أي عام أردت من أعوام تاريخ الهجرة فأعرف تلك السنه الداخلة كم هي من تاريخ مولد المسيح عليه السلام)^(٢) ويختتم المؤلف كتابه بصورة فلكية دائرية موضحا عليها مواضع الشهور والفصول^(٣) .

ومن العجب أن ابن الصفار يشترك مع ابن السمع في كثير من الحقائق فكلاهما تلميذ لمسلمة الجريطي ، وكلاهما برع في الفلك والرياضيات ، وكلاهما خرج من قرطبة بعد الفتنة فابن السمع خرج إلى غرناطة ، وابن الصفار خرج إلى دانية^(٤) ، وكلاهما توفي في سنة ٤٢٦ هـ / ١٠٣٤ م .

(١) ابن الصفار : العمل بالإسطرلاب (مخطوط) ورقة ٧ ب .

(٢) ابن الصفار : نفس المصدر . ورقة ١٧ أ .

(٣) هذه خلاصة موجزة وإشارة سريعة لمحتويات ذلك المخطوط .

(٤) دانية مدينة بشرقي الأندلس (الحميري : الروض العطار ، ص ٧٦) .

وكان لابن الصفار تلاميذ بارعين في الفلك والرياضيات . كما كان له أخ يسمى محمد وصف بالمهارة في علم الفلك ، واشتهر بصناعة الإسطرلاب وأنه (لم يكن بالأندلس قبله أجمل صنعا لها منه) (١).

وبرز إلى جانب من تقدم الكثير من الرياضيين والفلكيين ، ومنهم الحسن ابن علي الزهراوي . وكان الزهراوي بارعا في الرياضيات ماهرا في الفلك وله مصنف ممتاز في المعاملات على طريق البرهان ، وهو الكتاب المعروف بكتاب « الأركان » ، والزهراوي هذا من تلاميذ مسلمة المجريطي (٢) .

ومن تلاميذ مسلمة المجريطي أيضا العلامة أبو مسلم بن خلدون الذي سبقت الإشارة إليه في علم الفلسفة ، فبالإضافة إلى مهارته في الفلسفة فقد كان بارعا في الهندسة والفلك ، وكان جم النشاط في بث علومه ومعارفه حتى لازمه الكثير من طلاب العلم ، فكان له تلاميذ كثيرون أخذوا عنه العلم ونشروه عنه (٣) .

وقد جانب عبد الحليم منتصر وقدري طوقان الصواب (٤) عندما أشار إلى أن من تلاميذ مسلمة المجريطي ابن خلدون صاحب المقدمة ، فصاحبنا أبو مسلم بن خلدون كان يعيش في القرن الرابع الهجري : العاشر الميلادي ، وأما ابن خلدون صاحب المقدمة فقد كان يعيش في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي . وتوفي في مصر سنة (٨٠٨ هـ / ١٤٠٢ م) ، فالفرق الزمني واضح جدا ، ولعل الذي أوقعهما في هذا اللبس توافق الاسم لأب كل من العالمين المذكورين فظننا أن ابن خلدون الرياضي هو صاحب المقدمة المشهورة .

(١) صاعد : المصدر السابق ، ص ٩٣ - ٩٤ - ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص ٤٨٤ .

(٢) صاعد : المصدر السابق ، ص ٩٤ - ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص ٤٨٤ .

(٣) المقرئ : النفع ، ج ٣ ، ص ٣٧٦ .

(٤) الأول في كتابه تاريخ العلم ، ١٨٢ . والثاني في كتابه تراث العرب العلمي ، ص ٢٥٩ .

كما لمع أبو الحكم عمرو بن عبدالرحمن الكرمانى في ميدان الفلك والهندسة ، وقد سبقت الإشارة إليه عند الحديث عن الفلسفة وأنه نُسِبَ إليه إدخال رسائل إخوان الصفا إلى الأندلس .

وكان الكرمانى متضلعا بالأخص في ميدان الهندسة حتى قال عنه صاعد (أخبرني عنه تلميذه الحسين بن أحمد بن الحسين بن يحيى المهندس المنجم أنه ما لقي أحدا يجاربه في علم الهندسة ، ولا يشق غبارة في فك غامضها ، وتبين مشاكلها واستيفاء أجزائها)^(١) .

وكان للخليفة الحكم المستنصر أثر في ازدهار تلك الدراسات الرياضية والترغيب في البحث في مواضيعها المختلفة ، ويروى عنه - في هذا الصدد - أنه كان يعظم العلامة عبدالله بن محمد المعروف بالسرى . وكان السرى بارعا في الهندسة والحساب ، وألف في ذلك كتابا مشهورا في البيع ، وقد حظي السرى بمنزلة رفيعة لدى الحكم المستنصر الذي كان حريصا على تقريبه إليه للاستفادة من علمه ، غير أن السرى كان يفضل العزلة والزهد لورعه^(٢) .

كما برز في عصر الخلافة من علماء الرياضيات أحمد بن نصر الذي ألف كتابا في الهندسة في المساحة المجهولة ، وقد أثنى عليه ابن حزم وعده من مفاخر الأندلس في الرياضيات وأن كتابه المذكور لم يؤلف مثله في معناه^(٣) .

(١) طبقات الأمم ، ص ١١٢ - ١١٣ .

(١) صاعد : نفس المصدر ، ص ٩٠ - ٩١ - القفطي : أخبار الحكماء ص ٢٤٣ - ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٤٨٤ - ٤٨٥ - المقرئ : النفع ، ج ٣ ، ص ٣٧٦ - أحمد أمين : ظهر الإسلام ، ج ٣ ، ص ٢٧٠ .

(٢) الحميدي : الجذوه ، ص ١٤٨ (نقلا عن صديقه ابن حزم في رسالته عن فضل الأندلس) - المقرئ : نفع الطبيب ، ج ٣ ، ص ١٧٦ (نقلا عن رسالة ابن حزم في فضل الأندلس) .

وكان لبعض أهل الذمة نشاط في هذا الميدان العلمي ، وممن برز منهم الاسقف القرطبي ابن زيد الذي نال مكانة رفيعة لدى الخليفة الحكم المستنصر وصنف له كتابا في الفلك اسمه (تفضيل الازمان ومصالح الابدان) ، وفيه ذكر منازل القمر وما يتعلق بذلك مما يستحسن مقصده وتقريبه^(١) ، وقد ترجمه الي اللاتينية جيراد الكريموني^(٢) .

وبناء على ماتقدم يتبين لنا مدى الازدهار الذي نالته تلك العلوم على ايدي الاندلسيين بما اضافوه الى ذلك الميدان من ضروب التأليف واللوان التصانيف القيمة التي تشهد بعلو كعبهم في الرياضيات والفلك .

والحق ان هذا التطور العلمي البناء لم يكن ليتم الا في عصر الخلافة الذي شهد نشاطا علميا شاملا بفضل ماتاحه الخلفاء من اجواء علمية مناسبة ترعرعت فيها القدرات العلمية واثمرت ثمرات يانعه وخاصة في عهد الخليفة الحكم المستنصر الذي لم يدخر جهدا في دفع عجلة العلوم وتشجيع العلماء على البحث والتأليف .

(٣) المقرئ : النسخ ، ج ٣ ، ص ١٨٦ (نقلا عن تذييل ابن سعيد على رسالة ابن حزم فضل الاندلس) . -

Titus Burckhardt : Morrish Culture in Spain, P. 56.

(١) زيفريد هونكه : شمس العرب تسطع على الغرب ، ص ٥٠١ - عبد الكريم التواتي : مأساة انهيار الوجود العربي في الاندلس ، ص ٦٦١ .

« الكيمياء »

جـ - الكيمياء :

علم الكيمياء عند المسلمين وتطوره على أيديهم - دور الأندلسيين في ذلك وبداية اشتغالهم بالكيمياء قبل عصر الخلافة - أبرز علماء الكيمياء في عصر الخلافة - مسلمة بن أحمد المجريطي ودراساته الكيميائيية - عبد الله بن محمد السري - عبد الله بن محمد الذهبي - محمد بن الحارث الخشني - أهمية الكيمياء في تحضير الأدوية وعناية الأطباء بها كالطبيب خلف بن عباس الزهراوي وابن جليل .

قبل أن أتطرق إلى الحديث عن جهود الأندلسيين في هذا العلم يجدر بنا أن نعرف معنى لفظ كيمياء . فالخوارزمي يذكر أن هذا الاسم عريق مشتق (من) كمي يكمي إذا ستر وأخفى ، ويقال : كمي الشهادة يكميها إذا كتمها ، والمحققون لهذه الصناعة يسمونها « الحكمة » على الاطلاق وبعضهم يسميها الصنعة^(١) .

وقد ازدهر هذا العلم على أيدي المسلمين ازدهارا واسعا ، وكان من أوائل المشتغلين بهذا العلم من المسلمين خالد بن يزيد بن معاوية (ت ٨٥ هـ / ٧٠٤ م) ، ثم ما لبث الحال أن تطور على أيدي علماء آخرين يأتي في مقدمتهم العلامة البارع جابر بن حيان الذي يعتبر أبو الكيمياء العربية والحديث^(٢) .

ويذكر محمد الصادق عفيفي نصا لأحد العلماء الأوروبيين وهو درابر فحواه : (أن المسلمين هم الذين أنشأوا في العلوم العملية : علم الكيمياء

(١) مفاتيح العلوم ، ص ١٩٣ .

(٢) جلال مظهر : حضارة الإسلام ، ص ٢٧٢ .

وكشفوا بعض أجزائها المهمة ومن اختراعاتهم ماء الفضة (حامض النتريك) وزيت الزاج (حامض الكبريتيك) وماء الذهب (حامض النيتروهيديروكلوريك ..) (١) .

وبالإضافة إلى ما تقدم فإن فضل المسلمين على تطور الكيمياء وازدهار دراساتها المختلفة كان كبيرا جدا حتى دفع الغربيين إلى اعتباره علما عربيا (٢) .

وما من شك أنه كان للأندلسيين سهم وافر في هذا النشاط العلمي ، فقد شاركوا في هذا تطور هذا العلم بما أضافوه إليه من دراسات وأبحاث علمية موفقة ، فقبيل عصر الخلافة لمع اسم العلامة عباس بن فرناس في الرياضيات والفلك والكيمياء ، وقد أشرت إليه في التمهيد . فيما ينسب إليه من جهود علمية في ميدان الكيمياء اختراعه صنع الزجاج من الرمال والحجارة ، وكان لاكتشافه هذا أثر كبير في تطوير صناعة الزجاج ، ونتيجة لاختراعاته المدهشة في الكيمياء والفلك أن دفع الفقهاء إلى التآلب ضده واتهامه بالزندقة ، ولكنه رغم ذلك نجا من تأمرهم ضده (٣) .

وفي عصر الخلافة شهد علم الكيمياء نشاطا طيبا حيث برع فيها العلامة مسلمة بن أحمد المجريطي (ت ٣٩٨ هـ / ١٠٠٧ م) ، وكان لمسلمة شأن كبير في ازدهار علم الكيمياء في الأندلس إذ انصرف إلى دراسة الكثير من الظواهر الكيماوية وأبدى رأيه في نتائج ما أجراه من تجارب .

(١) تطور الفكر العلمي عند المسلمين ، ص ١٥٩ .

(٢) قدرتي طوقان : العلوم عند العرب ، ص ٣٠ .

(٣) محمد عبد الله عنان : تراجم إسلاميه ، ص ٢٦٧ - ٢٦٩ .

ومن مصنفاته في الكيمياء كتاب « رتبة الحكيم » الذي ضمنه خبراته وتجاربه العلمية ، ففي مقدمة كتابه المذكور يقول : بعد الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، (اعلم أيها الحكيم الطالب للعلوم الألهيه والأسرار الطبيعية أن لكل أمر سبب ، والذي دعاني إلى تأليف هذا الكتاب الذي وسمته بمدخل التعليم وسميته برتبة الحكيم أني رأيت أهل زماننا ينتحلون الحكمة ويتعاطون الفلسفة وهم في بيد الحيرة تأهين . وفي غمرة الضلال خائضين ، يقرؤون ما لا يفهمون ، ويطلبون ما لا يعلمون)^(١) .

ثم يذكر المجريطي ما عليه حكماء عصره من إدعاء للحكمة ، وهم أبعد ما يكونون عن ذلك ويوضح صفة الحكماء المخلصين بأنهم الذين (ذللوا أنفسهم بالدخول في جملة العوام وشرحوا صدورهم للأنام فهم الذين يسمون بالعقلاء النبلا إذا ظهر عليهم رسم من رسوم الحكمة ستروه بأصغر منه وأقرب لعقول أهل زماننا فهم محمودون - عند العامة ، ومفضلون عند الخاصة للزومهم الطريقة الوسطى التي هي خير الأمور)^(٢) .

ويتبين مما ذكرت عن المجريطي في مقدمة كتابه المذكور عنايته بتوضيح صفات الحكيم الماهر من غيره من مدعي الحكمة ، والأسس الأخلاقية التي إذا انتفت عن المشتغل بالحكمة يكون قد عرى من صفة الحكيم .

ولكن ما يثير الشك في نسبة ذلك الكتاب لمسلمة المجريطي هو إشارة المؤلف في مقدمته إلى أنه ألف ما بين سنتي (٤٣٩ - ٤٤٤ هـ / ١٠٤٧ - ١٠٥٢ م) ، إذ يقول (وكتابنا هذا سميناه رتبة الحكيم اقتضيناه من تلك

(١) رتبة الحكيم : (مخطوط) ورقة ١١ .

(٢) رتبة الحكيم : (مخطوط) ورقة ١ ب .

الرسائل الكثيرة وبدعنا بجمعه في أول عام تسعة وثلاثين وأربعمائة لتاريخ العرب وأتمناه في عام ٤٤٤ هـ^(١) . فكيف يصح هذا القول ونحن نعلم علم اليقين أن مسلمة بن أحمد المجريطي توفي سنة ٣٩٨ هـ / ١٠٠٧ م ؟ . إن هذا القول يجعلنا نتحفظ في نسبة ذلك الكتاب إلى المجريطي ، ولكن من جهة أخرى لو تصفحنا كتابه الآخر « غاية الحكيم » لوقفنا على ما يدنينا من حقيقة الأمر في نسبة كتاب رتبة الحكيم للمجريطي فهو يقول في مقدمة كتابه المخطوط « غاية الحكيم » ما نصه (وكان تأليفي لهذا الكتاب سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة عند فراغي من تنقيح كتابي رتبة الحكيم)^(٢) .

ولا شك أن هذا النص دليل قوي على أن كتاب رتبة الحكيم من تأليف مسلمة المجريطي وأن تأليفه سابق على تأليف كتابه الثاني « غاية الحكيم » .

وبناء عليه فإن تاريخ تأليف كتاب رتبة الحكيم الذي تضمنته مقدمته لا يستند إلى شئ من الصحة لأنه متأخر على تاريخ وفاة المجريطي بأكثر من أربعين سنة . وإذا سلمنا جدلاً بما أورده في مقدمة كتابه « رتبة الحكيم » عن تاريخ تأليفه له ، أي فيما بين عام ٤٣٩ هـ وعام ٤٤٤ هـ فإن هذا يجعلنا نشك في أن مخطوط كتاب « رتبة الحكيم » الذي ننقل عنه ليس للمجريطي ، ومن المحتمل أن يكون كتاباً آخر لمؤلف آخر وإن طابق اسمه اسم كتاب المجريطي . غير أن ذلك الافتراض يبدو صعباً إذ أن مخطوط كتاب « رتبة الحكيم » منسوب إلى المجريطي باسمه الكامل . هذا ومن المحتمل أيضاً أن يكون أحد تلاميذ المجريطي هو الذي ألّف هذا الكتاب في الكيمياء وأراد أن يمنحه جلال

(١) نفس المصدر : ورقة ١٣ ب .

(٢) غاية الحكيم : (مخطوط) ورقة ١١ .

أستاذه المجريطي ومنزلته العلمية فنسب إليه ذلك الكتاب مع احتفاظه هو بتاريخ تأليفه الحقيقي .

ولكن رغم هذه التساؤلات والافتراضات العديدة فإن الراجح أن ذلك الكتاب من تأليف مسلمة المجريطي ، وهو أمر أقره المؤرخون الثقات كابن خلدون والقلقشندي وحاجي خليفة وغيرهم .

ويذكر ابن خلدون في معرض حديثه عن ذلك الكتاب أن كلام المجريطي وغيره من العلماء في الكيمياء إنما هو (ألغاز يتعذر فهمها على من لم يعان اصطلاحاتهم في ذلك)^(١) .

ويمكن أن نرجع ذلك إلى تعمد الكيماويون التستر على أبحاثهم العلمية بالتكتم والإخفاء في محاولة للحفاظ على سلامتهم من المعارضين لعلومهم هذه . فكلامهم لا يكاد يفهمه إلا المشتغلون بتلك العلوم والعارفون بمصطلحاتها ، وبذلك كانوا يضمنون عدم الكشف عن حقائق علمهم هذا ، وبخاصة إذا علمنا أنه شاب تلك الدراسات الكيماوية بعض صور الشعوذة والخرافات كتحويل بعض المعادن الرخيصة إلى ذهب . كما أنه من الجائز أن يكونوا بطريقتهم تلك يستهدفون العلو بمكانتهم العلمية والحفاظ على أسرار صناعتهم . فإن في إفشائهم لأسرار ذلك العلم والكشف عن معارفهم في ذلك مدعاة إلى بروز الكثير من العارفين بذلك ينافسونهم مكانتهم العلمية ويجردونهم من امتيازاتهم العلمية ، وقد أشار المجريطي إلى ذلك بقوله (أن الكلام في ذلك تبين وكشف لأسرار*) هذه الصناعة فكان الذي يأخذ بأدنى كتاب من كتبهم فيقرأه فيجد

(١) المقدمة : ص ٥٠٤ .

(*) في الأصل « وكشف الأسرار » والصحيح ما ورد في المتن .

العلم واضحا بينا فلا يكون لذلك فضل لعالم(*) على جاهل فقطعوا القول
صيانة منهم وصيانة عن العامة(١) .

وقد أشار القلقشندي إلى كتاب « رتبة الحكيم » في حديثه عن الكيمياء
ووصف ذلك الكتاب بأنه من أهم ما كتبه المسلمون في ذلك العلم(٢) .

وينصح المجريطي كل مشغول بالكيمياء أن يدرس العلوم الطبيعية
والرياضية وأن يقرأ كتب من تقدم من العلماء كأرسطاطاليس وسقراط
وهرمس(٣) وغيرهم ثم يعود يديه على العمل والتجربة والنظر العميق حتى
تتجلى له حقيقة ذلك العلم مع معرفة ما ذكره العالمان المسلمان جابر بن حيان
ومحمد بن زكريا الرازي في هذا الميدان العلمي ، كما يرشد إلى وجوب معرفة
المعادن وتركيبها وكيفيةها وأوزانها(٤) .

والحق أن كتاب رتبة الحكيم بما حواه من معارف وخبرات علمية ليدل
دلالة واضحة على ما تمتع به مسلمة المجريطي من براعة تامة في الكيمياء
ومعرفة واسعة بمسائلها ليس في مجال الدراسة والنظر فحسب ، وإنما أيضا
في ميدان التجربة العملية .

ومن التجارب العلمية التي أجراها المجريطي ما ذكره في كتابه المذكور
من أنه أخذ ربع رطل من الزئبق الرجراج الخالي من الشوائب وجعله في أنية
زجاج ثم وضعها داخل إناء آخر ووضع ذلك على نار هادئة لمدة أربعين يوما ثم

(*) في الأصل « فضل العالم على جاهل » والصحيح ما ورد في المتن .

(١) رتبة الحكيم (مخطوط) ورقة ١١٢ .

(٢) صبح الأمشى ، ج ١ ، ص ٤٧٥ .

(٣) للتعريف بهؤلاء الفلاسفة . انظر المبشر بن فاتك : مختار الحكم ومحاسن الكلم ، ص ١٧٨

وما بعدها ، ص ٨٢ - وما بعدها ، ص ٧ وما بعدها بالترتيب حسب ورود الأسماء أعلاه .

(٤) رتبة الحكيم (مخطوط) ورقة ١٦ و ٦ و ١٧ و ٧ و ١٨ .

أخرج ذلك الآناء بعد تلك المدة ونظر في الزئبق فوجده قد تحول إلى مسحوق أحمر ، ثم وزنه بعد ذلك فلاحظ احتفاظه بوزنه الأصلي من غير زيادة ولا نقصان^(١) .

ولا ريب أن المجريطي قد تنبه إلى ناحية من نواحي العمليات الكيميائية وهي ملاحظة ما يطرأ على أوزان المواد الكيميائية التحليلية . ولو كان المجريطي قد قام بهذه التجربة في حيز محدود من الهواء مع مراعاة التحوط للأمور التي أشير إليها لكان من المؤكد أن يخرج بالنتيجة التي حصل عليها الكيميائي لافوزيه بعده بستة قرون وكانت من أسباب شهرته العلمية^(٢) .

وهكذا نلاحظ ما كان يتمتع به ذلك العلامة الأندلسي من تفوق علمي في إجراء التجارب العلمية . وهو بهذا يعتبر أستاذ عالمي الكيمياء بريستلي ولافوزيه ، وإن تجربته السابقة تعتبر أساسا لما قام به هذان العالمان فيما بعد من دراسات وبحوث علمية في الكيمياء^(٣) .

ويشتمل كتاب رتبة الحكيم على الكثير من الدراسات العلمية المهمة في ميدان الكيمياء ، كظاهرة تنقية الذهب والفضة بما لا يبعد عن الوسائل الحديثة في ذلك من طرق تنقية هذين الفلزين وبما لا يخرج في جوهره عما هو معروف في عصرنا عن طريقة فصل هذين الفلزين أحدهما عن الآخر في سبائكهما بواسطة الحل بحامض الأزوتيك^(٤) .

(١) رتبة الحكيم (مخطوط) ورقة ٢٨ ، ٢٨ ب .

(٢) عمر كحاله : العلوم البحتة ، ص ٢٦٠ .

(٣) محمد الحسيني : الحياة العلمية في الدولة الإسلامية ، ص ١٩٥ - علي عبدالله الدفاع : أمام علماء المغرب في العلوم التطبيقية المجريطي ، مقال بمجلة الفيصل ، العدد ٥٦ ، صفر سنة ١٤٠٢ هـ .

(٤) عمر كحاله : العلوم البحتة ، ص ٢٦٠ .

كما أن المجريطي أشار إلى المياه المعدنية ومدى تأثيرها في ذلك بما تحويه الأرض من المعادن التي تكسو الأحجار والصخور^(١) .

ويحدثنا المجريطي عن كيفية تكوّن الزئبق ومدى تأثير الشمس في ذلك وكيف أن الماء الراكن في جوف الأرض في أماكن معلومة إذا قابلته الشمس استحر ذلك الموضع وقل الماء لما أصابه من الحرارة وصار بخارا صاعدا حتى إذا انقطعت الحرارة بذهاب الشمس عاد ذلك الماء متقلبا في موضعه وقد تأثر بالحرارة . فإذا عادت الشمس تكررت الحال على تلك الصورة حتى يقلل الماء ويتحول ما بقي منه إلى سائل غليظ . فلا تعود الحرارة تؤثر فيه لغلاظته حتى يببس ليتحول في نهاية الأمر إلى زئبق^(٢) .

وبناء على ما تقدم فإن المجريطي بجهوده المثمرة في علم الكيمياء قد أضاف الكثير من الخبرات والتجارب العلمية التي كان من شأنها أن دفعت عجلة الدراسات الكيميائية إلى الأمام .

ويظهر في مؤلفه « رتبة الحكيم » مدى تقدم علم الكيمياء بعد جابر بن حيان في فترة المائة والخمسين سنة التي تفصل بينهما^(٣) .

وفي كتاب المجريطي الآخر « غاية الحكيم » معلومات هامة عن الكيمياء ، كحديثه عن خواص المعادن وتأثيرها وما ينجم عن المزج بينها . فيقول في ذلك (واللازورد إذا جمع مع الذهب ازداد حسنا ... والفضة إذا شيبت برائحة الكبريت أسودت)^(٤) ، وإلى غير ذلك من الدراسات العلمية والإشارات المهمة في ميدان الكيمياء .

(١) رتبة الحكيم . ورقة ٤٠ ب .

(٢) نفس المصدر السابق ، ورقة ١٤٥ ، ٤٥ ب .

(٣) محمد الحسيني : المرجع السابق ، ص ١٩٥ - قصري طوقان: تراث العرب العلمي، ص ٢٥٨ .

(٤) ورقة ١٣١٣ .

ومن خلال ما تقدم نلمس مدى ما كان للتجربة العملية من أهمية في دراسات وأبحاث المجريطي ، فقد كان يعتمد على التجربة العلمية في استخراج النتائج العلمية الصحيحة والتي كان للكثير منها أهمية بالغة في الكشف عن بعض حقائق هذا العلم^(١) .

وبرز الكثير من تلاميذ المجريطي في علم الكيمياء وأضافوا بجهودهم العلمية في هذا المجال مزيدا من العطاء ، ويورد ابن خلدون رسالة لأحد تلاميذ المجريطي يتحدث فيها عن علم الكيمياء وقواعده وغاياته ، وتلك الرسالة يذكرها أبو بكر بن بشر ، ويقول فيها (إن هذه الصناعة الكريمة قد ذكرها الأولون ، واقتصر جميعها أهل الفلسفة من معرفة تكوين المعادن وتخلق الأحجار والجواهر وطباع البقاع والأماكن فمنعنا اشتهاها من ذكرها ، ولكن ابين لك من هذه الصناعة ما يحتاج إليه فتبدأ بمعرفته فقد قالوا ينبغي لطلاب هذا العلم أن يعلموا أولا ثلاث خصال أولها هل تكون ، والثانية من أي تكون ، والثالثة من أي كيف تكون ، فإذا عرف هذه الثلاثة وأحكمها فقد ظفر بمطلوبه وبلغ نهايته من هذا العلم ، وأما البحث عن وجودها والاستدلال عن تكونها فقد كفيناه بما بعثنا به إليك من الأكسير)^(٢) .

ويتضح من خلال هذه الرسالة ما اتصف به أولئك العلماء من علم واضح بهذا العلم ودراية به ، وكيف أنهم كانوا يعتمدون على التجربة العملية والملاحظة للوصول إلى نتائج دراساتهم العلمية ، وتضم الرسالة الكثير من التجارب العلمية في دراسة المواد الكيماوية وتحليلها والوقوف على خواصها .

(١) للمجريطي تأليف كثيرة غير ما ذكرناه ، ككتاب مفاخرة الاحجار ، وروضة الحقائق ورياض الخلائق ، وكتاب في الطبيعيات وتأثير النشأ والبيئة على الكائنات الحي ، والرسالة الجامعه . انظر (علي الدفاع : أمام علماء المغرب في العلوم التطبيقية المجريطي مقال بمقالة الفصيل ، العدد ٥٦ ، صفر سنة ١٤٠٢ هـ) . انظر أيضا الزركلي : الاعلام ، ج ٧ ، ص ٢٢٤ .

(٢) المقدمة : ص ٥٠٥ - وانظر بقية هذه الرسالة العلمية فيما يلي ذلك من الصفحات .

ويُدلي ابن خلدون بعد تلك الرسالة برأيه في علم الكيمياء فيصفها بأنها ليست صناعة طبيعية أي من اجتهاد البشر أنفسهم بل إنها من جنس آثار النفوس الروحانية وتصرفها في عالم الطبيعة أما من نوع الكرامة إن كانت النفوس خيره أو من نوع السحر إن كانت شريرة^(١) .

والحق أن صناعة الكيمياء لا تتعلق بشئ مما ذكره ابن خلدون الذي أدلى برأيه السابق تحت تأثير ما كانت تتصف به الكيمياء في بعض وجوها بصور من الشعوذة والخرافة كتحويل المعادن الرخيصة إلى معادن نفيسة ، فعلم الكيمياء له قواعد وقوانين علمية مقننه تقوم على معرفة خواص السوائل وتحليلها وتأثير بعضها في بعض بالمزج وغيرها من العمليات الكيميائية والتي تقوم على الملاحظة والتجربة العملية بعيدا عن الصورة القديمة التي خلعها بعض الأدعياء على هذا العلم المهم وصبغوه بصبغة تنافي حقيقة أمره .

وإلى جانب من ذكرنا من المشتغلين بالكيمياء برز آخرون تعرفنا عليهم من خلال تراجمهم وليس من خلال مؤلفاتهم وتصانيفهم في علم الكيمياء ، فمن هؤلاء العلامة عبدالله بن محمد المعروف بالسري الذي أشرنا إليه كأحد الرياضيين (وكان ينسب إليه العلم بصناعة الكيمياء ، وكان الحكم المستنصر بالله يعظمه ويؤثره ويدوم الاستكثار منه فيقبضه عنه ورعه ويكفه عن مداخلته زهده)^(٢) .

كما أن عبدالله بن محمد الأزدي المعروف بالذهبي (ت ٤٥٦ هـ / ١٠٦٣ م) كان مشتغلا بالكيمياء ، كثير الاهتمام بدراستها والبحث في ظواهر المواد الكيميائية ، ووصف بالاجتهاد والنشاط التام في ذلك^(٣) .

(١) المصدر السابق ، ص ٥١٣ .

(٢) صاعد : طبقات الأمم ، ص ٩٠ - ٩١ .

(٣) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٤٩٧ .

كما نسب إلى الفقيه المؤرخ محمد بن الحارث بن أسد الخشني (ت ٣٦١ هـ / ٩٧١ م) الاشتغال بالكيمياء ، وقد وصف بأنه كان (يعمل بالأدهان ويتصرف في ضروب من الأعمال اللطيفة)^(١) .

ولعل من دواعي الاهتمام بالكيمياء ارتباطها الوثيق بعلم الصيدلة وتحضير الأدوية وما يدخل في ذلك من عمليات التقطير واستخلاص السوائل من الأعشاب والنباتات والمزج بينها . كما أن الصيادلة المسلمين عنوا بالكيمياء ورأوا ضرورة معرفتها لما لها من العلاقة الوطيدة بما يقومون به من تجارب علمية ، ولا أدل على ذلك من أن الزهراوي صاحب كتاب « التصريف لمن عجز عن التأليف » قد أفرد مقالة من مقالات كتابه المذكور في إصلاح الأدوية وحرق الأحجار المعدنية . ولا ريب أن اهتمامه بالأحجار المعدنية ودراسته لها ومعرفته خواصها يقوده إلى طرق باب الكيمياء ويؤكد حاجته إلى معرفة قواعدها .

وقد أشار بن جلجل إلى أهمية ما تحويه الأرض من نباتات وحيوانات وما بها من خواص الشفاء والدواء ، كما أشار إلى ما تختزنه الأرض من المعادن التي فيها شفاء ورحمة ، وهذا أمر يؤكد حاجة الصيدلي في عمله إلى معرفة الكيمياء وقوانينها ليتم له استخلاص العناصر الدوائية من المعادن .

وما من شك في أن ارتباط الكيمياء بالصيدلة قد أدى إلى ازدهار علم الكيمياء وتطوره ، ولهذا نلاحظ بروز بعض الأطباء الذين جمعوا بين مهارتهم في الطب براعتهم في الكيمياء ، كابن الذهبي الأزدي ، وابن السري وقد تقدم ذكرهما .

(٢) ابن الفرغاني : تاريخ علماء الأندلس ، ج ٢ ، ص ١١٣ .

وبناء على ماتقدم فإن علم الكيمياء قد شهد ازدهارا كبيرا وتطورا ملحوظا في عصر الخلافة ، وما ذاك إلا عائد إلى بروز بعض العلماء ممن أسهموا في تطور ذلك العلم وشاركوا في بناء كيانه .

والحق أن المجريطي بما أسداه من جهود علمية موفقه يعتبر فخر الأندلس في هذا العلم وفارسها الذي لا يبارى في ذلك الميدان ، وأن كتابه رتبة الحكيم لجدير بالدراسة العلمية الدقيقة من قبل علماء الكيمياء في عصرنا ليطلعوا على مدى ما كان لأولئك العلماء في الأندلس من فضل عظيم في ارساء قواعد علم الكيمياء الحديث .

والجدير بالذكر أنه لولا ما أصاب هذا العلم من ضروب التضيق والعنت والسعي في احراق كتبه - باعتبار ما دخل عليه من الشعوذة والخرافات لوقفنا على تراث علمي كبير للأندلسيين في هذا الميدان ، ولتبين لنا حقيقة جهودهم العلمية ومدى إسهامهم الواسع في تقدم علم الكيمياء ، ولكن حسبنا أن ما أشرنا إليه فيه ما يقنعنا بعظم ما قدموه في هذا المجال .

وخلاصة القول أن العلوم التجريبية من طب وصيدلة وفلك ورياضيات وكيمياء قد لقيت من الأندلسيين كل اهتمام وعناية .

ففي الطب أسدى علماء الأندلس من الأطباء جهودا واضحة في سبيل تطور هذا العلم وازدهاره ، بل إننا لا نبالغ في القول إذا أشرنا إلى أن الأندلسيين يحتفظون بحق تقدمهم على غيرهم في تطوير « الجراحة الطبية » ووضع أسسها وقواعدها ، وهو ما قام به فخر الجراحة الطبية خلف بن عباس الزهراوي .

ولم يكن الزهراوي يقف وحده في هذا الميدان بل وقف معه الكثير من علماء الأندلس الذين اثبتوا قدراتهم العلمية الواسعة وبرهنوا على أنهم أهل للوقوف مع أبرز علماء الطب في تاريخه الطويل ، ومن هؤلاء ابن جليل ، وعريب بن سعيد وابنا يونس الحراني وغيرهم كثير ، والحق أن ميدان الطب نال من الأندلسيين عناية فائقة حتى لا نغالي إذا قلنا أنه هو العلم الذي منحه الأندلسيون نشاطا أكثر من العلوم التجريبية الأخرى .

وفي ميدان الفلك والرياضيات قدم الأندلسيون روائع من إنتاجهم العلمي وقد أشرنا إلى الرابطة القوية بين علمي الفلك والرياضيات عند علماء الأندلس ، وتتمثل هذه الصفة بوضوح في السيرة العلمية للعلامة مسلمة المجريطي الذي يعتبر بجهوده ونشاطه العلمي مدرسة قائمة بذاتها كان لها أعظم الأثر في تطور تلك الدراسات العلمية . وقد أبدع الأندلسيون في تلك العلوم ، وإن ما بقي من إنتاجهم العلمي في الفلك والرياضيات لشاهد قوي على عمق عطائهم وعظم مشاركتهم في ازدهارها وتطورها .

وفي علم الكيمياء أكد الأندلسيون تفوقهم العلمي وقدرتهم الواسعة على الوصول إلى نتائج علمية مهمة في ذلك ، فكان لهم إسهام وافر في تطور الكيمياء وإن ما قدمه المجريطي في هذا الحقل العلمي المهم لدليل على مشاركة الأندلسيين الجادة في تقدم علم الكيمياء ، فجهود جابر بن حيان في المشرق قد قابلتها في الأندلس جهود مسلمة المجريطي الذي أضاف الكثير من الخبرات والمعارف لهذا العلم ، وكان بنشاطه العلمي في الكيمياء جدير بأن يشار إليه بالبنان كأحد من تقوم على تجاربهم العلمية في الكيمياء الكثير من الدراسات العلمية الكيمائية في عصرنا الحالي .

الختاتمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد :

فهذه خاتمة البحث ، وقد تضمنت النتائج المنبثقة عن دراستنا لموضوع « الحياة العلمية في عصر الخلافة الأموية في الأندلس » .

ففي بداية البحث والذي كان عن الحياة العلمية في عصر الإمارة نلاحظ أن النشاط العلمي في تلك الفترة كان يدور بشكل مكثف حول علوم الدين باعتبارها العلوم المنبثقة عن عقيدة المسلمين الفاتحين . فقد كان المسلمون آنذاك يسعون سعياً حثيثاً نحو الاهتمام بالدراسات الدينية بالإضافة إلى عنايتهم البالغة بتوضيح تعاليم الدين الحنيف لأهل البلاد المفتوحة إنطلاقاً من حرصهم الشديد على نشر الإسلام ، وليتسنى لأهل البلاد الدخول في الإسلام وفهم تعاليمه فهماً صحيحاً ، وقد سبقت الإشارة إلى أن الجيش الفاتح كان يضم أعداداً كبيرة من العلماء وفي مقدمتهم أحد الصحابة الكرام وهو المنذر الأفرقي وعدداً من التابعين الإجلاء .

ولما كانت لغة الفاتحين هي اللغة العربية بالإضافة إلى أهمية ارتباطها بعلوم الدين فقد لقيت اللغة العربية وأدائها عناية بالغة فأقبل الأندلسيون على دراسة اللغة العربية والبحث فيما تتضمنه من نحو ولغة وآداب ، وأستطاعوا أن يقدموا الكثير من الدراسات المهمة المتعلقة بذلك .

وهكذا فإن ميداني العلوم الدينية واللغة العربية وآدابها يعتبران في مقدمة ما أولاه الأندلسيون اهتمامهم العلمي فكان لهم في تلك العلوم إنتاج

علمي نفيس . ويكفي أن نشير في ميدان العلوم الدينية إلى زياد بن عبد الرحمن اللخمي الذي نسب إليه إدخال موطأ مالك ، وقد نسب ذلك أيضاً إلى معاصره الغازي بن قيس والذي كان له جهد كبير في تطور علم القراءات .

ومن أكبر علماء الدين في ذلك العصر العلامة بقي بن مخلد الذي وصف ابن حزم جهوده العلمية ومؤلفاته بأنها قواعد للإسلام .

وفي ميدان اللغة العربية وآدابها لمع اسم محمد بن يحيى المعروف بـ (القلفاط) المتوفي سنة ٣٠٢ هـ / ٩١٤ م والذي كان ينشر علومه في النحو واللغة وتلقى العلم على يديه الكثير من طلبة العلم . كما أنه كان للفقهاء عبد الملك ابن حبيب جهد عظيم في رقي الدراسات اللغوية . ولا يفوت المطلع على الدراسات الأدبية أنذاك أن يذكر الأديب فرج بن سلام الذي نقل الكثير من كتب الجاحظ إلى الأندلس والتي كان لها أثر عظيم في تعريف الأندلسيين بالإنجاز الأدبي المشرقي ، وبالتالي انطلاقهم في ميدان البحث والدراسات .

أما فيما يتصل بالعلوم الإنسانية والعلوم التجريبية فإن الاشتغال بها بصورة كبيرة لم يتم إلا في العصر التالي لعصر الإمارة وذلك بعد أن اتسعت دائرة البحث العلمي باتساع آفاق الأندلسيين في دراسة العلوم القديمة وتغيرت النظرة التي تميز بها الكثير من الفقهاء قبل عصر الخلافة والتي اتسمت بكراهية البحث في تلك العلوم .

والجدير بالذكر أن الأندلسيين استطاعوا إبان عصر الخلافة أن يطوروا أبواب المعرفة المختلفة وأن يثبتوا لغيرهم من المسلمين في الأقطار الأخرى أنهم لا يقلون في عطائهم العلمي عنهم . ولا نقل ذلك من غير بيئة فإن من يطلع على الإنتاج العلمي لأهل الأندلس سيقف على جليلة الأمر وصدق المقال .

ويتضح لمن تتبع سير الحركة العلمية في ذلك العصر أن هناك مظاهر جليلة للنشاط العلمي تستحق من الباحث الوقوف عندها ودراستها بصورة وافية .

فمن تلك المظاهر عناية الخلفاء بالحركة العلمية ومدى ما بذلوه في ذلك من جهود في سبيل ازدهار الحياة العلمية ، ولا ريب أن الخليفة عبدالرحمن الناصر بما قام به من إقرار الحالة السياسية للبلاد ، واهتمامه بسيادة الأمن والاطمئنان ربوع الأندلس قد هيا الجو المناسب والمناخ الملائم لنمو الحركة العلمية وازدهارها فانصرف الناس في عهده الزاهر إلى تحصيل العلوم والآداب وطرق أبواب المعرفة المختلفة ، فكانوا يجوبون مدن الأندلس وينتقلون بين أطرافها المختلفة في أمن ويسر ، وهو أمر بلاشك كان له أكبر الأثر في رقي العلوم والآداب ، بل إن عصر عبدالرحمن الناصر شهد وفود الكثير من طلبة العلم من أوروبا لينهلوا من معين العلم وليأخذوا عن الأندلسيين علومهم وآدابهم ، فكانت قرطبة في عهده درة مضيئة وموردا عذبا لكل متعطش للعلم والمعرفة .

وعندما تولى ابنه الحكم المنتصر الخلافة سعى وهو الخليفة العالم إلى تشجيع العلماء وتيسير سبل التعليم لرعيته وكانت له في ذلك جهود مثمرة ، وأصبحت الأندلس في عهده دار علم فلا يكاد أن يسمع عنها إلا ما يمت إلى العلم والمعرفة . وتمكنت الأندلس في عصره من الوصول إلى مستوى الإبداع فبرزت شخصيتها العلمية المتألقة القادرة على إثبات ذاتها في ميدان البحث والإنتاج العلمي .

وخلف الحكم المستنصر ابنه هشام المؤيد ولكنه كان بعيداً عن زمام الأمور لهيمنة الحاجب المنصور على شئون الدولة . ورغم أنه المنصور سلك طريقاً في الوصول إلى سدة الأمر لا يرضاه التاريخ إلا أنه مع ذلك أستطاع أن يبلغ بالأندلس في عهده قمة القوة والعزة بينما عاش خصوم الأندلس من الممالك الأسبانية النصرانية منتهى الذل والإنكسار ، وكان المنصور إلى جانب تفوقه في ذلك كبير العناية بالعلم والآداب وقد شهد ميدان الأدب في عصره ازدهاراً كبيراً وحفل عصره بأهل الأدب والشعر وازدادت التأليف الأدبية بتشجيع منه .

وفي عصر الخلافة يقف المتتبع لسير الحركة العلمية على أهمية الرحلات العلمية التي كان يقوم بها أهل الأندلس إلى المشرق ، وما نجم عن ذلك من تأثير علمي كبير كان له أعمق الأثر في ازدهار الحركة العلمية في الأندلس وفي تعريف الأندلسيين بمناهج البحث والدراسة التي سبقهم إليها أهل المشرق . ثم ما لبث الأندلسيون بعد ذلك أن نافسوا إخوانهم المشاركة في الميدان العلمي ، ولسنا في حاجة في هذا الموضع أن نسرد ما سبق التعرف به من أمثلة دالة على ما كان يعمل في نفوس الأندلسيين من محاولة الوقوف موقف الندم مع أهل المشرق ، فقد كان للأندلسيين آثار علمية قيمة تبرهن على نضوج الشخصية العلمية الأندلسية في عصر الخلافة .

وكان من دلائل النهضة العلمية آنذاك ظاهرة الاهتمام بالكتب وإنشاء المكتبات في صورة قلما نجد لها نظيراً على وجه التقريب . وقدم الباحث في هذا الميدان من الدلائل والشواهد ما يثبت ذلك وبخاصة في عهد الخليفة الحكم المستنصر الذي كان له جهود موفقة في جمع الكتب ، فقد جمع منها أعداداً

هائلة في مختلف فروع العلم كما كان شديد الحرص على إقتناء نفائس الكتب ونوادير التصانيف حتى وصفه أحد الكتاب الغربيين بأنه « دودة كتب » . ورغم ما لحق مكتبته من مأساة في عهد الفتنة إلا أن تفرق كتبها بين الأندلسيين وتناثرها بالتالي في مختلف أنحاء البلاد كان له أثر إيجابي في توسيع دائرة الاهتمام بالكتب ، وفي رقي الحركة العلمية في أقطار الأندلس المختلفة .

وإلى جانب الخليفة الحكم المستنصر حفظ التاريخ أسماء الكثير من هواة جمع الكتب في الأندلس آنذاك ، وقد أورد الباحث الكثير منهم ، ومن الطبيعي أن يستتبع الاهتمام بالكتب نشاط حرفة الوراقة وما تشمله من تجارة الكتب ونسختها وتجليدها وهي حرفة لقيت من الأندلسيين كل عناية واهتمام .

وقد شهد عصر الخلافة نشاط حقل التعليم ، كما أثبت الأندلسيون آنذاك أنهم شعب قاريء- إذا صح التعبير . فكان لاهتمام الخلفاء وفي مقدمتهم الخليفة الحكم المستنصر بالعلم والمعرفة أثر كبير في إقبال الناس على العلم وسعيهم الحثيث إلى اكتساب المعرفة . ولعل من أعظم ما يحفظه التاريخ من جهود مشكورة للخليفة الحكم المستنصر فتحه العديد من المدارس لأبناء الفقراء وتوفير التعليم لهم مجاناً ، بل إن التاريخ يحدثنا أنه أوقف حوانيت السراجين على تعليم أطفال المسلمين الفقراء ، وقد أشار الباحث إلى ذلك عند الحديث عن التعليم .

وفيما يتعلق بالنشاط العلمي في العلوم والآداب فإن الأندلسيين بنشاطهم العلمي الكبير قد تمكنوا من إغناء المكتبة الإسلامية بألوان الإنتاج العلمي النفيس والذي يبرهن بوضوح على نبوغهم العلمي وعلى ما كانوا يتمتعون به من قدرات علمية كبيرة . ففي ميدان العلوم الدينية نبغ الكثير منهم ممن لا تزال آثارهم العلمية تحوز على إعجاب المسلمين إلى يومنا هذا ، ففي الفقه يلمع اسم الفقيه محمد بن يحيى بن عمر بن لبابة الذي صنف كتاباً في الفقه على المذهب المالكي أسماه المنتخب ، وقد أثنى عليه ابن حزم وقال عنه ما رأيت

لمالكى كتابا أنبل منه . وبرز إلى جانب ابن لبابه فقهاء كثيرون منهم يحيى بن عبدالله الليثي الذي كان مجلسه العلمي من أشهر المجالس في قرطبه . وبرع في الفقه الفقيه محمد بن عمر المعروف بابن الفخار الذي كان يفخر بأنه أستفتي في مسجد النبي ﷺ ، بالمدينة . ومن أشهر فقهاء الأندلس ابن البر النمري الذي كان يميل إلى مذهب الشافعي وكانت له تأليف على المذهب المالكي، والفقيه المشهور ابن حزم الذي نهج طريق الظاهرية في الفقه وكانت له تأليف عديدة في الفقه والحديث وفي مختلف فروع العلم ، حتى عد من أكثر علماء الإسلام تصنيفا .

وفي ميدان الحديث لمع اسم المحدث محمد بن عبدالملك بن أيمن وصديقه قاسم بن أصبغ اللذان يعتبران من أكبر المحدثين في عصر الخلافة وكان لكل منهما تأليف في الحديث أخذت عنهما ولقيت كل ثناء وتقدير من علماء عصرهم وأثنى عليهما ابن حزم وأشاد بتصانيفهم . وقد كان لأسرة الباجي أثر عظيم في ازدهار الحديث وعلومه ، فقد أنجبت تلك الأسرة العديد من العلماء المحدثين الذين - حملوا رسالة العلم وعملوا على نشره بين الناس . كما برز غيرهم العديد من المحدثين في عصر الخلافة وقد أورد الباحث أعدادا كبيرة منهم ولسنا في هذه الخاتمة بصدد إعادة ذكر أسمائهم وجهودهم العلمية .

وفي ميدان التفسير وعلوم القراءات قدم الأندلسيون نتائج علمية مثمرة . ففي القراءات برز العديد منهم وفي مقدمتهم أحمد بن محمد الطلمنكي الذي صنف في القراءات كتباً كثيرة ذات قيمة كبيرة . وقد عاصره المقري المشهور أبو عمر عثمان بن سعيد الدالي الذي لا يغفله أي دارس للنشاط العلمي لعلوم القرآن في الأندلس ، فله من التصانيف في ذلك مقدار كبير ينم عن علم واسع ومعرفة تامة بعلوم القرآن .

ومن علماء القراءات مكي بن أبي طالب ، وقد عرف بالمنزلة الرفيعة في علوم القرآن ، وكان له إنتاج علمي نفيس يشهد له بالتبحر في تلك العلوم والدراية التامة بها .

وفي ميدان التفسير أظهر العديد من علماء الأندلس نبوغاً كبيراً ، ومنهم أحمد بن بقي بن مخلد الذي ورث عن أبيه سعة العلم والبراعة في التفسير . كما أنه كان لمكي الأنف الذكر تأليف في التفسير تدل على سعة علمه . وللعلامة محمد بن عبدالله المري كتاب في تفسير القرآن الكريم ، وقد عرف عن المري تضلعه في علوم القرآن .

أما فيما يتعلق بعلم الكلام فإنه لم يجد في الأندلس أرضاً خصبة نظراً لموقف الأندلسيين منه وسعيهم إلى تضيق الخناق على المشتغلين به ، ورغم ذلك فقد عرف عن بعض الأندلسيين الاشتغال به وقد أورد الباحث عدداً منهم .

وفي ميدان الأدب واللغة كان للأندلسيين إنتاج أدبي رفيع ، ويأتي في مقدمتهم الأديب أحمد بن عبد ربه الذي ترجع شهرته الواسعة إلى كتابه القيم « العقد » .

كما أن إسماعيل بن القاسم المعروف بالقالي كان له جهود كبيرة في ازدهار الأدب واللغة ، ومن أشهر تصانيفه الذائعة الصيت كتاب « الأمالي » .

ويأتي بعد القالي الأديب صاعد بن الحسن الربيعي الذي صنف كتاباً في الأدب واللغة أسماه « الفصوص » وهو من الكتب المفيدة في ميدانه ، وفي الشعر برز العديد من شعراء الأندلس يأتي في مقدمتهم يوسف بن هارون الرمادي ، وأحمد بن دارج القسطلي الذي قيل أنه بالأندلس كالمتنبي بالمشرق .

وفي ميدان اللغة والنحو يلمع اسم اللغوي ابن القوطية ، ومحمد بن الحسن الزبيدي ، ولكن أشهرهم في ذلك ابن سيده الأعمى الذي لا تزال بعض تأليفه محط اهتمام الباحثين ودارسي اللغة العربية .

وفيما يتعلق بالعلوم الإنسانية أظهر الأندلسيون مهارة فائقة في التاريخ والجغرافيا ، والفلسفة . ففي الدراسات التاريخية نبغت أسرة الرازي وكان أشهرهم أحمد بن محمد الرازي الذي كانت له جهود علمية كبيرة في رقي هذه الدراسات وفي تطورها ، فقد نقل عنه الكثير من العلماء وأشادوا به وبجهوده في ذلك ، ويأتي المؤرخ ابن حيان في مقدمة من أنجبته الأندلس في ميدان التاريخ كما يقف موقف الند مع ابن الأثير المؤرخ المشرقي بما تميز به من أسلوب بديع في الكتابة التاريخية وما تمتع به من قدرة على التحليل التاريخي للأحداث إضافة إلى صدقه وصراحته في إيراد المعلومات التاريخية .

وفي علم الجغرافيا يلمع اسم المؤرخ محمد الرازي الذي صنف كتابا في التاريخ والجغرافيا أسماه الرايات والذي يحوي الكثير من المعلومات الجغرافية المهمة . كما برز محمد بن يوسف الوراق في ميدان الجغرافيا . فكانت له تأليف قيمة في ذلك وقد اعتمد عليها من أتى بعده من الجغرافيين كالبكري . كما برز الجغرافي أحمد بن عمر بن أنس العذري الذي صنف الكثير من الكتب الجغرافية التي للأسف لم يصلنا منها إلا أجزاء يسيرة . ويظهر من أسلوبها العذري في الكتابة الجغرافية مدى ما تمتع به من علم واسع ومعرفة كبيرة بعلم الجغرافيا .

كما أظهر بعض الأندلسيين مقدرة كبيرة في دراسة الفلسفة ، ولكن نظرا لما عرف عن الأندلسيين من كراهية لهذا العلم فإن حركة الإشتغال به كانت بطيئة ومتعثرة . ورغم ذلك فقد أظهر الفقيه ابن حزم الظاهري قدرة مدهشة في بحث ودراسة الفلسفة . وكان له جهد بارز في التعريف بنظرية المعرفة قبل الفيلسوف الألماني « كانط » الذي نسبت إليه هذه النظرية على غير حق .

وفيما يتصل بالعلوم التجريبية استطاع الأندلسيون أن يخوضوا هذا الميدان وأن يخرجوا بأروع النتائج العلمية في كل علم منها . ففيما يتعلق

بالرياضيات والفلك نبع الكثير من العلماء ويأتي في مقدمتهم العالم الذائع الصيت مسلمة بن أحمد المجريطي الذي وصف بالتمكن في الرياضيات والفلك وأنه إمام الرياضيين في الأندلس إلى جانب تضلعه في الكيمياء وعلم الحيوان والنبات وكان له في كل ذلك تصانيف قيمة وجهود رائعة . وكان المجريطي بمثابة مدرسة تخرج منها الكثير من العلماء وفي مقدمتهم أصبغ بن السمع المهري الذي أثنى عليه ابن حزم وذكر عنه أنه ألف في الازياج زيجا لم يؤلف مثله ، والعلامة أحمد بن عبد الله بن الصفار الذي نبغ في الرياضيات والفلك وكان يلقي دروسه في جامع قرطبة . وفي ذلك دليل واضح على تغير النظرة القديمة نحو تلك العلوم إذ أصبحت تدرس وتبحث مسائلها في الجامع بقرطبة جنبا إلى جنب مع العلوم الأخرى . كما برز علماء آخرون في الرياضيات والفلك منهم أبو مسلم بن خلدون أخذ عنه الكثير من العلماء علمه في تلك العلوم . وفي ميدان الهندسة أظهر عمرو بن عبد الرحمن الكرمانى قدرات كبيرة حتى وصف بأنه لم يجاريه أحد في مصرفتها .

وفيما يتعلق بالطب فقد أنجبت الأندلس أعداداً كبيرة من الأطباء وكفيها فخرا أنه خرج منها نابغة الجراحة الطبية وواضع أسسها الصحيحة أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوي الذي أثنى عليه الأطباء في عصره وما بعده حتى وصفه أحد الكتاب الغربيين وهو ستانلي لين بول بقوله أنه هو الجدير بلقب « أبي الطب » وأن كتابه « التصريف لمن عجز عن التأليف » والذي لا يزال مخطوطا أعظم شاهد على نبوغه في الطب وبخاصة في ميدان الجراحة وأنه بالتالي أعظم جراح في تاريخ الطب الإسلامي .

وقد ظهر إلى جانب الزهراوي الكثير من الأطباء ومنهم سليمان بن حسان « ابن جلجل » الذي كانت له جهود مشكورة في ازدهار الدراسات الطبية وخاصة فيما يتعلق بتركيب الأدوية ومعرفة النباتات الطبية ولا تزال

بعض تصانيفه محفوظة إلى يومنا في بعض المكتبات الإسلامية . وممن عاش في ذلك العصر الطبيب عريب بن سعد الذي أظهر براعة في ميدان طب الأطفال بما صنّفه في ذلك ، فقد أُلّف كتاب « خلق الجنين وتدبير الحبالى والمولود » وفيه الكثير من الدراسات الطبية القيمة التي تثبت ما كان عليه من دراية واسعة بالطب وتضطلع في علومه وخاصة ما يتصل بالأطفال .

وفيما يتعلق بالكيمياء كانت للأندلسيين جهودهم المثمرة ، وقد أظهر العلامة عباس بن فرناس من علماء عصر الإمارة نبوغا في ذلك وكانت له تجارب مهمة ولكن عصره اتسم بالنظرة المحدودة نحو ذلك العلم فكان لا يمارس نشاطه العلمي في الكيمياء إلا في الخفاء . وفي عصر الخلافة لمع اسم العلامة مسلمة المجريطي الذي صنّف كتابا في ذلك اسماء (رتبة الحكيم) ضمنه الكثير من تجاربه العلمية التي تشهد له بطول الباع كما ضمن كتابه المذكور الكثير من الإرشادات والتوجيهات لدراسة الكيمياء . وفي كتابه الآخر غاية الحكيم الكثير من الدراسات المتعلقة بالكيمياء مما يثبت بلاشك ما كانت عليه حال الدراسات الكيميائية في ذلك العصر وأنها نالت الكثير من الجهد ولقيت عناية واهتماما بالغين .

وإلى جانب مسلمة عرف عن العلامة عبدالله بن محمد السري الاشتغال بالكيمياء ، وكان الخليفة الحكم المستنصر يقربه ويدني منزلته . كما وصف عبد الله بن محمد الذهبي بالبراعة في دراسة الكيمياء والبحث في مسائلها .

وما من شك أن المشتغلين بالطب وتركيب الأدوية هم أكثر حاجة إلى معرفة الكيمياء لصلتها الوثيقة بتركيب الأدوية ، وهو ما نلمسه عند تصفحنا لكتاب الزهراوي « التصريف » فقد أفرد مقالة في إصلاح الأدوية وحرق الأحجار المعدنية .

وهكذا يتضح لنا مدى عناية الأندلسيين بالعلوم والآداب وما أولوها من اهتمام حتى تم لهم الوصول إلى درجة كبيرة في تلك العلوم ، فكان لهم فيها إنتاج علمي نفيس لا يزال بعضه بين أيدينا رغم ما أصاب الكتب الأندلسية من كوارث الكثير منها كان متعمدا حتى قال أحد الكتاب الغربيين وهو كوندية (Conde) إن الإسبان عندما استولوا على قرطبة أحرقوا في يوم واحد نحو سبعين خزانة للكتب فيها ما يزيد عن مليون وخمسين ألف مجلد (أنظر : أنور الرفاعي ، الإنسان العربي والحضارة ، ص ٤١٦) . فضلا عما حدث بعد ذلك عند خروج المسلمين من الأندلس من إحراق مئات الآلاف من الكتب عند باب الرمل بغرناطة بأمر الكردينال تسنيروس الذي لم يكن له من دافع نحو ذلك سوى حقه على الإسلام والمسلمين والتراث الإسلامي .

والجدير بالذكر أن من شواهد النهضة العلمية في عصر الخلافة في الأندلس مدى التأثير العلمي للأندلسيين في أوروبا آنذاك . وأن من يطلع على كتب الحضارة الأندلسية ليقف بجلاء على عمق التأثير العلمي للأندلسيين في أوروبا ، فأحد الكتاب الغربيين وهو لويس يونغ يشير في كتابه العرب وأوروبا ص ١٢٠ إلى ذلك بقوله (شهد القرن العاشر انتقال العلوم العربية بصورة مبكرة إلى اللورين مما جعلها مركزا ثقافيا هاما لمدة قرنين) . وفي ذلك إشارة هامة إلى سرعة التأثير العلمي للأندلس في أوروبا وأن ذلك لم يكن متأخرا بل كان في فترة مبكرة .

وإذا كانت قرطبة قد استقبلت آلاف العلماء وطلاب العلم من المسلمين فإن التاريخ لم يغفل عن حفظ أسماء الكثير من الأوروبيين الذين أدهشتهم حضارة الأندلس وما وصلت إليه من ازدهار علمي فأقبلوا ينهلون من معين علومها وآدابها المختلفة . وكانت الأندلس آنذاك - وخاصة عاصمتها قرطبة - سوقا

نافقة في العلم فجذبت الأوروبيين نحوها وهو أمر اعترف به الكتاب الغربيون كزيغريد هونكة ، وستانلي لين بول ، وروم لاندو ، ولويس يونغ ، وغوستاف لوبون . ففي كتابه : العرب وأوروبا (ص ١٢٥) يشير يونغ إلى أن العلامة المسيحي جريبرت GERBERT الذي أصبح فيما بعد سنة (٣٩٠هـ - ٩٩٩ م) البابا سلفستر الثاني - قد عاصر النهضة العلمية في الأندلس وأنه سافر بين عامي ٩٦٧ م و ٩٧٠ م إلى هناك حيث درس العلوم على أيدي علماء الأندلس فبرع في الرياضيات وألف فيها حين عودته كتابا شرح فيه استخدام الأرقام العربية. إلا أن الأوروبيين لم يطمئنوا إلى سيرته لاحتماله بالمسلمين ونسجوا حوله الأساطير المختلفة .

ويشير ماهر حمادة في كتابه (المكتبات في الإسلام) ص ٢١٢ إلى أن - الإمبراطور أوتو الكبير أرسل بعثة سياسية إلى الخليفة عبدالرحمن الناصر سنة (٣٤٢ هـ / ٩٥٣ م) وكان على رأسها شخص يسمى جان غورتز اللوريني وحدث أن شد انتباهه الازدهار العلمي الذي كان سائدا في الأندلس آنذاك فمكث في قرطبة ثلاث سنوات تعلم فيها اللغة العربية وفي عودته إلى ألمانيا سنة (٣٤٥ هـ / ٩٥٦ م) حمل معه كمية كبيرة من الكتب ، ويظهر أن أكثرها كان في العلوم التطبيقية وخاصة الرياضيات ويدل على ذلك الازدهار الكبير في دراسة تلك العلوم في القرن التالي (الحادي عشر) في مدارس مقاطعة اللورين.

وعليه فإن ما ذكرناه من الأمثلة على ظاهرة التأثير العلمي للأندلس في أوروبا إنما هو شيء قليل من كثير . وهو بلاشك برهان ساطع على ما كانت تتمتع به الأندلس من حضارة زاهرة وتقدم فكري عظيم .

وإذا كان عصر ملوك الطوائف يفخر بما حواه من نشاط علمي كبير فإن الكثير من الفضل في ذلك يعود إلى عصر الخلافة . فكما هو معلوم أن قرطبة آنذاك كانت تمثل حاضرة الخلافة وأنها بذلك قد استقطبت العلماء من شتى

بلاد الأندلس بل ومن خارجها فقد كانت مزدهرة بنهضتها الحضارية وتألقها العلمي حتى أصبح العلم سمة من سماتها الحضارية ومعلما واضحا من معالمها . وبعد زوال الخلافة الأموية وحدث الفتنة في قرطبة خرج منها آلاف العلماء إلى غيرها من المدن الأندلسية الأخرى التي تتوفر فيها مظاهر الاستقرار والأمن الذي يكفل لهم الانصراف التام نحو البحث والتحصيل العلمي ، وهو ما وجدوه في رحاب ملوك الطوائف الذين رحبوا بمقدمهم وأخذوا في تشجيعهم واغداق الصلوات عليهم مقابل ما يبذلونه من جهود علمية .

هذا بالإضافة إلى ما ترتب على حصول الفتنة في قرطبة من تفرق الكتب العلمية وانتشارها في كافة اقطار الأندلس وخاصة بعد تفرق محتويات مكتبة الحكم المستنصر وما نجم عن ذلك من توسيع دائرة الاهتمام العلمي بالكتب في مختلف أنحاء الأندلس بعد أن كان النشاط العلمي مركزا في قرطبة عاصمة الخلافة .

وبناء عليه فإن عصر الخلافة كان يمثل بحق عصر العلم الذي كان له بلا ريب أثر كبير فيما تلاه من نشاط وازدهار كبير في عصر ملوك الطوائف .

وأخيرا فإن ما قدمه الأندلسيون في عصر الخلافة يعد بصدق صفحة مشرقة من صفحات التاريخ والحضارة الإسلامية تبرز قيمتها فيما أسدوه للإنسانية من ثمرات الفكر العلمي التي لا تزال آثارها واضحة المعالم بينة الآثار في حضارة اليوم وتشهد للمسلمين بعظيم الفضل وروعة العطاء في تقديم الحضارة الإنسانية .

الملاحق

ملحق رقم (١)

رسالة ابن حزم في فضل الأندلس^(١)

قلت : وقد رأيت أن أذكر رسالة أبي محمد ابن حزم الحافظ التي ذكر فيها بعض فضائل علماء الأندلس ، لاشتمالها على ما نحن بصدده . وذلك أنه كتب أبو علي الحسن بن محمد بن أحمد بن الربيع القيرواني ، إلى أبي المغيرة عبد الوهاب بن أحمد بن عبد الرحمن بن حزم يذكر تقصير أهل الأندلس في تخليد أخبار علمائهم ومآثر فضائلهم وسير ملوكهم ، ما صورته :

كتبت يا سيدي ، واجل عدي . كتب الله تعالى لك السعادة ، وأدام لك العز والسيادة مسائلًا مسترشدا ، وباحثًا مستخبرًا ، وذلك أنني فكرت في بلادكم إذ كانت قرارة كل فضل ، ومنهل كل خير ، ومقصد كل طرفه ، ومورد كل تحفة ، وغاية آمال الراغبين ، ونهاية أمانى الطالبين ، أن بارت تجارة فإليها تجلب ، وإن كسدت بضاعة ففيها تنفق ، مع كثرة علمائها ووفور أدبائها وجلالة ملوكها ، ومحبتهم في العلم وأهله ، يعظمون من عظمه علمه ، ويرفعون من رفعه أدبه ، وكذلك سيرتهم في رجال الحرب ، يقدمون من قدمته شجاعته ، وعظمت في الحروب نكايته ، فشجع الجبان ، وأقدم الهيبان ، ونبه الخامل ، وعلم الجاهل ، ونطق العيي ، وشعر البكي ، واستنسر البغاث ، وتتعين الحفات ، فتتنافس الناس في العلوم ، وكثر الحذاق في جميع الفنون ، ثم هم مع ذلك على غاية التقصير ونهاية التفريط ، من أجل أن علماء الأمصار دونوا فضائل أمصارهم . وخلدوا في الكتب مآثر بلدانهم ، وأخبار الملوك والأمراء ، والكتاب والوزراء ، والقضاة والعلماء ، فأبقوا لهم ذكرا في الغابرين يتجدد على مر الليالي والأيام ، ولسان صدق في الآخرين يتأكد مع تصرف الأعوام ، وعلمائكم

(١) المقرئ : نفع الطيب ، ج ٣ ، ص ١٥٦ - ١٧٩ .

مع استظهارهم على العلوم كل امرئ منهم قائم في ظله لا يبرح ، وراتب على كعبه لا يتزحزح ، يخاف إن صنف أن يعنف ، وإن ألف أن يخالف ، ولا يؤالف ، أو يخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق ، لم يتعب أحد منهم نفسا في جمع فضائل أهل بلده ، ولم يستعمل خاطره في مفاخر ملوكه ، ولا بل قلما بمناقب كتابه ووزرائه ، ولا سود قرطاسا بمحاسن قضاته وعلمائه ، على أنه لو أطلق ما عقل الإغفال من لسانه ، وبسط ما قبض الإهمال من بيانه ، لوجد للقول مساغا ، ولم تضق عليه المسالك ، ولم تخرج به المذاهب ولا اشتبهت عليه المصادر والموارد ، ولكن هم أحدهم أن يطلب شأؤ من تقدمه من العلماء ليجوز السبق ، ويفوز بقدر ابن مقبل ، ويأخذ بكظم دغفل ، ويصير شجا في حلق أبي القميل ، فإذا أدرك بغيته ، واخترمته منيته ، ومن معه أدبه وعلمه ، فمات ذكره ، وانقطع خبره ، ومن قدمنا ذكره من علماء الامصار أحتالوا لبقاء ذكركم احتيال الاكياس ، فآلقوا دواوين بقي لهم بها ذكر مجدد طول الأبد .

فإذا قلت : إنه كان مثل ذلك من علمائنا ، وألفوا كتبنا لكنها لم تصل إلينا ، فهذه دعوى لم يصحبها تحقيق ، لأنه ليس بيننا وبينكم غير روعة راكب ، أو رحلة قارب ، لو نفث من بلدكم مصدور ، لاسمع من ببلدنا في القبور ، فضلا عما في الدور والقصور ، وتلقوا قوله بالقبول كما تلقوا ديوان أحمد بن عبد ربه الذي سماه بالعقد^(١) ، على أنه يلحقه فيه بعض اللوم ، لاسيما إذ لم يجعل فضائل بلده واسطة عقده ، ومناقب ملوكه يتيمة سلكه ، أكثر الحز وخطأ الفصل وأطال الهز لسيف غير مصقل ، وقعد به ما قعد بأصحابه من ترك ما يعنيه ، واغفال ما يهمهم ، فارشد أخاك أرشدك الله واهده هداك الله إن كانت عندك في ذلك الجلية ، وببيدك فصل القضية ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

(١) انظر ميدان الأدب وازدهاره في عصر الخلافة .

فكتب الوزير الحافظ أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم ، عند وقوفه على هذه الرسالة ما نصه :

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد عبده ورسوله وعلى أصحابه الأكرمين ، وأزواجه أمهات المؤمنين ، وذريته الفاضلين الطيبين .

أما بعد يا أخي يا أبا بكر ، سلام عليك سلام أخ مشوق طالت بينه وبينك
الأميال والفراسخ ، وكثرت الأيام والليالي ، ثم لقيك في حال سفر ونقله ، ووادك
في خلال جوله ورحله ، فلم يقض من مجاورتك ، ولا بلغ في محاورتك مطلباً ،
وأني لما احتلت بك وجالت يدي في مكنون كتبك ، ومضمون دواوينك ، لمحت
عيني في تضاعيفها درجا ، فتأملت فيه فإذا فيه خطاب لبعض الكتاب من
مصاقبينا في الدار أهل أفريقيه ، ثم ممن ضمته حاضرة قيروانهم ، إلى رجل
أندلسي لم يعينه باسمه ، ولا ذكره بنسبه ، ويذكر له فيها أن علماء بلدنا
بالأندلس ، وإن كانوا على الذروة العليا من التمكن بأفانين العلوم ، وفي الغاية
القصى من التحكم على وجود المعارف - فإن همهم قد قصرت عن تخليد
مآثر بلدهم ، ومكارم ملوكهم ، ومحاسن فقهاءهم ، ومناقب قضاتهم ، ومفاخر
كتابهم ، وفضائل علمائهم ، ثم تعدى ذلك إلى أن أخلى أبواب العلوم منا من
أن يكون لهم تأليف يحي ذكرهم ، ويبقى علمهم ، بل قطع على أن كل واحد
منهم قد مات فدفن علمه معه ، وحقق ظنه في ذلك ، واستدل على صحته عند
نفسه بأن شيئاً من هذه التأليف لو كان منا موجوداً لكان إليهم منقولاً ،
وعندهم ظاهراً لقرب المزار ، وكثرة السفار ، وترددهم إليهم ، وتكرهم علينا ،
ثم لما ضمنا المجلس الحافل بأصناف الآداب ، والمشهد بالأهل بأنواع العلوم ،
والقصر المعمور بأنواع الفضائل ، والمنزل المحفوف بكل لطيفة وسعة من دقيق
المعاني وجليل المعالي ، قرارة المجد ومطلب السؤدد ، ومحط رجال الخائفين ،
وملقى عصا التسيار عند الرئيس الأجل الشريف قديمه وحسبه ، الرفيع

حديثه ومكتسبه ، الذي أجله عن كل خطة يشركه فيها من لا توازي قومته
نومته ، ولا ينال حضره هويناه ، وأربأ به عن كل مرتبة يلحقه فيها من لا يسمو
إلى المكارم سموه ، ولا يدنو من المعالي دنوه ، ولا يعلو في حميد الخلال علوه ،
بل اكتفى من مدحه باسمه المشهور ، واجتزى من الإطالة في تقريظه بمنتهاه
المذكور ، فحسبي بدينك العلمين دليلا على سعيه المشكور ، وفضله المشهور ،
أبي عبدالله محمد بن عبدالله بن قاسم صاحب البونت أطل الله بقاءه ، وأدام
اعتلائه ، ولا عطل الحامدين من تحليهم بحلاه ، ولا أخلى الأيام من تزينها
بعلاه ، فرأيته أعزه الله تعالى حريصا على أن يجاب هذا المخاطب ، وراغبا
في أن يبين له ما لعله قد رآه فنسي أو بعد عنه فخفي ، فتناولت الجواب المذكور
بعد أن بلغني أن ذلك المخاطب قد مات رحمننا الله تعالى وإياه ، فلم يكن
لقصده بالجواب معنى وقد صارت المقابر له مغنى ، فلسنا بمسمعين من في
القبور ، فصرفت عنا الخطاب إليك ، إذ من قبلك صرت إلى الكتاب المجاب
عنه ، ومن لدنك وصلت الى الرسالة المعارضة ، وفي وصول كتابي على هذه
الهيئة حينما وصل كفاية لمن غاب عنه من أخبار تأليف أهل بلدنا مثل ما غاب
عن هذا الباحث الأول ، والله الأمر من قبل ومن بعد ، وإن كنت في إخباري إياك
بما أرسمه في كتابي هذا كمهد إلى البركان نار الحباحب ، وبأني صوى في
مهيع القصد اللاحب ، فإنك وإن كنت المقصود والمواجه ، فإنما المراد من أهل
تلك الناحية من نأى عنه علم ما استجلبه السائل الماضي وما توفيقي إلا بالله
سبحانه .

فأما متأثر بلدنا فقد ألف في ذلك أحمد بن محمد الرازي التاريخي كتبا
جمة منها : كتاب ضخم ذكر فيه مسالك الأندلس ومراسيها ، وأمهاة مدنها
وأجنادها الستة ، وخواص كل بلد منها ، وما فيه مما ليس في غيره ، وهو

كتاب مريح مليح^(١) ، وأنا أقول : لو لم يكن لأندلسنا إلا ما رسول الله ﷺ بشر به ووصف أسلافنا المجاهدين فيه بصفات الملوك على الأسرة في الحديث الذي رويناه من طريق أبي حمزة أنس بن مالك أن خالته أم حرام بنت ملحان زوج أبي الوليد عبادة بن الصامت رضي الله تعالى عنه وعنهم أجمعين حدثته به عن النبي ﷺ أنه أخبرها بذلك لكفى شرفا بذلك يسر عاجله ، ويغبط آجله ، فإن قال قائل : فلعلة صلوات الله تعالى عليه إنما عنى بذلك الحديث أهل صقلية وأقريطش ، وما الدليل على ما أدعيته من أنه ﷺ عنى الأندلس حتما ؟ ومثل هذا من التأويل لا يتساهل فيه ذو ورع دون برهان واضح ، وبيان لائح ، لا يحتمل التوجيه ولا يقبل التجريح ، فالجواب - وبالله التوفيق - أنه ﷺ قد أوتي جوامع الكلم وفصل الخطاب ، وأمر بالبيان لما أوحى إليه ، وقد أخبر في ذلك الحديث المتصل سنده بالعدل . عن العدول بطائفتين من أمته يركبون ثبج هذا البحر غزاة واحدة بعد واحدة ، فسألته أم حرام أن يدعوربه تعالى أن يجعلها منهم ، فأخبرها ﷺ وخبره الحق بأنها من الأولين ، وهذا من أعلام نبوته ﷺ ، وهو إخباره بالشيء قبل كونه ، وصح البرهان على رسالته بذلك وكانت من الغزاة إلى قبرص ، وخرت عن بغلتها هناك ، فتوفيت رحمها الله تعالى ، وهي أول - غزاة ركب فيها المسلمون البحر ، فثبت يقينا أن الغزاة إلى قبرص هم (الاولون الذين بشر بهم النبي ﷺ ، وكانت أم حرام منهم كما أخبر صلوات الله تعالى وسلامه عليه ولا سبيل أن يظن به وقد أوتي من البلاغة والبيان أنه يذكر طائفتين قد سمى إحداهما أولى والتالية لها ثانية ، فهذا من باب الإضافة وتركيب العدد ، وهذا يقتضي طبيعة صناعة المنطق ، إذ لا تكون الأولى أولى إلا لثانية . ولا الثانية ثانية إلا لأولى ، فلا سبيل إلى ذكر ثالث إلا بعد ثان ضرورة ، وهو ، ﷺ ، إنما ذكر طائفتين ، وبشر بفئتين وسمى إحداهما الأولين ،

(١) انظر الحديث عن هذا العالم في ميدان التاريخ والجغرافيا في عصر الخلافة .

فاقتضى ذلك بالقضاء الصدق آخرين ، والآخر من الأول هو الثاني الذي أخبر
عليه السلام أنه خير القرون بعد قرنه ، وأولى القرون بكل فضل بشهادة رسول الله ﷺ
بأنه خير من كل قرن بعده ، ثم ركب البحر بعد ذلك أيام سليمان بن عبد الملك
إلى القسطنطينية ، وكان الأمير بها في تلك السفن هبيرة الفزاري ، وأما
صقليه فإنها فتحت صدر أيام الأغالية سنة ٢١٢ ، أيام قاد إليها السفن غازيا
أسد بن الفرات القاضي صاحب أبي يوسف رحمه الله تعالى ، وبها مات ،
وأما أقریطش فإنها فتحت بعد الثلاث والمائتين ، افتتحها أبو حفص عمر بن
شعيب المعروف بابن الغليظ ، من أهل قرية بطروج من عمل فحص البلوط
المجاور لقرطبة من بلاد الأندلس ، وكان من فل الربيضين ، وتداولها بنوه بعده
إلى أن كان آخرهم عبدالعزيز بن شعيب الذي غنمها في أيامه أرمانوس بن
قسطنطين ملك الروم سنة ٣٥٠ ، وكان أكثر المفتحين لها أهل الأندلس ، وأما
في قسم الأقاليم فإن قرطبة مسقط رؤوسنا ، معق تماننا ، مع سر من رأى
في إقليم واحد ، قلنا من الفهم والذكاء ما اقتضاه إقليمنا ، وإن كانت الأنوار لا
تأتينا إلا مغربة عن مطالعها على الجزء المعمور ، وذلك عند المحسنين للأحكام
التي تدل عليها الكواكب ناقص من قوى دلائلها ، فلها من ذلك على كل حال
حظ يفوق حظ أكثر البلاد ، بارتفاع أحد النيرين بها تسعين درجة ، وذلك من
أدلة التمكن في العلوم والنفاز فيها عند من ذكرنا ، وقد صدق ذلك الخبر ،
وأبانت التجربة ، فكان أهلها من التمكن في علوم القراءات والروايات وحفظ
كثير من الفقه والبصر بالنحو والشعر واللغة والخبر والطب والحساب والنجوم
بمكان رحب الفناء واسع العطس متنائي الأقطار فسيح المجال ، والذي نعاه
علينا الكاتب المذكور لو كان كما ذكر لكننا فيه شركاء لأكثر أمهات الحواضر
وجلائل البلاد ومتسعات الأعمال ، فهذه القيروان بلد المخاطب لنا ، ما اذكر
أنني رأيت في أخبارها تأليفا غير « المعرب عن أخبار المغرب » وحاشا تواليف

محمد بن يوسف الوراق ، فإنه أُلّف للمستنصر رحمه الله تعالى في مسالك
أفريقية وممالكها ديوانا ضخما وفي أخبار ملوكها وحروبهم والقائمين عليهم
كتبا جمة ، وكذلك أُلّف أيضا في أخبار تيهرب ووهران وتنس وسجلماسه ونكور
والبصرة وغيرها تواليف حسانا ، ومحمد هذا أندلسي الأصل والفرع أبأؤه من
وادي الحجارة ، ومدفنه بقرطبة ، وهجرته إليها ، وإن كانت نشأته بالقيروان^(١) .

ولا بد من إقامة الدليل على ما اشرت إليه هاهنا إذ مرادنا أن نأتي منه
بالمطلب فيما يستأنف إن شاء الله تعالى ، وذلك أن جميع المؤرخين من أئمتنا
السالفين والباقيين دون محاشاة أحد ، بل قد تيقنا اجماعهم على ذلك ، متفقون
على أن ينسبوا الرجل إلى مكان هجرته التي استقر بها ولم يرحل عنها رحيل
ترك لسكانها إلى أن مات . فإن ذكروا الكوفيين من الصحابة رضي الله تعالى
عنهم صدروا بعلي وابن مسعود وحذيفة رضي الله تعالى عنهم ، وإنما سكن
علي الكوفة خمسة أعوام وأشهرأ ، وقد بقي ٥٨ عاما وأشهرأ بمكة والمدينة
شرفهما الله تعالى وكذلك أيضا أكثر أعمار من ذكرنا ، وإن ذكروا البصريين
بدأوا بعمران بن حصين وأنس بن مالك وهشام بن عامر وأبي بكر ، وهؤلاء
مواليدهم وعامة زمن اكثرهم واكثر مقامهم بالحجاز وتهامة والطائف ، وجمهرة
اعمارهم خلت هناك ، وإن ذكروا الشاميين نوهوا بعبادة بن الصامت وأبي
الدرداء وأبي عبيدة بن الجراح ومعاذ ومعاوية ، والأمر في هؤلاء كالأمر فيمن
قبلهم ، وكذلك في المصريين عمرو بن العاص وخارجة بن حذافة العدوي ، وفي
المكيين عبدالله بن عباس وعبدالله ابن الزبير ، والحكم في هؤلاء كالحكم فيمن
قصصنا ، فمن هاجر إلينا من سائر البلاد فنحن أحق به ، وهو منا بحكم
جميع أولي الأمر منا الذين اجماعهم فرض اتباعه ، وخلافه محرم اقترانه ،
ومن هاجر منا إلى غيرنا فلا حظ لنا فيه ، والمكان الذي اختاره اسعد به ،

(١) انظر الحديث عن ذلك العالم وكتبه في ميدان التاريخ والجغرافيا في عصر الخلافة .

فكما لا ندع اسماعيل بن القاسم^(١) فكذلك لا ننزع في محمد بن هاني^(٢) سوانا ، والعدل أولى ما حرص عليه ، والنصف أفضل ما دعى إليه ، بعد التفصيل الذي ليس هذا موضعه ، وعلى ما ذكرنا من الأنصاف تراضي الكل .

وهذه بغداد حاضرة الدنيا ومعدن كل فضيلة ، والمحله التي سبق أهلها إلى حمل ألوية المعارف ، والتدقيق في تصريف العلوم ، ورقة الأخلاق والنباهة والذكاء وجدة الأفكار ونفاذ الخواطر ، وهذه البصرة وهي عين المعمور في كل ما ذكرنا ، وما اعلم في أخبار بغداد تأليفا غير كتاب أحمد بن أبي طاهر ، وأما سائر التواريخ التي ألفها أهلها فلم يخصصوا بلدتهم بها دون سائر البلاد ، ولا اعلم في أخبار البصرة غير كتاب عمر بن شبة ، وكتاب لرجل من ولد الربيع ابن زياد المنسوب إلى أبي سفيان في خطط البصرة وقطائعها ، وكتابين لرجلين من أهلها يسمى أحدهما عبد القاهر كريزي النسب في صفاتها ، وذكر أسواقها ومحالها وشوارعها ، ولا اعلم في أخبار الكوفة غير كتاب عمر بن شبة وأما الجبال وخراسان وطبرستان وجرجان وكرمان وسجستان والري والسند وأرمينية واذربيجان وتلك الممالك الكثيرة الضخمة فلا اعلم في شيء منها تأليفا قصد به أخبار ملوك تلك النواحي ، وعلمائها وشعرائها ، وأطبائها ولقد تآقت النفوس إلى أن يتصل بها تأليف في أخبار فقهاء بغداد ، وما علمناه علم ، على أنهم العلية الرؤساء ، والأكابر العظماء ، ولو كان في شيء من ذلك تأليف لكان الحكم في الأغلب أن يبلغنا كما بلغ سائر تأليفهم ، وكما بلغنا كتاب حمزه بن الحسن الأصبهاني في أخبار أصفهان وكتاب الموصلي وغيره في أخبار مصر ، وكما بلغنا سائر توالييفهم في أنحاء العلوم ، وقد بلغنا تأليف القاضي أبي العباس محمد بن عبدون القيرواني في الشروط واعتراضه على الشافعي رحمه الله تعالى ، وكذلك بلغنا رد القاضي أحمد بن طالب التميمي على أبي حنيفة

(١) انظر ترجمة هذا الأديب اللغوي في ميدان الأدب واللغة في عصر الخلافة .

(٢) انظر الحديث عن هذا الشاعر في باب الشعر في عصر الخلافة .

وتشييعه على الشافعي ، وكتب ابن عبدوس ومحمد بن سحنون وغير ذلك من
خوامل تأليفهم دون مشهورها .

وأما جهتنا فالحكم في ذلك ما جرى به المثل السائر « أزهّد الناس في
عالم أهله » وقرأت في الأنجيل أن عيسى عليه السلام قال : « لا يفقد النبي
حرمته إلا في بلده » وقد تيقنا ذلك بما لقي النبي ﷺ ، من قریش وهم أوفر
الناس أحلاما وأصحهم عقولا وأشدّهم تثبّتا مع ما خصوا به من سكناهم
أفضل البقاع ، وتغذيتهم بأكرم المياه - حتى خص الله تعالى الأوس والخزرج
بالفضيلة التي أبانهم بها عن جميع الناس ، والله يؤتي فضله من يشاء ، ولا
سيما أندلسنا فإنها خصت من حسد أهلها للعالم الظاهر فيهم الماهر منهم ،
واستقلالهم كثير ما يأتي به ، واستهجانهم حسناته ، وتتبعهم سقطاته وعثراته ،
وأكثر ذلك مدة حياته ، بأضعاف ما في سائر البلاد ، إن أجاد قالوا : سارق
مغير ومنتحل مدع ، وإن توسط قالوا : غث بارد وضعيف ساقط ، وإن باكر
الحياسة لقصب السبق قالوا : متى كان هذا ؟ ومتى تعلم ؟ وفي أي زمان قرأ ؟
ولأمة الهبل . وبعد ذلك إن ولجت به الأقدار أحد طريقين إما شغوبا بائنا يعليه
على نظرائه أو سلوكا في غير السبيل التي عهدوها فهناك حمي الوطيس على
البائس وصار غرضا للأقوال وهدفا للمطالب ونصبا للتسبب إليه ونهبا للألسنة
وعرضة للتطرق إلى عرضه ، وربما نحل ما لم يقل وطوق ما لم يتقلد والحق به
ما لم يفه به ولا أعتقده قلبه . وبالحري وهو السابق المبرز إن لم يتعلق من
السلطان بحظ أن يسلم من المتآلف وينجو من المخالف ، فإن تعرض لتأليف
غمز ولز وتعرض وهمز واشتط عليه وعظم يسير خطبه ، واستشنع حين سقطه
وذهبت محاسنه وسترت فضائله وهتف ونودي بما أغفل ، فتتكس لذلك همته
وتكل نفسه وتبرد حميته ، وهكذا عندنا نسيب من ابتدأ يحوك شعرا ، أو يعمل
رسالة ، فإنه لا يفلت من هذه الحبائل ، ولا يتخلص من هذه النصب إلا
الناهض الفائن والمطفف المستولي على الأمد .

وعلى ذلك فقد جُمِعَ ما ظنه الظان غير مجموع ، وألفت عندنا تأليف في غاية الحسن لنا خطر السبق في بعضها : فمنها كتاب « الهداية » لعيسى بن دينار^(١) ، وهي أرفع كتب جمعت في معناها على مذهب مالك وابن القاسم ، وأجمعها للمعاني الفقهية على المذهب ، فمنها كتاب الصلاة وكتاب البيوع وكتاب الجدار في الأقضية وكتاب النكاح والطلاق ، ومن الكتب المالكية التي ألفت بالأندلس كتاب القطني مالك بن علي^(٢) ، وهو رجل قرشي من بني فهر لقي أصحاب مالك وأصحاب أصحابه ، وهو كتاب حسن فيه غرائب ومستحسنات من الرسائل المولادات ، ومنها كتاب أبي إسحاق يحيى بن إبراهيم بن مزين^(٣) في تفسير الموطأ والكتب المستقصية لمعاني الموطأ وتوصيل مقطوعاته من تأليف ابن مزين أيضا . وكتابه في رجال الموطأ وما لمالك عن كل واحد منهم من الآثار في موطأه .

وفي تفسير القرآن كتاب أبي عبد الرحمن بقي بن مخلد^(٤) فهو الكتاب الذي أقطع قطعاً لا استثنى فيه أنه لم يؤلف في الإسلام تفسير مثله ، ولا تفسير محمد بن جرير الطبري ولا غيره . ومنها في الحديث مصنفه الكبير الذي رتبته على أسماء الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، فروى فيه عن ألف وثلاثمائة صاحب ونيف ، ثم رتب حديث كل صاحب على أسماء الفقه وأبواب الأحكام فهو مصنف ومسند ، وما أعلم هذه الرتبة لأحد قبله ، مع ثقته وضبطه واتقانه واحتفاله في الحديث وجودة شيوخه ، فإنه روى عن مائتي رجل وأربعة وثمانين رجلاً ليس فيهم عشرة ضعفاء ، وسائرهم أعلام مشاهير ، ومنها مصنفه في فضل الصحابة والتابعين ومن دونهم الذي أربى فيه على مصنف

(١) انظر الحديث عن هذا الفقيه وكتابه المذكور في باب الفقه في عصر الخلافة .

(٢) انظر الحديث عن هذا الفقيه وكتابه في شرح الموطأ في باب الفقه في عصر الإمارة .

(٣) انظر الحديث عن هذا الفقيه وكتابه في شرح الموطأ في باب الفقه في عصر الإمارة .

(٤) انظر الحديث عن هذا العالم في باب التفسير في عصر الإمارة .

أبي بكر ابن أبي شيبة ومصنف عبدالرزاق بن همام ومصنف سعيد ابن منصور وغيرها وانتظم علما عظيما لم يقع في شيء من هذه فصارت تأليف هذا الإمام الفاضل قواعد للإسلام ، لا نظير لها ، وكان متخيرا لا يقلد أحدا ، وكان ذا خاصة من أحمد بن حنبل رضي الله تعالى عنه^(١) .

ومنها في أحكام القرآن كتاب ابن أمية الحجاري ، وكان شافعي المذهب بصيرا بالكلام على اختياره ، وكتاب القاضي أبي الحكم منذر بن سعيد ، وكان داودي المذهب قويا على الانتصار له ، وكلاهما في أحكام القرآن غاية ، ولمنذر مصنفات منها كتاب « الإبانة عن حقائق أصول الديانة »^(٢) .

ومنها في الحديث مصنف أبي محمد قاسم بن أصبغ بن يوسف بن ناصح ومصنف محمد بن عبد الملك بن أيمن^(٣) ، وهما مصنفان رفيعان احتويا من صحيح الحديث وغريبه على ما ليس في كثير من المصنفات ولقاسم بن أصبغ هذا تأليف حسان جدا ، منها أحكام القرآن على أبواب كتاب إسماعيل وكلامه ومنها كتاب « المجتبى على أبواب كتاب ابن الجارود المنتقى » وهو خير منه وأنقى حديثا وأعلى سنداً وأكثر فائدة ، ومنها كتاب في فضائل قریش وكنانه ، وكتابه في الناسخ والمنسوخ ، وكتاب غرائب حديث مالك بن أنس مما ليس في الموطأ ، ومنها كتاب « التمهيد » لصاحبنا أبي عمر يوسف بن عبد البر^(٤) ، وهو الآن بعد في الحياة لم يبلغ سن الشيخوخة ، وهو كتاب لا أعلم في الكلام على فقه الحديث مثله أصلا فكيف أحسن منه ، ومنها كتاب « الاستذكار » وهو اختصار التمهيد المذكور ، ولصاحبنا أبي عمر ابن عبد البر

(١) انظر الحديث عن تأليف هذا العالم في باب علوم الدين وخاصة الحديث والتفسير .

(٢) انظر الإشارة إلى كتابه في أحكام القرآن في باب التفسير في عصر الخلافة .

(٣) انظر الحديث عنهما وعن تأليفهما في باب الحديث في عصر الخلافة .

(٤) انظر الحديث عن هذا العلامة وتآليف المختلفة في باب الفقه والحديث والتاريخ في عصر

الخلافة .

المذكور كتب لا مثيل لها : منها كتابه المسمى بالكافي في الفقه على مذهب مالك وأصحابه خمس عشر كتابا اقتصر فيه على ما بالمفتي الحاجة إليه وبوبه وقربه فصار مغنيا عن التصنيفات الطوال في معناه ، ومنها كتابه في الصحابة ليس لأحد من المتقدمين مثله على كثرة ما صنفوا في ذلك ، ومنها كتاب « الاكتفاء في قراءة نافع وأبي عمر وابن العلاء ، والحجة لكل واحد منهما » ، ومنها كتاب « بهجة المجالس وأنس المجالس » مما يجري في المذاكرات من غرر الأبيات ونوادر الحكايات ، ومنها كتاب « جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته » ومنها كتاب شيخنا القاضي أبي الوليد عبدالله بن محمد بن يوسف بن الفرضي في المختلف والمؤتلف في أسماء الرجال ، ولم يبلغ عبدالغني الحافظ البصري في ذلك إلا كتابين ، وبلغ أبو الوليد رحمه الله تعالى نحو الثلاثين لا أعلم مثله في فقه البتة^(١) ومنها تاريخ أحمد بن سعيد^(٢) ، وما وضع في الرجال أحد مثله إلا ما بلغنا من تاريخ محمد بن موسى العقيلي البغدادي ، ولم أره ، وأحمد بن سعيد هو المتقدم إلى التأليف القائم في ذلك ، ومنها كتب محمد بن أحمد بن يحيى بن مفرح القاضي^(٣) ، وهي كثيرة منها أسفار سبعة جمع فيها فقه الحسن البصري وكتب كثيرة جمع فيها فقه الزهري ، ومما يتعلق بذلك شرح الحديث لقاسم بن ثابت السرقسطي^(٤) ، فما شأه أبو عبيد إلا بتقدم العصر فقط .

ومنها في الفقه « الواضحة »^(٥) والمالكيون لا تمنع بينهم في فضلها واستحسانهم إياها ومنها « المستخرجة من الأسمعة » وهي المعروفة بـ

(١) انظر الحديث عن هذا العلامة في باب الحديث في عصر الخلافة .

(٢) انظر أيضا عن هذا العلامة وكتابه في باب الحديث في عصر الخلافة .

(٣) انظر ترجمة هذا العالم في باب الحديث في عصر الخلافة .

(٤) انظر الحديث عن هذا العلامة في باب الحديث في عصر الامارة .

(٥) انظر الحديث عن هذا الكتاب في باب الفقه في عصر الامارة .

« العتبية » ، ولها عند أهل أفريقية القدر العالي والطيران الحثيث ، والكتاب الذي جمعه أبو عمر أحمد بن عبد الملك بن هشام الإشبيلي المعروف بابن المكوي ، والقرشي أبو مروان المعيطي^(١) في جمع أقاويل مالك كلها على نحو الكتاب « الباهر » الذي جمع فيه القاضي أبو بكر محمد بن الحداد البصري أقاويل الشافعي كلها ، ومنها كتاب « المنتخب » الذي ألفه القاضي محمد بن يحيى بن عمر بن لبابة^(٢) ، وما رأيت لمالكي قط كتابا أنبل منه في جمع روايات المذهب وشرح مستغلقها وتفريع وجوها ، وتأليف قاسم بن محمد^(٣) المعروف بصاحب الوثائق ، وكلها حسن في معناه ، وكان شافعي المذهب نظارا جاريا في ميدان البغداديين .

ومنها في اللغة الكتاب « البارع » الذي ألفه إسماعيل بن القاسم^(٤) - يحتوي على لغة العرب ، وكتابه في « المقصور والممدود والمهموز » لم يؤلف مثله في بابيه وكتاب « الأفعال » لمحمد بن عمر بن عبدالعزيز المعروف بابن القوطية^(٥) ، بزيادات ابن طريف مولى العبيدين فلم يوضع في فنه مثله ، وكتاب جمعه أبو غالب تمام بن غالب المعروف بابن التيان^(٦) في اللغة لم يؤلف مثله اختصارا وإكثارا وثقة نقل ، وهو أظن في الحياة بعد . وههنا قصة لا ينبغي أن تخلو رسالتنا منها ، وهي أن أبا الوليد عبدالله بن محمد بن عبدالله المعروف بابن الفرضي حدثني أن أبا الجيش مجاهدا صاحب الجزائر ودانية وجه إلى أبي غالب أيام غلبته على مرسية - وأبو غالب مساكن بها - ألف دينار

(١) انظر ترجمة هذين العالمين في باب الفقه في عصر الخلافة .

(٢) انظر الحديث عن هذا الفقيه في باب الفقه في عصر الخلافة .

(٣) انظر الإشارة إلى هذا الفقيه في باب الفقه في عصر الامارة .

(٤) انظر تأليفه في باب الادب واللغة في عصر الخلافة .

(٥) انظر ترجمة هذا العالم في باب اللغة والتاريخ وعن كتابه المذكور انظر باب اللغة في عصر

الخلافة .

(٦) انظر الحديث عن هذا اللغوي في باب اللغة في عصر الخلافة .

أندلسية على أن يزيد في ترجمة الكتاب المذكور « مما ألفه تمام بن غالب لأبي الجيش مجاهد » فرد الدنانير وأبي من ذلك ولم يفتح في هذا بابا البتة ، وقال : (والله لو بذل لي الدنيا على ذلك ما فعلت ولا استجزت الكذب ، لأنني لم أجمعه له خاصة بل لكل طالب) ، فاعجب لهمة هذا الرئيس وعلوها ، واعجب لنفس هذا العالم ونزاهتها .

ومنها كتاب أحمد بن إبان بن سيد^(١) في اللغة المعروف بكتاب « العالم » نحو مائة سفر على الأجناس في غاية الإيعاب ، بدأ بالفلك وختم بالذرة ، وكتاب « النوادر » لأبي علي إسماعيل بن القاسم ، وهو مبارك لكتاب « الكامل » لإبي العباس المبرد ، ولعمري لئن كان كتاب أبي العباس أكثر نحا وخبرا فإن كتاب أبي علي أكثر لغة وشعرا وكتاب « الفصوص » لصاعد بن الحسن الربعي^(٢) ، وهو جار في مضممار الكتابين المذكورين .

ومن الأنحاء تفسير الجرفي لكتاب الكسائي ، حسن في معناه ، وكتاب ابن سيده في ذلك المنبوز « العالم والمتعلم » وشرح له لكتاب الأخفش^(٣) .

ومما ألف في الشعر كتاب عبادة بن ماء السماء في « أخبار شعراء الأندلس » كتاب حسن ، وكتاب « الحقائق » لأبي عمر أحمد بن فرج عارض به كتاب الزهرة لأبي محمد بن داود رحمه الله تعالى . إلا إن أبا بكر إنما أدخل مائة باب في كل باب مائة بيت ، وأبو عمر أورد مائتي باب في كل باب مائة بيت ليس منها باب تكرر اسمه لأبي بكر ولم يورد فيه لغير أندلسي شيئا ، وأحسن الاختيار ما شاء وأجاد ، فبلغ الغاية ، وأتى الكتاب فردا في معناه^(٤) ،

(١) انظر ترجمته في باب اللغة في عصر الخلافة .

(٢) انظر الحديث عن هذا الأديب وكتابه المذكور في باب الأدب في عصر الخلافة .

(٣) هذه الكتب لابن سيد أحمد بن إبان وليست لابن سيده انظر الحميدي ، الجذوة ، ص ٤٠٥ -

والضبي : البغية ، ص ٥٣٨ - والمقري : نفح الطيب ، ج ٣ ، ص ١٧٢ .

(٤) انظر الحديث عن هذا الأديب وكتابه المذكور في باب الشعر في عصر الخلافة .

ومنها كتاب « التشبيهات من أشعار أهل الأندلس »^(١) ، جمعه أبو الحسن علي ابن محمد بن أبي الحسن الكاتب ، وهو حي بعد ، ومما يتعلق بذلك شرح أبي القاسم إبراهيم بن محمد الأفليلي^(٢) لشعر المتنبي ، وهو حسن جدا .

ومن الأخبار^(٣) تواريخ أحمد بن محمد موسى الرازي في أخبار ملوك الأندلس وخدمتهم وغزواتهم ونكباتهم ، وذلك كثير جدا ، وكتاب له في صفة قرطبة وخططها ومنازل الأعيان بها ، على نحو ما بدأ به ابن أبي طاهر في أخبار بغداد وذكر منازل صحابة أبي جعفر المنصور بها ، وتواريخ متفرقة رأيت منها : أخبار عمر بن حفصون القائم بربه ووقائعه وسيره وحروبه وتاريخ آخر في أخبار عبدالرحمن بن مروان الجليقي القائم بالجوف ، وفي أخبار بني قسي والتجيين وبني الطويل بالثغر ، فقد رأيت من ذلك كتباً مصنفة في غاية الحسن ، وكتاب مجزأ في أجزاء كثيرة في أخبار رية وحصونها وحروبها وفقهائها وشعرائها تأليف إسحاق بن سلمة بن إسحاق القيني ، وكتاب محمد ابن الحارث الخشني في « أخبار القضاء بقرطبة وسائر الأندلس » ، وكتاب « في أخبار الفقهاء » بها ، وكتاب لأحمد بن محمد بن موسى في « أنساب مشاهير أهل الأندلس » في خمسة أسفار ضخمة من أحسن كتاب في الأنساب وأوسعها وكتاب قاسم بن أصبغ في « الأنساب » في غاية الحسن والإيعاب والإيجاز ، وكتابه في « فضائل بني أمية » ، وكان من الثقة والجلالة بحيث أشتهر أمره وانتشر ذكره ، ومنها كتب مؤلفة في أصحاب المعقل والأجناد الستة بالأندلس ، ومنها كتب كثيره جمعت فيها أخبار شعراء الأندلس

(١) هناك كتاب بهذا الاسم لأبي عبد الله محمد بن الكتاني ولحسن الحظ أنه وصلنا وقد أشرنا إليه في باب الشعر في عصر الخلافة .

(٢) انظر عن هذا الأديب باب اللغة في عصر الخلافة .

(٣) انظر ما ورد ذكره من كتب التاريخ في باب في عصر الخلافة .

للمستنصر رحمه الله تعالى ، رأيت منها « أخبار شعراء بالبيرة » في نحو عشرة أجزاء ومنها كتاب « الطوالع » في أنساب أهل الأندلس ، ومنها كتاب « التاريخ الكبير في أخبار أهل الأندلس » تأليف أبي مروان بن حيان نحو عشرة أسفار من أجل كتاب ألف في هذا المعنى . وهو في الحياة بعد لم يتجاوز الاكتحال .

وكتاب « المأثر العامرية » لحسين بن عاصم في سير ابن أبي عامرة وأخباره ، وكتاب الاقشطين محمد بن عاصم النحوي في « طبقات الكتاب بالأندلس » ، وكتاب سكن بن سعيد في ذلك ، وكتاب أحمد بن فرج في « المنتزين والقائمين بالأندلس وأخبارهم » وكتاب أخبار أطباء الأندلس لسليمان بن جلجل^(١) .

وأما الطب فكتب الوزير يحيى بن إسحاق^(٢) وهي كتب رفيعة حسان ، وكتب محمد بن الحسن المذحجي أستاذنا رحمه الله تعالى ، وهو المعروف بابن الكتاني^(٣) وهي كتب رفيعة حسان وكتاب التصرف لأبي القاسم خلف بن عياش الزهراوي^(٤) ، وقد أدركناه وشاهدناه ، ولئن قلنا أنه لم يؤلف في الطب أجمع منه ولا أحسن للقول والعمل في الطبائع لنصدقن ، وكتب ابن الهيثم في الخواص والسموم والعقاقير من أجل الكتب وانفعها .

وأما الفلسفة فإنني رأيت فيها رسائل مجموعة وعيونا مؤلفه لسعيد بن فتحون السرقسطي المعروف بالحمار دالة على تمكنه من هذه الصناعة ، وأما رسائل أستاذنا أبي عبدالله محمد بن الحسن المذحجي في ذلك فمشهورة متداولة وتامة الحسن فائقة الجودة عظيمة المنفعة^(٥) .

(١) انظر ترجمة هذا الطبيب في باب الطب في عصر الخلافة .

(٢) انظر ترجمته في باب الطب في عصر الخلافة .

(٣) انظر ترجمته في اب الطب في الخلافة وخاصة في عهد المنصور .

(٤) انظر ترجمته الوافية في باب الطب في عصر الخلافة .

(٥) انظر ذلك في باب الفلسفة في عصر الخلافة .

وأما العدد والهندسة فلم يقسم لنا في هذا العلم نفاذ ، ولا تحققنا به فلسنا نثق بأنفسنا في تمييز المحسن من المقصر في المؤلفين فيه من أهل بلدنا إلا أنني سمعت من أثق بعقله ودينه من أهل العلم ممن اتفق على رسوخه فيه يقول : أنه لم يؤلف في الأزياج مثل زيح مسلمة وزيج ابن السمع ، وهما من أهل بلدنا ، وكذلك كتاب المساحه المجهوله لأحمد بن نصر فيما تقدم إلى مثله في معناه^(١) .

وإنما ذكرنا التأليف المستحقة للذكر ، والتي تدخل تحت الأقسام السبعة التي لا يؤلف عاقل عالم إلا في أحدها ، وهي إما شيء لم يسبق إليه يخترعه ، أو شيء ناقص يتمه ، أو شيء مستغلق يشرحه ، أو شيء طويل يختصره دون أن يخل بشيء من معانيه أو شيء متفرق يجمعه ، أو شيء مختلط يرتبه ، أو شيء أخطأ فيه مؤلفه يصلحه وأما التواليف المقصره عن مراتب غيرها فلم نلتفت إلى ذكرها ، وهي عندنا من تأليف أهل بلدنا أكثر من أن نحيط بعلمها .

وأما علم الكلام فإن بلادنا وإن كانت لم تتجاذب فيها الخصوم ، ولا اختلفت فيها النحل ، فقل لذلك تصرفهم في هذا الباب ، فهي على كل حال غير عريه عنه ، وقد كان فيهم قوم يذهبون إلى الاعتزال ، نظار على أصوله ، ولهم فيه تواليف ، منهم خليل بن إسحاق ، ويحيى بن السمينه^(٢) ، والحاجب موسى ابن حدير وأخوه الوزير صاحب المظالم أحمد ، وكان داعية إلى الاعتزال لا يستتر بذلك ولنا على مذهبنا الذي تخيرناه^(٣) من مذاهب أصحاب الحديث كتاب في هذا المعنى ، وهو وإن كان صغير الجرم قليل عدد الورق يزيد على

(١) انظر الحديث عن مسلمة المجريطي وابن السمع في باب الرياضيات والفلك في عصر الخلافة

(٢) انظر الحديث عن ورد ذكره هنا في باب علم الكلام في الأندلس وموقف الأندلسيين منه .

(٣) انظر الحديث عن مذهب ابن حزم في باب الفقه في عصر الخلافة .

المائتين زيادة يسيرة فعظيم الفائدة لأننا أسقطنا فيه المشاغب كلها ، وأضربنا عن التطويل جملة . واقتصرنا على البراهين المنتخبة من المقدمات الصحاح الراجعة إلى شهادة الحس وبديهة العقل لها بالصحة ، ولنا فيما تحققنا به تأليف جملة . منها ما قد تم ، ومنها ما شارف التمام ، ومنها ما قد مضى منه صدر ويعين الله تعالى على باقيه ، لم نقصد به قصد مباهاة فنذكرها ، ولا أردنا السمعة فنسميها ، والمراد بها ربنا جل وجهه ، وهو ولي العون فيها ، والمليّ بالمجازاة عليها ، وما كان لله تعالى فسيبدو ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

وبلدنا هذا - على بعده من ينبوع العلم ، ونأيه من محلة العلماء - فقد ذكرنا من تأليف أهله ما إن طلب مثلها بفارس والأهواز وديار ربيعة واليمن والشام أعوز وجود ذلك ، على قرب المسافة في هذه البلاد من العراق التي هي دار هجرة الفهم وذويه ومراد المعارف وأربابها .

ونحن إذا ذكرنا أبا الأجر جعونه بن الصمة الكلابي في الشعر لم نباه به إلا جريرا والفرزدق ، لكونه في عصرهما ، ولو أنصف لاستشهد بشعره ، فهو جار على مذهب الأوائل ، لا على طريقة المحدثين ، وإذا سمينا بقي بن مخلد لم نسابق به إلا محمد بن إسماعيل البخاري ومسلم بن الحجاج النيسابوري وسليمان بن الأشعث السجستاني وأحمد بن شعيب النسائي ، وإذا ذكرنا قاسم بن محمد لم نباه به إلا القفال ومحمد بن عقيل الفريابي ، وهو شريكهما في صحبة المزني أبي إبراهيم والتلمذة له ، وإذا نعتنا عبدالله بن قاسم بن هلال ومنذر بن سعيد لم نجار بهما إلا أبا الحسن بن المفلس والخلل والديباجي ودويم بن أحمد ، وقد شاركهم عبدالله في أبي سليمان وصحبته ، وإذا أشرنا إلى محمد بن عمر بن لبابة وعمه محمد بن عيسى وفضل بن مسلمة لم نفاطح بهم إلا محمد بن عبدالله بن عبدالحكم ومحمد بن سحنون ومحمد بن

عبدوس ، وإذا صرحنا بذكر محمد بن يحيى الرباحي وأبي عبدالله محمد بن عاصم لم يقصرا عن أكابر أصحاب محمد بن يزيد المبرد .

ولو لم يكن لنا من فحول الشعراء إلا أحمد بن دراج القسطلي^(١) لما تأخر عن شأو بشار بن برد وحبيب والمتنبي ، فكيف ولنا معه جعفر بن عثمان الحاجب ، وأحمد بن عبدالله بن مروان وأغلب بن شعيب ، ومحمد بن شخيص ، وأحمد بن فرج ، وعبدالله بن سعيد المرادي ، وكل هؤلاء فحل يهاب جانبه ، وحصان ممسوح الغرة .

ولنا من البلغاء أحمد بن عبد الملك بن شهيد^(٢) صديقنا وصاحبنا ، وهو حي بعد لم يبلغ سن الاكتهال ، وله من التصرف في وجوه البلاغة وشعابها مقدار يكاد ينطق فيه بلسان مركب من لسانی عمرو وسهل ، ومحمد بن عبدالله ابن مسرة^(٣) في طريقه التي سلك فيها ، وإن كنا لا نرضى مذهبه ، في جماعة يكثر تعدادهم .

وقد انتهى ما اقتضاه خطاب الكاتب رحمه الله تعالى من البيان ، ولم نتزيد فيما فيه إلا ما دعت الضرورة إلى ذكره لتعلقه بجوابه ، والحمد لله الموفق لعلمه ، والهادي إلى الشريعة المزلفة منه والموصلة ، وصلى الله على محمد عبده ورسوله وآله وصحبه وسلم ، وشرف وكرم . انتهت الرسالة ،،

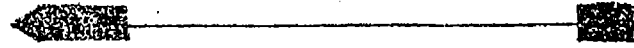
(١) انظر ترجمته في باب الشعر في عصر الخلافة .

(٢) انظر ترجمته في باب الأدب فيما يتعلق بالتأليف الأدبي وكذلك في الشعر في عصر الخلافة .

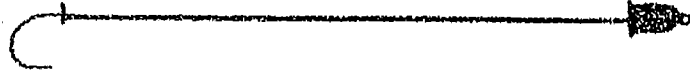
(٣) انظر الحديث عنه في باب الفلسفة في عصر الخلافة .

ملحق رقم (٢)

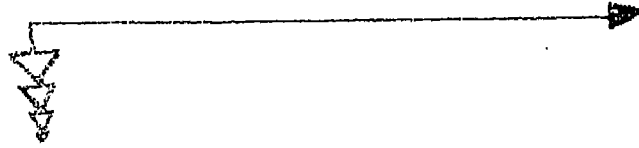
صورة لبعض آلات الجراحة التي استعملها الزهراوي في ممارسة
العمليات الجراحية نقلا عن كتابه المخطوط (التصريف لمن عجز عن التأليف)
ج ٧ . رسم الباحث ،،



أداة من أدوات الكي يكوي بها الرأس والجبهة (١).



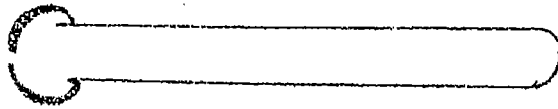
أداة من أدوات الكي تسمى المسمارية يكوي بها الرأس أيضا (٢).



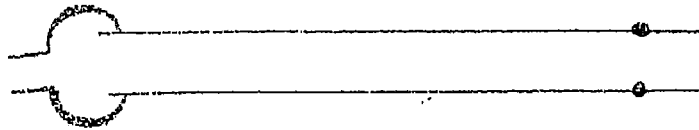
من أدوات الكي تسمى النقطة يكوي بها منطقة الأذن (٣).



أداة يكوي بها الناصور وهو ورم يصيب الوجه (٤).



قمع يستعمل في صب الرصاص المذاب على موضع الناصور لازالته (٥).



أداة الكي الخنازير. وهي مفتوحة الطرفين ليخرج الدخان من الطرف الآخر (٦).

(٢) ص ١٥

(٤) ص ٢٧

(٦) ص ٣٢

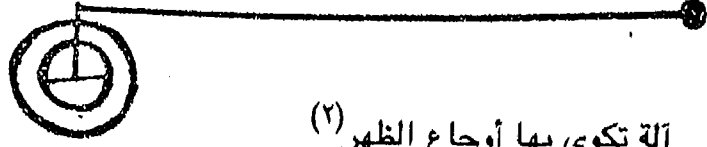
(١) ص ١١

(٣) ص ١٧

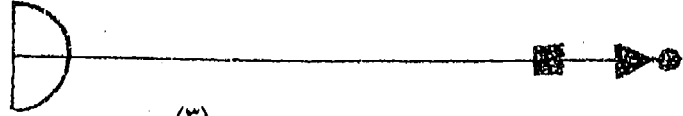
(٥) ص ٢٧



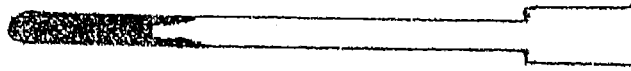
آلة تستعمل في كي المنطقة المحيطة بالكبد (١) .



آلة تكوى بها أوجاع الظهر (٢)



آلة تستعمل في كي مواضع الفتوق (٣) .



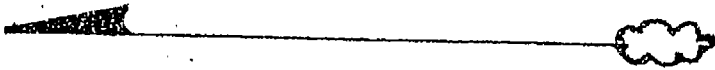
أداة تستعمل في جراحة إخراج الماء الذي يجتمع في رؤوس الصبيان (٤) .



تستعمل هذه الأداة في إخراج ما يسقط في الأذن من الأشياء الصغيرة (٥)



أداة تستعمل في جراحة الأجفان وإزالة ما يزيد في الجفن من زوائد لحمية (٦)

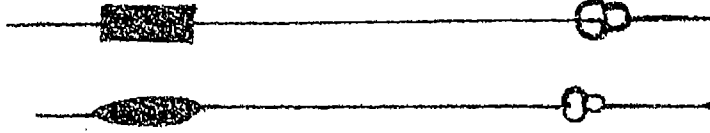


أداة تستعمل في عمليات جراحة العيون (٧) .

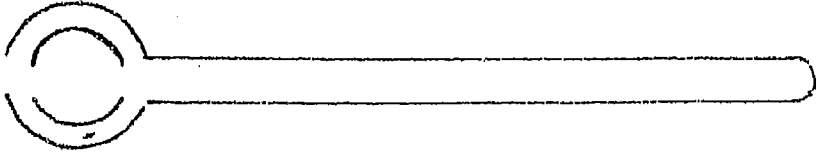
(١) ص ٣٨	(٢) ص ٤٩	(٣) ص ٥١	(٤) ص ٧٠ .
(٥) ص ٨٠	(٦) ص ٩٠	(٧) ص ٩٧ .	



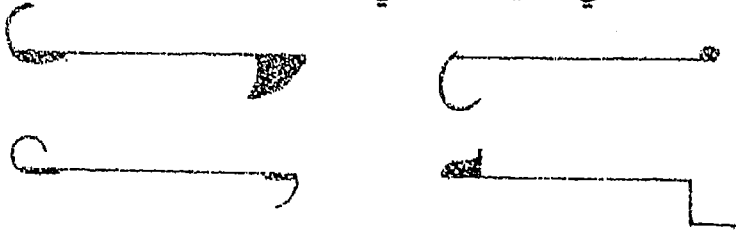
من أدوات جراحة العين^(١)



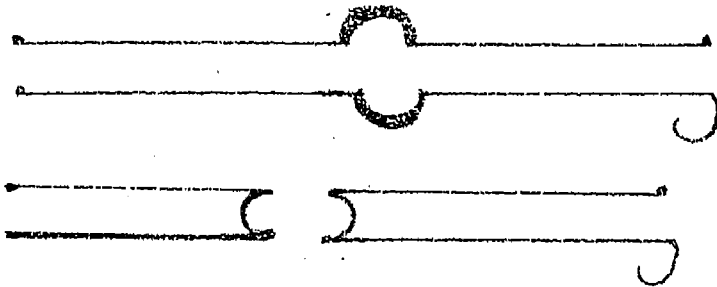
ألتان تستعملان في مص الماء من العين وتسمى الواحدة مقده^(٢)



أنبوبة تستعمل في تقطير الدواء في أنف المريض^(٣)

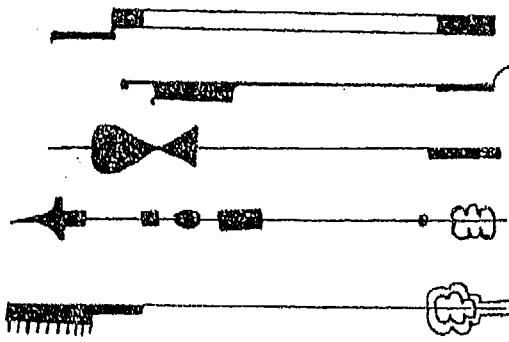


أدوات تستعمل في جراحة الاسنان وتنظيفها وتسمى الواحدة مجرد^(٤)

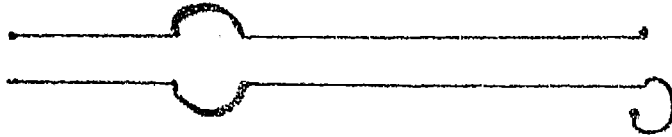


كلاليب تستخدم في جراحة الاسنان وخلعها^(٥)

(١) ص ٩٨ (٢) ص ١٠٨ (٣) ص ١١٠ (٤) ص ١١٤ (٥) ص ١١٧ .



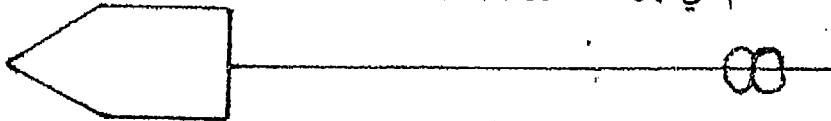
أدوات مختلفة الأشكال تستعمل في جراحة الأسنان وخلعها وتنظيفها (١)



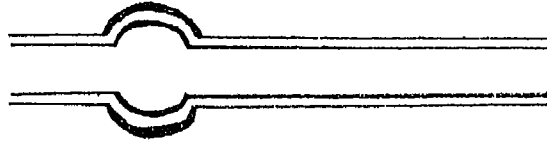
أداة تستعمل عند فحص فم المريض فيكبس بها اللسان إلى أسفل (٢)



آلة تستخدم في جراحة اللوز وإزالتها (٣)



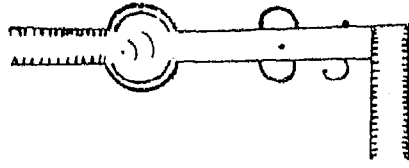
أداة تستعمل في علاج ورم اللهاة بوضع الدواء في طرفها الشبيه بالمعلقة (٤)



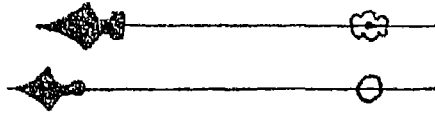
آلة تستخدم في علاج ورم اللهاة أيضا ويكون العلاج بواسطة البخار (٥) . الذي يمر من قدر به دواء مطبوخ لينفذ من الآلة المشار إليها ويكون طرفها الدائري في فم المريض حيث يتسرب البخار إلى اللهاة فيعمل على إزالتها .

(١) الأولى والثانية ص ١١٨ ، والثالثة ص ١١٩ ، والرابعة والخامسة ص ١٢٠ .

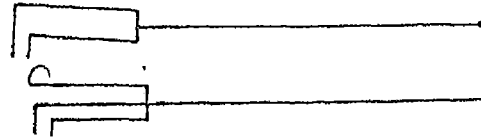
(٢) ص ١٢٤ . (٣) ص ١٢٥ . (٤) ص ١٢٨ . (٥) ص ١٢٩ .



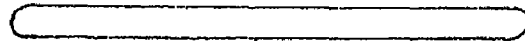
آلة جراحية تستخدم في إخراج ما يكون في الحلق من أشياء تسده ولطرفيها أسنان صغيرة بحيث تعلق بالشيء المراد وتثبت به (١) .



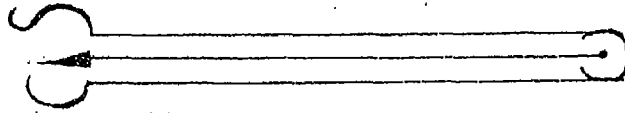
ألتان تستعملان في جراحة الأورام وشقها (٢) .
هذه الأدوات تستخدم في جراحة الأورام وشقها ويطلق على واحداه صنارة (٣)



صنارتان ذاتا مخاطف متعددة لأغراض الجراحة (٤) .



مشرط يستخدم في شق الجلد وسلخه وجراحة الأورام (٥) .



آلة تسمى مخدع وتستعمل في إزالة الأورام وسلخها (٦) .

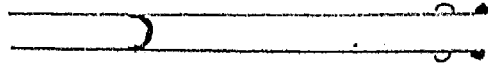


أداة تسمى مبضع وتستعمل في بَطِّ الأورام (٧) .

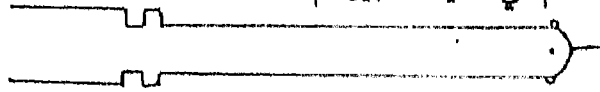
١٢٢ ص (١)	١٤٥ ص (٢)	١٤٧ ص (٣)	١٤٨ ص (٤)
١٤٨ ص (٥)	١٤٩ ص (٦)	١٥٠ ص (٧)	



ألتان تستخدمان في قطع نزف الدم ويسمى واحدهما محجم^(١) .



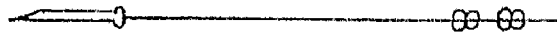
مقص يستخدم في عملية التطهير^(٢) .



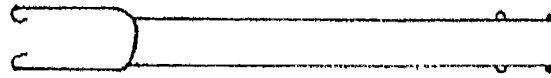
آلة تسمى المحقن ويحقن بها المثانة^(٣) .



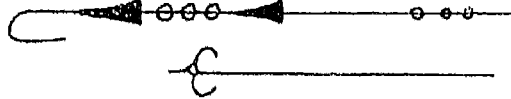
أداة تسمى مبضع وتستخدم في العمليات الجراحية المتعلقة بإخراج الحصى من المثانة^(٤) .



آلة تسمى مشعب وتستخدم أيضا في إخراج الحصى من المثانة^(٥) .



أداة تستخدم في تسهيل عملية الولادة وإخراج الجنين^(٦) .



ألتان تسمى الواحدة منهما مبضع وتستخدم في علاج الولادة العسيرة^(٧)

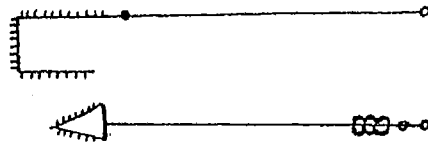


صورة محقن يستخدم في حقن المقعدة لمن يعتره أمراض باطنية^(٨) كالإسهال وغيره من

آلام البطن.

(١) ص ١٥٠ ، (٢) ص ١٦٨ ، (٣) ص ١٧١ ، (٤) ص ١٧٤ ، (٥) ص ١٧٦ .

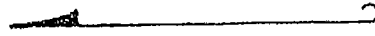
(٦) ص ٢٠٩ ، (٧) ص ٢٢٤ ، (٨) ص ٢٢٤ .



آلتان تستخدمان في قطع العظام وجراحتها (١) .



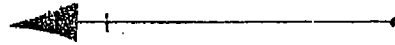
صورة مجرد تحدُّ به رؤوس المفاصل إذا فسدت (٢) .



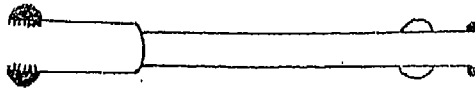
صورة آلة تقطع بها العظام وتسمى مقطع (٣)



آلتان تستعملان في جذب السهام لمن أصيب بها (٤)



آلة تسمى المثقب تستخدم في ثقب العظام (٥)



أداة تستعمل في العمليات الجراحية المتعلقة بالولادة العسيرة وتسمى هذه

الأداة مشداخ حيث يشدخ بها رأس الجنين (٦)

(١) ص ٢١٩ ، (٢) ص ٢٥٠ ، (٣) ص ٢٥١ ، (٤) ص ٢٧٨ ،

(٥) ص ٣٢٥ ، (٦) ص ٢١٠ .

قائمة المصادر والمراجع

أ- المخطوطات:

- الأشبيلي ، محمد بن إبراهيم (من علماء القرن السادس الهجري)
١ - ريحانة الألباب وريعان الشباب ، مخطوط بالمكتبة الملكية بالرباط رقم (١٤٠٦) .
- الخشني ، محمد بن الحارث بن أسد (ت ٣٦١) .
٢ - تاريخ علماء الأندلس ، مخطوط بالمكتبة الملكية بالرباط ، رقم ٦٩١٦
- الربيعي ، صاعد بن الحسن (ت تقريبا ٤١٠ هـ)
٣ - الفصوص ، مخطوط بمكتبة الخزنة العامة بالرباط . برقم ١٦٦٨ ،
الزهرابي ، خلف بن عباس (ت ٤٠٣ هـ)
٤ - التصريف لمن عجز عن التأليف ، الجزء الأخير ، مخطوط بالمكتبة الملكية بالرباط برقم ١٣٤ .
- ابن الصفار : أحمد بن عبدالله بن عمر (٤٢٦ هـ)
٥ - رسالة الإسطرلاب ، مخطوط بالمكتبة الملكية بالرباط برقم ٤٢٨٨ .
- القرطبي ، عريب بن سعد (من علماء القرن الرابع الهجري)
٦ - خلق الجنين وتدبير الحبالى والمولود ، مخطوط بمكتبة الاسكوريال برقم (٨٣٣ - ٢) في مجموع .
- المجريطي ، مسلمة بن أحمد (ت ٣٩٨ هـ)
٧ - رتبة الحكيم ، مخطوط بالمكتبة الملكية بالرباط برقم ١٨٤٢ .
٨ - غاية الحكيم ، مخطوط بالمكتبة الملكية بالرباط برقم ٣٩٨ .

ب- المصادر المطبوعة :

- ابن الأثير (ت ٦٥٨ هـ)

٩ - الحلة السيرة ، تحقيق وتعليق حسين مؤنس ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ط الأولى ، ١٩٦٣ م .

١٠ - التكملة لكتاب الصلة ، عنى بنشره وصححه ووقف على طبعه السيد عزت العطار الحسيني ، مطبعة السعادة بمصر ، ١٩٥٥ م .

- ابن الأثير : (ت ٦٣٠ هـ)

١١ - الكامل في التاريخ ، دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م .

- ابن الأزدى : (ت ٦١٣ هـ)

١٢ - بدائع البدائ ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ملتزم الطبع والنشر مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، سبتمبر ١٩٧٠ م .

- الأصفهاني : (ت ٥٩٧ هـ)

١٣ - خريدة القصر وجريدة العصر ، تحقيق عمر دسوقي وعلي عبدالعظيم ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، مصر .

- ابن أبي أصيبعة : (ت ٦٦٨ هـ)

١٤ - عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، شرح وتحقيق د . نزار رضا ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٦٥ م .

- ابن الأنباري : (ت ٥٧٧ هـ)

١٥ - نزهة الألباء في طبقات الأدباء ، تحقيق د . إبراهيم السامرائي ، ساعدت جامعة بغداد على نشره ، الناشر مكتبة بغداد ، ط الثانية ، ١٩٧٠ م .

– ابن بسام : (ت ٥٤٢ هـ)

١٦ – الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة . القسم الأول المجلد الأول والثاني . القاهرة . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر . المجلد الأول ١٣٥٨ هـ والمجلد الثاني ١٣٦١ هـ . القسم الرابع – المجلد الأول . القاهرة . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٦٤ هـ .

– ابن بشكوال : (ت ٥٧٨ هـ)

١٧ – الصلة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة . مطابع سجل العرب . القاهرة ، ١٩٦٦ م .

– البغدادى : (١٣٣٩ هـ)

١٨ – هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين . طبع بعناية وكالة المعارف استانبول ١٩٥٥ م . منشورات مكتبة المثنى . بيروت

– البكري : (ت ٤٨٧ هـ)

١٩ – جغرافية الأندلس وأوروبا من كتاب « المسالك والممالك » لأبي عبيد البكري ، تحقيق د . عبدالرحمن الحجي . ساعد المجمع العلمي العراقي على نشره . ط الأولى ١٣٨٧ هـ – ١٩٦٨ م ، دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع . بيروت .

٢٠ – التنبيه على أوهام أبي على القالي في أماليه . راجعه وصححه محمد عبدالجواد الأصمعي ، دار الكتاب العربي . بيروت . مطبعة دار الكتب المصرية .

– ابن تفرى بردى : (ت ٨٧٤ هـ)

٢١ – النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج ٤ ، ٥ طبعة مصورة عن مطبعة دار الكتب ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي . المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر مطابع كوستاتسوماس وشركاه . مصر . القاهرة .

– التهانوي : (ت في القرن الثاني عشر الهجري)

٢٢ – كشاف اصطلاحات الفنون ، تحقيق . د . لطفي عبد البديع ترجم
النصوص الفارسية د . عبد النعيم محمد حسنين .

راجعه الأستاذ أمين الخولي . وزارة الثقافة والإرشاد القومي .
المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر .
١٣٨٢ هـ – ١٩٦٣ م .

– الثعالبي : (ت ٤٢٩ هـ)

٢٣ – يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر . حققه وفصله وضبطه
وشرحه . محمد محي الدين عبد الحميد . مطبعة السعادة . القاهرة .
ط الثانية . ١٣٧٥ هـ – ١٩٥٥ م .

٢٤ – فقه اللغة . دار مكتبة الحياة . بيروت ، مطبعة مصطفى البابي
الحلبي . ط ١٣١٨ هـ .

– ابن الجزري : (ت ٨٣٣ هـ)

٢٥ – غاية النهاية في طبقات القراء . عني بنشره ج . برجستراسر .
طبع لأول مرة بنفقة الناشر ومكتبة الخانجي بمصر سنة
١٣٥١ هـ – ١٩٣٢ م .

– ابن جليل : (ت القرن الرابع)

٢٦ – طبقات الأطباء والحكماء . تحقيق فؤاد سيد أمين المخطوطات بدار
الكتب المصرية ، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية .
القاهرة . ١٩٥٥ م .

– ابن الجوزي : (ت ٥٩٧ هـ)

٢٧ – ذم الهوى . تحقيق مصطفى عبد الواحد . مراجعة محمد
الغزالي . دار الكتب الحديثة ، مطبعة العادة . ط الأولى ١٣٨١ هـ .

– حاجي خليفة : (ت ١٠٦٧ هـ)

٢٨ – كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون . تقديم السيد شهاب الدين النجفي . أعادت طبعه بالوفست .

– ابن حزم : (ت ٤٥٦ هـ)

٢٩ – جمهرة أنساب العرب . تحقيق وتعليق عبدالسلام هارون . دار المعارف بمصر . ط الثالثة ١٣٩١ هـ .

٣٠ – الفصل في الملل والأهواء والنحل – دار المعرفة الخاصة للطباعة والنشر ، بيروت . ط الثانية . ١٣٩٥ هـ – ١٩٧٥ م .

٣١ – طوق الحمامة في الألفة والألاف . حققه وصوبه وفهرس له . حسن كامل صيرفي . قدم له إبراهيم البياري . مطبعة الاستقامة بالقاهرة . طبع ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٤ م .

– الحميدي : (ت ٤٨٨ هـ)

٣٢ – جذوة المقتبس . الدار المصرية للتأليف والترجمة . مطابع سجل العرب . القاهرة . ١٩٦٦ م .

– الحميري : (جمعة سنة ٨٦٦ هـ)

٣٣ – صفة جزيرة الأندلس . منتخبه من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار . نشر وتصحيح وتعليق حواشيه ١ . ليفي بروفنسال . القاهرة . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر . ١٩٣٧ م .

– ابن حوقل : (من أهل القرن الرابع الهجري)

٣٤ – صورة الأرض . منشورات دار مكتبة الحياة . بيروت ، ١٩٧٩ م .

- ابن حيان : (٤٦٩ هـ)

٣٥ - المقتبس . تحقيق د . محمود علي مكي . الناشر دار الكتاب العربي
بيروت ١٣٩٢ هـ .

- المقتبس . تحقيق د / عبدالرحمن الحجي . نشر وتوزيع دار
الثقافة . مطبعة سميا . بيروت ، اغسطس ١٩٦٥ .

- المقتبس الجزء الخامس . نشره ب . فالميتا ، ف . كورنيطي ، م .
صبح . المعهد الإسباني العربي للثقافة - مدريد - ١٩٧٩ م . كلية
الآداب بالرباط . .

- الخشني : (ت ٣٦١ هـ)

٣٦ - قضاة قرطبة . الدر المصرية للتأليف والترجمة . مطابع سجل
العرب . ١٩٦٦ م .

- الخطيب : (ت ٤٦٣ هـ)

٣٧ - الرحلة في طلب الحديث . حققه وعلق عليه نور الدين عتر ، يطلب
من دار الكتب العلمية . بيروت ، ط الاولى ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م .

- ابن الخطيب : (ت ٧٧٦ هـ)

٣٨ - اعمال الاعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام . تحقيق
وتعليق . أ . ليفي بروفنسال . بيروت . دار المكشوف . ط الثانية
١٩٥٦ م .

٣٩ - الإحاطة في أخبار غرناطة . حققه ووضع مقدمته وحواشيه محمد
عبدالله عنان . ج ١ . ط الثانية ١٣٩٣ - ١٩٧٣ م ، ج ٢ ، ٣ ط
الأولى ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م . الناشر مكتبة الخانجي . القاهرة .
الشركة المصرية للطباعة والنشر . القاهرة .

– ابن خلدون : (ت ٨٠٨ هـ)

٤٠ – المقدمة . المكتبة التجارية الكبرى بمصر روجعت هذه الطبعة

وقوبلت على عدة نسخ بمعرفة لجنة من العلماء .

٤١ – العبر وديوان المبتدأ والخبر . دار العلم للملايين . لبنان . بيروت .

– ابن خلكان : (ت ٦٨١ هـ)

٤٢ – وفيات الأعيان . وأنباء أبناء الزمان حققه د . إحسان عباس . دار

صادر . بيروت ، ج ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م . ج ٥

١٣٩٧ هـ . المجلد السادس والسابع والثامن بدون تاريخ طبع .

– الخوارزمي : (ت ٣٨٧ هـ)

٤٣ – مفاتيح العلوم . تقديم وإعداد د . عبداللطيف محمد العبد . الناشر

دار النهضة العربية . القاهرة . المطبعة الكمالية .

– ابن خير : (ت ٥٧٥ هـ)

٤٤ – فهرسة مارواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة في ضروب العلم

وأنواع المعارف . منشورات دار الآفاق الجديدة . بيروت . ط

الثانية ١٣٩٩ – ١٩٧٩ م .

– ابن دراج : (ت ٤٢١ هـ)

٤٥ – ديوان ابن دراج القسطلي . حققه وعلق عليه وقدم له د . محمود

علي مكي . المكتب الإسلامي . ط الثانية ١٣٨٩ هـ .

– الذهبي : (ت ٧٤٨ هـ)

٤٦ – تذكرة الحفاظ . صحح عن النسخة القديمة المحفوظة في مكتبة

الحرم المكي تحت إعانة وزارة المعارف الهندية . دار إحياء التراث .

(بدون طبعة) .

– الزبيدي : (ت ٣٧٩ هـ)

٤٧ – طبقات النحويين واللغويين . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم .
دار المعارف بمصر .

– ابن زيد : (ت ٨٧٠ هـ)

٤٨ – محاسن المساعي في مناقب الإمام أبي عمرو الأوزاعي . قدم له
وعلق عليه الأمير شكيب أرسلان . منشورات دار مكتبة الحياة .
بيروت . مطبعة فؤاد بيان وشركاه ١٩٩٧ م .

– السبكي : (ت ٧٧١ هـ)

٤٩ – طبقات الشافعية الكبرى . تحقيق محمود محمد الطناحي ،
عبدالفتاح محمد الحلو . ط الأولى ١٣٨٤ هـ . مطبعة عيسى
الباببي الحلبي وشركاه .

– ابن سعيد : (ت ٦٨٥ هـ)

٥٠ – المغرب في حلي المغرب . تحقيق وتعليق د . شوقي ضيف . دار
المعارف بمصر . ط الثانية ١٩٦٤ م .

– السلفي : (ت ٥٧٦ هـ)

٥١ – أخبار تراجم أندلسية . مستخرجة من معجم السفر للسلفي .
أعدّها وحققها إحسان عباس . دار الثقافة لبنان . ط الثانية
١٣٩٩ هـ – ١٩٧٩ م .

– ابن سيده : (ت ٤٥٨ هـ)

٥٢ – شرح مشكل شعر المتنبي . تحقيق محمد رضوان الدايه . دار
المأمون للتراث . دمشق .

- السيوطي : (ت ٩١١ هـ)

٥٣ - تاريخ الخلفاء . تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد . مطبعة
الجمالية الجديدة القاهرة . ط الرابعة ، ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م .

٥٤ - بغية الوعاة . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . مطبعة عيسى
البابي الحلبي وشركاه ، ط الأولى ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م .

- الصفدي : (ت ٤٦٣ هـ)

٥٦ - الوافي بالوفيات . الطبعة الثانية باعثناء هلموت ريتز . المجلد الأول .
ط ١٣٨١ هـ - ١٩٦٢ م . المجلد الثاني والثالث والرابع والخامس .
ط الثانية باعثناء س . ريديرينغ . المجلد السادس باعثناء إحسان
عباس الثامن باعثناء محمد يوسف نجم . التاسع باعثناء يوسف
فان اس . دار النشر فرانزشتاينربفيسبادن .

- ابن عبد ربه : (ت ٣٢٨ هـ)

٥٧ - العقد الفريد . المطبعة الأزهرية المصرية . ط . الأولى ١٣٢١ هـ .

- ابن عذاري : (ت القرن السابع الهجري)

٥٨ - البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب . تحقيق ومراجعة ج .
س . كولان وليفي بروفنسال . دار الثقافة . بيروت .

- ابن العماد : (ت ١٠٨٩ هـ)

٥٩ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، منشورات دار الآفاق الجديدة .
بيروت .

- الغزالي : (ت ٥٠٥ هـ)

٦٠ - إحياء علوم الدين . دار المعرفة للطباعة والنشر . بيروت .

- ابن فرحون : (ت ٧٩٩ هـ)

٦١ - الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب . تحقيق وتعليق
د . محمد الأحمدى . دار التراث للطبع والنشر القاهرة . طبع
بمطبعة النصر .

- ابن الفرضي : (ت ٤٠٣ هـ)

٦٢ - تاريخ علماء الأندلس ، الدار المصرية للتأليف والترجمة . مطابع
سجل العرب ١٩٦٦ م . القاهرة .

- القالسي : (ت ٣٥٦ هـ) .

٦٣ - الأمالي . دار الكتاب العربي . بيروت لبنان . (بدون طبعة) .

- ابن قتيبة : (ت ٧٧٦ هـ) .

٦٤ - المعارف . تصحيح وتعليق ومراجعة محمد اسماعيل الصاوي .
دار إحياء التراث العربي . بيروت . ط الثانية ١٣٩٠ هـ .

- القزويني : (ت ١٢٨٣ م هـ) .

٦٥ - آثار البلاد وأخبار العباد . دار بيروت للطباعة والنشر بيروت
١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م .

- القفطي : (ت ٦٤٦ هـ) .

٦٦ - أخبار العلماء بأخبار الحكماء . يطلب من مكتبة المثنى بغداد .
ليبرز ١٩٠٣ م .

- القلقشندي : (ت ٨٢١ هـ) .

٦٧ - صبح الأعشى في صناعة الإنشاء . نسخة مصورة عن المطبعة
الأميرية . المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة
والنشر . القاهرة .

— ابن قنفذ :

٦٨ — الوفيات ، تحقيق عادل نويهض ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ط الثانية ، ١٩٧٨ م .

— القيسي : (ت ٤٣٧ هـ) .

٦٩ — الإبانة عن معاني القراءات ، حققه وقدم له محيي الدين رمضان ، دار المؤمن للتراث ، دمشق ، ط الأولى - ١٣٩٩ هـ .

— ابن الكتاني : (كان حيا في القرن الرابع الهجري) .

٧٠ — كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس ، تحقيق إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، مطبعة سيما .

— الكتبي : (ت ٧٦٤ هـ) .

٧١ — فوات الوفيات ، حققه وضبطه وعلق حواشيه محمد محيي الدين عبد الحميد ، مكتبة النهضة المصرية ، مطبعة السعادة بمصر ، ١٩٥١ م .

— ابن كثير : (ت ٧٧٤ هـ) .

٧٢ — البداية والنهاية ، مكتبة المعارف ، بيروت ، ط الأولى .

— المسعودي : (ت ٣٤٦ هـ)

٧٣ — مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط الرابعة ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م .

— المراكشي : (ت ٦٤٧ هـ)

٧٤ — المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق الأستاذ محمد العريان ، مطابع شركة الإعلانات الشرقية ، القاهرة - ١٣٨٣ هـ

- المقدسي : (ت ٣٨٠ هـ)
 ٧٥ - أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم . طبع بمدينة ليدن . بمطبعة
 بريل سنة ١٩٠٩ م .
- المقرئ : أحمد بن محمد التلمساني (ت ١٠٤١ هـ) .
 ٧٦ - نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب . تحقيق إحسان عباس .
 دار صادر . بيروت ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م .
- مؤلف مجهول :
 ٧٧ - أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب
 الواقعة بينهم طبع بمدينة مجريط . بمطبعة ريدنير ١٨٦٧ م .
- ابن نباته : (ت ٧٦٨ هـ)
 ٧٨ - سرح العيون وشرح رسالة ابن زيدون . ملتزم الطبع والنشر شركة
 مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر . ط الأولى
 ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٧ م .
- النباهي : (كان حيا سنة ٧٩٣ هـ)
 ٧٩ - تاريخ قضاة الأندلس . المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع .
 بيروت .
- النويري : (ت ٧٣٣ هـ)
 ٨٠ - نهاية الأرب في فنون العرب . نسخة مصورة عن دار الكتب
 المصرية . مطابع كوستاتسوماس وشركاه . القاهرة .
- ابن الوردي : (ت ٧٤٩ هـ)
 ٨١ - تاريخ ابن الوردي . إشراف وتحقيق أحمد رفعت البدرابي توزيع
 دار الباز للنشر والتوزيع مكة المكرمة . الناشر دار المعرفة .
 بيروت . ط الأولى ١٣٨٩ هـ .

- ياقوت : (ت ٦٢٦ هـ)

٨٢ - معجم البلدان . دار صادر . بيروت ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م .

٨٣ - معجم الأدباء . دار الفكر للطباعة والنشر . ط الثانية ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م .

ج-المراجع الحديثة :

- إبراهيم الشريقي :

١ - التاريخ الإسلامي خلال ١٤ قرنا . مطابع شركة المدينة للطباعة والنشر . ط الأولى ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م . جدة .

- إحسان عباس :

٢ - تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة . دار الثقافة . بيروت . ط الخامسة ١٩٧٨ م .

- أحمد أمين :

٣ - ظهر الإسلام . ج ٣ ، مكتبة النهضة المصرية القاهرة . ط الثالثة . ١٩٦٢ م .

- أحمد حسن الزيات :

٤ - تاريخ الأدب العربي . دار الثقافة . بيروت . ط . السادسة والعشرون .

- أحمد عطية الله :

٥ - القاموس الإسلامي . مكتبة النهضة المصرية . القاهرة . صدر في محرم ١٣٨٣ هـ .

- أحمد علي ملا :

٦ - أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية . دار الفكر (بدون طبعه) .

– أحمد مختار العبادي :

٧ – في تاريخ المغرب والأندلس . مؤسسة الثقافة الجامعية الإسكندرية .
(بدون طبعة) .

– أحمد هيكल :

٨ – الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة . دار المعارف .
القاهرة . ط السادسة ١٩٧١م .

– ارنولد وآخرون :

٩ – تراث الإسلام . عربيه وعلق حواشيه جرجيس فتح الله . دار الطليعة .
بيروت . ط الثانية ١٩٧٢م .

– اعتماد القصيري :

١٠ – فن التجليد عند المسلمين . الجمهورية العراقية وزارة الثقافة
والإعلام . المؤسسة العامة للآثار والتراث بغداد . ١٩٧٩م .

– اغناطيوس كراتشكوفسكي :

١١ – تاريخ الأدب الجغرافي العربي . ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم .
مراجعة ايفورييليايف . اختارته الإدارة الثقافية في جامعة الدول
العربية . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر . ١٩٦٣م .
القاهرة .

– أنخل جونثالث بالنثيا :

١٢ – تاريخ الفكر الأندلسي . ترجمة حسين مؤنس . ملتزم – الطبع
والنشر مكتبة النهضة المصرية . القاهرة . ١٩٥٥م .

– أنور الرفاعي :

١٣ – الإنسان العربي والحضارة ، دار الفكر .

– أنيس الفصولي :

١٤ – الدولة الأموية في قرطبة ، طبع بالمطبعة العصرية بغداد ١٩٢٦ م .

– جون . س . يادو وآخرون :

١٥ – عبقورية الحضارة العربية ينبوع النهضة ، ترجمة صلاح جلال

وآخرون ، مطبعة معهد ماساتشوستي ، كمبردج ، لندن ،

١٩٧٨ م .

– جبرائيل جبور :

١٦ – ابن عبدربه وعقده ، منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت ، ط

الثانية ١٩٧٩ م .

– جلال مظهر :

١٧ – حضارة الإسلام وأثرها في الترقى العالمى . الناشر مكتبة

الخاتجى ، القاهرة ، دار مصر للطباعة .

١٨ – علوم المسلمين أساس التقدم العلمى الحديث ، الهيئة المصرية

العامة للتأليف والنشر ، ١٩٧٠ م .

– ج . س . كولان :

١٩ – « الأندلس » كتب دائرة المعارف الإسلامية . لجنة ترجمة دائرة

المعارف الإسلامية . إبراهيم خورشيد ، عبدالحميد يونس ، حسن

عثمان . دار الكتاب اللبنانى ، بيروت . ط الأولى ١٩٨٠ م .

- حسن إبراهيم حسن :

٢٠ - تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي . مكتبة النهضة المصرية . مطبعة السنة المحمدية . القاهرة . ط الأولى ١٩٦٧ م .

- حنا الفاخوري :

٢١ - تاريخ الأدب العربي . المطبعة البولسية . بيروت . لبنان (بدون طبعة).

- خالد الصوفي :

٢٢ - تاريخ العرب في إسبانيا (جمهورية بني جهور) . دمشق ١٩٥٩ م .

- خير الدين الزركلي :

٢٣ - الأعلام . دار العلم للملايين . بيروت . ط الرابعة ١٩٧٩ م .

- روبرت بريفالت :

٢٤ - أثر الثقافة الإسلامية في تكوين الإنسانية . ترجمة أبو النصر الحسيني دار الكتب الحديثة ، شارع الجمهورية عابدين .

- روم لاندو :

٢٥ - الإسلام والعرب، ترجمة منير بعلبكي . دار العلم للملايين . بيروت . ط الأولى .

- زكريا هاشم زكريا :

٢٦ - فضل الحضارة الإسلامية العربية على العالم . راجع هذا الكتاب وقدم له وأشرف على إخراجه محمد أحمد محمد المهدي دار نهضة مصر للطبع والنشر . القاهرة .

– زيغريد هونكه :

٢٧ – شمس العرب تسطع على الغرب ، تعريب فاروق ببيضون ، وكمال
دسوقي . راجعه ووضع حواشيه فاروق عيسى الخوري .
منشورات المكتب التجاري . بيروت . الطبعة الثانية ١٩٦٩ م .

– سامي مكى العاني :

٢٨ – دراسات في الأدب الأندلسي . ساعدت الجامعة المستنصرية على
نشره ، ١٩٧٨ م .

– ستانلي لين بول :

٢٩ – قصة العرب في إسبانيا ، ترجمة علي الجارم . دار المعارف بمصر .
ط التاسعة .

– سعيد عبد الفتاح عاشور :

٣٠ – أوروبا العصور الوسطى . ج ١ ، مكتبة الأنجلو المصرية . القاهرة .
ط السادسة ١٩٧٥ م .

– السيد أحمد الهاشمي :

٣١ – جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب . أشرفت على تحقيقه
وتصحيحه لجنة من الجامعيين منشورات مؤسسة المعارف . بيروت .
– سيد أمير علي :

٣٢ – مختصر تاريخ العرب . ترجمة عفيف البعلبكي ، دار العلم للملايين .
بيروت . ط الثالثة ١٩٧٧ م .

– سيد حسين نصر :

٣٣ – العلوم في الإسلام . ترجمة مختار الجوهري . الدار العربية
للكتاب . ليبيا . تونس ١٣٩٨ هـ – ١٩٧٨ م .

- السيد عبدالعزيز سالم :
- ٣٤ - قرطبة حاضرة الخلافة ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر .
بيروت ، ١٩٧٢ م .
- شكيب ارسلان :
- ٣٥ - الطل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية ، منشورات دار
مكتبة الحياة . بيروت .
- شوقي ضيف :
- ٣٦ - المدارس النحوية . دار المعارف . ط الثالثة . القاهرة .
- عباس العقاد :
- ٣٧ - أثر العرب في الحضارة الأوروبية . دار المعارف . ط الثانية .
١٩٦٣ م .
- عبدالحليم منتصر :
- ٣٨ - تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه . دار المعارف بمصر .
مطبعة معهد دون بوسكو . الإسكندرية . ط الرابعة ١٩٧١ م
- عبدالرحمن بدوي :
- ٣٩ - دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي . مكتبة الأنجلو المصرية .
القاهرة . ط الثانية ١٩٦٧ م .
- عبدالرحمن الحجى :
- ٤٠ - التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة .
ساعدت جامعة بغداد علي نشره . دار العلم . دمشق . بيروت .
دار القلم ، الرياض الكويت . ط الأولى ١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م .

- عبد الرحمن حميدة :
- ٤١ - الألام الجغرافيين العرب، دار الفكر، ط الثانية ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م.
- عبدالكريم التواتي :
- ٤٢ - مأساة انهيار الوجود العربي في الأندلس . مكتبة الرشاد . الدار البيضاء . ط الاولى ١٩٦٧ م .
- عبداللطيف شرارة :
- ٤٣ - ابن حزم رائد الفكر العلمي . منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع . بيروت .
- عز الدين فراج :
- ٤٤ - الطب الإسلامي . دار الفكر العربي . القاهرة .
- عمر رضا كحاله :
- ٤٥ - مقدمات ومباحث في حضارة العرب والإسلام . مطبعة الحجاز بدمشق ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م .
- ٤٦ - العلوم البحتة في العصور الإسلامية . مطبعة الترقى دمشق ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م .
- عمر فروخ :
- ٤٧ - تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م .
- ٤٨ - عبقرية العرب في العلم والفلسفة . ط الثالثة . بيروت ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م .
- علي أدهم :
- ٤٩ - منصور الأندلس . سلسلة أعلام الإسلام . مطابع الهيئة العامة للكتاب . القاهرة . ١٩٧٤ م .

– غرسيه غومس :

٥٠ – الشعر الأندلسي . ترجمة حسين مؤنس . مكتبة النهضة المصرية .
ط . الثالثة ١٩٦٩ م . القاهرة .

– غوستاف لويون :

٥١ – حضارة العرب . ترجمة عادل زعيتر . طبع بمطبعة عيسى البابي
الطيب وشركاه .

– فرات فائق خطاب :

٥٢ – الكحالة عند العرب ، منشورات وزارة الإعلام، الجمهورية العراقية،
سلسلة المكتبة الفلكلورية ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ١٩٧٥ م .

– قدرى طوقان :

٥٣ – تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك ، دار الشروق . بيروت .
القاهرة .

٥٤ – الخالدون العرب ، دار القدس للطباعة والنشر والتوزيع . بيروت .

٥٥ – العلوم عند العرب ، دار مصر للطباعة . مطبوعات مكتبة مصر

– كارل بروكلمان :

٥٦ – تاريخ الأدب العربي . الأجزاء الثلاثة الأولى والسادس ترجمة
عبدالحليم النجار . والرابع والخامس ترجمة السيد يعقوب
ورمضان عبدالنواب . دار المعارف ، ج ١ ط الرابعة ، ج ٢ ط
الثالثة ج ٣ ط الرابعة ج ٤ ، ٥ ط الثانية ج ٦ طبعة ١٩٧٧ م .

– كرد علي :

٥٧ – الإسلام والحضارة العربية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .
القاهرة ١٩٦٨ م .

– كمال اليازجي واطوان غطاس :

٥٨ – أعلام الفلسفة العربية ، دار المكشوف ، مكتبة انطوان ولبنان .
بيروت . ط الثالثة ١٩٦٨ م .

– لطفي عبد البديع :

٥٩ – الإسلام في إسبانيا . مكتبة النهضة المصرية ، مطبعة لجنة التأليف
والترجمة والنشر . القاهرة . ط الاولى ١٩٥٨ م .

– لوثرود استوارد :

٦٠ – حاضر العالم الإسلامي . ترجمة عجاج نويهض ، علق عليه الأمير
شكيب ارسلان ، دار الفكر للطباعة والنشر . بيروت . القاهرة ، ط
الرابعة ١٣٩٤ هـ – ١٩٧٣ م .

– لويس يونغ :

٦١ – العرب وأوروبا ، ترجمة ميشيل ازرق . دار الطليعة للطباعة والنشر .
بيروت .

– ليفي بروفنسال :

٦٢ – حضارة العرب في الأندلس ، ترجمة ذوقان قرقوط منشورات دار
مكتبة الحياة . بيروت ، مطبعة النجوى . بيروت .

– محمد أبوزهرة :

٦٣ – ابن حزم . حياته وعصره . آراؤه وفقهه دار الفكر العربي
١٣٧٣ هـ – ١٩٥٤ م .

– محمد إسماعيل إبراهيم :

٦٤ – معجم الألفاظ والأعلام القرآنية . دار الفكر العربي القاهرة ، دار
الهناء للطباعة .

– محمد الحسيني عبدالعزيز :

٦٥ – الحياة العلمية في الدولة الإسلامية ، وكالة المطبوعات . الكويت
١٩٧٣ م .

– محمد عبدالله عنان :

٦٦ – تراجم إسلامية شرقية وأندلسية ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ،
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ط الثانية ١٣٩٠ هـ –
١٩٧٠ م .

٦٧ – دولة الإسلام في الأندلس ، عصر الخلافة والدولة العامرية ، مكتبة
الخانجي بالقاهرة . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
(ط الرابعة ١٣٨٩ هـ – ١٩٦٩ م) .

– محمد الصادق عفيفي :

٦٨ – تطور الفكر العلمي عند المسلمين ، مكتبة الخانجي . القاهرة دار
نافع للطباعة ١٩٧٦ م .

– محمد كرو :

٦٩ – ابن هانيء الأندلسي ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا . تونس . ط
الثانية ١٩٧٧ م .

– محمد ماهر حمادة :

٧٠ – المكتبات في الإسلام نشأتها وتطورها – ومصائرهما ، مؤسسة
الرسالة . بيروت . الطبعة الثانية ١٣٩٨ هـ – ١٩٧٨ م .

– محمد بن محمد مخلوف :

٧١ – شجرة النور الزكية في طبقات المالكية . طبعة جديدة – بالافست
عن الطبعة الأولى ١٣٤٩ هـ . المطبعة السلفية ومكتبتها على نفقة
دار الكتاب العربي . بيروت ، دار الكتاب العربي . بيروت .

- نقولا زباد : -

٧٢ - لمحات من تاريخ العرب ، دار الكتاب اللبناني . بيروت ١٩٦١ م .

- هـ . ج . ولز : -

٧٣ - معالم تاريخ الإنسانية . ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد . ط الثالثة
١٩٧٢ م .

74 - Anwar . G . Chejne : Muslim Spain . Its History and Culture .
The University of Minnesota Press, Minnea Polis, 1973 .

75 - Titus Burckhardt : Moorish Culture in Spain . Translated
by Alisa jaffa London, 1972 .

76 - Thomas Ballantine Irving : Falcon of Spain, Lahore, Pakistan,
1962 .

77 - Henri Lavoix : Catalogue des Monnaies Musulmanes : Es-
pagne Et Afrique, Paris, Imprimerie Nationale, 1896 .

د-الدوريات :

- بطرس البستاني :

١ - دائرة المعارف ، طبعة بيروت ١٨٧٦م .

- حسين مؤنس :

٢ - الجغرافية والجغرافيون في الاندلس . مجلة معهد الدراسات

الاسلامية بمدريد . العدد الثالث ، ج ٧ - ٨ . ١٩٥٥م .

- خالد ناجي :

٣ - الزهراوي وعمليات الغدة الدرقية . مجلة المؤرخ العربي العدد

السادس عشر ١٩٨١م . بغداد .

- خوليان ريميرا :

٤ - المكتبات وهواة الكتب في اسبانيا الاسلامية ، ترجمة جمال محمد

محرز ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، جامعة الدول العربية ،

القاهرة ، المجلد الخامس الجزء الاول ذو القعدة ١٣٧٨هـ -

١٩٥٩م .

- السيد عبدالعزيز سالم :

٥ - قرطبه في العصر الاسلامي ، مجلة المؤرخ العربي العدد الثالث عشر

بغداد .

- ضياء الدين الرئيس :

٦ - الكتب نقد وعرض (أحمد بن عمر بن انس العذري - نصوص عن

الاندلس من كتاب ترصيع الاخبار وتنويع الاثار والبستان في

غرائب البلدان ، والمسالك الى جميع الممالك . تحقيق عبدالعزيز

الاهواني) . مجلة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد . ج ١٣ ،

١٩٦٥م - ١٩٦٦م .

- عبدالله مبشر الطرازي :

٧ - علم الفلك والنجوم عند أهل الهند والسند واستفادة العرب منه ،
المجلة العربية ، السنة الرابعة ، العدد الحادي عشر .

- عبدالعزيز بن عبدالله :

٨ - الفكر العلمي في المغرب الأقصى وتواكبه مع المسار الحضاري
الحديث ، مجلة الدارة ، العدد الرابع ، السنة الرابعة محرم
١٣٩٩هـ - ١٩٧٨م .

- عبدالعزيز بن عبدالله :

٩ - الفكر العلمي ومنهجية البحث عند علماء المغرب ، مجلة الدارة ،
العدد الثالث ، السنة الخامسة ، ربيع الثاني ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م .

- عبدالجليل الراشد :

١٠ - التقدم الفكري عند أهل الأندلس حتى عصر المرابطين المؤرخ
العربي ، العدد الثالث عشر ، تصدرها الأمانة العامة لاتحاد
المؤرخين العرب ، بغداد .

- علي عبدالله الدفاع :

١١ - إمام علماء المغرب في العلوم التطبيقية المجريطي ، مجلة الفيصل ،
العدد ٥٦ صفر ١٤٠٢هـ .

١٢ - الزهراوي الرائد الأول للجراحة ، مجلة الفيصل ، العدد ٤٢ .

- عمر الدقاق :

١٣ - مغامرة العرب عبر بحر الظلمات ، مجلة الفيصل ، العدد ٤٦ ،
ربيع الثاني ١٤٠١هـ .

- محمد رضا عوضين :

١٤ صفحات من تراثنا الطبي . مجلة البحث العلمي والتراث الإسلامي .
مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي كلية الشريعة . مكة
المكرمة . العدد الأول ١٣٩٨ هـ .

- محمد عبدالعزيز عثمان :

١٥ - المرأة العربية في الأندلس . المؤرخ العربي . العدد الثالث عشر .
بغداد .

- مياس بياكروزا :

١٦ - نشر مخطوط ابن الصفر في كيفية العمل بالإسطرلاب - مجلة
معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، العدد الثالث ، ج ١ ،
١٩٥٥ م .

١٧ - المؤلفات الأولى عن الإسطرلاب في إسبانيا الإسلامية مجلد معهد
الدراسات الإسلامية في مدريد . العدد الثالث ، ج ١ ، ١٩٥٥ م .

- ي . أ . شاهين :

١٨ - أثر العرب في الطب . محاضرة القيت بجامعة اسكس ٤ نوفمبر
١٩٧١ م .

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٧	المقدمة
٣٣	تمهيد : الحياه العلمية في عصر الإمارة
	القسم الأول
٦٥	دراسة لأهم مظاهر النشاط العلمي
	في عصر الخلافة .
	الفصل الأول
٦٧	(اهتمام الخلفاء بالحركة العلمية)
٦٨	أ - الخليفة عبدالرحمن الناصر
٧٢	ب - الخليفة الحكم المستنصر
	ج - الخليفة هشام المؤيد (عصر الحاجب المنصور
٧٩	وابنه عبدالملك) .
	د - قيام الفتنة وسقوط الخلافة وأثر ذلك على الحركة
٨٦	العلمية .
	الفصل الثاني
٨٩	(الرحلات العلمية و أثرها في النهضة
	العلمية في الأندلس)
٩١	أ - ارتحال علماء الأندلس إلى المشرق في طلب العلم
٩٤	ب - نتائج الرحلات العلمية للأندلسيين إلى المشرق .
٩٩	ج - بروز الشخصية العلمية الأندلسية في عصر الخلافة .

تابع الفهرس

الصفحة	الموضوع
	الفصل الثالث
١١١	(الكتب والمكتبات في الأندلس)
١١٢	أ - عناية الاندلسيين بالكتب
١١٥	ب - اهتمام الاندلسيين بجمع الكتب واقتنائها ، وإنشاء المكتبات .
	ج - عناية الخلفاء بالتعليم
	القسم الثاني
١٥١	نشاط العلوم والآداب في عصر الخلافة .
	الفصل الأول
١٥٣	(العلوم الدينية)
١٥٤	أ - الفقه .
١٧٠	ب - الحديث .
١٨٣	ج - علوم القرآن .
١٩٦	د - علم الكلام وموقف الاندلسيين منه
	الفصل الثاني
٢٠١	(الآداب والنحو واللغة)
٢٠٣	أ - الآداب
٢٠٤	١ - النثر
٢٣٣	٢ - الشعر
٢٥٠	ب - علوم اللغة والنحو .

تابع الفهرس

الصفحة	الموضوع
	الفصل الثالث
	(العلوم الإنسانية)
٢٦٣	أ - التاريخ .
٢٦٤	ب - الجغرافيا والرحلات الجغرافية
٢٨٥	ج - الفلسفة .
٣٠٦	
	الفصل الرابع
	(العلوم التجريبية)
٣١٩	أ - الطب .
٣٢٢	ب - الرياضيات والفلك .
٣٥٦	ج - الكيمياء .
٣٧٥	د - الخاتمة .
٣٩٠	
٤٠٥	- ملحق رقم ١ (رسالة ابن حزم في فضل الأندلس)
	- ملحق رقم ٢ (صور لبعض آلات الجراحة التي
٤٢٤	استعملها الزهراوي في ممارسة العمليات الجراحية)
٤٣٣	- قائمة المصادر والمراجع .
٤٦١	- فهرس الرسالة .
٤٦٤	- خريطة للأندلس .

مطابع جامعة أمّ القُرى

ردمك ٨ - ١٤ - ٠٣ - ٩٩٦٠